

وَقَفَّيْنَا لِأَمْرِ غَازِيٍّ لِّلْفِكْرِ الْقُرْآنِيِّ

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT



العسكِرُ شَرِّ الْأَسْلَامِيَّةِ

منذ فجر الإسلام

تأليف

محمد عبد الواحد حجازي



محمد سلمان

مكتبة الأيمان
بالصورة ت ٢٢٥٧٨٨٢

لمزید من الكتب ورفہم جمع المجالس

زوروا

منتدى إقرأ الثقافي

الموقع: [/HTTP://IQRA.AHLAMONTADA.COM](http://iqra.ahlamontada.com)

فیسبوك:

[HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/IQRA.AHLAMONT
/ADA](https://www.facebook.com/iqra.ahlamontada)



العسكرة الإسلامية

منذ فجر الإسلام

محمد عبد الواحد حيازي

مكتبة الإيمان

حقوق الطبع محفوظة للناسِ

الطبعة الأولى

٢٠٠٩ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٢٠٠٩ / ١١٥٢٣

مكتبة الإيمان

المنصورة: ٠٥٠ / ٢٢٥٧٨٨٢



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

الإسلام عقيدة الحياة



الفصل الأول

الإسلام عقيدة الحياة

كلُّ يحيى الحياة على شاكلته .. وكلُّ يعمل على شاكلته ..

ووفق هذا اختلف كل إنسان عن الآخر فى فهمه للحياة وغايته منها وغايتها منه ، واختلف تبعاً لهذا منهاج عمله وطريقة أدائه وما ينشده من وراء المنهج والطريقة.

وكان لابد أن تحيا كل حضارة على شاكلتها وفقاً لشاكلة الحياة التى رأت أنها أنسب لها وأخلق بها ، فكان أن اختلفت الحضارات وتباينت فى خصائصها الظاهرة والباطنة حتى قيل : إن لكل حضارة روحاً تتميز بها عن غيرها من سائر الحضارات وإن وقع امتزاج بينها فى ظاهرة من ظواهر الاجتماع أو العمارة أو مسلك من مسالك الأخلاق أو شعيرة من شعائر العقيدة فضلاً عن امتزاج التجارة والصناعة .

فإذا كان كل يعالج الحياة ، ويعمل فى الحياة على شاكلته ، وإذا كان لكل حضارة حياتها المنفردة ، أو شاكلتها الروحية الخاصة بها ، فإنه لمن البدهة أن يختلف فكر المفكرين عن الحياة من حيث كيفية إحيائها والمثل الأخلاقية الواجب تمثلها عند الإحياء أو اصطناعها أساليب للإحياء .

فمن قائل : إن الدنيا عقل فيجب على الإنسان أن يحيها بالعقل ، والعقل وحده ، ومن قائل : إن الدنيا عاطفة فيجب على الإنسان أن يحيها ويحيها بالمبادئ الأخلاقية الأساسية التى يتحقق بها الواجب ، ومن قائل : إن الدنيا عدم والخير للإنسان أن يحيها بأنانية اللامبالاة فلا يحفل بما يجرى ولا بما يجب أن يجرى . فحسبه أن يحيى يومه بل لحظته ، بل دنياه هو .. ومن قائل : إن الحياة صراع بين وحوش ضارية ، فعلى المرء أن يكون وحشاً ضارياً بين غاية البشر

يُهاجم قبل أن يُهاجم ، ويُخاتل قبل أن يُخاتل ، ويغدر قبل أن يُغدر به ، فلا يرحم أحداً ؛ لأنه إن كبا ، فالويل له من عدوه ، يتكالب الجميع عليه ليتنزح منه ما وفر ودبر .

وأيا ما كانت أفكار المفكرين ومذاهبهم أو فلسفاتهم ، وأيا ما كانت نظريات علماء الاجتماع أو الأخلاق أو رجال السياسة وأصحاب السلطان المهيمنين على مصالح العباد والمسيطرين على مصائرهم والموجهين لهم ، أيًا ما كانت أفكار هؤلاء جميعاً ، فإننا لن نظفر بمنهاج كامل متكامل للحياة فى أسسه ومبادئه ، وبهدى من روحه يحيا الناس الحياة وهم آمنون لا يزعجهم حاضر ، ولا يقلقهم غد ، وهم آمنون من الحيرة واليأس والقنوط ، بل هم فى رخاء من العيش وثناء فى الفكر وإخلاق إلى الأمن والأمان .

نعم ، لن نظفر بمنهاج كامل متكامل للحياة بين تلك الأفكار والمذاهب . . على تطاول وتنوع التاريخ الحضارى للبشرية - نطمئن إليه أو يطمئن الناس إليه اطمئناناً كاملاً .

ألا إنه الإسلام .

ولقد يقال : إن هذا لون من ألوان التعصب لعقيدة الإسلام . . وللتعصب أنانيته واحترابه .

ولكل عقيدة متعصبوها الذين يقولون مثل هذا القول فيحسبون ، بل يعتقدون أن عقيدتهم هى عقيدة الحياة ، وأن ما عداها انجراف وفساد ، أو أن ما عداها تخريف وتجديف .

ولذلك فإننا درءاً لذلك الاتهام وما يدور حوله ، فإننا نعرض منهاج الإسلام فى الحياة ، فى أسسه وقواعده الأصلية من حيث ماهية الحياة والغاية منها ، والسبيل أو السبل فى تحقيقها كما أراد بارئها جل شأنه .

وأول هذه القواعد هى « الأمانة » : وذلك هو التقدير الأعلى والتقويم الأكرم

للوجود الإنساني وللوجود الكوني بعامة ؛ فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

فالأمانة هنا هي الأمانة الوجودية للإنسان أو أمانة الوجود الإنساني ذاته ، فكأن الإنسان قد فرض على نفسه أن يحمل أمانة وجوده الذاتى وأمانة الوجود الإنساني مسئولاً مسئولية إيجابية كاملة عن الأمانة التى قبل حملها ، فهو إذ يحقق فى ذاته الصفات الإنسانية فإنه يكون مسئولاً عن كل عمل يكلف به أو يتعرض له سواء ، أكان عظيم القيمة كبيراً يقع فى دائرة التأثير ، أم كان ضئيل القيمة لا يتجاوز تأثيره إلى غيره من الدوات أو غيره من الناس .

وكذلك يرتفع القرآن الكريم بالذات الإنسانية إلى التكريم الذى لا تكريم فوقه ، وبالوجود الإنساني الذى يتمثل فى البناء الحضارى إلى المقام المتسامى الذى لا تسامى فوقه ، وإذا كانت الأمانة هي أمانة الوجود الذاتى والوجود الإنساني فإنها توجب العمل الذى يحققها تحقيقاً إنسانياً ، أى تحقيقاً حضارياً ، وتلك هي المخاطرة الإنسانية الوجودية التى عبرت عنها الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، ولا تتحقق الأمانة بجانبها الجزئى والكلى إلا بالعمل ، وتلك هي القاعدة الثانية فقال سبحانه : ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسِرَّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتْرُدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وإذا قبل الإنسان حمل الأمانة الوجودية الكونية فقد صار مكلفاً بضرورة العمل لتحقيقها فى ظواهرها وبنياتها ، ولذلك جاء الأمر بالعمل فى كونه فريضة واجبة لا محيد عن تحقيقها فقال سبحانه : ﴿ اْعْمَلُوا ﴾ .. فوجب العمل هنا واجب كونى شمولى بكل معانى ودلالات العمق والشمول ، فالعمل أياً كان نوعه ودرجته ومكانته ، يراه الله ، ويراه رسول الله ﷺ ويراه المؤمنون ، وتلك هي الدرجات الثلاث لكونية العمل الحضارى ، فمعنى أن الله سبحانه يرى العمل ، أنه جل شأنه يراه فى تحقيقه لأمانة الوجود التى حملها الإنسان ، وذلك

من حيث العمل بما قرره شريعته من طرائق للبناء والإعمار أو للإصلاح والتقويم، وكذلك يراه رسول الله ﷺ ، أو قائد الأمة ، وكذلك يراه المؤمنون أو المجتمع ممثلاً في قياداته أو أصحاب الرأي فيه .

والرؤية هنا تكون من حيث حسن العمل وكفاءته وضرورته ، وكذلك من حيث آثاره القريبة والبعيدة لا لتوكيد كونه العمل ، أو كونه الأمانة الوجودية فحسب ، ولكن أيضاً لتمحيص العمل في ذات الوقت ، لتجعل الإنسان ينظر فيما يصنع ؛ ليتأكد إن كان محققاً لوجوده ووجود أمته ، وليتأكد إن كان فيه خير له ولأمته ؛ وليتأكد إن كان قد أقام عمله على شريعة من أمر الله أم لا ، ثم إنها (أى الرؤية) تستنهضه ، ليعمل لا ليتوكل أو يتكاسل ، أو يقف موقف اللامبالاة من العمل وما يفرض من تبعات ، ولهذا فقد جاءت عبارة : ﴿ وَسُتْرُدُونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وكأنها النذير الذى يذكر ويحذر فيرتد الإنسان إلى ذاته ليحاسبها محاسبة ذاتية قبل أن يحاسبها ﴿ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ . ولهذا جاءت الفاصلة : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لتجعل من الأمانة الوجودية للإنسان مسئولية كونه يحاسب الإنسان على النهوض بها كما يحاسب على كيفية أدائها .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة شمولية فى معناها ودلالاتها يخاطب بها الفرد والجماعة والأمة والإنسانية كلها ، إلا أن القرآن الكريم قد خص الفرد ذكراً كان أم أنثى بواجب العمل وإحسانه ، وهنا يأتى المعنى والدلالة فيقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣] ، فأحسان القول والعمل الصالح والإسلام إلى الله هى مقومات تحقيق الأمانة ، أو أن يكون العمل صالحاً لصاحبه وصالحاً لغيره ، ولن يكون حسن القول والعمل كاملاً بغير الإسلام ، ذلك ؛ لأن الإسلام إلى الله وشريعته بحسن القول يصلح العمل وتستقيم حياة المجتمع والأمة .

ثم يأتى التخصيص مبيناً لكل من الذكر والأنثى ضرورة العمل الصالح القائم على الإيمان فيقول سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [النحل: ٩٧] فلا تفرقة بين الذكر والأُنثى في جزاء العمل طالما كان عملاً صالحاً ، ونجد الآية الكريمة تقرر لصلاحيّة العمل مصدرًا واحدًا أو قاعدة واحدة يجب أن يقوم عليه ويصدر منه ، هذا المصدر الواحد هو الإيمان : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فحين يكون الإيمان هو مصدر العمل وقاعدته ، فإن الإسلام إلى شريعة الله والقيام بما أمر يكون تلقائيًا وعن حب هو اليقين الذي لا يخالجه شك ولا يهزه ارتياب . وهذا ما يجعل صاحبه يفوز بجزاء عمله في الحياة الدنيا مغانم وفيرة من الخير والرضوان مما يفضى إلى الإحساس برخاء العيش وطيبه .

والقاعدة الثالثة : أن الحياة ابتلاء وجهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] فإذا كانت الأرض قد ازدانت بكل ما عليها وكانت هي موطن حياة الإنسان ، وكانت حياة الإنسان قد فطرت على حب الشهوات التي زينت فيها وزينت لها فإنه أمر طبيعي أن تكون حياة الوجود الإنساني في موقف التجربة التي لا تنتهي أو موقف الابتلاء الدائم ، فحين تقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا ﴾ فإن معنى هذا أن قد هيئت للإنسان حياة الإغراء بالزينة والجمال بالنزوات والشهوات ؛ ومعنى هذا أيضًا أن الإغراء لن ينقضى إلا بانقضاء بواعثه في جسد الإنسان . . ثم تأتي كلمة ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ لتجسد طبيعة حياة الإنسان وطبيعة وجوده ، فهو أبداً في مشقة وجودية مع ذاته ومع غيره ، مع حياته ومع الحياة ، وهو أبداً على تجربة جديدة أو اختبار جديد لأن فطرته أبداً على استشراق الجديد لا يفرغ لها تطلع ولا يموت لها دافع .

وليس قصارى الابتلاء إغراء فقط ينحو فيه المرء بضميره وخلقه وسلوكه ، وليس قصارى الابتلاء محنة يجتازها المرء بغير أن يفقد إيمانه بالله ، ولكن الابتلاء هنا شمولي يضم كافة النوازع الفطرية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية التي يتطلع إليها الإنسان ويرجوها ، وذلك كله من أجل تحقيق ظاهرة حضارية بالعلم

والعمل؛ ولذلك جاء قوله سبحانه: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليؤكد أن الابتلاء هو ابتلاء العمل الذي تزكو به الحياة وتتحقق به إمكانات الفطرة الإنسانية في ظواهر حضارية.

فالعالم في موقف ابتلاء، والسياسي في موقف ابتلاء، والقائد العسكري في موقف ابتلاء، والطبيب في موقف ابتلاء، وكذلك الزارع والصانع والتاجر والموظف في موقف ابتلاء، بل إن كلا من الزوج والزوجة في موقف ابتلاء.

وموقف الابتلاء بعامة ذو ثلاث درجات متكاملة:

- ١ - نظرة تقويمية للماضي .
- ٢ - نظرة تقويمية للحاضر .
- ٣ - نظرة تقويمية للمستقبل يبنى على إثرها تحقيق الإمكانية أو تحقيق الهدف المرغوب .

والابتلاء في جوهره وروحه هو ابتلاء الإيمان، وابتلاء الإيمان هو أساس كافة أنواع الابتلاء، فهو باعثها ومحركها ومصحح مساراتها إذا انحرف بها صاحبها انحرف الإفساد والإضلال أو انحراف عدم الاهتداء إلى قصد السبيل، فابتلاء الإيمان هو التجربة الوجودية الكبرى التي كتب على الإنسان معاناتها، ولقد قال سبحانه مبيناً للناس حتمية هذه التجربة وضرورتها: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] فليس يكفي أن يؤمن الإنسان بالله، وليس يكفي أن يؤمن الإنسان بكتبه ورسوله واليوم الآخر، وليس يكفي أن يؤمن بشريعته، وأنها وحدها قوام الوجود وعليها وحدها يقوم البناء الاجتماعي قوياً متماسكاً ومستقراً آمناً، ليس يكفي ذلك كله ما لم يُفْتَنِ الإنسان بفتنة العمل، وفتنة العمل فتنة وجودية حضارية، فالمسيرة الحضارية للأمة والجماعة تؤدي تلقائياً إلى متطلبات جديدة وغايات جديدة تصيب الإنسان بدرجات من الحيرة والقلق أو بحالات من

التشتت الذهني والضياع الإيماني لتناقضها مع ما تأخذ به من أسباب الحياة وأسباب المعيشة سواء أكانت مذاهب فكرية أو اجتماعية أو نظماً اقتصادية ، فموقف الفتنة هنا هو من صميم التدافع الحضارى للحياة الإنسانية ، ورغم هذا فإن الناس سرعان ما ينسونه ويغفلون عنه ، بل يصبح بينهم وبينه حجاب صفيق من اللامبالاة أو عدم الاكتراث .

إذن فالآية الكريمة إذ تذكر وتنذر فإنها فى نفس الوقت تهتك ستار الوهم الذى يخدر الوعى والشعور فضلاً عن الأبصار ، فإذا الإنسان مخدوع فيما يعمل أو يصنع ، مخدوع حتى فيما يقول ، فكانت هذه العبارة الكريمة : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ هى التى ترد الناس بل الإنسان إلى ذاته ووعيه فإذا هو حصيفاً ومدبر يقظ ، ثم يأتى ختام الآية الكريمة بما هو من صميم الإيمان ، فالإيمان ليس مجرد قول يقال ، ولكنه حياة ، والحياة هى المعاناة الروحية من أجل البناء والإعجاز ، فتقول الآية : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ .

وما كانت قضية الإيمان قضية معاصرة ، وما كانت قضية الأمانة الكونية بالتالى قضية معاصرة سواء أكانت معاصرة لعالم الماضى أو لعوالم الماضى ، أو كانت معاصرة لعالم الحاضر أو لعوالم الحاضر ، لكنها قضية الأزلى والأبد ، فمن يوم أن خلق الإنسان وهو بالعقيدة مفتون وللعقيدة مفتون ، ومن يوم أن خلق الإنسان وهو بالحضارة مهموم وللحضارة مهموم ؛ لأن عقيدة الإيمان بالله سبحانه هى قضية الحضارة أو فريضة الاستخلاف التى كلف الله خليفته بها . وهى التى جاء فيها : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ولذلك فقد جاءت الآية الكريمة لتبين أن قضية الإيمان هى القضية الكونية أو القضية الحضارية الكبرى ، فليس إنسان الحاضر هو وحده المطالب بها ، وليس إنسان المستقبل هو وحده المطالب بها ، بل إنه إنسان الأبد ، إن أجيز هذا التعبير ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣] .

ومن هنا كانت القاعدة الرابعة : هي احترام الحياة ..

ذلك أن وجود الإنسان على الأرض أو فى الأرض ليس لهوا ولا عبثاً ، فهو ما خلق إلا ليكون خليفة ربه ، فيؤدى بأمانة الإيمان ما هو مكلف به من إنشاء وإعمار وتجديد وإصلاح ، فالهزل أو الصغار مما لا يعرفه الإيمان بالله ؛ ولذلك كان قول القائلين : إن الدنيا ملهاة كبرى أو مهزلة كبرى هو من الصغار الذى لا يليق بعقل الإنسان فضلاً عن وجدانه ورهافة شعوره ، بل إنه لدليل على ضحالة الفكر وغيثائه فيما يتصور ويفكر ، ومن هنا جاء النذير والتحذير من أن يحيا الناس دنياهم غير حافلين بأسس الإيمان أو قواعد الإيمان ؛ أو غير حافلين بشريعة الإيمان شريعة الحق والعدل ، وذلك أن العبث هنا هو التقويض الذى لا مفر منه للبناء الاجتماعى أخلاقياً وسلوكياً إذ تضيع الحقوق بين مجون العبث وأنانية الحقد الذى يدفع صاحبه إلى الزيف عن الحق وربما أضرّ التابعين له إن كان من ذوى الوجاهة أو المكانة الاجتماعى المحسوبة إلى اقتفائه فيما يفعل إن لم يكن أنكى مما يفعل ، فالعبث لا يتفق إذن والوجود الحضارى للإنسان لأنه من أعدى أعداء البناء الاجتماعى والبناء النفسى للفرد ، ولذلك حذر القرآن الكريم من العبث وأنذر العابثين بالعذاب الشديد ؛ فقال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

وعندما ننظر إلى آثار العبث وفاعليته فى البيئـة الاجتماعىة من هذه الجوانب فإننا نجده مدمراً لها كل التدمير ، ومفسداً لها كل الإفساد ، وذلك هو الضلال البعيد الذى حذرت منه الآية الكريمة ، ونلاحظ هنا أن التحذير جاء فى صورة تبعث فى الوجدان الإحساس بخطورة العبث ورهيب مآله ؛ فقالت الآية الكريمة : ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، وإنه لمن العصى بل من المعنت حقاً أن تحاول إقناع العابث بالأقدار والمقدرات بضلال سعيه وفساد عمله ، كما أنه من العصى ، بل من المعنت الذى لا نظفر من ورائه بثمره صالحة أن تحاول أن تبصر الباغى على الغير بأن فى عمله ظلماً ، أو تحاول أن تصرف القاسى عن قسوته ، وإن كان

لا يضار بها سواه ، فإن جادلته وقرعته بالحجة المقنعة فقد يقرعك هو بحجة داحضة وفق منطقته الذى يفهم به الدنيا ، وربما لم يجد حجة أو حيلة يواجهك بها مواجهة الإقناع ، أو حتى مواجهة المرءاة والمخادعة ، فلا تجد منه سوى الإصرار على فعله أو سلوكه ، وهكذا بدون تبرير أو تعليل ، وذلك هو ذروة العبث أو ذروة الفساد واختلال الموازين الإنسانية فى الحقوق وشعائر الحياة .

وهذا هو ما أوضحه القرآن الكريم على أنه صفة أو آفة من الآفات الحضارية التى تفسد الذات الإنسانية فتفسد ما تصنعه أو تقيمه ؛ فقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦] ، فالحق تبارك وتعالى ينبه الناس فيقول لهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ هل ننبئكم عن من هم أولئك الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم الخسران المبين؟ هل نخبركم عن من هم لا يجنون من وراء أعمالهم سوى البوار والضياع والحسرة ، أو أولئك الذين لا يجنون من وراء كدهم سوى الندم والعدم ؟ من هم إذن ؟ هنا تقول الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وتصور هذه الآية الكريمة الطبيعة النفسية والسلوكية التى تحدد فعل وحركة من فقدوا الإيمان بالله أو من أفرغ عملهم من روح الإيمان بالله ، فهى تصفهم بأنهم : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ ﴾ وكلمة « ضَلَّ » فى حد ذاتها توحى بمعنى الزيغ عن الهدى ، بل إنها بجرسها الموسيقى تعطى الإحساس بكثافة طريق الانحراف أو طريق الفساد، وبأنه مدلهم الرموز والإشارات يجوس صاحبه خلاله وهو على غير هدى أو بينة ، ثم تنضم كلمة : « سَعِيَهُمْ » لتصور أو لتجسد طبيعة حركة الضلال ؛ فلم تقل الآية : « ضل عملهم » لأن العمل محدد بشكل وغاية معلومة ، ولم تقل « ضل فعلهم » لأن الفعل هو ذات الحركة وذات الحركة لا تدل على الغاية



المقصودة ، أما كلمة « سعيهم » فهي تؤكد الدأب في الحركة والإصرار عليها ودوامها ، كما تؤكد أنها حركة إلى الأمام بقصد الحصول على شيء أو اغتنامه أو تحقيق وجوده هذا .

أما الجانب الثاني فهو أن لفظة : « سعيهم » تجسد تنوع الأعمال وتباينها بتباين أعمال الضالين وتنوع وظائفهم وحرفهم ، وكذلك تنوع أهدافهم وغاياتهم ، ثم تأتي عبارة « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » لتبين أن الحياة الدنيا وهي محط الوجود الإنساني والعمل الحضاري ، هي المجال والهدف معاً ، أو هي الوسيلة والغاية . فإن سلم العمل في الحياة أو سلم اصطناع الوسيلة في إقامة بناء حضاري حسبما أرادت الشريعة القرآنية أو حسبما توجب مبادئ الإيمان بالله ، فإن الحياة الدنيا أو الحضارة تكون صالحة للتعبير عن الإنسان الذي استخلف على أمانة الأرض ، ومن ثم فهو يحقق إمكانات أو شهوات فطرته وهو ضمين بأن تجربته أو تجاربه ستثمر ما يحيى الحضارة ويزيدها تأصلاً ، ويزيد إنسانها تفتحاً لتحقيق ما يراوده من أحلام حضارية - إن أجز هذا التعبير - في شتى مجالات الحياة الإنسانية .

ولكن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا لا يحسبون أنفسهم على ضلال ، ولا يحسبون أنهم منحرفون عن سواء الحق ، ولا يحسبون أنهم أساؤوا إلى المجتمع أو أساؤوا إلى الإنسان . فحذقوا الأول وأفسدوا الثاني على نفسه ، إنهم كما تقول الآية الكريمة : ﴿ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وتلك هي الطامة الكبرى التي ما إن تحيق بمجتمع أو أمة أو طائفة حتى يتفشى الفساد بأنواعه ودرجاته في البنية الاجتماعية ولا يكون بينها من علاقات تربطها وتضبط قواعد تعاملها سوى الأناية والانتهازية والإكراه ، وليس هناك ما هو أشقى من مجتمع ولا أتعس من أمة أصيبت بأولئك : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ولنستقرئ تاريخ الحضارات أو تاريخ المجتمعات في تطور أحوالها من القوة إلى الضعف ، ومن الازدهار إلى الفساد والانهايار فسوف نجد أن علة الضعف أو الانهايار هو سيادة أخلاق الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم

يحسنون صنعا ، وأظهر ظواهر هذا الفساد هو أن يشيع بين طبقات الناس وهم خطير ، فحواه أن كل ما يعمله أى منهم هو الصواب الذى لا ينفذ إليه الباطل وهو الصدق الذى لا تداخله فرية ، وهو الحق الذى لا يدحضه تفنيد ، فالحاكم قد يكون طاغية دكتاتوراً يقيد بأجهزته التنفيذية الظاهرة والسرية حرية الشعب ، بل حرية الفرد فى فكره وعمله وأمله ولقمة عيشه وموطن إقامته ، يقيده بقيود تقتل فيه إرادة العمل وإرادة الحياة ثم يقول له : إنه إنما يريد له الديمقراطية الصحيحة ، والحرية الصحيحة ، وطريقة التفكير الصحيح وأسلوب العمل الصحيح ، وفئات القائمين بالنشاطات الصناعية يزيفون ويغشون فيما يصنعون من أدوات وآلات ، أو متوجات غذائية ويخدعون أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم فيتوهمون أنهم يجاهدون فى سبيل إقامة صرح صناعى قوى عتيد ، والواقع أنهم يفسدون الأخلاق الاجتماعية قبل أن يفسدوا الصناعة والمصنوعات ، ونقول مثل هذا عن الأعمال التجارية التى يتربص أصحابها بالأزمات والاختناقات التى تمر بها الأمة فإذا هم يخفون السلع ولا يظهرونها إلا على إيقاع من الجشع الخبيث ، فيأخذون ثمن السلعة من جيوب الناس أضعافاً طائنين ظن السوء أنهم أحسنوا الصنع حين أرغموا الناس على أن يتاعوا منهم وفق ما اشتتهت أنفسهم . وأيضاً نقول مثل ذلك عن المشتغلين بالفنون كالغناء والتمثيل . . فليس يعينهم جودة ما يقدمون من حيث التسامى الذى يحيى النفوس ويبعث فيها حب الحياة فضلاً عن سائر الأحياء، ويبعث فيها الأمل ، وإن ضاقت بها سبل العيش وعانى أصحابها من مضانكها الكثير ، لا يعينهم ذلك كله إنما يعينهم مخاطبة الغرائز أولاً ، ثم مخاطبة الفئات السطحية التى يشوقها معابثات هذا الدعة والفراغ وذلك بغية استنزاف أحوال العابثين المخدوعين ونقيس على سائر سبل المعاش التى ينال منها الناس أرزاقهم ومناعم حياتهم .

ونلاحظ فى هذه العبارة الكريمة : ﴿ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا ﴾ أنها قالت : « يَحْسِبُونَ » ولم تقل : « يتوهمون » أو « يظنون » لأن الوهم ضلال غير متعين

فى ذهن صاحبه ، و«الظن» وهم محدود بما هو « مظنون » ولكنه غير بين القسمات واضح المعالم . أما كلمة « يحسبون » فهى وإن كانت تعنى الوهم إلا أنه وهم محسوب ، والمحسوب مدروس من حيث قيمته ومميزاته وآثاره . وهذا هو ما يتطلبه السعى فى الحياة فليس السعى خبطاً على غير هدى ولكنه طريق مرسوم لهدف مقصود . . ثم تأتى عبارة : « أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » لتصور الطبيعة النفسية لذلك الحسبان أو الوعى المحسوب . فالحسبان هنا دليل على يقين ثابت أو عقيدة راسخة بأن صاحبه قد أحسن الصنع وأجاد ، وهذا اليقين الثابت أو العقيدة الراسخة تعطيه ما يشبه المناعة من الاعتقاد بأية حجة أو بينة ، أو مناعة من التبصر الذاتى أو تقبل المراجعة الغيرية .

وما هو أكثر من هذا أنهم كفروا بآيات الله سبحانه فى السموات والأرض وفى أنفسهم ، بل كفروا بآياته فى التشريع والتنظيم .

مثل هؤلاء يمثلون الكارثة المحققة لإنسان الحضارة وحضارة الإنسان وذلك هو

الكفران غاية الكفران . . فماذا يكون جزاؤهم ؟

يقول سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًّا ﴾ [الكهف: ١٠٥] .

لقد فقدوا وزنهم الذى كان لهم فى حياتهم ، وإنه للوزن الذى بلغوه بالبغى والتزيف والتمويه المحكم المصنوع ، وأصبحوا فى موقف الذلة والمهانة ، يعبر عن هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًّا ﴾ ومعنى لا يُقَامُ لهم وزن - أى وزن - أنهم فقدوا كل قيمة ومنزلة ، وفقدوا كل حرمة وشفاعة ، وكيف لا يفقدون وهم قد أفسدوا الحياة الدنيا بفساد إيمانهم وخانوا الأمانة التى كُفِّفُوا بتحقيقها فى الأرض ، أمانة الوجود الحضارى الذى يعمر الدنيا ، ويزيد إنسانها إيماناً وقوة ورسوخاً فى العلم ؟ وهنا تأتى الآية الكريمة التى تمثل الاتهام والجزاء ؛ فالإتهام هو العبث بالحياة الدنيا ، والهزء بآيات الله ، أما الجزاء فهو جهنم يصلونها وذلك هو الجزاء العادل فقال سبحانه : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا

وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا ﴿١٠٦﴾ [الكهف: ١٠٦].

والقاعدة الخامسة : أن الانكفاء المادى أو الإيمان المادى بالحياة أو بالوجود الدنيوى وحده مدمر للحياة والإنسان والحضارة ، وإذا كانت هذه القاعدة على مثل هذه الدرجة من الخطورة فقد يقول بعض الجدليين المباحكين بالخلاف ، إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يحق الله أولئك الماديين الكافرين فيخلص الدنيا من شرورهم وآثامهم ؟ ونقول : إن رحمة الله شملت كل ما فى الوجود وأنه سبحانه أسبغ نعمته على كل ما هو كائن ، وهذا من قدرة الله ورحمته بمخلوقاته . .

الأمر الثانى : أنه لو حدث لحرم التطور الحضارى مما يقدمه أولئك الماديون الذين لا يعرفون سوى الجانب المادى من أفكار وعلوم وصناعات ، الأمر الثالث : أن محق الماديين يفقد المسيرة الحضارية عملية التدافع الحيوى للتطور الذى يقتضى التمايز بين الأطوار والاعتبار بها اعتبار عملى ينفع فى العمليات الإبداعية للظواهر الحضارية ، واعتبار فكرى ينفع فى إعادة التقويم وتصحيح موازين الفكر والعلم والأخلاق .

فلننظر إذن فيما قرره الآيات البيّنات من القرآن الكريم ، يقول سبحانه : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ [هود: ١٥] ، [١٦] . فالآية الأولى تبدأ بهذه العبارة : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » فها هنا تصوير كامل شامل للحياة الدنيا بما عليها من ضروريات وكماليات . . تجسيد للحياة فى نضارتها وما يرجوه الإنسان منها وما يشتهيها فيها ، إنها لم تقل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » فحسب ولكنها أضافت إليها « زينة » هذه الحياة وجميل متعتها وبهجتها ، وبذلك جمعت طرفى الشهوة البشرية أو الرغبة البشرية فى الحياة ، فمن الناس من يريد الحياة الدنيا فحسب يسعى إلى أن ينال فيها ما يقيم أوده ويستر عورته ولا يجعله يمد عينيه أو يديه إلى ما بأيدي الناس ، يكفيه من خيرها القليل الذى يشبعه ويشبع أولاده ويستره ويستر أولاده ، ولكن من الناس -

وهم الكثرة - من لا يريدون من الحياة مجرد الكفاف أو ما يغنيهم فلا يحوجهم إلى شظف العيش أو يدنيهم منه ، ولكنهم يريدون من الحياة زيتها التي تعشقها نفوسهم وتتطلع إليها نواظرهم ، وما هي زينة الحياة ؟ أليست هي الشهوة إلى النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحراث ، ؟ أليست الزينة تفاعراً بالمناصب والمراتب والجاه والسلطان ، أو تفاعراً بالحظوة لدى أصحاب الجاه والسلطان ؟ أليست الزينة تفاعراً بالأعمال والأموال ؟ ومن ثم يكون في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ تكامل وشمول لكل مظاهر النعمة والبهجة في الحياة الدنيا .

ثم يأتي العطاء الإلهي في استجابة الإنسان حتى وإن لم يؤمن بغير الدنيا وحدها ، فيقول سبحانه : ﴿ نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴾ فهذا هو ذا العطاء الإلهي في فيضه الجزيل الرحيم فتقول الآية : ﴿ نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ أي : أن شهواتهم تجد تحقيقها كاملاً غير منقوص وأعمالهم التي يسعون بها لتحقيق أطماعهم في الأموال لا تفشل ولا يصيبها الخسران ، بل إنهم ليحققون بها أرباحاً من وراء أرباح ، ويحققون بها شهرة تتجاوز بها الآفاق ويحققون بها سيطرة على الدولة ونظامها وسياستها فيوجهونها بما يخدم مصالحهم ويرسخ قواعدهم ، ثم تأتي الآية الكريمة بما هو ذروة النعمة السابغة والعدل الكامل فتقول : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴾ أي أن جهودهم التي يبذلونها ويتكفون الكثير من النصب والتعب وربما أرغمتهم على أن يضحوا من أجلها بالأرواح فضلاً عن الأموال ، جهودهم تلك لا تضيع هباء ، وتضحياتهم تلك لا تذهب سدى ، ولكن الله سبحانه وهو العادل الرحيم ، لا يظلمهم فيما بذلوا وقدموا ، ولا يخذلهم فيما طمعوا واشتهوا .

وهنا تأتي الآية الثانية بالجزاء العادل الذي يستحقه أولئك الذين لم يؤمنوا إلا بالدنيا ، بشهواتها وزينتها ، ولم يعملوا إلا للدنيا ، لشهواتهم وزينتهم ، فيقول سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ وذلك المصير الرعيب قد يثير

التساؤل : وكمَ وقد وفّاهم الله أعمالهم ولم يبخسهم شيئاً ؟ وقد مكنهم الله مما رغبوا فيه واشتهوه ؟

ونقول : إن شهوات الفطرة حين تسيطر على الفكر والشعور بحيث تحجب الإنسان عن التطلع إلى ما وراءها وتدبر عواقبها ، فإن الإنسان وهو بطبيعته حقوق أنانى وظلوم كنود ، فإنه لا يشبع تلك الشهوات ، ولا يسعى إلى تحقيقها إلا بمنطقه هو منطق الأنانية ، منطق الحقد ، منطق الظلم ، منطق الاشتهااء الذى لا يرتوى ، ومن شأن هذا كله أنه يجعل من يرد الحياة الدنيا وزينتها أو الذى سيطرت عليه شهوات الفطرة ، على فكره وشعوره ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يفرض العمل بشريعة الله ، وشريعته سبحانه عدل ومساواة وإحقاق للحقوق ، ونظام إنسانى متكامل بين طبقات المجتمع ، لا يضيع فيه حق الفرد ، ولا تضيع فيه الجماعة ، فتستلب منها حقوقها إضعافاً لها وإذلالاً لصالح الفئة المتسلطة أو الفئة الباغية .

ولا تجدن امرأةً سيطرت عليه شهوات الدنيا ، وأصبح مهموماً بها دون غيرها فلا يؤمن بسواها محرراً له وباعثاً وخالقاً إلا وكانت علاقاته الإنسانية بالناس ، كيفما كانت ، قائمة على أساس المنفعة المادية ، فأولياؤه وأصفياءه هم الذين ينفعونه مادياً ، فالمودة معهم هى المودة النفعية ، والمجاملة معهم هى المجاملة النفعية ، والإيثار بينهم هو الإيثار النفعى . وهكذا..

ولذلك فإن الوشائج المادية حين يغلظ وجودها بين الناس على هذه الصورة ، وتتغلغل حتى تنفذ إلى بواطن اللاشعور ، فإنها سرعان ما تنقلب إلى عداوة ضارية إذا ما رثت أسبابها أو انقضت بواعثها ودواعيها ، وبين المودة النفعية والعداوة النفعية يقوم صراع أعمى بين الناس يؤذن بتخريب البناء الاجتماعى وتقويضه ، إذن فلماذا لا يستحق أولئك الذين هاموا بالدنيا وكأنها معبودهم الذى لا يؤمنون بسواه جزاء النار فى الآخرة؟ ولكن فما بال ما صنعوا وأنشؤوا؟ وما بال ما عملوا وحققوا من إنشاءات عمرانية صناعية أو تجارية؟ هل يثابون عليها؟

وكيف يثابون وقد كانوا علة شيوخ البغى والتناحر وخراب الضمائر وضياع الحقوق بين الناس؟ هنا تقول الآية الكريمة: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ أى لا يثابون عليه، ولكن إذا كان ذلك هو مصيرهم وجزاؤهم عند ربهم، فما هى القيمة الحضارية لما أنشؤوه من ظواهر مادية، بل من ظواهر أخلاقية ونظم اجتماعية، ألم يكن ما أقاموه وشيدوه، وما أعمروه وأغنوه بالحركة الحضارية قائماً على الغدر والغيلة والتدليس؟ وقائماً على التزييف والمخادعة والافتئات على الحقوق حتى ضاعت فيها مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد والمستقبل الحضارى للأمة؟ إذن فهو الباطل وإن تعاضم بعمائره وبنائاته ودعاواه، وهنا تأتى الآية الكريمة بما هو فصل الخطاب أو بالحكم الذى ينزل عليه منطق التاريخ الإنسانى ويؤكد؛ فيقول سبحانه: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

وما كان الاكتفاء المادى أو الإيمان المادى بالحياة مجرد هوى طارئ يصاب به الفرد، أو يصاب به المجتمع فى بعض أطواره أو مراحلها لا يلبث أن يرتد عنه بعد فترة فيعود إلى رشده الفكرى والأخلاقى والدينى، ولكنه إيمان وعقيدة ونظام له أسسه وأركانه وله أهدافه وغاياته أو هو مصير ووجود ولذلك، فإن الصراع يكون دوماً محتدماً حتى وإن لم نسمع له جلب أو ضوضاء ودخل هذا الصراع ما يغشى العيون ويزكم الأنف بين أصحاب العقيدة المادية فى الحياة أولئك الذين يسعون إلى السيطرة على أرزاق الناس وأقواتهم - وبين الذين يسعون إلى إشاعة روح الحق والعدل على أساس من شريعة الله التى لا تبخس الناس أشياءهم، إذن فالصراع هنا صراع إيمانى فى لبابه: الأولون يؤمنون بالدنيا أو بالوجود المادى ولا شىء سواه، والآخرين يؤمنون بشريعة الله، شريعة الحق والعدل والرحمة، يقول سبحانه: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وبناء الفعل: «زَيْنَ» للمجهول يجسد إيمان الكافرين بأن الحياة الدنيا لها فى نفوسهم منزلة العقيدة العميقة الراسخة فى سواء أفئدتهم .

وإذا كانت مزينة على هذه الصورة ، وبهذا العمق فلا ريب فى أن ينشب صراع بينهم وبين المؤمنين بالله الآخذين بشريعة الحياة ، وهنا يلجأ الكافرون أو المؤمنون بالنفع المادى إلى سلاح السخرية فتقول الآية الكريمة : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والسخرية ليس معناها الهزاء اللفظى فحسب ، ولكنها تعنى العداء المرير أو الحقد المرير الكامن فى النفوس ، فترجم عنه بالسخرية العملية إن أجزى هذا التعبير ، ونقصد بالسخرية العملية أن النفعيين بإدلالهم المادى على النفوس الخائفة يستطيعون أن يكونوا سبباً فى بوار تجارتهم أو انهيار صناعاتهم أو سد أبواب العمل ومجالات الارتزاق فى وجوههم ، إذن فليست الغاية من سلاح السخرية الهزاء بالقيمة والخط من القدر بكلمات قوارص فحسب ، ولكنها - أى السخرية - سلاح من أسلحة التدمير النفسى بإشاعة اليأس والقنوط فى نفوس المؤمنين بالله عليهم يفرون من الميدان أو ينضون تحت لواء كفرهم عبيداً مسخرين .

إن الآية الكريمة تستنهض إرادة الإيمان فى نفوس المؤمنين بالله تثبيتاً لهم على الحق الذى شرعه الله لعباده ، وإن كابدوا فى صراعهم مع الأنانية المادية مكابدة لا يجنون منها سوى مضاعفة الشظف والحرمان ، ولهذا كان جزاؤهم هو الرضوان الأوفى ، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ثم تأتى خاتمة الآية الكريمة : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لتقرر حقيقة التدافع بين طرفى النزاع الاجتماعى : المؤمنين والماديين الذين آمنوا بأن المنفعة المادية هى القيمة الكلية المطلقة فى الوجود فهى لديهم الإله المعبود ، وتقول الآية للماديين : إن أموالكم ومشروعاتكم الاقتصادية ومكانتكم الاجتماعية بين الناس ، ذلك كله من فضل الله لا من فضلكم أنتم ، ولا بمهارتكم أنتم ، ولا بتدبيركم أنتم . . فإذا كنتم تحسبون أن فيض الثراء الذى يدخل إليكم إنما مرده ومرجعه إلى عبقريتكم فأنتم واهمون ، إنما هو من فيض الله الذى يرزق بغير حساب وأنتم ممن يشاء ، أما المؤمنون المجاهدون الذين يسعون إلى إحقاق الحق وإشاعة العدل على شريعة من أمر الله

ويلقون في جهادهم حرباً ضارية من الكافرين فإن الله سبحانه يشبثهم باليقين الثابت بأن الرزق هو رزق الله فلا يبتسون بما ناله الكافرون من مكانة أو هيمنة ، بل إن عليهم أن يصبروا ويصابروا . . فهذه هي مشيئة الله الذي يفتنهم بما يثبت أقدامهم ويمحص إيمانهم ويدنيهم من النصر على عدوهم ، فغداً يكون الرزق رزقهم والدولة دولتهم : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وإن في قوله سبحانه : ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، و ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لما يبعث في نفوس المؤمنين لا الثقة واليقين فحسب ، ولكن أيضا الاستبشار بالغد والتفاؤل بالمستقبل وللاستبشار والتفاؤل دروهما الفعال في إشاعة الاطمئنان الذي يعين على التدبير وإحكام خطة العمل ، وفرق بين استبشار وتفاؤل المؤمنين المتقين ، واستبشار وتفاؤل الجاحدين المنكرين لكل حق ، الطامعين في كل حق . . فالأولون يستبشرون بالحياة ويتفائلون ويعملون بهذه الروح ، ولذلك فإن جهادهم قد يطول ويطول ، ومع ذلك فإنهم لا يسأمون أو يضحجون لأنهم يعملون لتصحيح موازين الحياة بالنسبة لهم ولغيرهم ، ومجتمعهم وتصحيح موازين المجتمع وقيمه تقتضى المصابرة والمطاوله لأنهم - أى المؤمنين - إنما يصارعون قيماً ويصارعون نفوساً أو يصارعون نظاماً اجتماعياً له تقاليد وقواعده الأخلاقية والسلوكية التي تتطلب الكثير من المدافعة والمقاومة ، وكَمَ لا تتطلب ذلك كله وكل عمل يحققه الجاحدون النفعيون إنما يصدر عن اقتناع به وثقة فيه وطموح إليه ؟ قال سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] .

وإذا كان الجاحدون المنكرون لكل حق والطامعون في كل حق مستبشرين متفائلين بحياتهم ، فإن بغيهم الانتهازي يتميز بالسرعة في تحقيق مآربهم والحصول على ما استحلته أعينهم ، وكأنهم يخشون الظلام الذي يعيشون فيه ، أو كأنما هم على رقبة وارتياب من الذين يسلبونهم أو يستغلونهم وإن كانوا ضعافاً لا يستطيعون مواجهة بغيهم ، وفي ذلك يأتي القرآن الكريم بتجسيد حيوى لطبيعة

طمع النفعيين الباغين على الحق وعلى سلامة البناء الاجتماعى وكذلك جزاؤهم على عملهم ، كما جسد سعى المؤمنين فى إقامة البناء الاجتماعى على منهاج من شريعة الله ؛ فيقول سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٠] . فحين تقول الآية الكريمة : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾

فإن هذا لا يعنى أن المرء يريد ما مجرد إرادة فحسب ، ولكنه يريد ما فى عجلة وسرعة ، وكأن لديه إحساساً بأنه يأخذ ما ليس من حقه ، فهو من ثم يريد أن يختلسه اختلاساً قبل أن يراه أصحابه . وهنا تأتى الاستجابة الإلهية لترد لهفة المتعجل المتسرع فتقول الآية : ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا ﴾ ثم تقرر الآية أن كل شىء بأمر المشيئة الإلهية فليس كل من يتعجل الحياة الدنيا ولا يؤمن بسواها تُعَجَّلَ له فيؤوض النعمة زواجر الخير ، فسبحانه يعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء ، وذلك بقدر وتقدير حكيم. ولما كان علم من يريد العاجلة أو من يريد الحياة الدنيا ولا يؤمن بسواها يؤدى إلى هدم البناء الاجتماعى وتقويضه وإذلال إنسانه واستعباده وتمزيق كيانه الوجودى نفساً وفكراً ، فإن الجزاء الرهيب الرعب يكون كفاء ذلك الإفساد المبين فيقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨] .

ثم تقول الآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فإرادة الآخرة تعنى إرادة نعيم الله وحسن جزائه وفيض رحمته حين يقوم الحساب . . وإرادة الآخرة تعنى الإيمان بالله رباً واحداً لا شريك له ، وإرادة الآخرة تعنى أن شهوات الدنيا لا تسيطر على الإنسان فتضله عن الإيمان بالله ، وهنا تبين الآية الكريمة أن إرادة الآخرة ليست مجرد انفعال ، ولكنها حركة وفعل محقق لإمكانات لم تكن موجودة وكان يجب إيجادها ؛ فتقول الآية : ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ فكأن للآخرة سعياً خاصاً بها وحدها ؟ نعم ، إنه تحقيق شريعة الله فى العمل والإصلاح والتقويم ، وتحقيق شريعة الله فى البناء والإعمار ، وتحقيق

شريعة الله في معاقبة من أفسد وخرب ، وتحقيق شريعة الله في رد اعتبار التكريم والتقدير للإنسان . .

فهذا هو سعى الآخرة ، ولا سعى سواه .

ثم تأتي عبارة : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لتحدد نوعية السعى إلى الآخرة : فقد يسعى إنسان سعى الآخرة ، وقد يسعى نظام اجتماعي سعى الآخرة فيحقق إنجازات ومشروعات عمرانية واقتصادية وثقافية ولكنه لا يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن ثم فإن سعيه يكون منقوصاً معيماً وخطراً في نفس الوقت ، وربما كانت مخاطره أشع من مخاطر الذين أرادوا العاجلة صراحة ، ولهذا جاء شرط الإيمان لا ضابطاً للسعى ولا مقوماً له فحسب ، ولكن أيضاً لتصحيح المقومات النفسية والأخلاقية للفرد حتى يكون عمله عبودية خالصة لله وحده ، وفي هذا تأتي الفاصلة بما هو التكريم الإلهي للإنسان ؛ فتقول الآية الكريمة : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] ثم تقرر الآية التالية حقيقة من حقائق العقيدة وصفة من صفات الحق سبحانه وهي أن الوجود نعمة من الله ، وأن رزق الإنسان من فيض بره وعطائه الذي أفاء به على بنى آدم ، لا فرق بينهم حسب ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم في الحياة ؛ فقال سبحانه : ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] إذن فحسب المنهج القرآني لا يستوى الذين يريدون العاجلة وهم أولئك الذين احتواهم التفكير النفعي الأناني ، والذين يسعون إلى العمل بشريعة الله ؛ وصدق الحق سبحانه حيث يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢] .

القاعدة السادسة : أن فريضة الإيمان بالله تفرض على الإنسان أن يستجيب لداعى الحياة ، فهذا هو الواجب الذى تفرضه الأمانة التى حملها الإنسان ، وما الأمانة إلا فريضة الوجود الإنسانى فى الأرض على أن يكون الوجود عبودية خالصة لله وحده ؛ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لَمَّا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤] .

فحين يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فإنه يدعو بالخاصية الأولى والأولية والمحور الرئيسى للوجود الإنسانى والحياة الإنسانية ، إنها خاصية الإيمان ، ولباب الإيمان حب ويقين . فكأن القرآن الكريم لا يدعو بدعوة القهر والإرغام ، ولا يدعو بدعوة التسلط والبغى ، ولكنه يقول لهم : ﴿ اسْتَجِيبُوا ﴾ والاستجابة فى ذاتها هى تلقائية الحب الواعى . وما الحياة فى ذاتها ، فى أطوارها وتطوراتها ، وتقدمها وارتقائها وتعدد مظاهرها ، وثناء ألوانها إلا تلقائية الحب الواعى ، وعلى هذا فإن الاستجابة دلالة على الوعى الحى والشعور الحى بالحياة ، ومن ثم كان قوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ هو الدعوة المنطقية التى تتفق وطبيعة الإيمان . وفى نفس الآن فإنه سبحانه يُبَصِّرُ الإيمان أو تلقائية الحب الواعى بخطر التقاعس عن الاستجابة الوجدانية المؤمنة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] فإذا استجاب المؤمنون لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم فإن الحياة تكون لهم بغير شك وإن حياتهم تكون راسخة شامخة ؛ يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

فالاستجابة الإيمانية فى نُضارها عمل صالح تزكو به الحياة ويُكْرَمُ به الأحياء ، وتكون فى جوهرها عبادة لله سبحانه ، فالله سبحانه يعد المؤمنين ، وهذا الوعد فى ذاته دلالة التعظيم الذى ليس فوقه تعظيم ، ودلالة التكريم الذى ليس فوقه تكريم ، الله الواحد القهار ومن بيده ملكوت كل شىء يعد عبده الفانى ؟ أى رحمة تلك؟! وأى عظمة قدسية تلك!؟

ولما كان الإيمان ، أو تلقائية الحب الواعى لا يكون كاملا ولا يتحقق وجوده إلا بتحقيق إمكانات الفطرة ، فإن العمل الصالح هو الضرورة الحتمية المطلقة

لتجسيد الإيمان ، بل لتجسيد الوجود الإنساني كوجود حضارى له قيمه الإيمانية ؛ ولذلك جاء قوله سبحانه : ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مقولة حيوية لا بد منها لاستكمال شرط الإيمان ، ونبه هنا إلى أن « العمل » الذى تقصده الآية الكريمة ليس المقصود به - كما هو شائع بين جمهرة الناس - العمل الصناعى أو الاقتصادى أو العمرانى فحسب ، لكنه يشمل فضلا عن هذا كل ما يتفتق عنه ذهن الإنسان وخياله من أنواع الظواهر الحضارية المختلفة ، إنه يشمل كافة الأعمال الفكرية والعلمية والفنية ، فبغير مقولة العمل الصالح لن يكون الإيمان ناقصاً فحسب أو قاصراً فحسب بل سيكون ضرباً من الأناية النفسية السلبية التى لا تغنى شيئاً وليكون ضررها أشد إفساداً للوجود الإنساني ، ولذلك فقد جاءت الآية الكريمة بالأسس الرئيسية التى تضمن للوجود الحضارى أو البناء الحضارى تأصله وقوته واستمراره .

فشرط الحياة الحرة الكريمة ، وشرط الحضارة الأصيلة المعطاءة لما فيه خير الإنسان هو أن يتحقق الإيمان بعمل الصالحات ، وإن شرط قيام الريادة أو القيادة الحضارية أو الحضارة العالمية التى تمسك بمقاليد الحياة الإنسانية هو أن يتحقق الإيمان بعمل الصالحات ، وهذا ما أوضحته الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فالاستخلاف فى الأرض هو الريادة أو القيادة العالمية للحضارة الإنسانية .

ولما كان هذا الاستخلاف قائماً على أساس الإيمان بالله والعمل بشريعته ، فإنه لأمر منطقي أن تكون قوة البناء أو قوة العمل من قوة الإيمان الذى فرضه وشرعه . وهذا معناه أن عقيدة هذه الحضارة تتأكد كقوة عالمية لها وزنها وخطرها فى العالم كله ؛ ولهذا جاء قوله سبحانه : ﴿وَلْيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ دلالة على أن تحقيق دين هذه الحضارة الذى ارتضاه الله لها يكون لا أمراً مؤكداً فحسب ، لكنه يكون أيضاً القوة المهيمنة على الحياة وهى التى تعز الإنسان ويعتز بها ؛ وهذا ما يشى به قوله تعالى : ﴿وَلْيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ فالتمكين قوة

وإعزاز وتكريم فوق الريادة والقيادة .

وبهذين المقومين : الاستخلاف فى الأرض أو الرسوخ فيها والهيمنة على مقدارها ، وقوة العقيدة وتأصلها المعز ، يتحقق ما تسعى إليه أية حضارة من الحضارات أو شعب من الشعوب . . وربما سأل سائل : وأين استمرارية الحياة هنا؟ أين ما يدل على انتشارها انتشاراً حياً ؟ ونقول : إن الحياة الحضارية حين تنشأ من الإيمان وبالعامل القويم الذى يرضاه الإيمان ويحققه فى نفس الآن .

وحين يصير دين هذا الإيمان قويا مكيناً مرهوباً من أعدائه المتربصين به ولو كانوا من أهله الخارجين عليه . فإنه لا يجسر أحد على أن يفكر فى التآمر عليه أو إضرار الفساد فيه ، ولا يجرؤ أحد على أن يفكر فى مهاجمة أرضه أو غزوها واحتلالها أو بعض أجزاء منها وهو آمن ، وهذا مما يعطى إنسان هذه الحضارة الثقة الآمنة فى أنه فى حمى إلهى ورعاية ربانية ، فيقبل على أعماله الحضارية فى اطمئنان ورخاء ؛ فلا خوف من الحاضر ولا إشفاق من المستقبل . فهو يتطلع باستمرار إلى إبداع ما يسعد الناس ويثرى ظواهر الحياة ومجالاتها ، ويتطلع باستمرار إلى تحقيق ما يراود خياله من آيات علمية تكون من عوامل زيادة تطلع الفكر إلى اقتحام ميادين علمية لم يسبق اقتحامها فتسفر البحوث والتجارب عن مخترعات جديدة يصبح استعمالها من عوامل زيادة اجتناء الخير وتهيئة أسبابه، وفى نفس المجال ترتفع فنون الثقافات فوق صخب الحياة المادية لتصبح آيات على حب الحياة . . وحب الإنسان ، وتراتيل شكر وعرفان لبارئ الأرض والسماء .

وإن فى قوله سبحانه : ﴿ يَعْْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ تذكرة بالمحور الأساسى للوجود الإنسانى وهو أن تكون العبودية لله وحده خالصة منزهة عن أدنى أثارة من أثارات الشرك غير المباشر ؛ لأنه كما تؤكد وقائع التاريخ بعامة - كثيراً ما يفتن الإنسان بذاته أو بعلمه أو بماله أو بسطوته وقوته فيداخله إحساس جارف من الغرور فيظن أنه قد أصبح قادراً على أن يسخر العلم كما يشاء ، فيقول باسمه للشئ كن . . . فيكون . . وربما أصابت فتنة الفكر والعلم والقوة من ليس

لهم بسطة في العلم أو الصناعة أو السلطان فيهرعون إليهم ويستسلمون
لمشيئتهم.. وهنا يأتي التقويم الإلهي لأولئك المتألهين بأنهم حرب على الحياة التي
أرادها خالق الحياة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

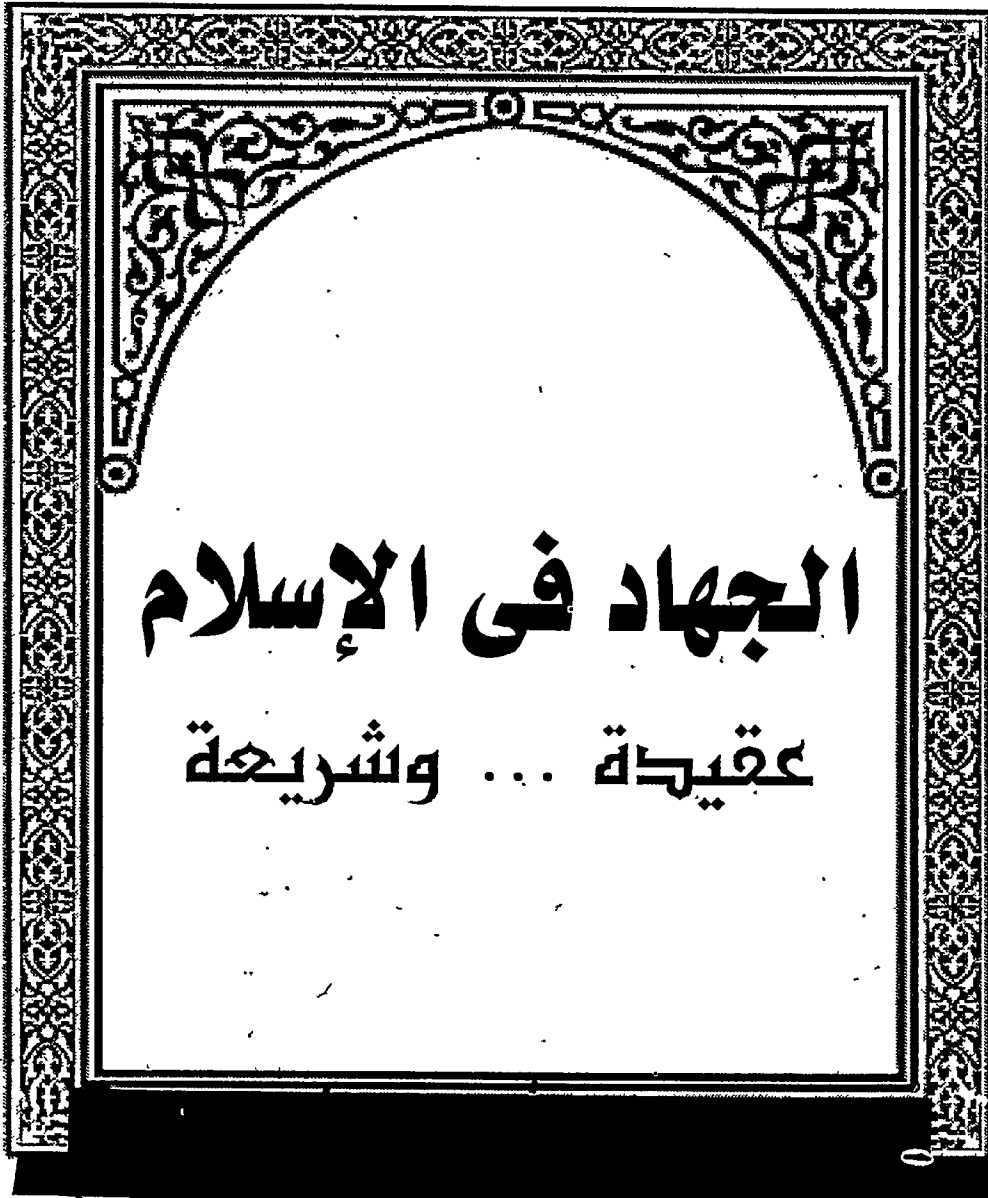
تلك هي المبادئ الستة العامة وقد جاء بها القرآن الكريم متكاملة لتصوير ماهية
الحياة والغاية منها والسبيل إلى تحقيقها .



الفصل الثاني

الجهاد في الإسلام

عقيدة ... وشريعة



الفصل الثاني

الجهاد في الإسلام

تمهيد

حين نقول إن الإنسان قد حمل أمانة الوجود عن طوعية واختيار ، فإن هذا القول يظهر متناقضاً في نظر بعض الناس إذ كيف يحمل الأمانة الكونية الكبرى والتكليف في حد ذاته فرض وإلزام ، إن لم يكن فيه إرغام مع أنه لا سبيل إلى التحرر منه فالسؤال نقول : إن هذا التكليف إنساني حر ؟

ولكننا نقول : إن من أقبل على النهوض بتحقيق موضوع أو تنفيذ مشروع إنما يقبل على حمل أمانة التنفيذ أو التحقيق وفق الشروط المقررة لذلك المشروع ، ومن ثم فهو يصبح ملتزماً بها خاضعاً لما توجبه الشروط من وسائل في المعالجة ونظم في التحقيق والتشييد ، وبذلك الالتزام فهو لا يستطيع أن يتنصل من تبعة ما التزم به ، لأنه إنما قبله عن اختيار حر ، وكذلك فإنه لا يستطيع أن يأخذ ببعض ما التزم به دون البعض الآخر ، وإلا فإنه يعد مخالفاً يستحق جزاء المخالفة . وكذلك فإنه لا يستطيع أن يمارى فيما كلف نفسه به أو كلف به غيره ، أو أن يزيف فيه أو يدور حوله بالتمويه والمخادعة ، لأنه سواء زيف أو خادع أو موه ، فهذه كلها ألوان من النكوص أو الهروب تستحق العقاب الرادع الذي يرد النفس إلى سواء السبيل ، إذن فلا ظلم هنا ولا جبر عصوف بحرية الإنسان وكرامته ، وكذلك لا قهر يدعُ الإرادة ويحطم الفكر .

وبهذه الروح حمل الإنسان الأمانة الكونية للوجود وحمل برسالته الوجودية ليحقق بها إمكاناته في الأرض تحقيقاً حضارياً يؤهله لأن يكون خليفة ربه الذي استخلفه في الأرض ليعبده فيها ويذكر فيها اسمه .

فإذا كان الإنسان هو أسمى الكائنات الحية : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٌ ﴿التين: ٤﴾ .

ويتميز بإمكانات ليس لها نظير في سائر الكائنات الحية ، هي إمكانات العلم أو إمكانات الفكر ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] .

وهي إمكانات الدوافع الفطرية ؛ فقال سبحانه : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وإذا كان الكون قد زين للإنسان فهو بين المنفعة والجمال ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦] .

وإذا كانت الأرض قد زينت للإنسان ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] .

إذا كانت تلك هي مقومات الحياة والوجود الإنساني .. وما هية الرسالة الإنسانية وغايتها ، أفلا يجب على الإنسان أن يحافظ على مقومات الوجود الإنساني ليضمن نهوضه برسالته ؟

أفلا يجب على الإنسان أن ينهض بأمانة وجوده ؟

هنا تأتي فريضة الجهاد في سبيل الله بدهية وجودية تحتم على الإنسان أن ينهض بتكاليها ، وما تقتضيه من مشقات وتضحيات ..

فمع « الجهاد في سبيل الله .. عقيدة وشريعة » .



على هامش العلاقة بين اللغة والمجاز :

من الخصائص العبقورية للغة العربية أنها لغة المجاز ، ومعنى المجاز هنا أن الكلمة فى أصلها اللغوى ترتفع من الاستخدام المعاشى الضيق المحدود أو من رمز من رموز الطبيعة المحيطة والعلاقات الاجتماعية المتوارثة وما قد يستجد منها بين الناس بتغاير أحوالهم ، وهنا تأخذ اللفظة أو الكلمة معنى جديداً مغايراً لما كان له من قبل أو بنفس المعنى القديم مع اختلاف الدلالة ، هذا فى الوقت الذى تختلف فيه أشكال إعراب اللفظة بين الفتح والضم والكسر .

وهذا ما جاءت عليه كلمة « الجهاد » فقد ورد فى مادة « جَهْد » بلسان العرب ما يلى :

* الجَهد ، والجهد : الطاقة . والجَهد : ما جَهد الإنسان من مرض أو أمر شاق .

* وقال ابن الأثير : قد تكرر لفظ الجَهد والجُهد فى الحديث : وهو بالفتح المشقة ، وبالضم الوسع والطاقة .

* وجُهد الرجل إذا هزل .

* وجَهدَ دابته جَهداً وأجهدها : بلغ جَهدَها وحمل عليها فى السير فوق طاقتها .

* وقال الجوهري : جَهدته وأجهدته بمعنى . . قال الأعشى :

فجالستها وجال لها أربعٌ جَهدنا لها مع إجهادها

* وقال الأزهري : الجَهدُ بلوغُك غاية الأمر الذى لا تألو على الجهد فيه :

تقول جهدت جَهدى واجتهدت رأبى ونفسى حتى بلغت مجهودى .

* والجهد : الغاية ، قال الفراء : بلغت به الجَهدَ أى : الغاية .

* وأجهد الشيب : كثر وأسرع ، قال على بن زيد :

لا تُؤاتيك إن صحوت وإن أجدَّ هَدَّ في العارضين منك القتير

* والجُهد : الشىء القليل يعيش به المقل على جَهْد العيش . . وفى التنزيل :
﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩] .

* وقال أبو عمر : المجاهد والجهاد : الأرض المجذبة التى لا شىء فيها .

* وجهد عيشهم بالكسر أى نكدَ واشتد .

* والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع والمجهود .

* وجهدت الطعام : اشتهيته . . والجاهد : الشهوان .

* والجهاد بالفتح : الأرض الصلبة ، وقيل : هى التى لا نبات فيها .

* والجهاد : الأرض المستوية ، وقيل : الأرض الغليظة ، وتوصف به فيقال :
أرض جَهَاد .

* والجهاد : محاربة الأعداء ، واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو
فعل .

بعد هذه التفاسير الميسرة والمتنوعة ننتقل إلى «الجهاد» فى مصطلحه الإسلامى
كعقيدة وشريعة حيث تتكامل فيه المعانى النفسية والأخلاقية والاجتماعية والتى هى
موضوع بحثنا . . .



أ. الجهاد النفسى

مقومات الجهاد النفسى :

قال الحق سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] .

تتمثل فى هذه الآية الكريمة الطبيعة الوجودية والنفسية والأخلاقية التى فُطِرَ عليها الإنسان والتي هى فى إطارها المحور الرئيسى الذى يدور عليه الوجود الإنسانى فى كل أطواره التاريخية ومظاهره الحضارية . ففى صفتى الفجور والتقوى اللتين ذكرتهما الآية تدور البواعث الفطرية للاشتهاء والنزوع ، فالفجور اشتهاً لا ينقطع اشتهاً يتصف بالعدوانية على الحقوق فى شهوانية تسخر العقل ، بل إنها لتطمس فاعليته من أجل الحصول على ما يشتهى المرء ويريد . .

ويتقابل الاشتهاء الفجور بالتقوى ، وليست التقوى هنا كما قد يتوهم كثيرون مجرد عكوف مستسلم لا شأن له بما يجرى ولا شأن له فيما يُصنع ، ولا شأن له فيما تسير إليه الأمور ، ولكنما التقوى هى النهج الروحى والعملى الذى يُرجع الإنسان إلى الرشيد والصواب ؛ فيصلح ويقوم ويستبعد ويجدد ويبدع لا فى مجال المصالح العملية فحسب ، ولكن أيضاً فى مقتضيات الفكر والعلوم والسلوكيات . . فهذان الطرفان لا يفتران إذ هما قواما الطبيعة البشرية ، أجل ، لا يفتر أبداً الصراع بينهما ، أحيانا يتغلب الفجور وأحيانا تتغلب التقوى ، وهكذا أبداً سرمداً بغير انتهاء .

لكنما النصر فى خاتمة المطاف والفوز الذى يزكو به الوجود الإنسانى ويسمو فى تصوره وفكره وشعوره وإحساسه بالغير ، بل العمل على التواصل الحضارى بالغير إنما يكون بالتقوى عقيدة دينية وشريعة أخلاقية وسلوكيات لا تحيد ولا تتحيف ، وإنما يقوم المجتمع على أساس من موازين القسط .

ومن هنا كان الوجود الإنسانى فى مشاققة وجودية لا تنقطع ولا تهدأ ، أو

مكابدة وجودية لا تنقطع ؛ فقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

ولعل ذلك الاشتهاء المحتدم لشهوات الحياة ، والتي تتغلب على فكر الإنسان وعقله ، بل إنها لترين على قلبه فتطمسه عن وعى الحقيقة هو الذى يجعل الإنسان فى موقف الاحتراب الذى يحتم عليه أن يحاصر شهواته ، ويخفف من غلوها وإلحاحها عن وعى وبصيرة ، لتسلم له أوقاته وحياته ، وليسلم له مجتمعه وهو فى مضطرب شؤونه ، ولتسلم له حضارته وإنسانيته .

إذن ، فالإنسان أبداً فى موقف المجاهدة النفسية مع ذاته الخاصة وغيره من الذوات الاجتماعية . وليس النصر دوماً حليف ذلك الجهاد ، فالكثير من الناس يهزم فى مجاهدته لشهواته فهو يخضع لتسخيرها بغير إدراك سليم ، وتلك حقيقة الفطرة البشرية التى يصعب إنكارها ولقد أوضحها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢] .

وإذا كانت نفس الإنسان أمارة بالسوء ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف: ٥٣] .

وإذا كان الإنسان كنوداً لربه ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦] .

وإذا كان الإنسان فى خسران متصل ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢] .

وإذا كان الإنسان يبقى على الغير فى بهتان وكفران ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

وإذا كانت شهوات الدنيا هى التى تضرم فى نفس الإنسان الرغبة فى السطوة والسيطرة واستنزاف الخيرات بغيا وقهرا ، كان الشيطان من وراء ذلك يزين ويحرض ويوسوس للإنسان أن يصطنع من أنانية أهوائه سلوكاً وقانوناً وتقاليد يفرضها على الغير . . إذا كان شأن الإنسان على هذه الشاكلة فإننا لا نملك إلا أن

نقول : إن مجاهدة النفس والهوى ومن ورائهما الشيطان الذى هو ألد أعداء الإنسان حيث قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥] هـى - أى مجاهدة النفس - الدرجة الأولى من الجهاد ؛ بل إنها لباب كل جهاد إنها تفرض الوقوف أمام شهوات النفس بالإعلاء أو الإبدال حتى لا تدمر كيان الإنسان فى نفسه ومجتمعه وأمته إن جهاد النفس مطلوب أمام نزوات النفس ورغبتها فى الاستعلاء واغتصاب ما بأيدي الناس ، وجهاد النفس مطلوب أمام القوى التى تربص بالأمّة وتريد القضاء عليها واختدامها لأهداف مدبرة . فما لم يقهر المؤمن نفسه التى بين جنبيه ، ويكبحها عن التعلق بالدنيا والاستغراق فى شهواتها ومناعمها ، لما تمكن أن يدخل معركة يحقق فيها النصر وكيف وقد شغلته الدنيا عن الجهاد فى سبيل الحق والعدل ، وشريعة الحق والعدل .

وللخطورة القصوى والأهمية العظمى لمجاهدة النفس ما قاله رسول الله ﷺ فقد روى الترمذى عن فضالة بن عبيد أن النبى ﷺ قال : « المجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وفى حديث أبى ذر عند ابن النجار أن النبى ﷺ قال : « أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك فى ذات الله عز وجل » .

وليست مجاهدة النفس مجرد الامتناع عن اقتراف السيئ من الأفعال ، سواء فى حق الذات أو فى حق الغير ، سواء أكان هذا الغير فرداً أم جماعة أم الأمّة بأسرها إنما يكون الامتناع عن علم بأمر الدين وقيمه وآدابه . فعلى الإنسان أن يجاهد فى سبيل معرفة أمور دينه وما تميزه وما تحرمه . .

ولقد جاء أبو حامد الغزالى^(١) بأروع تصور وأوضحه وأدقه عن العلاقة الحيوية المتكاملة بين ثلوث الحسran الذى يوجب المجاهدة النفسية ، وهو : الشيطان والشهوة والوسوسة وعلاقتها بالقلب . . فقد قال : والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجح

(١) كتاب : « إحياء علوم الدين » تأليف : أبى حامد الغزالى (٣ / ٢٤) .

أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والانكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة أظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عن الشيطان ومعدنه ؛ لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ، ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لمن يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله شيطان » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير » .

وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة ، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي ، وإلى الحد الذى ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر ، فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير ، ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله ، وأقبل الملك والهم والتطاردت بين جندى الملائكة ، والشياطين فى معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى اختلاصاً .

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلات بالوساوس الداعية إلى إثارة العاجلة وإطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلى القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذى هو مطرح أثر الملائكة . . إن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ، ولذلك سلط الله عليه الشيطان ؛ وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣]

وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله .

فكان مجاهدة الهوى تعنى فيما تعنى واجب التبصر والاستنارة بمبادئ الإسلام وهداه وبيئاته حتى يعيش الإنسان حياته وهو آمن من وسوسات الشهوات وإنه للجهاد الأكبر كما وصفه رسول الله ﷺ بعد أن تحقق للإسلام النصر على الكفار والمشركين فقد قال عليه السلام : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .



ب- جهاد الحرب والقتال

١ - لا عدوان ولا إكراه :

ليس من عقيدة الإسلام ولا شريعة الإسلام العدوان على الغير أو استعباده والتنكيل به . إنما عقيدة الإسلام عبادة الله وحده ، ومن شريعته التواد والتراحم والتعاطف على شرعة الحق والعدل . والقرآن الكريم فى هذا يذكر بالأرومة الأولى التى خرج منها بنو آدم . فالناس جميعا شعوباً وقبائل على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومبلغهم من الحضارة والسلم الاجتماعى ، أينما قطنوا وحيثما وجدوا ، هؤلاء جميعا تربطهم وإن لم يشعروا أواصر الأرحام فتؤلف بينهم كأنهم أسرة واحدة . . وفى هذا تزكية لمقام الإنسانية من ناحية وتبصرة الأبناء آدم ليكون التواصل الإنسانى من عملهم ودأبهم ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] ، وتقديراً لهذه الأصرة الإنسانية وحفاظاً عليها فقد وردت كلمة : « التقوى » فى عبارتین : « اتقوا ربكم » والثانية : « اتقوا الله » فالأولى فى مقام الخلق والتكوين ، والثانية فى مقام المساءلة والمحاسبة . وذلك من الإعجاز الفكرى والبيانى للقرآن الكريم .

أما وقد جعل الله الناس شعوباً وقبائل ، فإن هذا لا يعنى وقد أصبحوا موزعين فى أنحاء الأرض وهم مختلفون فى أعمالهم ومشاغلمهم وأطماعهم

وتطلعاتهم وثرواتهم وتفاوتهم فى القدرة على البطش والعدوان - إن هذا لا يعنى أن يكون حافزاً مضرراً على العدوان طمعا فيما يملكه الغير حتى ولو كان لا يمتلك سوى بدنه ، إنما يجدر بالناس أن يرجعوا إلى أصلهم الأول بمعنى أن يكون التعارف هو السياسة التى تكون عليها العلاقات بين الشعوب والقبائل ، والتعارف تآلف وتقارب وتعاون ، والتعارف علم ومعرفة وتأثير وتأثر . كذلك ينقذ الناس أنفسهم من صراعات الحروب ومذابح الاقتال وبؤر الرق والعبودية . . أليس معنى ذلك أن تكون ثمة وحدة عالمية على خير ما يكون ، وآمن ما يكون وأكرم ما يكون ؟ أليس معنى ذلك أن الإسلام دعا إلى الوحدة العالمية بين الشعوب قبل أن تعرفها أوربا بما يزيد على ألف عام ؟ وتلك هى الحقيقة التاريخية التى لا يمكن إغفالها أو إنكارها ؟ قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وإذا كانت تلك هى عقيدة الإسلام من حيث نظرته العالمية إلى الأمم والشعوب ، وما ينبغى أن تكون عليه العلاقات فيما بينها وفق المفهوم الإسلامى والروح الإسلامية ، فليس من الغريب ولا من الاعتساف أن يجعل الإسلام من عقيدته مناهجاً للدعوة إلى سبيل الله ، فكأنه يدعو إلى الوحدة العالمية على أساس التعارف الدائم القائم على التقوى . والتقوى هى الميزان القسط للتواصل بين الأمم والشعوب مهما تعارضت مصالحها واختلفت .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة التاريخية الحضارية قامت الدعوة إلى الإسلام على منهاج التفاهم التفاوضى المندرج لا التناحر والاحتراب ؛ فقال سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

وإذا كانت تلك هى سياسة دعوة الإسلام إلى الإسلام ، فهل من المنتظر أن تستجيب شعوب العالمين لها ، أو على الأقل تحسن بها الظن هذا فضلا عن إحسانها الظن بأية دعوة للإصلاح ؟ لا ؛ لأن إحسان الظن ليس من الطبع

الخالص للناس وهذا ما يشتهه القرآن الكريم ويؤكد ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ تُطَعُّ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦] . وإذا كان الإضلال إفساداً ، فقد حرم الله الفساد وأندر المفسدين ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٦] .

تلك من معاني دعوة الإسلام التي بشر بها محمد ﷺ الناس أجمعين ، فلا حرب ولا عدوان ، ولا قهر ولا إذلال ولكن رحمة للعالمين ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ومن البداهة بناء على ما جاءت به دعوة الإسلام أن الإسلام لا يكره أحداً على أن يؤمن به ؛ فقال سبحانه لنييه ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى: ٤٨] .

وقال سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] .

وقال سبحانه : ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١] ، [٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

إذن فعقيدة الإسلام لا تُكره الناس على الإيمان بها ، وفي هذا الشأن قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ : إنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للمعذرة قال بعد ذلك : إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الإقامة على كفره إلا أن يجبر ويقسر على الإيمان ، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء ، إذ إن في

القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان .

وإذا كان الله تعالى قد حرم الإكراه في الدين فإنه حرم ما يتكامل معه وهو الاعتداء على الغير ؛ إلا أن يكون الغير هو البادئ بالاعتداء ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] وفى هذه النقطة قال الشيخ محمد عبده فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ كان المشركون يبدؤون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم ولو لم يبدؤوا فى كل واقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول من بلده وفتنة المؤمنين وإيذائهم ومنع الدعوة ، كل ذلك كان كافياً فى اعتبارهم معتدين وأيضا قال الشيخ عبد الله غوشة من كبار علماء الإسلام : « فقتال النبي ﷺ كان مدافعة عن الحق وأهله ، ولذلك كان تقديم الدعوة شرطا لجواز القتال وإنما تكون الدعوة بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان ، فإن منعنا من الدعوة بالقوة بأن هدد الداعى أو قتل فعلىنا أن نقاتل لحماية الدعوة لا للإكراه على الدين » .

ثم يقول فى سياقه : « وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذى الدعاة أو يقتلهم أو يهدد الأمن ويعتدى على المؤمنين فإن الله تعالى لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح ولا لأجل الطمع فى الكسب » .



٢ - فريضة الجهاد .. أسبابها ومقوماتها :

يصبح الجهاد فريضة واجبة التنفيذ بتبعاتها من حمية لا يصيبها التردد أو الإرجاء تخوفاً أو مهادنة ومسالمة ، وذلك إذا ما اعتدى جائر على حمية الإسلام فى دياره وأوطانه ، لانتزاع خيراتها وثرواتها وإخضاع شعوبها لتكون طوع أمر ذلك الجائر المستعمر ، فتكون من ثم درعاً للمستعمر يدرأ عنه غيره من المنافسين فى حلبة الصراع الاستعماري .

فكان الجهاد قد فرض للدفاع عن ديار الإسلام وقداسة الإسلام فى أخلاقه

وأدابه وفضائله وعلومه وخبراته . . بل لدفع من يريدون أن يغيروا المسيرة الإنسانية للإسلام مجسدة في قرآنه وشريعته ويرغموه بشتى سبل الإرغام والإغراء على أن يغير هويته وكيانه ، فهنا يجب أن ينهض المسلمون لمقاتلة من يعتدون عليهم في عقيدتهم وشريعتهم وفضائلهم وفي أهلهم وضعفائهم ؛ فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩ ، ٤٠] .

والمجاهدة لا تعرف إلا سبيل الله ولذا ، فإنه لا يعرف القتل من أجل القتل أو التعذيب والانتقام ، ولذلك كان سفك الدماء مكروهاً عنده لا يقترفه ما لم يكن ذوداً عن الإسلام وحماية لأرض الإسلام ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الطبيعة الوجودية والأخلاقية للمجاهد المسلم فقال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ولضرورة الجهاد وخطورته على الكيان الإنساني ولما له من قداسة وهو في مقامه الإنساني الذي أوضحه القرآن الكريم فقد جاء مقروناً بالصلاة والزكاة والحج والعمل الصالح فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧ ، ٧٨] ومن الافتراء على الإسلام أن يقال : إن هاتين الآيتين توحيان بأن الإسلام يشتهى الحرب فهو يتربص بكل من خالفه ، وليس هناك ما هو أبشع من ذلك الافتراء ، فالإسلام لا يشتهى الاعتداء ، ولكن حسبه أن يكون يقظاً لأعدائه ، معداً لهم ما يستطيع من قوة ومن رباط الخيل ولاسيما أنه مستهدف لأطماع متعددة ، ولذلك فإنه على خطر شديد تحاك ضده المؤامرات ، فمن حقه أى من حق شعوبه أن تحمى نفسها فتعد

عدتها للرد والدفاع ، وإلا فماذا نقول عن التكتلات العسكرية المتعادية في الشرق والغرب بدافع من سوء الظن وبسط الهيمنة الاستعمارية ؟ إذن أليس من حق دول الإسلام أن تعتصم بحبل الله ، ولا تحسن الظن تماما بتلك التكتلات ، بل تكون هي سيدة نفسها وواعية لذاتها ؟

إذن فالجهاد واجب لا محيد عنه ولا نكول ، ولهذا فلا بد من بعث حمية الجهاد في نفوس المجاهدين وإعدادهم إيمانياً للقتال ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦] .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤] .

وقال سبحانه : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٤ - ٧٦] .

وفى هذا المقام يحذر القرآن الكريم من دعاة الرضا بالأمر الواقع أو المداراة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغِيَ إِذَا نَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٣] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧] .

أما المجاهد فهو لا يخشى بأس عدوه ، ولا يخشى ما يروِّج عن نفسه أو يروج له الانهزاميون ، وهذا من مقومات الإيمان التي يحرص الإسلام على أن يبثها في رجاله ، فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤] .

وينضم إلى زمرة الداعين إلى مداراة العدو خشية بأسه أولئك الذين يتباطؤون متعللين بمعاذير واهية ، وتلك آفة تصيب حمية الجهاد بالوهن ، وإنها لشعبة من شعب النفاق فصلها القرآن على نحو جامع شمل المعاذير التي يصطنعها الراغبون عن الجهاد طمعا في المكاسب المادية وهذا في بيان تأديبي سياسى لما ينبغي على الرسول أن ينتهجه في إدارته لمعارك القتال .

فقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تَصِلْ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿

[التوبة: ٨١ - ٩٠] .

والإسلام ليس دين تجبر وإعنات ، لكنما الرحمة هي عماده وسياسته ، ومن هذا المبدأ فإنه يستثنى فريضة الجهاد من الضعفاء والمرضى والذين يعجزون عن المشاركة العملية ، وقد حددهم القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ ، ٩٢] .

ثم يعاود الدستور القرآن تبيان حقيقة وأهداف الذين يجنبون عن القتال ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَآ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٣ - ٩٦] .

وإلى جانب هؤلاء فلا يمتنع أن يكون هناك بعض الموالين للعدو مندسين بين الجماهير يشيعون الذعر والخوف منه فيروجون من الشائعات ما يكون أشد فتكاً من قدرات العدو ، ولهذه الخطورة فإن القرآن الكريم حذر من أولئك المتواطئين ومن على جديدهم ممن نسميهم « الطابور الخامس » فالقرآن يحذر أولاً ممن يظاهرون العدو ؛ فقال سبحانه : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ ﴿[آل عمران: ٢٨] أما « الطابور الخامس » فما جاء فى التحذير منه قوله سبحانه : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، ولقد وصف القرآن الكريم أولئك المتأمرين المستخفين ؛ فقال سبحانه : ﴿ اسْتَحْوِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩] .

هكذا دستور القرآن الكريم فى حماية الجهاد من المثبتين والناكسين والمرجفين بالتخاذل والتراجع وإيثار المسالمة وما هو من معينها من الدعوات الانهزامية ، فكأن القرآن الكريم يصون إرادة الجهاد التى هى إرادة القتال من كل ما قد يتسلل إليها من آفات الانهزامية المؤدية إلى التراجع والخوف ، ومن ثم فإن إرادة القتال إذ تصان بهذا المنهاج وإلى هذه الدرجة ، فإن الإسلام أمر المسلمين أن يكونوا جادين غير هيايين فى هجومهم على عدوهم فيواجه منهم غلظة القتال وغلظة الإصرار الذى لا يتراجع بل هو فى اندفاع مخطط محسوب ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣] .

ولكن الغلظة القتالية والجسارة فى الإقدام لا تغنى عن نبالة الجهاد الإسلامى فالإسلام يحرم أن يتعرض المسلمون الذين يعلنون ألا شأن لهم بالحرب لأى أذى أو ضرر ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغْنَمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤] .

ها هو ذا المجاهد وقد أصبح مهيباً من حيث الغاية والهدف والحدود والمشروعية إلا أنه من الضرورى أن يتحقق عنصران رئيسيان هما عماد الجهاد

وعدته ووسيلته لا يتحقق بغيرهما ولا يدوم بدونهما وهما : المال والنفس .

فما هو موقف الإسلام من كل منهما ؟ وكيف يكون الجهاد بهما ؟

٣ - الجهاد بالمال والنفس :

نستهل هذا الموضوع - وهو متكامل مع سابقه تكاملاً عضوياً ضرورياً .
فللجهاد في سبيل المكانة العليا التي تسمو على كل أعراض الدنيا إذ على أساسه
تقوم الدعوة ، على أساسه تُصان أرض الإسلام فلا يطمع في المسلمين طامع أيا
كان مقصده وهدفه ، من أجل هذه المكانة التي لا تسامىها مكانة أخرى ولا تلحق
بها قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] .

من أجل هذه المكانة المصيرية العليا والتي هي منطلق الوجود الإسلامى فى
الحياة كان رسول الله ﷺ دائم الحث على الجهاد وبيان فضله على المسلم والوجود
الإسلامى .

فعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير
من الدنيا وما فيها » .

وعن أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : « غدوة أو روحة فى سبيل الله خير
مما طلعت عليه الشمس وغربت » رواه أحمد ومسلم والنسائى والبخارى .

وعن أبى عيسى الحارثى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغبرت
قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار » .

وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله
ودخان جهنم » .

وعن أبى هريرة ، قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله عز



وجل؟ قال : « لا تستطيعونه » . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول :
« لا تستطيعونه » وقال فى الثالثة : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم
القائم القانت لآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل
الله » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « يا أبا سعيد ، من
رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة » . فعجب لها أبو
سعيد فقال : أعدها علىّ يا رسول الله ، ففعل ثم قال : « وأخرى يرفع بها العبد
مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » ، قال : وما
هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم والنسائى .

وروى أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً فيهم عبد الله بن رواحة فتأخر ليشهد
الصلاة مع النبى فقال له النبى ﷺ : « والذي نفسى بيده لو أنفقت ما فى الأرض
ما أدركت فضل غدوتهم » .

وسئل النبى ﷺ : أى الناس أفضل ؟ فقال : « مؤمن يجاهد فى سبيل الله
بنفسه وماله » رواه الخمسة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وفد الله ثلاثة ،
الغازى ، والحاج ، والمعتمر » رواه مسلم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « ألا أخبركم بخير الناس؟
رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله » رواه الترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم
وأنفسكم وألسنتكم » رواه أحمد والنسائى وصححه الحاكم .

وقال ﷺ : « إن هجوم الكفار أشد عليهم من وقع النبل » .

عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ليس شىء أحب إلى الله

من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع في خشية الله وقطرة من دم تراق في سبيل الله .
أما الأثران فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله « رواه الترمذى .

مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلواته في بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزو في سبيل الله . من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » .

وعن أسلم بن عمران قال : غدونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد ، والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه ، لا إله إلا الله يلقي بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : إنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا : هل نقيم في أموالنا ونصلحها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد . رواه أبو داود .

وقال ﷺ : « من قاتل في سبيل الله (تعالى) فواق ناقة لتكون كلمه الله هي العليا وجبت له الجنة » .

وقال ﷺ : « ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون الدم والريح ريح المسك » .

وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال : « سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » .

ولعل مراده ﷺ أن السائح في الأرض يريد رزقها كما قال تعالى : ﴿ فَاْمْشُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [المالك: ١٠] أو يريد استطلاع أحوالها وأمره مرغوب فيه مستحسن والمجاهد ينال ذلك كله ولكن رزقه يكون من غنائم الدنيا أو غنائم

الآخرة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠] .

هكذا الجهاد كما جاء به القرآن الكريم حاثا ومزكيا كفريضة لا بد منها . .

هكذا الجهاد كما حث عليه وزكاه رسول الله ﷺ . . ماذا نقول ؟ إنما الجهاد الخالص يكون عبودية خالصة لله وحده ، فيه يكون المجاهد في درجة من التهام الإيمان الذي يسمو على ما يكون عليه المتصوفة فكأنه في مقام الوجد الصوفى ، وتلك عليا مراتب الوعى الإيمانى بالجهاد فى سبيل الله ، وإنما لرهبانية الجهاد ، إن أُجيز هذا التعبير .

روى السرخسى فى شرحه لكتاب « السير » للإمام محمد بن الحسن الشيبانى أن النبى ﷺ قال فيما رواه معاوية بن قرة : « فى كل أمة رهبانية ، وrehبانية هذه الأمة الجهاد » ويقول السرخسى تعليقا على هذا الحديث : ومعنى الرهبانية التفرغ للعبادة وترك الاشتغال بعمل الدنيا وكان ذلك فى الأمم الخالية بالاعتزال عن الناس والمقام فى الصوامع . فقد كانت العزلة فيهم أفضل من العشرة . . ثم نفى ذلك النبى ﷺ بقوله : « لا رهبانية فى الإسلام » وبين طريق الرهبانية لهذه الأمة بالجهاد ففيه العشرة مع الناس والتفرغ عن عمل الدنيا والاشتغال بما فيه سنام الدين ، وقد سمى رسول الله ﷺ الجهاد سنام الدين ، وفيه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو صفة هذه الأمة وفيه تعرض لأعلى الدرجات وهو الشهادة فكان أقوى وجوه الرهبانية ، ذلك رأى السرخسى فى الموازنة التى عقدها بين رهبانية النصارى والجهاد فى الإسلام ، وصواب الرأى أن المجاهد يتشابه مع الراهب فى ثلاثة أمور ويختلفان فى أمر ، أما الأمور المتشابهة فهى :

أولاً : اعتزال أهواء الناس جملة والخروج عن الحياة التى يحيها الناس لأنفسهم آكلين شاربين متمتعين بمترفات الحياة ولذائذها ، فكلاهما يكون منه هذا

الاعتزال .

ثانياً : أن الراهب يعتزل الناس والمجاهد التقى الذي ينال شرف الجهاد بترك أولاده وامراته متجهاً بذلك إلى الله وحده وهذا عبادة .

ثالثاً : والثالث أن كليهما قسم نفسه لله ، فالراهب في زعمه يترهب ليعلمو في نظره إلى الروحانية التي تقربه إلى ربه فيما يحسبه ، والمجاهد قدم نفسه فعلاً لله ليحمي دينه وليحمي الحق الذي أمر الله جل شأنه بنصرته .

أما موضع الافتراق ، فالراهب يعتزل الناس فائدة لنفسه أما. المجاهد فيترك الناس ليحمي دينه وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته في نظر صاحبها في دائرة وجوده الشخصي لا تعدوه ، الثاني وهو المجاهد في دائرة النفع العام والأول عبادته لا تخلو من أثره والثاني عبادته كلها إثارة .

وللجهاد عنصران هما عماده إذ لا يمكن أن يتحقق في عملياته ونتائجه المطلوبة بغير أن يتوافرا بما يهيئ للجهاد ويعين عليه وهما : المال ، والنفس .

أما عنصر المال فإن القرآن الكريم قدمه على الجهاد بالنفس في آيات كثيرة . . ولكنه في نفس الآن يبين الطبيعة الفطرية للنفس البشرية بصفة عامة ، فالقرآن الكريم في بيانه المحكم يصور النفس الإنسانية ، وهي على فطرتها الأولية التي لا يمكن أن تتخلى عنها تماماً أو أن تتخلى عن جزء كبير منها أو أن تتهاون فيها بصفة عامة .

فالخلقة البشرية للنفس الإنسانية أنها تتميز بصفة رئيسية من صفات الأحياء بعامة وإنها لصفة « الشح » فقال سبحانه : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨] .

فالطبيعة البشرية ضئيلة بما تشتمل عليه من إمكانات فهي لا تبوح إلا بقدر ، قد يضوّل ويضوّل إلى الحد الذي قد يمتنع فيه الإعطاء . فالنفس البشرية إذ هي شحيحة بطبعها فإنها لا تجود إلا بالقليل ، وكأنها بهذه الأنانية تصون وجودها

وتبقى على حياتها ، فهي من ثم في موقف الابتلاء المتصل ، والابتلاء معاناة لمشقة التفضيل وضغط المواجهة بين المنح والمنع والقبول والرفض والقلق المساور لكل تلك الأحوال . وكلها من المشاق النفسية التي تؤدي إلى اليأس والضيق أو إلى التفاؤل والاستبشار وإذا كانت النفس تبتلى في أموالها فهي كذلك تبتلى في ذاتها في مواقفها الأخلاقية وتقاليدها الاجتماعية وتقلبات السياسة والاقتصاد في وطنها . . فلا بد أن يكون للمرء بإزائها موقف معين ، حتى ولو كان هو موقف اللامبالاة وها قد جاء القرآن الكريم بهذه الحقيقة الوجودية النفسية للطبيعة البشرية فقال سبحانه : ﴿ لَتَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وإذ يكون الإنسان في موقف الابتلاء المتصل أو موقف الإغراء المتصل ، فإنه لمن الحق على الإنسان أن يصون نفسه ووجوده وحياته ، وما يعمل أيا كانت نوعية العمل وصبغته . ففي الصيانة من هذه الأوجه يكون فلاحه ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] . ومما يلاحظ على هذا النسق البياني أن الفلاح (المفلحين) يعني ما هو أكرم وأجزل وأدنى إلى التفتح للاطمئنان من كلمات مثل : النجاح ، والفوز ، والربح ، والكسب .

ويقوم العمران الحضارى ، بل يقوم وجود الإنسان حتى فى أصغر دوائره الاجتماعية على عنصرين متكاملين هما النفس والمال ، فإن لهما الضرورة الكاملة فى الجهاد لحماية الإسلام وديار المسلمين وكذلك لحماية الدعوة إلى الإسلام والدود عنها فى عقيدتها وشريعته ، وهذا ما حثت عليه الآيات البينات مؤكدة وملزمة ، فمن جانب التكامل الضرورى بين المال والنفس حيث يأتى المال مقدما ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لَكِنَّ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٨] .

وقال سبحانه : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]

وقال سبحانه : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء: ٩٥]

وقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومن الضروري أن يقدم المال على النفس ؛ لأن عمليات الجهاد القتالي لا تقوم ولا تنشأ ولا تنهياً لخوض معاركها بغير السلاح الذي يجب أن يكون متوافراً لجند الله ، ومعنى التوافر هنا أنه ينبغي أن يكون للقوات المسلحة مصانعها التي تنتج السلاح الذي تحتاجه فلا يكون جل اعتمادها على الدول الصناعية المنتجة للأسلحة ، فقد لا تبيعها الأسلحة ذات القدرة التدميرية الهائلة ، ومن ثم فهي تتمسك بأسرارها لها وحدها ، هذا فضلا عن أن المال لازم لا لتوفير السلاح ولا للقيام بالبحوث التي تحقق تطويره فقط ، ولكن المال لازم أيضا لرواتب الجند وإطعامهم وتوفير الكساء لهم ورعايتهم صحيا ، ولازم أيضا لإجراء المناورات القتالية لكافة فروع الأسلحة .

إذن فعلى أبناء الأمة الإسلامية أن يتضافروا جميعاً لتوفير ما تحتاجه قواتهم المسلحة من أموال فلا يبخلون أو يشحون ، وإذا أصبحت تلك العملية من مسئولية الدولة فإن على أبناء الشعب ألا يحاسبوا الدولة في شأن ميزانية قواتها المسلحة لأنها أعلم بها وأخبر ، ولأن للمال دوره الرئيسي في عمليات الجهاد ، فقد جاءت الآية الكريمة حاثّة على ضرورة إعداد الأسلحة للجهاد . وإنها لفريضة ملزمة لا محيد عنها ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

ولخطورة المال ودوره الرئيسي في عمليات الجهاد وإعداد القوات المسلحة فإن

القرآن الكريم يخصه منفرداً بذاته وذلك لتجسيد خطورة الحاجة إليه .

فقال سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد: ١٠] .

وقال تعالى في فضل الإنفاق في سبيل الله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

وقد زكى رسول الله ﷺ الجهاد بالمال فهو عنده من الفضائل العليا التى على المؤمنين أن ينالوا شرفها .

فعن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازياً فقد غزا ومن خلف غازياً فى سبيل الله فقد غزا » رواه الترمذى ، والبخارى ، ومسلم . .

وعن خريم بن فاتك قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق نفقة فى سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف » رواه الترمذى وحسنه والنسائى . وجاء رجل بناقة مخطومة فقال : « هذه فى سبيل الله » فقال رسول الله ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » رواه مسلم والنسائى وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعدته فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة » رواه البخارى .

ويروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من لم يَغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » .

٤ - ما يجب أن يكون عليه المجاهد :

جهزنا الأموال الطائلة ، اشترينا الأسلحة ، أقمنا مصانع للسلاح .

جهزنا جندنا على أحدث أساليب القتال وأمهرها .

جهزنا خطتنا التي تمكننا من أن نصد عدونا ونقهره .

فهل فى كل ذلك ما يغنى ؟

لا ، إنما يبقى أهم عنصر فى عملية الحرب .. يبقى الجندى نفسه . يبقى الإنسان .. وللإنسان المجاهد فى تصور الإسلام صفات خاصة لا بد أن تتوافر فيه ويُنشأ عليها وبغيرها يستحيل أن يكون إنساناً مسلماً مجاهداً . إنه آئذ لن يكون أكثر من حيوان شرس حسبه أن يصبوب سلاحه ليفتك بعدوه ثم يسلبه ما يشاء .

ولقد وجدنا أن الصفات الخاصة التي لا بد أن تتوافر فى المجاهد خمس صفات هى : الإيمان - الصبر - الإخلاص - الحب - الطاعة .

أ - الإيمان :

حين ننظر فى الإيمان من حيث لبابه وحقيقته فإننا نجد أنه روح كل شىء ، وكل عمل وفكر وخيال وتصور . فبغير أن يؤمن الفرد بضرورة ما يعمله وينفذه فلن يتم له شىء ، وبغير أن تقوم فكرة المفكر وخيال الفنان على الإيمان بما يفكر فيه أو يتمثله فلن يكون ثمة فكر ولن يكون ثمة فن ، إذن فبغير الإيمان لن يتحقق للإنسان وجود ، ولن يتحقق للإنسان حياة ، ولن يتحقق له تحصيل شىء كبر هذا الشىء أم صغر ، عظم هذا الشىء أم كان ساقطاً تزدرية الأعين وتعافه الأنفس .

وتتأكد ضرورة الإيمان وخطورته حين نعلم أنه حتمية كونية ووجودية وحضارية ، ومحور هذه الضرورة الإيمانية وغايتها هو الإيمان بالله وحده ، وهذا معناه أن قضية الوجود الإنسانى هى قضية الإيمان بالله وحده ؛ فما هو الإيمان ؟

الإيمان اعتقاد وجدانى متمكن من قلب الإنسان ومسيطر على إرادته ومتحكم فى بصيرته ، وإذ تكون هذه هى ماهية الإيمان ، فإنه لمن البدهي ألا يكون فى الإنسان على أجزاء كأن يكون هناك مثلاً ثلاثة أرباع أو ثلث إيمان أو ربع إيمان .. ولكن إما أن يكون الإيمان كاملاً أو لا إيمان ، ذلك لأن أية ثلثة أو ثغرة فى الإيمان

كفيلة بأن تفسده ، فتفسد حياة الإنسان ويتقوض البناء الاجتماعي لا محالة .

وبناء على هذا فإن قضية الإيمان في القرآن الكريم قضية كونية إنسانية واحدة تجمع الوجود الإنساني بكل قضاياها ومقوماته في وحدة متكاملة . فالإيمان في القرآن الكريم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ قال سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

فالرسول ﷺ آمن ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى آمن بما جاء به القرآن الكريم من عقيدة وشريعة ، وهذا الإيمان أوجب عليه وعلى المؤمنين ضرورة الإيمان : ﴿ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا أمر طبيعي فرسالة التوحيد واحدة فمن آمن بالله وحده ، فإن عليه أن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله ؛ ذلك لأن ملائكته سبحانه رسله إلى أوليائه ، وكتبه منهاج شريعته إلى عباده ، ورسله هم الدعاة إلى الحق والمندرين به ، فإذا أنكروا قوم وجود رسول من الرسل ، أو أنكروا رسالته فقد أنكروا وجود الله سبحانه ، وأنكروا بالتالى أن الشريعة التى جاء بها الرسول هدى ورحمة ، إذن فلا تفرقة بين الرسل : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ وهنا يأتى الرد الإيماني للمؤمنين فتقول الآية : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ .

والسمع إيمان ، والإيمان طاعة ، والطاعة عمل ومجاهدة .

وفى العمل يخطئ المرء ويصيب ، وقد ينحرف عن الجادة مرات ، ولكنه يعود بعد التصحيح والتصويب إلى قصد السبيل ، ولذلك كان رجاء المغفرة من الله سبحانه إيماناً به وحده وبملائكته وكتبه ورسله ، وهنا تقول الآية الكريمة : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

وإذا كان الإيمان اعتقاداً وجدانياً متمكناً من قلب الإنسان ومسيطرًا على إرادته ومتحكماً فى بصيرته فإن محكه ومعياره هو العمل ، فبغير العمل يظل الإيمان مجرد إمكانية وجودية تفرض على الإنسان ضرورة التحقيق ، تحقيقاً لإمكاناته

وتطلعاته ، ويقرر القرآن الكريم هذه الماهية الإيمانية ، فيقول سبحانه : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢، ٣] .

فالآية الأولى تقرر أن ماهية الإيمان ليس قصارها قولاً يقال ، أو كلاماً يُحَاك ، وليس قصارها أصداء طاغية وضوضاء صارفة للفكر ، محيرة للعقل ، موهنة للإرادة ، وإن من يظن أن هذا هو الإيمان فإنما هو واهم ضال . وتعبّر الآية الكريمة عن هذا الوهم فتقول : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ فها هنا تجربة وجودية إيمانية هي تجربة الإنسانية كلها ، يفرضها إيمانها بالله سبحانه ، وتفرضها طبيعة إمكاناتها الفطرية وتطلعاتها الحضارية . لذلك كان لابد من المعاناة عند تحقيق الإنسان لإمكاناته ، وليس المعاناة هنا بالشىء الهين ولكنها قاسية صعبة لأنها تفرض على الإنسان أن يعالج من المشكلات ويواجه من الصعوبات ما قد لا يتصوره خياله ، ولهذا فإن الآية الكريمة تجسد التجربة الإيمانية للإنسان تجسيدا شمولياً فتقول : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ .

فهذه العبارة : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢] تصور طبيعة الوجود الإنسانى ؛ فالوجود الإنسانى تجربة واختبار وعمل ، والعمل جسارة فى اقتحام المجهول ، والتعرف على ما يضمره أو ما يستقر بداخله ، واقتحام المجهول عمل من أعمال الفكر والعلم ؛ لا يتم له معنى ولا يتحقق له مبنى بغير الممارسة التجريبية العلمية لما يهتدى إليه العقل ، وعلى هذا فإن كلمة « يفتنون » تجسد حى لحرية الفكر وحرية الإرادة معا فى تأصر عضوى مصيرى ، وفى الفتنة يقع الخطأ ويقع الصواب ، وفى الفتنة يقع الزيف ويقع اليقين ، وفى هذا المعترك يكشف الإنسان عن حقيقة إيمانه بالله ومداه ؛ إذن فكأن الفتنة هي التجربة الحضارية فى عمومها وشمولها .

وربما كانت الفتنة تعنى الازدهاء والتكبر الذى يسببه ما قد يحققه الإنسان من تفوق فى عمل من أعماله ، فيكون ازدهاؤه سببا فى أن تختل موازين القيم فى

تصوره هو أمثاله فتختل موازين العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وأن تختل نفسية كل امرئ سواء غنم من الفتنة أم لا كانت وبالا عليه .

تلك ماهية الإيمان فلا إيمان بغير فتنة ، ولولا فتنة الحياة بأوجهها ما تم عمل ولا قام بناء ولا عرف الإنسان ذاته وقيمة ذاته ، ولا حرите وقيمة حرته ، ولا عمله وقيمة عمله ، ولما تدافعت الحضارات شعوباً وقبائل فى تعارفها أو تناحرها؛ وفى هذا تقول الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣] .

إذن فصدق الإيمان بالله فى صدق اجتياز ابتلاء فتنة الحياة بالعمل على هدى من شريعة الحق التى هى إعمار للحياة وإصلاح لها وتقويم للإنسان وإزكاء لإمكاناته .

وإنه لخطر على الإيمان من حيث صدقه وسلامته أن تُشكَل عليه صروف الحياة حين يكون عليه أن يواجه محنها أو فتنها ، فإنه لمن أخطر الأخطار أن يعتصر القنوط إيمان الإنسان ؛ يقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠] .

فهذه الآية الكريمة تبصر بالخطر الأكبر الذى يتعرض له الإيمان بالله وبالتالى تتعرض له إرادة عند الإنسان ، فما أسهل الادعاء بالإيمان بالله ، تقول الآية الكريمة : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ ولكن محك الإيمان بالله هو ألا تهن إرادة الإيمان التى هى إرادة الحياة ، وإذا كانت إرادة الحياة توجب حرية الفكر وحرية العمل ، فإن هذا يلزم الإنسان بضرورة الاشتباك مع الغير لتشاجر المصالح واختلاط الأوطار وتنافر النوازع والتطلعات ، هذه الضرورة تسبب احتدام الصراع الذى يسوده البغى والشراسة و ، هنا يحدث الابتلاء الفعلى للإيمان الذى هو إرادة الحياة . فالإيمان بالله يلزم الإنسان باتباع منهاج القرآن الكريم فى فكره وعمله وسلوكه وعلاقاته مع الغير ، لأن فيه خيراً لأُمَّته وكرامته فإذا أُوذِيَ فى جهاده هذا

وصبر وصابر على شريعة من أمر الله فذلك هو الإيمان .

ولكن يحدث في كثير من الأحيان أن يخشى الإنسان مغبة الصراع مع الغير ، أو أن يذعن لما أرغم عليه أو يمارى مظاهره للباغى المتجبر ، آئذ يفقد إيمانه بالله ، وإذا فقد إيمانه فقد حريته وفكره وإرادته ، وانعكس ذلك على فكره وسلوكه وتقديره للمواقف والناس ، وإذا صار الإنسان إلى هذه الدرجة من الضرع وخشية الناس ألا يكون بهذا قد : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ ؟

إذن فحياة الإنسان في الإيمان بالله ، والإيمان بالله عمل بشريته ، وفي العمل بشريته تأصيل لفكره وحريته وصلاح دنياه ؛ قال سبحانه : ﴿ وَيُشِرُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ٢] ويحدد القرآن الكريم الصفات الأخلاقية والنفسية والسلوكية للمؤمنين ؛ فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢، ٣] .

فحين تقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فإن هذا معناه :

- أن الإيمان محله القلب ودلالته فإذا تغير القلب تغير الإيمان لا محالة .

- أن تفتح القلب للحياة تفتحاً شمولياً نابع من الإيمان بالله .

- أن المؤمن يتميز بالوعى اليقظ والشعور الحى المتوفر لكل همسة من همسات الوجود ، وظاهرة من ظواهره على أنها دلالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته ورحمته بعباده .

- هذا الوعى الدائم للقلب وما يكون عليه من شعور إيماني يقظ يجعله في

حضور دائم مع الله . فإذا ﴿ ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : قلوب المؤمنين . والوجل إشفاق مزاجه الإجلال والحب .

- إن هذا الإجلال والحب أو الوجل لا يرهب الإنسان في إيمانه ، ولكن يزيده شوقاً ، ويزيده تفتحاً للإقبال على آيات الله للمعرفة والإدراك فكأنه ينير للإنسان سبل المعرفة ومجالاتها .

ماذا نقول ؟ هل نقول إنه بالإيمان تتحقق الحرية كفعل هو الإبداع والابتكار ، ويتحقق للإنسان وجوده وكيانه ؟

نعم ، هو كذلك ، ومن ثم فإنه كلما أوغل القلب المؤمن بالله في إدراك ظواهر الحياة ، أوغل في التعرف على خصائصها لاختدامها في نفع حياته وحضارته ، ولذا يكون يقينه بأنها من صنع وتدبير الخالق الحكيم العليم فيزداد إيمانه بربه ويزداد حبه له وبذلك ينمو شعوره بذاته وكيانه وحريته . وهنا تقول الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ومعنى آياته هنا ، آيات القرآن الكريم التي تذكر آيات الله في خلق السموات والأرض وما فيها من ظواهر . وإذا كان إيمان المؤمنين يزداد كلما تليت عليهم آيات الله فإنه لمن البدهى أن تزداد حريرتهم وتزداد دوائر أعمالهم وميادينها ، نعم ، وتزداد تبعة تلك الحرية وتكاليفها . وهذا ما تقرره الآية الكريمة كصفة من صفات المؤمنين ؛ فتقول : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالتوكل هنا هو أشمل معانى الحرية وأسمائها ، ذلك لأنه أى التوكل يحرر الإنسان من تبعية التسلط والبغى ، ويحرره من تبعية الاعتماد على الغير كأنه هو ربه ورازقه ، وتحرره من عقبم التقاليد والأعراف الاجتماعية التي تسخر فكره وشعوره وخياله بل إرادته في تنفيذ ما تأمر به من سىء الفعال ، وتحرره من الخوف من الغد أو المستقبل أو المجهول .

هذا التحرير ، هو تحرير عمل وتحقيق لا تحقيق اعتزال وقعود عن البناء والعمل . تحرير يقوم على شريعة الإيمان بالقرآن الكريم ، الذى أعطى الفطرة الإنسانية خير ما يحقق إمكاناتها ووجودها ويشبع شهواتها ورغباتها بغير قهر أو قمع ، وبغير ترخص أو إسفاف . ولكنه التحقيق السليم الذى تتوازن فيه الأحوال

بما يعمر الحياة ويصلح شؤون الناس في كرامة ظهور .

وإذا كان المؤمنون ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وكان التوكل يعمق ويوسع من معانى الحرية ويتسامى بمقاصدها وأفعالها ، فإنه لا بد أن يكون التوكل مشفوعاً بما يدل عليه ويؤصله ، وبما يطهره مما قد يصيبه من أضرار العمل وآثام السلوك التى تعوقه أو تنحرف به عن الهدف المنشود ، إذن فإقامة الصلاة من صفات المؤمنين فتقول الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ فهم من ثم على حمد دائم لله الرحمن الرحيم ، وعلى تطهير دائم لأعمالهم وسلوكهم ، وتقويم دائم لمسار حريتهم وفكرهم ، وفى رجاء دائم إلى أن يهديهم الصراط المستقيم .

وإذا كانت الصلاة حمداً لله وتطهيراً للأعمال ، وتقويماً لمسار الحرية والفكر ، وتطلعاً إلى أن يهدى الله الصراط المستقيم ، فإن للصلاة مظهراً اجتماعياً عاماً أو دليلاً اجتماعياً عاماً ، وإنه الإيثار والبذل بغير تحسر أو نضوب فى الأريحية فتقول الآية الكريمة : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ لا صدقة أو إحساناً فحسب ، ولكن أيضاً إسهاماً فى كل عمل يكون فيه إصلاح لعمارة البناء الاجتماعى وترقيته وتقويته . . وإفشاء الخير بين ربوعه وإعزاز إنسانه وتكريمه .

إذا كانت تلك هى مكانة الإيمان ودوره فى وجود الإنسان فإنه شرط الجهاد ، فالله تبارك وتعالى يخاطب المجاهدين باسم الإيمان ؛ فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٦] ، والله سبحانه يدعو المؤمنين باسم الإيمان لداعى الجهاد ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] . ويدعو القرآن الكريم المؤمنين بأن يجاهدوا فى الله حق جهاده ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] . والمؤمنون فى جهادهم مؤيدون بنصر الله : ﴿ فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤] ومن صفة المؤمن فى جهاده أنه لا يخشى الموت ، إنه يسعى إلى الاستشهاد لينال رضوان ربه ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿ [آل عمران: ١٦٩] . إن الإيمان يدعو المجاهد إلى أن يهجر الحياة الدنيا بمتاعها وزخرفها وزينتها فقال سبحانه : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

فالمؤمن في جهاده يخلف الدنيا وراءه ويحرص على شيء واحد هو حماية الإسلام والدعوة إليه وهي دعوة التوحيد التي تكون فيها الحياة الحضارية على أكرم ما يكون وأرحب ما يكون لا يُضام فيها الفرد ولا تهدر فيها إنسانية الإنسان ، والغاية من وراء كل غاية كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وذلك خير تقويم لرسالة الجهاد القائم على الإيمان بالله الذي قررت شريعته موازين القسط في البناء والإعداد والتصحيح وموازين القسط في تقويم الإنسان والحياة الإنسانية بأسرها .

وفرق شاسع وبعيد بين أن يؤمن المرء بمذهب سياسى أو اجتماعى أو أن يؤمن بقومية خاصة ، وهو فى ذلك بين الأطماع والآثرة والبغى والتردد . وذلك هو شأن النظم السياسية العالمية والإقليمية وما تخرج حروبها إلا عن أهداف الاستعمار التى يدبر لها ويخطط ، ومن هنا فإن عسكريتها تهدف إلى تحقيق ما يعينها فى أطماعها الدولية ولذلك فإن جنودها يحرصون - ولو بالانتحار - على العودة إلى حياتهم المدنية وألا يعودوا إلى السلاح مرة ثانية . لكنما المسلم فى إيمانه بعقيدته ورسالته يتمنى أن يعود إلى الجهاد مرات ومرات ، روى عن رسول الله ﷺ : «تضمن الله تعالى لمن خرج فى سبيل الله لا يخرج إلا جهاد فى سبيلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، والذي نفس محمد بيده ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك . والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله عز وجل أبداً ، ولكن لا أجد سعة ، فأحملهم ، ولا يجدون سعة فيتبعوننى ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل » رواه الثلاثة والنسائى .

وكم نتمنى فى زماننا ونحن ندعو إلى الجهاد الإسلامى القويم السليم لا إلى الإرهاب الدموى الإجرامى العقيم - كم نتمنى أن يحذو المجاهدون حذو أعرابى جاء إلى رسول الله ﷺ فأمن به وصدقه ، ثم قال له : أهاجر معك ، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه ، فكانت غزاة غنم فيها النبى فقسم عليه السلام وقسم له ، فقال الرجل : ما هذا ؟ فقال : « قسمته لك » . قال : ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هنا ، وأشار بيده إلى حلقه ، بسهم فأموت فأدخل الجنة . فقال : « إن تصدق الله يصدقك » ، فلبثوا ثم نهضوا فى قتال العدو فأتى به إلى النبى محمولا قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبى : « أهو هو ؟ » قالوا : نعم ، قال : « صدق الله فصدقه » . ثم كفن فى جبة النبى ثم قدمه فصلى عليه . فكان مما قاله مما ظهر من صلاته دعائه : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك ، فقتل شهيداً ، وأنا شهيد على ذلك » أخرجه النسائى .

وإن الإسلام ليوصى المؤمنين بأن يكونوا واعين بصراء بمن حولهم وما حولهم وبمن يزاملونهم فى القتال ، فلا يتركوا آذانهم يعبث بها المثبطون والمترددون والوجلون وهذا ما ينبه إليه القرآن الكريم ، فقال سبحانه مبيناً حقيقة أولئك جميعاً بالموازنة مع المؤمنين الصادقين : ﴿ لا يَسْتَنْدِئُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) ﴾ إِنَّمَا يَسْتَنْدِئُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿ [التوبة : ٤٤ - ٤٩] .



ب - الصبر :

كل عمل من أعمال الحياة أو المعاش بحاجة إلى الصبر ، كبر هذا العمل أو صغر ، عظم هذا الشيء أو قلّ وضوّلت قيمته والعائد الذي يمكن أن ينتفع به .

فلننظر إلى رب الأسرة الذي يعول أطفاله فإنه يصبر في عمله صبراً يكلفه الكثير من المشاق والمضائك ليوفر لهم ما يحتاجونه من طعام وملابس وعلاج ، إذا مرض أحدهم فكم يتكلف في علاجه ؟ وفي مجال تعليمهم كم يصبر ؟ وكم يعانى حتى يتخرجوا في معاهدهم أو جامعاتهم ؟ أفلا يفرض عليه ذلك العبء أن يدبر المال اللازم للتعليم ، وفي التدبير صبر وإصرار ؟

ونقول مثل ذلك عن الطالب نفسه ألا يفرض عليه مستقبله الذي يتمناه أو يتطلع إليه الجد والاجتهاد والصبر في تلقى العلم واستيعابه ؟

والعالم فى أى فرع من فروع العلم ملزم بفضيلة الصبر فى إجراء التجارب والبحوث حتى يخرج بنتائج تنفع الناس ويتوقعون منها الفوائد . هكذا الصبر . والصبر إصرار واستمرار .

ولما كانت الحرب تسبب الكثير والكثير من المشاق ، فذلك ما هو معلوم فهى تدمر وتفتك وتخرب ما استطاعت التخريب ، وتفسد ما استطاعت الإفساد وتسفك من الدماء ما يطوله سلاحها بغير أدنى اعتبار للمسلمين المنتحين جانباً ، فالجميع سواء فى جحيم القتال كل تلك الأحوال التخريبية تحدث فى النفوس الخوف والاضطراب والخشية من المصير المجهول ، وهذا يفرض على المجاهد مهما نزل بأرض وطنه من كوارث قتالية من الصبر الإيماني عدته وسلاحه وأن يرجع ما قد يصيبه إلى قدر الله وحده ، وأن الله لن يضيع عمله أبداً .

ولقد جسد القرآن الكريم مواقف الابتلاء التى توجب الصبر فى القتال والصبر على العدو فى قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧] وقال سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وتأتى مواصفات الصبر فى ضوء القرآن الكريم على أكرم مقام إنسانى ، فهو ليس الصبر على شهوة من شهوات الدنيا ، أو مغنم من المغنم التى يحرص الناس على اقتنائها والتنافس حولها ، فلقد جاء الصبر فى القرآن الكريم مقترنًا بالتقوى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ والتقوى تراحم وإحقاق للحق ، والتقوى عدل وتعاون ، ثم هى عبودية لله وحده ، فكأن الصبر بهذه الصفة يبوئ المجاهد الدرجة العالية من الشجاعة والإقدام فلا يرتجف ولا يهن ، بعد هذا نقول إن الصبر على أربع درجات لكل درجة مناسبتها وضرورتها القتالية :

الدرجة الأولى : وهى الإقدام الجسور بغير تردد تملأ صاحبها الغيرة والحمية بغير أدنى اكتراث بما قد يصاب به أثناء القتال ، ونضرب لذلك مثلا بالزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ ، فعندما تعذر على العرب فتح حصن باب ، فإنه تسوره وألقى بنفسه فيما وراء الحصن ، وفتح الحصن بتلك المخاطرة التى غالبت النفس . وقد ناط القرآن الكريم الغلب على الأعداء أيا كانت كثرتهم بالصبر ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

الدرجة الثانية : وهى التى يستحر فيها القتال وتعنفُ قصفاته ويصبح الجند فى هول بئيس ، فهنا فإن على المجاهدين أن يعتصموا بالصبر ، فالصبر هو المخرج والرجاء ؛ فقال سبحانه هادياً ومحذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ ، ١٦] هكذا جزاء من يفرق من القتال ، إنه رهيب رعب .

وعند جمهرة من الفقهاء أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ، والآية

السابقة تؤكد ذلك ، ولقد جاء في كتاب « شرح السير الكبير » : والفرار من الزحف من أكبر الكبائر على ما قال ﷺ : « خمس من الكبائر لا كفارة لهن » وذكر في الحديث منها الفرار من الزحف وقال : « إن من أعظم الموبقات الشرك بالله وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات ... » .

الدرجة الثالثة : الصبر عندما يتحقق النصر للمؤمنين إذ تلوح بوادره ، ففي الموقف يكون المجاهدون أحوج إلى الصبر والإصرار ، فلا يغترن المجاهد بأن نصره قد أصبح قاب قوسين أو أدنى ، بل إن عليه أن يتأكد من أن نصره قد جاء بالنتيجة التي خرج من أجلها ، ولنأخذ العبرة مما وقع في غزوة أحد ، فإن الرماة الذين كانوا يحمون الغزاة المجاهدين من ورائهم ، لو كانوا قد صبروا ولم يندفعوا لاستلاب المغنم ما أصاب المسلمين ما أصابهم فكان الحرج الشديد الذي حاق بالمجاهدين الذين صبروا وصابروا ، لأن من كانوا ورائهم لم يصبروا .

الدرجة الرابعة : على الشعب أن يكون صفًا واحدًا ويدًا واحدة وراء قواته المجاهدة يدعمها بما هي في حاجة إليه ، ولا يضمن عليها بما يلزمها متحملاً ما قد ينزل به من خسائر ، وكأنه يقاتل مع مجاهديه ليصد العدو الذي طمع في غزو أرضه أو اعتدى على جزء منها ، إن وحدة الشعب دعامة لقواته المجاهدة وإن صبره لازم ، فلا يتململ ولا يضيق صدره ؛ وفي هذا قال سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

إذن فالفيصل في إحراز النصر هو الصبر القائم على التقوى ، فلا يخشى بأساء ولا يهاب ضراء ، فذلك هو البر أجمل البر ؛ يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] . بمثل هذا

الصبر لم يخش المسلمون بأس عدو ، لا فى عدده ولا فى عديده وما أزعجهم كثافة فرقه . نذكر لذلك مثلاً أنه عندما تكاثر جند الفرس على المسلمين فأراد عمر أن يذهب ليقود الجيش ، فاستشار بعض الصحابة فقال له على رضوان الله عليه : « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة وهو دين الله الذى أظهره وجنده الذى أعده وأمده حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طلع ، ونجن على موعد من الله والله منجز وعده ، وناصر جنده ، ومكان القيم من الأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تبعزق الخرز ، ثم لم يجتمع بحذافيره ، والعرب وإن كانوا قليلاً هم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع ، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم : دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع من العورات أهم إليك مما بين يديك ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا هذا أصل العرب ، فإن قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك ، فأما ما ذكرت من سير القوم إلى قتال المسلمين ، فإن الله تعالى أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عدوهم ، فإننا لم نقاتل بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالصبر والمعونة» .

إن الصبر فى الجهاد يعنى احتمال المشاق ، وما أكثر مشاق الحروب وفداحة ما تحدثه فى المقاتلين . إذن فالجهاد يعلم المقاتل أن يستعين بما يعينه ومن يعينه فى حرب وإن أصابه منه رهق ، قال ابن عمر عن أبيه الفاروق رضى الله عنهما : «كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عامله بالشام : انظر من قبلك فمرهم فليتعلوا وليحتفوا» وما ذكره السرخسى فى التعليق على ذلك الخبر : أى ليمشوا أحياناً فى النعال وليحتفوا أحياناً ليتعودوا ذلك كله ، وهذا معناه أن التعود على احتمال المشاق يعود الجند الخشونة التى تحمى من الاستنامة إلى الدعة والاسترخاء . جاء فى شرح السرخسى أن أبا بكر الصديق نصح جند المسلمين ألا يركنوا وقال : وإياكم والأشر ، ورب الكعبة لتأشرن : والأشر نوع من الطغيان فقال سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى ﴾ [العلق: ٦، ٧] والأشرف في دلالاته الخاصة

نوع من الفرح المصحوب بتنعم واستعلاء ، وإن ذلك ليرتب عليه أمران :

الأول : ألا يبذل الجندى أقصى ما لديه من قوة ولذلك لما أعجب المسلمون

كثرتهم في حنين انهزموا .

الثاني : طغيان مع استرخاء العزائم .

ألا إن توالى النصر وتوالى البطر والأشرف يؤدي إلى الترفه والتنعم ، ولذلك

قال أبو بكر في موقف آخر : « والله لتألمن من النوم على الصوف الأذري كما

يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان » (١) .

ألا إن غلبة الترف موهن لإرادة القتال عند المجاهد ، فهو - أى الترف - يفقده

الصبر ويفقد الحمية ولا تورثه سوى التهرب من القتال ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن

أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ (٩) وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه

لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ٩ - ١١] .

والصبر ليس معناه جهامة أو عبوساً ، أو فظاظة أو جلافة ، ولكنه يترفع عن

ذلك بخلاقت الرجولة الصادقة ففيه تعاطف إنساني وتقارب ودود . فالصبر الحسن

يحسن العمل ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٥] .

والصبر الجميل يقرب البعيد ويحقق المستحيل ؛ فقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا

جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٥ - ٧] .



(١) الصوف الأذري : نسبة إلى أذربيجان . حسك السعدان : شوك حاد .

جـ - الإخلاص :

الإخلاص توأم الصبر ، فالمرء لا يُقْبَلُ على عمل ما لم يكن قد آمن به ، ولا يؤمن به ما لم يصبر على ما يكلفه به ويحوجه إلى أن يتغلب على ما قد تثار فيه من مشكلات ، وصعوبات ولا يتم الصبر بمعنى أن المرء لا يكون صادقاً فيه إلا إذا كان مخلصاً ، على هذا فالإخلاص مبدأ ضروري من مبادئ الجهاد من حيث الإيمان به والصبر على تبعاته ومشقاته .

فالله سبحانه قرن العبادة بالإخلاص فقال جل شأنه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] .

وقال سبحانه : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤] .

فبغير الإخلاص في الجهاد يصبح الجندي مجرد آلة حسبها أن تطلق قذائفها ، حسبها أن تدمر وتقتل ، وبغير الإخلاص يضل القائد عن وضع الخطة الصائبة لمهاجمة العدو حتى وإن أحرز نصراً ، فإنه سيكون نصراً منبئاً لأنه قاصر على موقعه ولحظته ، لذا فكم حث رسول الله ﷺ على ضرورة أن يتكامل الصبر في الجهاد مع الإخلاص في الأداء . فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » رواه الخمسة .

وقال رجل : يا رسول الله : أرأيت رجلاً يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال : « لا شيء له » ، فأعادها ثلاث مرات : « لا شيء له » ، إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وابتغى به فضله » رواه النسائي وأبو داود .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه الله نعمها فعرفها ،

قال : فما فعلت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكن قاتلت أن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقي في النار » رواه أحمد ومسلم .

وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال : « الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة وياسر الشريك واجتنب الفساد فإن نبيه (انتباهه) ونومه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياءً وسمعة وعصى الإمام ، وأفسد في الأرض ، فإنه لن يرجع بالكفاف » رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

وعن الحارث بن مسلم التميمي عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فلما بلغنا المغار (موضع الغارة) استحثت فرسى فسبقت أصحابي فتلقانا أهل الحى بالرنين (صياح حزين) ، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تهرزوا ، فقالوها . فلأمنى أصحابي وقالوا : حرمتنا الغنيمة بعد أن بردت في أيدينا . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت فدعاني فحسن لي ما صنعت ثم قال : « ألا إن الله قد كتب لك بكل إنسان كذا وكذا من الأجر ، ثم قال : أما إنى سأكتب لك كتاباً أوصى بك من يكون بعدى من أئمة المسلمين » ففعل وختم عليه ودفعه إلى . . فلما قبض الله تعالى رسوله ﷺ ، أتيت أبا بكر بالكتاب ففضه وقرأه وأمر لي وختم عليه . ثم أتيت به عمر ففعل مثل ذلك . ثم أتيت به عثمان ففعل مثل ذلك ، قال مسلم : فتوفى أبى في خلافة عثمان . فكان الكتاب عندنا حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فكتب إلى عامل قبلنا : أن أشخص إلى مسلم بن الحارث التميمي بكتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه لأبى . قال : فشخصت به إليه فقرأه ، وأمر لي وختم عليه ، ثم قال : أما إنى لم أبعث إليك إلا لتحدثنى بما حدثك أبوك به ، قال : فحدثته بالحديث على وجهه .



د- الحب :

إن الحيوية الإنسانية تتجسد في فطرة واحدة هي الحب ، ولحب المقام الأكرم في وجود الإنسان ، وهذا ما يذكره القرآن الكريم مبيناً ومفسراً ، فخلق الإنسان شمولي يضم كل صور أعمال الإنسان . فكأن الله جل شأنه يهدي الناس بالحب إلى الحب . ومن هنا فالفطرة الإنسانية كما خلقها الله هي بطبيعتها محبة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] .

إذن ، فالحب دليل الإيمان بالله ؛ فقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦] .

فباسم الحب لا يحب الله المعتدين ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

وباسم الحب لا يحب الله الظالمين ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧] .

وباسم الحب لا يحب الله المختال الفخور ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] .

وباسم الحب لا يحب الله المفسدين في الأرض ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧] .

وباسم الحب يحب الله أن يكون إنفاق الإنسان على نفسه وعمله من المال الطيب ؛ فقال سبحانه : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وفي الجهاد في سبيل الله فإن الله يحب باسم الحب أن يكون جيش معداً ومنظماً حسب ما يلزم من القتال فلا ارتجال ولا فوضى ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ ﴾ [الصف: ٤] .



تلك هي الضرورة العليا لخلق الحب بالنسبة للإيمان بالله ، وبناء النفس الإنسانية ، وعمارة الأرض بالحضارة الإسلامية والدفاع عنها إذا ما جار عليها جائر أو بغى عليها باغ ممن يحيكون المؤامرات على الإسلام وديار المسلمين .

من هنا يمكننا أن نقول : إن الحب هو المعيار الذي تقاس به درجة الإيمان والصبر والإخلاص في الجهاد . فهذا خيثمة أبو سعد يريد الخروج مع النبي ﷺ في غزوة بدر ، فيأتي ولده سعد يجادله في أن يخرج هو بدلاً منه وأخيراً يستهمان فتخرج القرعة في نصيب ولده سعد ، فيأتي إليه أبو خيثمة ، ويطلب منه أن يؤثره عليه في الخروج ، فيقول له سعد : « والله يا أبت لو كان ما تطلبه مني غير الجنة لفعلت » .

ولقد خرج سعد مع رسول الله ﷺ واستشهد في غزوة بدر ، وقال خيثمة عند الخروج إلى غزوة أحد في السنة الثانية : « لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت والله عليها حريصاً حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج في القرعة سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ويقول : الحق بنا ترافقتنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً » ثم قال : « وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبر سني ورق عظمي وأحببت لقاء ربي ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني في الجنة » فدعا له الرسول فقتل بأحد شهيداً .

وها هو جابر بن عبد الله يخلفه أبوه على أخوات له سبع ويذهب الوالد إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، ويقول لولده جابر : « يا بني ، لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذي أوثرك على نفسي بالجهاد مع رسول الله ﷺ فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن » وقد استشهد والد جابر في غزوة أحد ، ففاضت روحه إلى ربها راضية مرضية .. وقد قال فيه ﷺ : « ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع » .

وروى أن رسول الله ﷺ لما حث المؤمنين في غزوة بدر الكبرى على الصبر

والثبات للوصول إلى النصر والظفر العاجل وثواب الله الآجل ، وأخبرهم بأن الله قد أوجب لمن استشهد في سبيله جنة عرضها السموات والأرض . قال أحد الصحابة : بخ بخ يا رسول الله . قال : « ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج ثمرات من قرنه (جعبته) فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل .

ومن بشارات الحب للجهاد أن رسول الله ﷺ وهو يستعرض الجيش رأى بين جنوده أطفالاً صغاراً ، فردهم ، ولكن فتى صغيراً اسمه رافع بن خديج أخذ يتناول على أطراف أصابع قدميه ليوهم الرسول ﷺ أنه بلغ مبلغ الرجال ، فيرضى عنه ﷺ ويتركه بعد أن قيل له إنه رام ، فلما أجاز رافعاً قيل له : يا رسول الله : إن سمرة (بن جندب الفزاري) يصرع رافعاً فأجازه ، ورد أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم لصغرهم .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شهداء يجاهدون مع رسول الله ﷺ فلما توجه عليه السلام إلى أحد أراد أن يخرج معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ [الفتح: ١٧] فأتى عمرو رسول الله ﷺ ، فقال : إن بنى هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة . فقال له رسول الله ﷺ : « أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد » . وقال لبنيه : « وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة » فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً .

وهناك نوع من الحب يسمو على حب الجهاد غير أن درجة خاصة وإنها لدرجة الاستثناء الخاص ، إن أجزى هذا التعبير وهو حب الوالدين . . ولقد قال فيهما سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفَّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

وهناك أحاديث عن رسول الله ﷺ عن أفضلية بر الوالدين على الجهاد ، وعن وجوب استئذانهم في الجهاد .

ففيما رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » .

وما رواه البخارى والنسائى وأبو داود والترمذى وصححه عن عبد الله بن عمر ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : « أحمى والدك؟ » قال : نعم . قال : « ففیهما فجاهد » .

وما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه قال : أتى رجل فقال يا رسول الله : إننى جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإن والدى يبيكان . قال : « فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » .

وما رواه أبو داود عن أبى سعيد أن رجلا هاجر إلى النبى ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد فى اليمن ؟ » فقال : أبواى ، فقال : أذنا لك ؟ فقال : لا ، قال : « ارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما » .

وما رواه أحمد والنسائى عن معاوية بن جاهمة السلمى أن أبا جاهمة أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله أردت الجهاد وجئت أستشيرك . فقال : « هل لك من أم ؟ » قال : نعم . فقال : « الزمها فإن الجنة عند رجلها » .

وما أخرجه ابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو . قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال ، قال : « الصلاة » ، قال : ثم مه ؟ قال : « الجهاد » ، فإن لى والدين ، فقال : « أمرك بوالديك خيراً » ، فقال : والذى بعثك نبياً لأجاهدن ولأتركنهما . قال : « فأنت أعلم » .

ويشترط في الأبوين أن يكونا مسلمين فإن لم يكونا مسلمين فلا حاجة لاستئذانهما في الجهاد ، وإذا كان الوالدان مسلمين وكان هلاكهما متحققاً بتركهما بحيث يكونان ضعافاً جداً غير قادرين بخدمة أنفسهما بحال ، وليس هناك من يقوم بخدمتهما سوى ولدهما فعندها يبقى الابن عندهما حرصاً على حياتهما .

وفى هذا غاية الحب في الجهاد . والإيمان بالجهاد . .

هـ - الطاعة :

الطاعة فريضة واجبة على المؤمنين فبغيرها يستحيل أن يكون ثمة إيمان . ففي الطاعة كما جاء في القرآن الكريم تتمثل العبودية لله وحده وفيها وجبت الطاعة دستوراً ونظاماً للمؤمنين عليهم أن يهتدوا به ففيه خيرهم وفلاحهم وفيه حرمتهم التي تعينهم على العمل والبناء والإعمار ، وذلك على هدى ورشاد من أمر الله وشريعته وأمره قاطع لا سبيل إلى الالتفاف حوله أو الإغضاء منه - وشريعة الله سمحة جليلة تتيح للمؤمن حرية العمل وحرية التفكير والتدبر .

وفريضة الطاعة لله إذ هي واجبة مطلقة الوجوب فقد جاء بها القرآن الكريم على نسق تدريجي لتحسم كل أمر من أمور الإنسانية وقضية من قضايا وجودها ، فقد قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] .

ففريضة الطاعة هنا جاءت على درجات متكاملة لا يمكن فصل درجة عن الأخرى ، فطاعة الله أولاً توجب طاعة رسوله ﷺ ، وطاعة الرسول توجب طاعة أولى الأمر . فإذا وقع تنازع في قضية من قضايا المسلمين فإنها تُرد أولاً إلى الله ورسوله ، وذلك هو معيار الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهذا المنهاج هو طريق الخير وطريق الصواب في التصحيح والتأويل .

على هذا فطاعة أولى الأمر يجب أن يكون لها وزنها فلا ينبغي عصيانها أو

الخروج عليها ، أما حين يحدث ثمة اختلاف في تصريف أمر من أمور المسلمين فإن على الجميع أن يلتزموا بطاعة الله ورسوله خشية البوار والخسران ، لذلك حذر القرآن الكريم من فتنة التنازع لما لها من خطر لا شك فيه على مصير المسلمين . فالتنازع كفيل بأن يضعف قوة المسلمين فيبدد شملهم ويذهب وجودهم فقال سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

وتلك قاعدة من ألزم القواعد للجهد في سبيل الله وقد جاءت مقترنة بضرورة الصبر، وإنه للصبر الذي لن يخذله الله أبداً فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ويؤخذ من فريضة الطاعة كما جاءت في القرآن الكريم وإمكانية تصحيح مواقف المسلمين على أساسها ، أن الطاعة من الضروريات العليا للجيش أو القوات المسلحة بعامه . فالطاعة الكاملة للقيادة العسكرية كبرت هذه القيادة أم صغرت واجبة حتى ولو كانت القوة مؤلفة من ثلاثة جنود ، فإن أقدمهم يكون هو القائد إذا تساوا في الرتبة فيكون أمره واجب التنفيذ بغير أدنى اعتراض ، ولذا فإن من العبارات العسكرية التقليدية : « نفذ الأمر الأخير ولو كان خطأ » ما يعنى الطاعة للقيادة .

وإن من معانى الطاعة العسكرية الحرص على التدريب على السلاح وإتقان فنون القتال . ولقد قال رسول الله ﷺ عن الطاعة وصلتها بالجهاد : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » رواه البخارى من حديث أبى هريرة . وفيه زيادة عن البخارى : « وإنما الإمام جنة (وقاية) يقاتل من ورائه ويتقى به ، فإن أمر بتقوى الله وعدل ، فإن له بذلك أجراً ، وإن قال بغيره فإن له منه » وقال ﷺ : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » البخارى كتاب الأحكام . وقال ﷺ : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا

سمع ولا طاعة « البخارى - كتاب الأحكام .

إذن فكأن القتال قد شرع مع كل بر وفاجر ؛ فعن أنس رضى الله عنه قال :
قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من أصل الإيمان ، الكف عن من قال : لا إله إلا الله ،
لا نكفره بذنوب ولا نخرجه عن الإسلام بعمل . والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن
يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . والإيمان بالقدر ... »
رواه أبو داود وحكاه أحمد فى رواية ابنه عبد الله .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ قال ، قال رسول الله ﷺ : « الجهاد ماض
مع البر والفاجر » .

وعن جابر عن النبى ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق
ظاهرين إلى يوم القيامة » .

نعم ، طاعة الأمير أو القائد فى الحرب واجبة ، إلا فى معصية إذ لا طاعة
لمخلوق فى معصية الخالق . فعن على رضوان الله عليه قال : بعث رسول الله
ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ،
فعضوه فى شىء ، فقال : اجمعوا حطباً ، فجمعوا ، ثم قال : أوقدوا ،
فأوقدوا ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا ؟ قالوا :
بلى ، قال : فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله
ﷺ من النار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه وطفئت النار . فلما رجعوا ذكروا
ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « لو دخلوها لم يخرجوا منها » وقال : « لا طاعة
لمخلوق فى معصية الخالق وإنما الطاعة فى المعروف » .

ولمخالفة أوامر القائد شأن له خطورته المحتمومة على سير المعركة . ومثال ذلك
غزوة أحد فعندما خالف معظم الرماة أمر رسول الله ﷺ وهجروا مواقعهم التى
حددها لهم ليحموا ظهور المسلمين ، واندفعوا لانتهاج الغنائم ظنا منهم أن المعركة
قد انتهت ، وأن الهزيمة لحقت بالمشركين الذين فروا هارين ، ولحظتها اندفع خالد

ابن الوليد - وكان لا يزال على الشرك - فتعقب المسلمين وهزمهم هزيمة شديدة .
والطاعة تفرض على المجاهد أن يدأب على التدريب على سلاحه فلا يغتر
لحظة واحدة عنه أو يرجئه إلى حين ، إن التدريب والطاعة فيه والصبر عليه يبعث
فى إرادة المقاتل ونفسه حمية القتال عن خبرة ودراية بالسلاح الذى يستخدمه وما
أكثر أنواع الأسلحة فى عصرنا ، ولقد كانت قوة الرمى هى السلاح المؤثر على
عهد رسول الله ﷺ . . روى مسلم فى صحيحه عن عقبه بن عامر أنه سمع
رسول الله ﷺ يقول : « ألا إن القوة الرمى » قالها ثلاثا .

وعن سلمة بن الأكوع قال : مر رسول الله ﷺ على نفر من أسلم ينتصلون
فى السوق (التناضل : الترامى للسبق فى إصابة الهدف) ، فقال : « ارموا يا بنى
إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بنى فلان » . قال : فأمسك أحد
الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لكم لا ترمون ؟ » قالوا : كيف
نرمى وأنت منهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم كلكم » رواه أحمد والبخارى .

وعن عقبه بن عامر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من علم الرمى ثم
تركه فليس منا » رواه أحمد ومسلم .

وعن عقبه بن عامر أن النبى ﷺ قال : « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة
نفر الجنة : صانعه الذى يحتسب فى صنعه الخير ، والذى يجهر به فى سبيل الله
والذى يرمى به فى سبيل الله » . وقال : « ارموا واركبوا ، فإن ترموا خير لكم من
أن تركبوا » . وقال : « كل شىء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة : رمية عن
قوسه ، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق » رواه الخمسة .

وعن عمر بن عنبسة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رمى بسهم
فهو له عدل محرر (أى من رق العذاب) » رواه الخمسة وصححه الترمذى .

وعن عقبه بن عامر عن النبى ﷺ ، قال : « ستفتح عليكم أرضون
ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » .

آمنا وصبرنا .. وأخلصنا .. وأعدنا وتدرّبنا .. وأطعنا .. وحانت لحظة القتال فعلينا إذن أن نتوكل على الله فهو معيننا وناصرنا ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩] .. وقال سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١] .

أيقول المجاهدون : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [المتحنة: ٤] .

٥ - النصر أو الشهادة :

ها هم المجاهدون وقد أشرفوا على الاشتباك مع العدو .. إنهم يتجهون نحوه ليردوا كيده عن عقيدتهم وأعراضهم وديارهم وأمانتهم نحو الحضارة الإنسانية .. وإن من حقهم علينا أن نكرمهم ونبعث فيهم حمية الجهاد ونقول لهم : إن الله معكم وإننا معكم . فلا تخشوا بأساً ولا رهقاً .

إن تكريم المجاهدين عند ذهابهم إلى الميدان تقليد إسلامي علينا ألا نخفل عنه أو ننساه ، لقد سانه رسول الله ﷺ للمسلمين وقواتهم تأخذ طريقها إلى ميدان القتال ، عن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَأَنْ أَشِيعَ غَازِيَا فَأَكْفِيهِ فِي رَحْلِهِ (أَسَاعِدُهُ عَلَيْهِ) غَدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » رواه أحمد وابن ماجه .

مشى رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد (بقيع الغرقد مقبرة المدينة المنورة) ثم وجههم (أى جند المسلمين) ثم قال : « انطلقوا باسم الله » وقال : « اللهم أعنهم » يعنى نفر الذين وجههم إلى كعب بن الأشرف . رواه أحمد .

وعن عبد الله الخطمي رضى الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أراد أن يستودع الجيش قال : « أستودعكم الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم » رواه أصحاب السنن بسند صحيح .

وكذلك صنع أبو بكر الصديق رضى الله عنه مع أسامة بن زيد وهو ذاهب لقتال أعداء الله ، فقد مشى أبو بكر إلى جانب أسامة وهو راكب وغلب الحياء



أسامة أن يرى أبا بكر الصديق ، وهو الشيخ الجليل أن يسير إلى جانبه ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف فقال: يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن.. قال أبو بكر : والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة » ، فلما أن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر . .

منتهى التكريم والتبجيل ، وغاية التواضع والإيمان . .

وإذا كان تكريم المجاهدين واجباً عند توجيههم إلى الميدان ، فهو واجب كذلك عند عودتهم من القتال منتصرين وقد أدوا واجبهم ، وهذا ما فعله اليوم عند عودتهم إذ نقيم لهم المهرجانات والاحتفالات ونكرمهم بالأنواط والنياشين . وما نذكره في هذا المقام أن السائب بن زيد روى أنه لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع وهي عقبة بطريق المدينة نحو الشام كانوا يودعون المسافر إليها ويستقبلونه عندها فيستحب توديع المسافر واستقباله عندها .

وإذا كان التكريم مطلوباً عند توديع الجيش الذاهب ومطلوباً كذلك عند أوبته ، فإنه لمن الإيمان أن تكون قلوب المجاهدين ذاكرة لله سبحانه تدعوه ولو همساً في صدورهم أن ينصرهم الله ويمكنهم من عدوهم ، فالدعاء عند القتال سلوك إيماني مرغوب بل مطلوب ، فعن عبد الله بن أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ فى بعض السياحة التى لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : « أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم » رواه الثلاثة .

وفى يوم الأحزاب دعا رسول الله ﷺ فقال : « اللهم منزل الكتاب سريع

الحساب وهازم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم » رواه الشيخان والترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال : « اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أجول (أَدْفَعُ كَيْدَ الْعَدُوِّ) وبك أصول - أحمل على العدو - ، وبك أقاتل » رواه أصحاب السنن بسند حسن .

ولأبى داود أن رسول الله ﷺ قال : « اثنتان لا تُردان : الدعاء عند النداء وحين البأس - حين يلحم بعضهم بعضاً » .

ولقد دعا رسول الله ﷺ ربه يوم بدر فقال : « اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

وسواء نحن فى التكريم أو الدعاء ، أو التحريض ، فكلها إعداد إيمانى لخوض المعركة . . وأزفت آفة الجهاد . .



الشهداء أحياء عند ربهم

ودارت المعارك والله سبحانه ينادى المجاهدين فى قرآنه الكريم فيقول لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] .

ويقول لهم : ﴿ إِن يَنصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرْكُمْ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] .

ويقول لهم : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] أجل ، ثم كان نصر الله . .

ومن الطبيعى أن يسقط فى المعارك قتلى وجرحى ، أما من فقدوا أنفسهم من المسلمين فليسوا على درجة سواء مع قتلى أعدائهم فقتلى المسلمين لهم الجزاء الأوفى والأكرم من الله سبحانه فهم شهداء وليسوا أمواتاً كسائر الأموات ؛ فقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٦٩)

ولقد بين الرسول ﷺ في الكثير من الأحاديث أن الشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليموت مرة أخرى وذلك لما شاهده من أفضل الشهادة وكرمها فعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى » رواه الخمسة .

وللنسائي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يوتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله : يا بن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن . فيقول : أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات » وذلك لما يرى من فضل الشهادة .

وعن أبي عميرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن أقتل في سبيل الله أحب إليّ من أن يكون لى أهل المدر والوبر » (البادية والحاضرة) وللشهداء امتيازات متميزة تقديراً لهم وتكريماً .

عن راشد بن سعد رضى الله عنه عن رجل من الصحابة أن رجلاً قال : يا رسول الله : ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ فقال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » أخرجه النسائي . . وهذا امتياز للشهيد .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » رواه الترمذى والنسائي والدارمى . وهذا امتياز آخر للشهيد .

وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » رواه أبو داود والترمذى . وهذا امتياز آخر للشهيد .

ويفوز الشهيد بأعلى مقامات الجنان فعن أم حارثة بنت سراقه أنها أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب (لا يعرفه راميّه) فإن كان في الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، قال : « يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس

الأعلى « رواه البخارى .

وقد أخرج الحاكم من حديث أنس رضى الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيت إن انغمست فى المشركين فقاتلتهم حتى قتلت ، ألى الجنة ؟ قال : « نعم » فانغمس الرجل فى صف المشركين فقاتل حتى قتل .

وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قتلت ؟ قال : « فى الجنة » فألقى ثمرات كن بيده ثم قاتل حتى قُتل .

وروى الترمذى بسند حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه » .

وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء (العاملون) ثم الشهداء » .

وعن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجب ربنا عز وجل من رجل غزا فى سبيل الله ، فانهزم أصحابه فعلم ما عليه ، فرجع حتى أهرىق دمه ، فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ومشفقة مما عندى حتى أهرىق دمه » رواه أبو داود بسند صحيح .

وعن البراء رضى الله عنه قال : جاء رجل من بني النبيت (قبيلة من الأنصار)، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل فقال النبى ﷺ : « عمل هذا يسيراً وأجر كثيراً » .

وروى ابن إسحاق فى المغازى عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : لما التقى الناس ببدر قال العوف بن الحارث : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : « أن يراه غمس يده فى القاتل يقاتل حاسراً فنزع درعه ثم تقدم فقاتل حتى قُتل » .

وعن عمر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس أعينهم إليه يوم القيامة هكذا » ، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته فال : فما أدرى قلنسوة عمر أم قلنسوة النبي ﷺ ؛ « ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو كأنما ضرب العدو جلده بشوك طلع من الجنب أتاه سهم غرب (لا يعرف من رماه) فقتله فهو فى الدرجة الثانية ؛ ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ؛ ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة » رواه الترمذى .

إذن فالمجاهد فى سبيل الله له أمنية واحدة هو أن ينال الشهادة فى سبيل الله عقيدته ، فذلك غاية ما يحرص عليه وأكرم ما يتمناه ، ولا يؤلمه شىء قدر ما يؤلمه أن تتخلى عنه ، وخير مثال لذلك ما قاله خالد بن الوليد عن نفسه فقد قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء » .



الاستشهاد وتكفير الذنوب

هل إذا استشهد المجاهد فى سبيل الله ، فهل استشهاده يكفر عنه جميع ذنوبه حتى الدين ؟ أم أن الدين حالة ذات وضع خاص ؟

نستبين الحقيقة فيما ورد من أحاديث لرسول الله ﷺ .

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدين ، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك » رواه أحمد ومسلم .

وعن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ، فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم ، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . . ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم ، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك » رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وصححه .

وفي تقدير بعض العلماء أن المدين لا يخرج إلى الجهاد حين يكون فرض كفاية (أى متطوعاً) إلا بإذن دائنه لا سيما إذا كان الدين حالا ، أما إذا كان مؤجلاً ففيه خلاف ، غير أن بقاء الدين في ذمة الشهيد لا يحجب أجر الشهادة ، بل هو شهيد مغفور له كل ذنب إلا الدين ، أما حين يكون الجهاد فرض عين أى وجب على جميع أفراد الأمة المشاركة فيه ، فإن من حق المدين الخروج إلى الجهاد رضى الدائن أو أبى .



جهاد النساء

للمرأة مكانتها في الإسلام . . فقد نالت حقوقها كاملة غير مغبونة فيها :
حقها كإنسانة لها ما لها من حقوق . . وعليها ما عليها من واجبات .
وحقها كأماً لها ما لها من حقوق . . وعليها ما عليها من واجبات .
وحقها كزوجة لها ما لها من حقوق . . وعليها ما عليها من واجبات .
وكذلك كأخت . . وجارة . . وزميلة عمل .

الرجل والمرأة صنوان ، من أزومة واحدة ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿ [النساء: ١] . وليس من الإيمان ولا من الإسلام أن تبخس المرأة في أى حق لا سيما حق المعاشرة الطيبة مع زوجها ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿ [النساء: ١٩] .

وقضى الله سبحانه بأن تباع النساء كما بايع الرجال ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [المتحنة: ١٢] .

وقد أوصى الرسول ﷺ بالنساء أجمل إيصاء وأكرمه . . فقال ﷺ :

« خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائه » .

« ما أكرم النساء إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم » .

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

« ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن » .

فهل للمرأة ولها هذه المكانة أن تجاهد في سبيل الله ؟

وكيف يكون نوع جهادها ؟

هل عليها أن تقاوم كما يقاوم الرجل ؟

هل لها عمل خاص في الجهاد يتفق وطبيعتها وفطرتها ؟

هل هناك موقف قتالي محدد يحتم عليها بل يفرض عليها الاشتراك في

القتال ؟

إن الأحاديث الشريفة التي قال الرسول ﷺ هي خير ما يجب على هذه

التساؤلات ويهدينا سواء السبيل .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، على النساء جهاد ؟ قال :
« نعم ، جهاد لا قتال فيه هو الحج والعمرة » رواه ابن ماجه .

إلا أن للمرأة عملاً خاصاً فى الجهاد عبرت عنه الأحاديث الشريف الآتية :

فعن أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ ولقيت رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمرتان أى خدم سوقهما (أى الخلاخل) تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانهما فى أفواه القوم ، ثم ترجعان متملانهما ثم تجيئان فتفرغانهما فى أفواه القوم . رواه الشيخان .

وعن أنس أيضا : كان النبى ﷺ يغزو بأمر سليم ونسوة من الأنصار معه فيسقين الماء ويذاوين الجرحى ، رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وقالت الربيع بنت معوذ رضى الله عنها : كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة . رواه البخارى .

وقالت أم عطية رضى الله عنها : غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى رواه مسلم .

أما حمل النساء للسلاح أثناء القتال فإنهن حملنه دفاعاً عن أنفسهن ، أما إذا وجد أن لا بد من أن يشاركن فى القتال إلى جانب الرجال فليس عليهم أن يتأخرن .

أخرج مسلم من حديث أنس : أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين وقالت للنبي ﷺ : اتخذته إن دنا منى أحد بقرت بطنه .

أما نسيبة بنت كعب أم عمارة فقد شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ وشهدت أختها وزوجها زيد بن عاصم بن كعب وابناها حبيب بن زيد ، وعبد الله بن زيد ، وابنها حبيب هو الذى أخذه مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة فجعل يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أفشهد أنى رسول الله ؟

فيقول : لا أسمع ، وجعل يقطعه عضوا عضوا حتى فى يده ، لا يزيدة على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع ، فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين فباشرت الحرب حتى قتل الله مسيلمة ورجعت بها باثني عشر جرحا بين طعنة وضربة .

ولقد قالت أم عمارة نسيبة بنت سعد بن الربيع كانت تقول : دخلت على أم عمارة فقلت لها : يا خالة ، أخبريني خبرك فقالت : « خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فأنتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه والدولة (الغلبة) والريح (النصر) للمسلمين . فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقامت بأبشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عنه القوس ، حتى خلصت الجراح إلى » فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ فقالت : ابن قمئة أقماه الله . ولما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل بقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » .

وبسبب قتال نسيبة الشديد يوم أحد روى أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : «لما نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان » وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ، وإنما لحاجة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا ورجعت من أحد مهشمة جدا ، ثم فى ثانى الأيام نادى منادى رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد (وقع) فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزع الدم ، قالت ضمرة : « لقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح حتى أصبحنا فلما رجع رسول الله ﷺ من حمراء الأسد ، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازنى يسأل عنها فرجع إليها فأخبره بسلامتها فسر بذلك .

وعن عبد الله بن زيد المازنى قال : جرحت يوم أحد جرحاً فى عضدى اليسرى ضربنى رجل كأنه الرقل (النخلة الطويلة) ولم يعرج على ومضى عنى

وجعل الدم لا يرقأ ، فقال رسول الله ﷺ : « اعصب جرحك » ، فتقبل أمى ومعه عصاب فى حقويها (وسط الجسم) وقد أعدتها للجراح ، فربطت جرحى والنبي ﷺ ينظر إليها ، ثم قالت : انهض يا بنى فحارب القوم . فجعل رسول الله ﷺ يقول : « ومن يطبق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ » قال : وأقبل الرجل الذى ضربنى ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا ضارب ابنك » ، فاعترضت أمى له فضربت ساقه فبرك فرأيت النبي ﷺ تبسم حتى بدت نواجذه ثم قال : « استقدت يا أم عمارة » ثم أقبلنا عليه بالسلاح حتى أتينا على نفسه (انقطع نفسه) فقال النبي ﷺ : « الحمد لله الذى أظفرك فأقر عينك من عدوك ، وأراك تارك بعينك » .

وقال عمر رضى الله عنه عن نسيية : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم أحد : « ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دونى » .

وعن عبد الله بن عاصم قال : شهدت أحدا مع رسول الله ﷺ ، فلما تفرق الناس عنه دنوت منه وأمى تذب عنه فقال : « يا بنى عمار » ، قلت : نعم ، قال : « ارم » فرميت بين يده رجلا من المشركين بحجر وهو على فرس ، فأصيبت عين الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة حتى نضت عليها منها وقرأ (أى مات) ، والنبي ﷺ ينظر ويبتسم ، فنظر إلى جرح بأمى على عاتقها . فقال : « أمك أمك ، اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيك (يعنى زوج أمه) خير من مقام فلان رحمكم الله من أهل بيت » فقالت أمى : ادع لنا يا رسول الله أن نرافقك فى الجنة . . فقال : « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » . قالت : فما أبالى ما أصابنى من الدنيا .

هذا هو حظ المرأة من الاشتراك فى الجهاد وإنه لحظ عظيم . . .







الفصل الثالث

سياسة الجهاد



الفصل الثالث

سياسة الجهاد

أ - العبقرية العسكرية للجهاد الإسلامي:

العسكرية فطرة عربية:

من البدهيات التي لا يمكن التشكيك فيها أو التغاضي عنها أن العقيدة قوة يستحيل استبدالها بقوة أخرى لمن لا يحوزها ، وإن كانت قوة العقيدة بمفردها لا يمكن الاكتفاء بها عن الخبرة والاستعداد ، ولذا فإنه يعسر أن نعرفنا أسباب اختلاف الفوز باختلاف الخطط والقواد ، فإذا جئنا إلى تقويم الفطرة العسكرية العربية بناء على هذه البدهية فإننا نعرض أطوار العسكرية العربية منذ فطرتها الأولى . فالصور الشائعة في أذهان الكثرة الغالبة من الناس عن البادية أن حروب الصحراء التي كانت تنشب بين قبائلها وبطونها لم تزد عن كونها مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع وذلك على غير نظام وعلى غير منهاج تقليدي يمكن أن يفضى إلى فن يتعلمه طالبه ، ويتقل كميراث اجتماعي له أهميته إلى الأخلاف الذين يأتون بعد ذلك .

إذن فالتصور الذائع عن حروب البادية أنها عبارة عن مباغيات لشراذم من المغيرين تنقض بسرعة خاطفة ، ثم تُدبر بما حملت أو غنمت ، وذلك أقصى ما تعرفه البادية من فن الحرب ، سطوة مباغته ثم فرار مباغت ، وتلك صورة مضللة لمن يريد أن يتعرف على قدرة البادية على الحروب الكبيرة فضلاً عن المناوشات الصغيرة ، وإنه لمن الخطأ التسليم بهذه الصورة ؛ لأنه ليس من الصواب ولا من الصدق أن نستهن بالرياضة التي تُدرب عليها الأجيال المتعاقبة ؛ إذ أنها تدرب عليها كسنة اجتماعية لا غناء عنها ، وحتى لو صح أن تلك المناوشات التي تعرف اليوم بما يسمى بحرب العصابات ، هي كل ما حذقه أهل البادية أو أهل الصحراء

فإنها كانت تقوم على نظام كفن من فنون القتال لم تستغن عنها الجيوش إلى يومنا هذا .

إذن ، فمما لا جدال فيه أن أجيال الصحراء فى تعاقبها قد انتهجت حروب العصابات التى كانت القبائل تسهم فيها وهى بين معتدية أو معتدى عليها ، وكأن حياة البدوى كانت هى المعنية آنئذ بما جاء فى التوراة : « يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه » . . بذلك أصبح البدوى على ملكة مطبوعة يمكن أن نطلق عليها بغير غلو : « حاسة الحرب » ، أو اليقظة الداعية إلى الميدان ؛ وإنها لليقظة التى لم تتخل عنه فى ليل أو نهار . فهو دائم على توقع الهجوم عليه فى أية لحظة . فكان أن أخذ أهبطه وحيطته بالاستعداد للنضال بقلبه وسلاحه وغيرته .

« وحاسة الحرب » تلك ، أو ملكة الفن القتالى لم يكن لأبناء المدن أن يكسبوها وهم غير مَبَاغَتِينَ بالإغارة فى لحظة من ليل أو نهار ، وكيف وهم آمنون فى مدنهم بفضل حماية ملوكهم ؟ ، فهم من ثم لا يهبون إلى ميدان القتال إلا فى الحين بعد الحين ، ولذا فهم لا يتدربون على القتال إلا على فترات محددة أما فى أغلب الأوقات فهم لا يقتربون منه .

على أن أهل الصحراء يكتسبون من حروب العصابات فى أجيالهم المتعاقبة مزايا نفسية عميقة الأثر ، إذ يصبح الصبر على الفرار من خصالهم وأن أفئدتهم تصبح صامدة على احتمال الفرار والإدبار الذى يصبح فى ذاته فناً من فنون الحركات القتالية فى كل معركة يخوضونها ، فالفرار أو الإدبار ليس هزيمة يُردع فيها القلب وينزعج الوجدان حتى إن صاحبها ليظن أنه قد خسر كل رجاء ، ولم تبق له من حيلة إلا الاستمرار فى القتال غير التسليم .

فمقاتل الصحراء يظل على أهبطه لاستئناف القتال سواء فى إقباله أو إدباره ، وسواء كان له رجاء فى النصر أو لم يجد منها إلا أن يفوز بالنجاة ، وكأنه فى حركاته وهو بين التقدم والتأخر ، أو بين الانتقال من الشمال إلى اليمين - يجرى على خطة مرسومة يقتفيها ببصيرة سليمة ، بل كأن تلك التحركات على اختلاف

اتجاهاتها من طبائعه التي فطر عليها منذ وجوده الأول .

ومن هنا أصبح في مقدور القواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يسيطروا على فرق الجيش إذا أصابته هزيمة وذلك في عدة سويعات ، وأن يتفادوا الخذلان ، وذلك مما يصعب على الجيوش المنظمة أن تعالجه في غير زمن طويل .

ومن الحقائق العسكرية أن العصابات المغيرة وهي على دأبها في مرانها الطويل تكتسب علماً بأصول الاستطلاع والمباغثة والتبييت والمخاتلة وتقدير اللحظات التي يجب التراجع والإفلات ، ورغم أن كل تلك التحركات تتصف بالبساطة إلا أنه مما لا مناص منها في ميادين القتال كبرت أم صغرت ، هذا إذا فرضنا أن حروب العصابات هي كل ما أتقنه عرب الصحراء من فنون القتال في تاريخهم القديم ، وهذا مما لا يصدق إطلاقاً مع الفطرة العسكرية عند العرب ، فالعرب كانوا على خبرة ودراية في الحروب التي نشبت بينهم كانوا يعرفون كيف يعبئون الجيوش بعشرات الآلاف على اختلاف الأسلحة والأقسام ، ويذكر لنا التاريخ أن جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماء كان فيما يقرب من أربعين ألف مقاتل بين راجل وفارس وكان يضم في صفوفه راكبي الخيل وراكبي الإبل وحاملي السيوف وحاملي الرماح والمصوبين للسهام والنبل والمصوبين للحراب والحجارة .

وسواء الغساسنة أو المناذرة فقد كانوا أصحاب ملك شامخ لا يصعب عليهم أن يسيروا تلك الألوف الهائلة إلى الميادين ، ولكن القبائل لم تكن على مثل ذلك الثراء القتالي ، إن أجيز هذا التعبير ، فكان حسبها أن تسوق الألوف للقاء ما يماثلها وهي على عدد لا يرتفع كثيراً فوق الجيش في عصرنا الحديث ، فمثلاً قبيلة مذحج واجهت تيمماً يوم الكلاب الثاني بثمانية آلاف ، ووقع بين الفريقين من تحركات الاستطلاع والتمويه والهجوم والمطاردة وهو ما يضم عناصر النضال التي لا غنى عنها في أي زمان .

إلا أن البادية لم ينقصها علم الحرب كما علمته أمم الحضارات العليا في

عصور الجاهلية القريبة ، فكانت غسان مجاورة للروم تنخرط معهم ضمن الفرق المتطوعة فى حالتى الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة قريين من الفرس يخدمون فى كتيبتين من الجيش الفارسى هما : الشهباء ، والدوس أو «الدوشير» ، بمعنى الأسدین شعار الدولة الفارسية ، أما جند الشهباء فكانوا من أبناء فارس وجند الدوس من أبناء القبائل العربية ، وإنه لتكفى هذه المقاربة أو هذه القدوة لالتقاط الفنون التى يحتاج إليها العربى فى تعبئة الجيوش ولليقظة للمباغيات التى عليه أن يتقيها وهو يواجه التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة . وقد تمثل ذلك التطعيم الحربى فى وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الدولة الفارسية . فقد كان العرب فى هذه الموقعة أبرع فى القيادة وأشمل دراية بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية فلم يهملوا أية وسيلة من وسائل الاحتياط اللازمة أو أن يصطنعوا حيلة يجدونها نافعة قبل أن يشتبكوا مع الجيوش الفارسية فبعثوا الطلائع للاستكشاف ورصدوا العيون للمراقبة ، وقسموا قواتهم إلى ميمنة قام عليها بنو عجل ، وميسرة قام عليها بنو شيبان ، أما القلب فقد تولاه بطون من بكر يقودهم زعيمهم المحنك هانىء بن مسعود ، وفى نفس الوقت بعثوا إلى قبائل العرب المنضمين إلى قوات الفرس برسل يذكرونهم بعزوبتهم وأصلهم ويبعثون النخوة فى إرادتهم ويزينون لهم ضرورة التقهقر عن أصحابهم الفارسيين عند ذروة الالتحام ، فاقتنعت إيراد بالفكرة وصدقت فى وعدها فانفلتت من المعركة فى اللحظة الحاسمة .

وفى صبيحة يوم المعركة الحاسمة جاء الفرس تصحبهم أفيالهم وفرقهم المدرعة، إلا أن قادة العرب لم يفرزعهم الجيش الفارسى وهو فى عدته السابغة لكنهم أخذوا يتشاورون فيما يصنعون وذلك فى « مجلس حرب » ، فقال ربيعة ابن غزالة السكونى : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكدسوا كراديس فإذا أقبلوا على كردوس شد الآخر » . . وقال حنظلة بن ثعلبة : « إن الشباب الذى مع الأعاجم يفرقكم فإذا أرسلوا لم يخطئوكم فعاجلوهم اللقاء



وابدؤوهم بالشدة » . . وقال يزيد بن حمار : « اكمنوا لهم كميناً » . . فما كان منهم إلا أن اتخذوا مكمنهم فى مكان يقال له : « الخبيئ » وأسروا إليه ألا يظهر إلا عندما يشتد أوار القتال بين العسكرين ، آنئذ تفر قبيلة إياد من صفوف الأعاجم وفى نفس الوقت يأتى للعرب المدد ، وبهاتين الضربتين المتكاملتين يعجز الفرس عن الصمود ، وفى نفس الوقت عمد القادة العرب إلى أن يثيروا حمية جندهم وفرسانهم فيجازفوا بأرواحهم ولا ينكصوا على أعقابهم ، ولإثارة الحمية إلى أعمق مداها فإن حنظلة بن ثعلبة عمد إلى وضين راحلة امرأته - أى حزامها - فقطعه وعمل مثل ذلك مع رواحل النساء الأخريات فقطع وُضنها جميعاً فسقطت على الأرض واندفع فى قومه يصيح فيهم : « ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته » . وأخذ السيفون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتتمكن أيديهم من تحريك سيوفهم عند المواجهة .

ولم يتوان الخطباء والشعراء عن التشجيع والحث . وصاحوا بصوت واحد : «المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره » .

وكالمعهد دائماً قبل اشتباك القوات أخذ بعض الفرسان من الجانبين يتبارزون . وفجأة وقع الالتحام واشتد الوطيس ، وظهر الكمين فى موعده المحدد ولحظتها فرت إياد تجر خلفها أولئك الذين ملكتهم الحرة من الصدمة التى لم تكن متوقعة . وهنا انقص الكمين على قلب الجيش الفارسى ، فكان أن نزلت الهزيمة القاصمة بالجيش الفارسى ، وكان النصر لأوفر الفريقين نصيباً من الفن العسكرى ، وإنه للجيش العربى الذى كان يرجحه الجيش الفارسى فى السلاح وكثافة الجند .

فما هو السبب فى انتصار العرب فى يوم ذى قار ؟ إن الغلبة ترجع إلى غلبة اليقظة على الغفلة ، والكفاية على العجز ، والخفة على الفخامة ، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية العقيم جدواها ، والعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة . ولم ينقص العرب وسيلة من الوسائل التى تمكنهم من إحراز النصر . . وعندما تعرض العسكرية العربية فى خبرتها وكيفيتها القتالية وأساليبها فى التحرك

الميدانى على علماء الحرب فإننا نجدهم يقرون أن العرب كانوا من اليقظة والوعى القتالى بحيث أنهم - أى علماء الحرب - لم يجدوا ثمة خطأ فى خططهم إلا وعالجوه ببصيرة نافذة وحنكة مقتدرة .

ويمكننا أن نحدد خلاصة العسكرية العربية وهى فى نضارها صفوة التدريب العسكرى لا نستثنى من ذلك عصرنا الحديث . وتتركز الخلاصة فى النقاط الآتية:

- ١ - أهمية الاستطلاع .
- ٢ - رسم الخطة .
- ٣ - تنظيم الجيش فى مواقفه .
- ٤ - تنظيم الجيش فى حركاته .
- ٥ - إذكاء العزيمة فى نفوس الجند العرب .
- ٦ - إضغاث العزيمة فى نفوس جند العدو .

وحين نستعيد قراءة تاريخ العسكرية عند الفرس والروم نجد أن ما تميز به الطرفان من حيث أنواع الأسلحة والعدد اللازمة وما أحيط بها من تفخيم وتهويل قد حجب حقيقتة ومبلغ القدرة على الحصار والحرب من بعيد ، فالحروب الماضية تخبرنا أن بعض الفرسان الشجعان كانوا يترجلون ليسددوا ضرباتهم بإحكام ولتتاح لهم حرية الحركة ، وكانوا كذلك لا يستعينون بما عليهم من دروع إذ كانوا يتخلصون منها ، ومن أثقالها لاسيما فى أيام الحر الشديد ، وكذلك عندما تصادفهم أماكن وعرة تثقل حركتهم وهم فى دروعهم الغامرة ، وأيضاً كان بعض الضباط النبلاء يستعينون بخدمهم ليحملوا لهم دروعهم إلى اللحظة التى يحتاجونها ، وقد جاء فى كتاب فيجيتيوس Vegetius ، إنجيل الحرب عند الرومان القدامى أن الجنود كانوا يتبرمون بالدروع الثقيلة ، ويتمنون أن لو تخلصوا منها حتى يكونوا أحراراً فى الحركة لاسيما حين تلزمهم المعركة بأن يقتربوا من المواقع التى يُطلق منها السهام والنبال والحراب الطويلة .

أما الميزة التي تفرد بها العرب على سائر جيوش دول الحضارة أنهم أخذوا بالطريقتين ، طريقة حرب العصابات التي اكتسبوها بفضل نشأتهم البدوية ، وطريقة الجيوش في إدارة الحروب . فهم قد تفوقوا في حرب العصابات بفضل التدريب المتصل والطويل ، ثم أخذوا ما استطاعوه من فنون الحرب من الدول الكبرى على أيامهم ، وبذلك كسبوا الطريقتين التي لا غناء عنهما في الحروب وبذلك وهبوا القدرة على إحكام تنظيم جيوشهم في سرعة حتى وإن أصابها اضطراب أو اختلاط ، وعلى هذا فلم يكن العرب يتقيدون بفن واحد من فنون الحرب فهم يتلاءمون وما تحتاجه التحركات الميدانية ، فالعرب إذن يختلفون عن كل من الفرس والروم الذين تمسكوا بطريقة القتال بالجيوش النظامية وما لها من تقاليد مرعية وأصول آلية لا يجوز الخروج عليها أو استبدالها .

أما القبائل العربية التي سكنت الحواضر أو المدن فقد أخذت بالحظ الأوفى من كل طريقة سواء جاء الاكتساب بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، وما تفرد بتلك الميزة إلا القبائل القرشية التي كانت تقيم في مكة عاصمة العواصم العربية التي نالها شرف الريادة في الناحية الأدبية والثقافية كما تجمع فيها المزايا المحمودة والمعارف المشهودة والصفات العالية التي كانت موزعة بين أبناء الجزيرة العربية . هذا فضلاً عن أن كان لها الرئاسة المدنية التي كان يخضع لها الجميع .

ومع هذه المميزات العسكرية التي فُطر عليها العرب ونالوها بالمران الطويل وكذلك بالاقتباس والتقليد المحكم القادر على التصرف والتغيير . مع هذا كله فقد كان العرب موزعين متفرقين فكانوا بحاجة إلى الوحدة التي تجمعهم وتؤلف بينهم وتجعلهم خير أمة أخرجت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فكانت رسالة محمد ﷺ . أجل فكان الجهاد في سبيل الله .

من القيادات العليا للعسكرية الإسلامية :

مسيرة البحث تفرض علينا أن نقدم شاهداً تاريخياً واقعياً للعسكرية

الإسلامية. وشاهدنا هو خالد بن الوليد الذي تجسدت فيه العسكرية الإسلامية في أعظم خصائصها وأكبر مميزاتها وأكرم مناقبها التي تفوقت بها على جهابذة الحرب والقتال على مسيرة التاريخ الحضارى للإنسانية ، لا نقول هذا جزافاً أو من باب التفاخر ادعاءً وبغير حق ولكنها الحقيقة التي يعز التصدى لها بالإنكار .

لقد كان خالد بن الوليد يتحلى بخصائص القائد العظيم المفطور على النضال، والخصائص التي تحلى بها هي الشجاعة والنشاط والصبر واليقظة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير وحضور البديهة ، ومن صفاته القيادية أنه لم يكن يضع الخطة في موضعها من التنفيذ إلا لحظة التنفيذ ، فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما كان يحارب أحياناً بغير كمين ، وكان في تحركاته يراوح بين التمويه والمفاجأة والسرعة ؛ وذلك حسبما تقتضيه التحركات الميدانية التي كان يطلع عليها بنفسه ، وكان يؤمن بأن الأوفق في إنزال الهزيمة بجيوش العدو أن يمزقها فتتأثر أشلاء في ميدان القتال ، وذلك خير من الحصار والاحتلال . كما كان يؤمن بأن الخبرة قوة وسلاح ، فجاء حرصه على أن يستطلع تحركات العدو وأخباره من حيث العدة والسلاح وفي نفس الوقت يمويه على العدو بما لا يمكنه من أن يعرف شيئاً عن تحركاته بما يعينه على أن يحتمى من بأسه أو يحصل على فائدة تعينه .

وعن وعى بتأثير الكلمة القوية في نفوس الجند ، فإنه لم يغفلها طالما وجد تأثيرها في إذكاء حمية جنده وتأثيرها السلبي على جيش عدوه ، وكان هو بذاته وشخصيته يمثل الهيبة الأدبية التي تملأ نفوس الجند بالقوة الفدائية التي لا تخشى سيوف العدو ، ومن هنا كان في طلعه ما يوحى لجنده بأن النصر قريب ، وأن الهزيمة بعيدة غاية البعد طالما هم تحت قيادته ، أما جانب العدو فكانت شخصية خالد والمعرفة بأنه هو قائد جيش المسلمين كفيلتين بأن يحدثا رجفه في عزيمته ، فيفقد الثقة في النصر . ومن فقد الثقة فقد مزية الطمأنينة والثبات .

وبفضل قوة الكلمة وعمق تأثيرها في عزائم أنصاره فإن خالدًا كان يذكى قوة

إيمانهم وسمو طموحهم ، فكان يتوجه بالعظات قبل القتال وأثنائه ، ولا يغيب عنه وهو في معترك القتال حيث يضرب ويطعن ويوجه ويراقب أن يتنقل بين صفوف رجاله لاستشارة عزائمهم وليشجعهم على الاقتحام والالتحام والمصاولة ، وأثناء تحركاته تلك كانت تصدر منه الكلمة بعد الكلمة وكأنها ضرب من القتال ، ومن كلماته المألوفة عند القتال : « إن الصبر عز . وإن الفشل عجز ، وإن الصبر مع النصر » . وإلى جانب هذا كان يحرص على إثارة المنافسات بين جنده فيدعوهم إلى التنافس لتجديد الحيوية في عزائمهم فضلاً عن عزيمة حب الفخار المنبثقة عن الإيمان الذي يعمر القلوب .

وكانت الغيرة على العرض المدد القوى الذي استنهض به خالد حمية الجهاد في نفوس رجاله وهم مقبلون على الموت ، ولهذا - وفي هذا الجو الإيماني المشحون بإرادة القتال - كان الرجل الفرد يقوم في قتاله بما لا يقدر عليه عشرات .

والحق أن القوة الأدبية التي تميز بها خالد بن الوليد كانت السيف الذي روع به المستبدين والطغاة الجبابرة الذين رفعتهم جيوشهم إلى مقام الأرباب بينما رعاياهم في حكم قطعان الماشية حسبها أن تساق إلى القتل لا القتال فإذا أصابتها الهزيمة أصابها الخوف بعد أن فقدت الثقة في قائدها ، آتئذ يكون الفرار هو خير انتصار .

ومن مزايا العسكرية العربية التي استمدتها خالد من فطرة أهله في تاريخهم الطويل مع القتال والنضال أنه - وقد أشرنا إلى هذا من قبل - كان هو الذي يخلق فنون الحرب التي يقتضيها الموقف العسكري ، وإنها لميزة من الميزات العسكرية العليا . جاء في كتاب : « فن الحرب ^(١) اليوم » : عند بحث هذه المسألة ينبغي أن نحضر في أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة إلا نوعان من السلاح سيطر على حومة القتال وهما السلاح المقدوف والسلاح الضارب أو القارع ، أي النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر .

(١) كتاب : « فن الحرب اليوم » War Fare Today ، تأليف : الأميرال باكون ، والجنرال ملر ، ومارشال الطيران باتريك بلا يفير

ومجمل ما يقال بعد هذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكرديوس أنسب الأوضاع لتطور السلاح الضارب ، لأن الرماة بالقذائف يحتاجون إلى مدى مكشوف ، وإنما يتأتى الضرب في العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات .

وما كانت هذه المعلومات لتصل إلى خالد بن الوليد ولكنها لم تغب عن قريحته الملهمة ، فكان يقاتل في الصفوف إذا كان في الصفوف الوفاء بالمطلوب ، وعلى هذا النهج كان يقاتل بالكراديس إذا كانت الكراديس هي الأئزم في القتال ، وفي هذه النقطة يستطرد الكاتب فيقول : « يتضح مما تقدم أنه في حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان وهما : الاستطلاع وكتمان الحركات والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ، ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجومية من أى موضع تكون » .

ثم يصف المؤلفون عملية الاستطلاع وفق ما هو قائم في عصرنا فيقولون : « وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهوائ قبل الحركات الأولى وفي خلالها وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف منه حين تدعى إلى الهجوم » .

وكان خالد على هذه السليقة عند الاستطلاع وكذلك وهو في مسيره وهو على : « التعبئة الكاملة » ، التى كان يهجم بها عند الصدام مع العدو ثم يلتحم به ساعة يجب الالتحام ، ثم هو لا يطيل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام لأن الالتحام هو الأجدى .

وجاء أيضاً فى كتاب : « الأسلحة وفنون التعبئة ^(١) » : « إن سرعة الحركة وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هى الآن كما كانت فى كل زمان بعض مفاتيح النصر

(١) كتاب : « Weapons and Tactics » الأسلحة وفنون التعبئة » تأليف : وترنجهام



التي لا شك فيها ، فإذا كسبت المعارك أحياناً بالمفاجأة أو التركيز في الموضوع الحاسم وفي الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا إنما تستمد مباشرة من التفوق في سرعة الحركة أو في قوة الإصابة أو في تدبير الوقاية .

وخالد بن الوليد لم يلجأ في تعبئته لجيوشه إلى هذا الأسلوب من التقسيم حين يتأكد من سرعة الحركة باقتحام الصحراء الرعيبة ويتأكد من وقوع المفاجأة بهذا الاقتحام ، كما أنه كان يثق بالسلامة عندما كان يحارب وظهره إلى الصحراء أو كان ينطلق وراء جيش لحقت به الهزيمة فهو متخاذل قد أفقدته الهزيمة تماسكه فهو فلول متدبرة .

ولخبير الحرب « ليدل هارت » كتاب بعنوان : « فن سوق الجيوش (١) » استخدم فيه أسلوب التورية ، قال فيه : « إن التحرك في الواجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ، ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة . وفي الحرب - كما في المصارعة - إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل بتوازنه باستنفاد قوتك أنت استنفاداً لا يناسب الجهد الذي يلقاه خصمك . ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفضل الرجحان الكبير في قوتك على نحو من الأنحاء . وقد يضعف الحسم في النتيجة مع ذلك ، وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكري في جميع العصور لا في عصر واحد أن جميع الحروب الحاسمة على التقريب أن الإخلال بتوازن العدو نفسياً ومادياً هو المقدمة التي لا محيض عنها للقضاء عليه» .

ولقد كانت عملية الإخلال بتوازن العدو هو أحرص ما يحرص عليه خالد بن الوليد فكان يهجم من جهتين أو ثلاث جهات ، أو يقاجئ عدوه من حيث لا يحتسب ، أو يهجم بكمين يصيبه باليأس الذي يفقده صوابه ، أو يحاصره بحيث لا يمكنه التخلص من الحصار ، ولكل هذه الأساليب الكفاية في أن تزلزل الأقدام

(١) كتاب : The strategy Of Indirect Approach تأليف : Liddel Hart ليدل هارت .

وتربك التوازن ، ولكن العبرة ليست في الزلزلة أو الإرباك فكم حدث ذلك في السلم والحرب منذ أقدم العصور ، إنها أى العبرة تتمثل في معرفة الوقت ومعرفة التنفيذ . فإذا عرفنا هذه الأسس الثلاثة فقد عرفنا الخصائص التي يجب أن تتجلى في القواد الملهمين .

وهذا آرثر برنى Arthur Birnie في كتابه : « فن الحرب » The Art Of War ، يعقب على الحروب التي دارت بين الفرس واليونان ؛ فيقول : « كانت قوة الفرس جنوداً قائمة على الخيالة والرماة وكانت طريقتهم في القتال أن يمتطروا العدو سهاماً ثم يجترفوه بحملة من الفرسان في الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين ، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان وكانت التبعة في خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقتربوا - وكل شيء يتوقف على هذا - تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة » .

ولو أخذنا هذا التقويم معياراً لنا لكان علينا أن نقول إن الذى أفضل أسلوب الفرس مع اليونان هو الذى أفضلها مع العرب من أيام ذى قار إلى أيام خالد بن الوليد ، لقد كان هجومه عن قرب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الحصن الذى رد عن قواته طلقات الرماة وطعنات الفرسان وطرقات الفيلة فى بعض المعارك .

ومما كان يؤمن به خالد أصدق إيمان وأرسخه أن الالتحام بالعدو وأجدى وأنفع صنوف القتال للجندى الذى يدافع عن عقيدة فيكون سلاحه هو السلاح الخفيف ، وهكذا جاء قتال خالد مع الفرس والروم على أسلوب الالتحام فكانت انتصاراته العظيمة . وهذا ما انتهى إليه تصور « ووترنجهام » فى كتابه : الأسلحة وفنون التعبئة » ، وهو الذى ذكرناه من قبل ، فما قاله : « إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب إلى السماء فإنها تنتظم على سنن فحواها أن التغير لا ينبغى

وأن العادات المأثورة كلها حسنة قويمية ، وأن كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب إلى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم . فإذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقاً للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد ، وأن هذه الجماعات لتخرج جيوشاً ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ » .

ولو أنصف ووترنجهام لضم الدولة الرومانية إلى الزمرة الآسيوية ، لأنها ، أي الدولة الرومانية ، كانت عاكفة على الأساليب القتالية التي ورثتها منذ قرون . ومن هنا تحقق فشلها في اتباع القديم وفشلها في ابتكار الجديد الصالح ، وهكذا بفضل العقيدة وبفضل الخبرة الشاملة والقدرة على الابتكار كان خالد يباغت عدوه وهو في حومة القتال .

ولا نستطيع أن نغادر موقعنا هذا بغير أن نسجل خاصة تميزت بها القيادة العسكرية العربية ، فالقائد الملهم ليس عليه أن يستلهم قريحته وحدها ويصد بصيرته عن تقبل رأى الآخرين ، إنما عليه أن يستمع إلى النصيحة استماع الاحترام والتقدير والإفادة ، وهذا ما صنعه خالد بن الوليد عندما نصحه أبو بكر وهو ذاهب لقتال المرتدين ؛ فقال له : « عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه . والجهاد في سبيله و الرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بكم ثم لا تخالفهم . فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب الحياة . ولا تقا تل بمجروح فإن

بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن في العرب عزة . وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وإذا أتيت داراً فأقحم فإن سمعت أذاناً أو رأيت مصلياً أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة فإن لم تسمع أذاناً ولم تر مصلياً شبن الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس . وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك ، ولا لك متربصٌ السوء ينظر لمن تكون الدائرة فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة . فاستعن بالله على قتالهم فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة . سر على بركة الله .»

كلمة قائد عام خبير بالحروب . بصير بعوامل الغلبة والنصر .قدير على استلهم الصواب . وإنما لبديهة العسكرية العربية في تاريخها المجيد .

التحركات الميدانية :

التحركات الميدانية محددة وموصوفة بأشكالها التي لا نخطئها في أية حرب من الحروب وهو ما يلزم المقاتلين أن يديروا عملياتهم عليها في ضوء ما قد يستجد من مواقف قتالية وكذلك ما يستجد من أسلحة حديثة . وحتى يكون للقتال نتائجه المرجوة فيحقق أهدافه التي حددها القرآن الكريم فإن على جيش الأمة أن يتقى الآفات المدمرة التي إن تسربت إلى نفوس المقاتلين كانت كفيلة بتدميرهم حتى إن كانوا قد اقتربوا من تحقيق النصر .

من هذه الآفات « الخيانة » ، وهي أخطر ما قد تصاب به الجيوش بل أخطر ما تصاب به جماعة من الجماعات . وهذا ما حذر منه القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧] . ومن هنا فإنه يجب كشف الخيانة وإقصائها بغير تلبث أو هوادة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿ [الأنفال: ٥٨] . ومن هذه الآفات « النفاق » ، والنفاق وهو إثارة الشك والإرجاف بالباطل له فاعليته من حيث القدرة القتالية وإمكانية الصمود ، وعلى هذا فالنفاق يثير الشك المكنط المؤيس في نفوس المقاتلين .

إذن فالمنافقون هم من أصحاب الأبواق المشككة لهدف مقصود ، وهذا ما أبانه القرآن الكريم من حيث طبيعة النفاق وخطره على المقاتلين ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿ [آل عمران: ١٦٧] .

ويأتينا القرآن الكريم بالحقيقة النفسية والأخلاقية للمنافقين فيجسدهم أمامنا خطراً داهماً لا على المجتمع والأمة فحسب بل على القوة العسكرية للمسلمين ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣] .

لذا فإن على القيادة العامة للجيش ألا تقف من المنافقين موقف المهادنة أو المسالمة ، إنما يكون اعتزالهم وعزلهم هو أول خطوة عقابية لهم ؛ فقال سبحانه : ﴿ لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْمًا ثَقُفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿ [الأحزاب: ٦٠] ، [٦١] . إذن فإنه لشأن منطقي أن يكون المنافقون والكافرون سواء ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٤٠] .

وإنه لمن الخطر الكبير أن يدب بين القادة تنازع يتعلق بخطة القتال وما تفرضه من تحركات فيجب أن تسود المشورة بين القادة وأن يكون للقائد الأعلى الرأي الحاسم فقال سبحانه موضحاً وهادياً : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿ [الأنفال: ٤٦] .

وبعد هذه الاحتراسات والوقايات التي قصد منها تصفية إرادة القتال من كل ما يفسد أو يعوق ويعطل عن أن يكون الفكر والوجدان بل الإيمان مشغولاً بغير الإعداد لعمليات القتال ، فإن القرآن الكريم يصفى إيمان المجاهد بأية نبضة من نبضات حب الدنيا والانشغال بهومومها ، وإنما يكون عمله الانشغال بتكاليف النضال الخالص لوجه الله والإسلام ؛ فقال جل شأنه مخاطباً المجاهدين ومذكراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] .

ومما نلاحظه أن لفظه « النفير » فى لغويتها تعنى الاندفاع الشديد للانتصار الحق واستنقاذه والذود عنه وكأنها - أى اللفظة - تحمل فى ذاتها لباب الجهاد فى شدته وقوة بأسه ، ومن هنا جاءت بالحسم الذى لا تردد فيه ولا تلبث . فكان أن جاء بها القرآن الكريم مهدياً ومتوعداً باسم الجهاد فى سبيل الله فقال سبحانه : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩] .

ثم نتقل بعد التصفية والاستصفاء إلى التحركات الميدانية ، فيأتى القرآن الكريم بأحد التحركات الرئيسية ؛ فقال سبحانه : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١] . ونجد أن هذه الآية الكريمة جاءت على نسق من التواتر كتواتر الحركات الميدانية وذلك على ثلاث مراحل متكاملة .

فالأولى : « انفروا خفافاً وثقالاً » وهى تصور الحركة القتالية ذاتها ، فالحفاف تعنى فيما تعنى مجموعات صغيرة من المقاتلين معهم سلاح له فاعليته المؤثرة ويمكنهم من التنقل فى حركات سريعة . أما كلمة : « ثقلاً » فهى تعنى فيما تعنى القوات الضخمة المتسلحة بالسلاح الثقيل . وهذان الطرفان : « الحفاف والثقال » هما عنصر كل التحركات الميدانية . ثم تأتى جملة : « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » لتؤكد أن الجهاد لا يكتب له نصر بغير الجهاد بالأموال والأنفس ،

وكذلك لا يكتب له صمود بغير الجهاد بالأموال والأنفس . وفي مجال التحركات الميدانية يؤكد القرآن الكريم أن على المسلمين إذا واجهوا زحف العدو عليهم ، ودلالة كلمة زحف هنا أنها صفوف كثيرة وكثيفة - فإن على المسلمين ألا يولوا العدو الأدبار ، إن عليهم أن يصطنعوا موقعاً آخر حتى يكونوا منه قادرين على أن يصبوا الضربات المدمرة للعدو . فإذا لم يكن تغيير الموقع مجدياً فإن من الممكن أن تتحيز مجموعة من القوات إلى المجموعة - أو الموقع - الذى يكون فى حاجة إلى العون الدائم .

هذان الموقفان هما من التحركات الرئيسية فى الميدان التى يجب على المجاهدين ألا يتحولوا عنهما ، ومن ثم فغير مسموح لهم أن يفروا أو يتراجعوا ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ ، ١٦] .

وعلىنا هنا أن نفرق بين الإدبار والتراجع : فالإدبار مغادرة الميدان هرباً وخوفاً وهلعاً ، أما التراجع فهو اتخاذ خطوات سريعة ومحسوبة إلى الوراء وذلك لإعادة تنظيم القوات والمواقع ونوعية التسليح ، وأيضاً لإعادة النظر فى الخارطة الميدانية . والمثل التاريخى للتراجع الذى تحفظه لنا العسكرية الإسلامية دلالة على الحنكة القيادية وسرعة البديهة هو التراجع الذى صنعه خالد بن الوليد فى غزوة مؤتة . فعندما واجه المسلمون جيش الرومان كان الجيش الرومانى فى كثافة هائلة ليس فى مقدور الجيش المسلم أن يصمد أمامه فقد قتل حاملو الراية الإسلامية واحداً بعد الآخر : قتل زيد بن حارثة ، وقتل عبد الله بن رواحة ، وقتل جعفر بن أبى طالب . فلما تسلم خالد بن الوليد الراية أخذ يتراجع متظاهراً بالهجوم وكأن قد وصله المدد ، وبهذه الحركة استطاع أن ينقذ جيشه ، وقد أقره رسول الله ﷺ التولى يوم الزحف من السبع الموبات ، أى المهلكات التى تهلك صاحبها فى النار؛ فقال عليه السلام : « اجتنبوا السبع الموبات » ، قالوا ما هن يا رسول الله؟

قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » رواه أبو هريرة وهو متفق عليه .

إذن فالتراجع لابد أن يكون على نظام وإلا انقلب إلى مذبحه ربما كانت أشبع من الفرار ، إلا أنه يمكن إلى جانب هذه الصورة العامة للتراجع وضرورته ، ومخاطره أن نضمن عدة أسباب هي على جانب كبير من الخطورة ، من هذه الأسباب أن قد يكون عند العدو سلاح أشد فاعلية وأوسع تدميراً سبب آخر هو أن يكون جيش العدو أكثر عدداً ، سبب ثالث ، ولعله أخطرهما ، هو أن يكون بين القوات المقاتلة خلايا مستترة تزين التراجع وعدم الاشتباك لأنه لا فائدة ترجى من وراء تلك الحرب وكأن تلك الخلايا تعمل لحساب العدو . وهذا ما أشار إليه ابن قدامة الحنبلي في كتابه : « المغنى » فقال ناصحاً : « ولا يستصحب الأمير (أى أمير الجند) معه مخذولاً وهو الذى يثبط الناس من الغزو ويزهدهم فى الخروج إليه والقتال ، ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار وإطلاعهم جواسيسهم ، ولا من يوقع العداوة بين المسلمين . ولقد نبه القرآن الكريم إلى خطورة أولئك المتأمرين على تحركات الجيش وهو مشغول بمعاركه ، فقال سبحانه : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧] .

وتتمثل فى عصرنا هذا أخطر التحركات الميدانية التى لا يمكن أن تنقضى ، ألا وهى حركة المرابطة بالقوات المتنوعة الأسلحة والمخطط لتحركها إذا وقع أى اعتداء . وإنها لحركة الرباط . أى القيام على حراسة الحدود .

والرباط يوجب اليقظة التامة التى لا تغفل عن تحركات العدو وهو قريب على الحدود ، فعلى رباط المسلمين أن يراقب جيش العدو من حيث نظامه فى مواقعه المنتشرة وعدد قوات كل موقع ونوعية تسليحه ، وما يمكن أن يزود به قواته إذا نشب قتال .



ولذلك كانت مرابطة القوات على الحدود من أخطر المهام العسكرية فضلاً عن أنها تكون على أهبة القتال في أية لحظة ، وهذا ما صنعته العسكرية الإسلامية قبل أن تعرفه العسكرية الحديثة اليوم فيما تقوم به من عقد تحالفات عسكرية أو تكتلات عسكرية متعادية فالغرب كان له تكتله بزعامة أمريكا والشرق له تكتله بزعامة روسيا ، وكان الكل لا يأمن الكل والجميع يسلم حدوده بأحدث وأخطر الأسلحة .

وللرباط ثلاثة مواقع له فيها الحركة الميدانية الملزمة :

الموقع الأول : الحراسة الشديدة بحيث لا تكون هناك ثمة ثغرة ينفذ منها العدو إلى الديار الإسلامية كما قال الإمام على رضى الله عنه : « ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا » .

الموقع الثانى : إرهاب العدو وجعله فى حالة خوف ووجل إذ يكون على علم بأن للمرابطة جيشاً قادراً على حماية أرض الإسلام .

الموقع الثالث : أن الاستعداد للقتال يكون مستمراً من حيث التواجد وفى نفس الوقت يكون مصحوباً بالمران والتدبير والاستعداد والتجهيز .

ولقد عرف السرخسى المرابطة وما فى حكمها بقوله : « المرابطة لإعزاز الدين ودفع شر المشركين عن المسلمين . وأصل الكلمة من ربط الخيل ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، فالمسلم يربط خيله حيث يسكن من الثغر ليرهب العدو ، وكذلك يفعل عدوه ، ولهذا سمي مرابطة ؛ لأن ميزان المفاعلة مما يجرى من اثنين غالباً ، ومنه سمي الرباط رباط للموضع المبنى من المغاوز يسكنه الناس ليأمن المارة بهم من شر اللصوص » .

وللأهمية القصوى للقوات المرابطة فإن رسول الله ﷺ بوأها مكانتها مبيناً خطرها :

فعن سهل رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير



من الدنيا وما عليها ، وقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ،
 والروحة يروحها العبد أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها « (متفق عليه) .

وروى الترمذى والنسائى عن رسول الله ﷺ : « رباط يوم فى سبيل الله خير
 من ألف يوم فيما سواه من المنازل » .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « كل
 الميت يختم على ماله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة » .

وفى حديث أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « إن صلاة المرابط تعدل
 خمسمائة صلاة ، ونفقة الدرهم والدينار منه أفضل من سبعمائة دينار ينفقها فى
 غيرها » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت
 من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » رواه الترمذى والنسائى بسند
 حسن .

وقال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس
 فى أرض خوف لعله ألا يرجع إلى أهله . ومن بات ليلة حارساً من وراء المسلمين
 كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام » .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من رباط
 ليلة فى سبيل الله سبحانه وتعالى كانت كألف ليلة صيامها وقيامها » رواه ابن
 ماجه .

وروى عن سلمان الفارسى أن رسول الله ﷺ قال : « من رباط يوماً فى
 سبيل الله كان له كصيام شهر وقيامه » .

وعن مكحول أن رسول الله ﷺ قال : « لرباط يوم فى سبيل الله تعالى صابراً
 محتسباً من وراء عورة المسلمين فى غير شهر رمضان أفضل من عبادة مائة سنة

صيام نهارها وقيام ليلها ، ومن قتل مجاهداً أو مات مرابطاً فحرام على الأرض أن تأكل لحمه .

وقال ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها . »

ألا إن مدار التحركات الميدانية كلها جاءت مجسدة بكل أشكالها وأوقاتها التي تُلزم بها في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] .



من مقومات سياسة الجهاد

فى تقديرنا أن لسياسة الجهاد مقومات أربعة هى :

- ١ - المشاورة .
- ٢ - الأسرار العسكرية .
- ٣ - الاستعانة بغير المسلمين .
- ٤ - الخيلاء فى الحرب .

المشاورة :

والمشاورة من ألزم اللوازم عند تكوين جيش أو إعادة تنظيمه واختيار العنصر البشرى الصالح لكل سلاح ، وتلك عمليات تحتاج إلى المشورة الصادقة وأن يعرض من يشير أقصى ما عنده من صواب الرأى ومحكم التدبير ، وتمتد المشاورة إلى تحديد المواقع الأمامية لكل سلاح والمواقع الخلفية فى تنظيمها القتالى ، وسبل الإمداد والتموين وفرض الاحتمالات الصعبة التى يمكن أن يقوم بها العدو . وأيضاً فى التحركات الميدانية العامة والخاصة على القادة أن يستشير بعضهم بعضاً وأن يلتزم الجميع برأى القائد العام أو الأعلى أو الخاص لفرقة من الفرق على أن هذا لا يمنع القائد من أن ينزل عند رأى هيئة « أركان الحرب » فلا يستبدن برأيه على طول الخط ، ومن هنا فإن المشورة واجبة ، وهذا ما أوجبه وأكده القرآن الكريم فقال جل شأنه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

لقد كان رسول الله ﷺ خيراً من استشار وخير من دعا إلى المشورة ، فكان صلوات الله عليه يستشير أصحابه فى أمور شتى لا سيما ما تعلق منها بشئون الجهاد والحرب ، وكثيراً ما كان يصطنع رأيهم فى المعارك التى دارت بينه وبين المشركين ، فقد استشارهم يوم « بدر » ، فقد خرج لمواجهة أبى سفيان وتجارته وهو فى حراسة ثلاثين أو أربعين رجلاً . وعندما وصلت الرسول ﷺ الأخبار بأن قريشاً خرجت بجموعها لتصد المسلمين عن تجارتها ولو اضطرت إلى أن تقاتل .

وجد أن عليه أن يستشير ، فاستشار رجاله وأوضح لهم حقيقة الموقف . ولم يتخذ قراره إلا بعد أن أقر المهاجرون والأنصار خطته وعزموا على تنفيذها وتنفيذ ما قد يشير به أثناء سير القتال .

وهنا نقدم صورتين لما كان عليه أسلوبه عليه السلام في التشاور :

الأولى في بدر: فعندما اقترب المسلمون من ماء بدر نزل رسول الله ﷺ وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يعرف المكان جيداً . ولذلك فإنه ما إن نزل رسول الله ﷺ في مكانه حتى قال له : « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلاً أنزلته لك الله فليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال الرسول ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » . فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزل ثم تغور ما وراءه من القلب (جمع قلب وهو البئر) ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل فنشرب ولا يشربون » . وهنا أدرك الرسول صواب رأى الحباب فعمل ورجاله بما أشار به ، عندئذ نبه الرسول قومه إلى أنه بشر مثلهم وأن الرأي شورى بينهم . ولما أتموا بناء الحوض أشار سعد بن معاذ قائلاً : يا نبي الله نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن أشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا يمينك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » . ثم كان النصر لرسوله وللمؤمنين .

والصورة الثانية في أحد: فقد أخذ الرسول ﷺ بمشورة « الأغلبية » التي رأت ضرورة الخروج لقتال قريش ومن معها ، ففي صبيحة ذلك اليوم اجتمع النبي بوجوه القوم من مخلصين ومنافقين لمناقشة الخطة التي تمكنهم من مواجهة عدو الإسلام ، وكان من رأى النبي أن يعتصم المسلمون بالمدينة ، فإذا حاولت قريش اقتحامها تيسر لأهلها الدفاع عنها والتغلب على المهاجمين .

وكان عبد الله ابن سلول على رأى النبی وقال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشيك المدينة بالبنیان فتكون كالحصن من كل ناحية فإذا أقبل العدو ورمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسیافنا في السكك ، إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله ، وأطعني في هذا الأمر ، فإنی ورثت هذا الرأى عن أكابر قومی وأهل الرأى منهم » .

وكان كبار أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار يتفقون مع ابن أبى فى رأیه الذى كان هو رأى النبی كما أشرنا ، غير أن الحماسة أخذت بنفوس الفتيان الذين لم يشهدوا بدرًا ، والذين شهدوها وغنموا النصر العظيم ، فرأوا جميعًا أن لا بد من التصدى لذلك العدو ومواجهته ، هذا فضلًا عن أنهم خشوا أن يتهموا بالجن والتردد ، وقد قال أحدهم : « إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمدًا فى صياصي يثرب وأكامها فتكون هذه مجرأة لقريش وها هم هؤلاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذب عن عرضنا (كل واد فيه زرع) لم يزرع وإن قريشًا قد مكثت حولها تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديهها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا أفيحسوننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرین لم يكلموا ، لو فعلنا لآزدادوا جرأة ولشئوا الغارات ، وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون ، والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا » . وتلا ذلك كلمات المؤيدين للخروج فإما النصر وإما الجنة ، واهتزت القلوب لحديث الاستشهاد . قال خيشمة أبو سعد بن خيشمة : « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة ، لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت عليها حريصًا حتى بلغ من حرصى عليها أن سمعت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى الحرم وهو يقول : « الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ، ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي .

وعندما أصبح الرأي الغالب للقائلين بالخروج قال النبي ﷺ وكأنه يقرأ الغيب : « إني أخاف عليكم الهزيمة » .

ومع تحذيره أصروا على موقفهم وإن كان بعضهم قد رجع نفسه ، ولم يملك رسول الله ﷺ إلا أن ينزل على رأى الأغلبية .

تلك هي شريعة القرآن وسنة رسول الله ﷺ في الشورى وصدق أبو هريرة رضى الله عنه حين قال : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة من رسول الله ﷺ » .

الأسرار العسكرية :

يصح لنا أن نقول : إن كل ما يتصل بالعسكرية له درجة من السرية لا يجب إشاعتها أو الخوص فيها . وتتركز الأسرار العليا لدى جيش من الجيوش في عدد فرقه ونوعية تسليحها وخططه الميدانية واحتمالات ما قد تتطور إليه .

تلك تنظيمات عسكرية لها خطورتها التي يخشى عليها من التسرب ، ولهذا كان من الضروري الحفاظ على الأسرار التي تنطوي عليها فلا يخوض فيها خائض ولا يتداولها متداول ولو على سبيل التعالم بالاطلاع على بواطن الأمور ، وهذا ما يحتم علينا ألا نساير الشائعات فنروج مع المروجين ، لأن عدو الأمة العربية والإسلام يتنسم أخبارنا العسكرية مهما كانت صغيرة قليلة القيمة لأن بإمكانه أن يفيد منها دلالات عسكرية تفيده .

ولقد كان رسول الله ﷺ يعطينا الحكمة البالغة للوعى العسكرى فى أثناء استعداد المسلمين للحرب أو وهم يخوضون المعارك .

فعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان إذا أراد غزوة ورى (سترها بغيرها) ؛ ولذلك كان عليه السلام إذا اعتزم القيام بغزوة لم يدها لأحد حتى

لأصحابه واستبدلها بغيرها ، فكان عندما يهجم بالاتجاه إلى ناحية معينة سأل عن ناحية أخرى وكأنه يقصد التوجه إليها ، ولم يختلف الأمر إلا في غزوة تبوك ، فإنه أعلن عن وجهته الفعلية ؛ لأنها كانت بعيدة ولأن المسلمين كانوا يعانون حالة من العسر وذلك حتى يوطنوا أنفسهم على مشاق رحلتهم فيتخذوا عدتهم من المؤن والسلاح ما يكفيهم .

ولخطورة الأسرار على مصير عمليات القتال وسلامة الجبهة الإسلامية فإن الإسلام نهى عن إذاعة الأسرار الحربية ، وكذلك عن أن يخوض عامة الناس في شؤون الحرب وخطط المعارك ؛ لأن في هذا الخوض ما يعطلهم عن أعمالهم وهي مما لا تستغنى عنه القوات المسلحة ، فضلاً عن هذا فإنهم يتيحون الكثير من الفرص لجواسيس العدو الذي لا يمتنع أن يكون مندمساً بينهم وهم لا يشعرون . وهؤلاء العامة ومن على شاكلتهم هم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ ﴾ [النساء: ٨٣] .

أى إذا بلغهم خبر من أخبار سرية غازية أو جاءهم أمر من أمور الأمن أو الخوف سواء من ناحية السرايا التي تخرج إلى الحرب أو من ناحية تشكيل قيادات الفرق أذاعوا به أى بثوه في الناس ولهجوا بكل وسيلة بترويجه وإشاعته ، ويتفق مع ذلك أن ينقل عامة الناس أخباراً زائفة زيفتها عليهم وسائل إعلام العدو فيتوهمون أن العدو قادر على إنزال الهزيمة بقواتهم .

قال الشيخ محمد عبده في الذين يرجفون بأخبار الحرب : « إن هؤلاء الذين يثون أخبار الأمن والخوف هم من الطيش بحيث يستفزهم كل خبر عن العدو يصل إليهم فتنتلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس » . وما كان ينبغي أن تشيع في العامة أخبار الحرب وأسرارها ؛ قال تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] . إذن فالأسرار العسكرية تقابل بالتكتم وعدم الخوض فيها ، وهذا معناه أن يكون للقوات المسلحة هيئة خاصة يكون من شأنها إخفاء الأسرار العسكرية بوسائل التمويه والمخادعة ، وفي

نفس الوقت تبدد المغالطات التي يروجها العدو عن نفسه وعن قدرة قواتنا على التصدي له وإنزال الهزيمة به . .

إن معنى الآية القرآنية في السياق الذي جاءت عليه أن لو أرجع الخائفون الأمر الذي خاضوا فيه وأذاعوه إلى الرسول وإلى الأمر منهم وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة في سياستها وإدارة مصالحها لكان ذلك هو الصواب الذي يوقف على الحقيقة وتتصل الأسرار العسكرية اتصالاً طبيعياً بالجاسوسية كي يتم الحفاظ على الأسرار والحرص على حمايتها من الإفشاء ، ولذا فإنها من المهام الرئيسية التي تعتمد عليها الجيوش في معرفتها بالمعلومات التي تحتاجها عن عدوها، وعلى هذا فالجاسوسية عمل يحتاج إلى تدريب طويل وشاق كما تحتاج إلى الذكاء والفتنة والدهاء ورباطة الجأش .

لكن أليست عمليات الجاسوسية عمليات من الكذب المحكم والمتواصل ؟ بلى هو كذلك ، فالجاسوس في المصطلح شخص صناعته « فن الكذب » إن أجزى هذا التعبير ، ولكنه كذب لا مباح فحسب ، بل إنه ضرورة من ضروريات الحرب . وهذا هو الكذب الذي أحله - بل أوجبه - الرسول ﷺ وحث عليه .

فعن أم كلثوم بنت عطيبة قالت : « لم أسمع النبي ﷺ يرخص في شيء من الكذب كما تقوله الناس إلا في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل إلى امرأته وحديث المرأة إلى زوجها » . (رواه أحمد ومسلم وأبو داود) .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ، ما يحملكم أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش في النار : الكذب كله عن ابن آدم حرام إلا في ثلاث خصال : رجل كذب على امرأته يرضيها ، ورجل كذب في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، ورجل كذب بين المسلمين ليصلح بينهما » رواه الترمذي .

وقال الطبراني في الأوسط : « الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلم أو دفع به

عن دين» . . وقال ابن العربي : « الكذب فى الحرب من المستثنى الجائز بالنص رفقا بالمسلمين لحاجتهم إليه وليس للعقل فيه مجال » .

ويتصل بالأسرار والجاسوسية «كلمة السر» . وهى الكلمة التى يتفق عليها قادة الجيش ليدؤوا قتالهم عند سماعها أو عند إرسالها . ويفتن القادة فى شكل هذه الكلمة ودلالاتها ، فهى تتخذ للتمويه والخداع حتى لا يشعر العدو بهم لحظة انقضاضهم . واتخذت قوات المسلمين هذا النوع من «كلمة السر» فى حربهم مع المشركين ، فعن سلمة بن الأكوع وقال : « غزونا مع أبى بكر زمن رسول الله ﷺ فكان شعارنا : « أمت ، أمت » رواه أحمد وأبو داود ، وفى قوله : أمت ، أمت ، أمر النبى وفيه التفاؤل بموت الخصم » . وعن سمرة رضى الله عنه قال : «كان شعار المهاجرين عبد الله ، وشعار الأنصار : عبد الرحمن» . رواه أبو داود بسند صالح . وعن المهلب بن أبى صفرة ، رضى الله عنه ، قال : «أخبرنى من سمع النبى ﷺ بقوله : « إن يئتم فليكن شعاركم : حم لا ينصرون » ، أى إذا جاء العدو لقتالكم ليلا واختلطتم به فى الظلمة فليكن شعاركم : «حم» فإنهم لا ينصرون ، أو المراد : اللهم لا ينصرون . « وهو خبر لا دعاء » . رواه أصحاب السنن بسند صالح .

الاستعانة بغير المسلمين

استعانت جيوش الحضارات القديمة بالجنود الأجانب عنها أو ما كان يطلق عليه : « الجنود المرتزقة » وهم فى الغالب من الشعوب المجاورة لكل منها . فمثلاً دولة الفرس القديمة كان تستعين فى حروبها بجنود من الهند وبابل والشام مصر واليونان ، وكذلك كان العمل بالجنود المرتزقة فى الحضارة الرومانية ، وكذلك الدول الأوروبية التى كانت تجند من الدول التى كانت حول كل منها أو فى دائرتها . وهؤلاء المرتزقة كانوا يتقاضون أجوراً تختلف باختلاف المعارك التى يخوضونها ، وأحياناً كانوا يساقون إلى المعارك سوقاً وحسبهم ما يتناولونه من

الطعام .

وبصفة عامة كان المرتزق ينزل إلى الميدان وهو أقرب ما يكون إلى أنه يدافع عن حياته هو ، ومن هنا كان من السهل أن تنزل الهزيمة بالمرتزقة أو يضحى بهم في مذابح وقائية ، فهم أقرب إلى أن يكونوا درعاً يصد المعتدين حتى تحين المعركة الحاسمة .

وذلك كله بغير أن يكون للمرتزقة حق في المغانم وإن كانوا أحياناً يكافؤون بهبات سخية إغراء لهم واستدامة لتواجدهم ، أما الأسرى منهم فكانوا في أغلب الأحوال يقتلون عن بكرة أبيهم إما انتقاماً وإما توفيراً لنفقات إعاشتهم ، وكانوا أحياناً يسترقون فيؤخذون عبيداً أرقاء وذلك بلاء شديد .

أما في الإسلام ورسالته في إخراج الناس من الظلمات إلى النور على سنة الرحمة والتراحم فإنه كان من الاستحالة أن يجند من ليسوا على الإسلام ؛ فلا يدينون به ولا يؤمنون بإيمان الحب والاعتقاد والتسليم .

ومن ثم فقد وضعت قضية الاستعانة بغير المسلمين في جيش المسلمين أمام الفقهاء فاختلفت آراؤهم وخلاصة أقوالهم أنه : « لا تصح الاستعانة بالمشركين اعتماداً على ما روته عائشة رضي الله عنها فقد قالت : « خرج النبي ﷺ قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة (على بعد أربعة أميال من المدينة) أدركه رجل يذكر بالجرأة والنجدة ففرح به الأصحاب . فقال للنبي ﷺ : جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال له : « تؤمن بالله ورسوله » . قال : لا ، قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك » .

ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة (اسم موقع) أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة ، فرد عليه النبي ﷺ كالمرءة الأولى ، ثم رجع فأدركنا البيداء (اسم موقع) فقال كالأول . قال له النبي ﷺ : « تؤمن بالله ورسوله » .

قال : نعم . فقال له : « انطلق » .

ومثله ما روى عن حبيب بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده ؛ قال : أتينا الرسول ﷺ وهو يريد غزوا ، أنا ورجل من قومي ، ولم نسلم ، فقلنا : إنا نستحي أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم ، فقال : « أسلمتما ؟ » فقلنا : لا ، قال : « إنا لا نستعين على المشركين بالمشركين » . فأسلمنا وشهدنا معه .

وجاء رجل مقنع بالحديد فقال : يا رسول الله : أقاتل أو أسلم . فقال : أسلم .

ثم قاتل فقتل . فقال عليه الصلاة والسلام : « عمل قليلا وأجر كثيراً » .

هذا جانب القوات المسلحة التي تخوض المعارك فلا ينبغي الاستعانة في القتال بمن ليسوا على الإسلام ولكن يمكن الاستعانة ببعض منهم في التدريبات العسكرية مثلا أو بالإشراف على صناعة الأسلحة ، ولقد أجاز رسول الله ﷺ الاستعانة بالمشرك إذا كان حسن الرأي وفيه إخلاص . فقد استعان عليه السلام بصفوان بن أمية قبل إسلامه يوم حنين .

ويمكن أيضاً الاستعانة بأهل الكتاب (النصارى) كجنود من صميم الجيش فقد روى عن ذى خبر قال : سمعت رسول الله ﷺ : « ستصالحون الروم صلحاً تغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم » ، وقد رأى أبو حنيفة ألا خير من الاستعانة برجال من أهل الكتاب في صفوف المسلمين ، أما الاستعانة بالمنافق والفاسق فقد حازت الموافقة الاجتماعية فقد كان عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين يشتركون في القتال إلى جانب المسلمين كما كانوا يشاركون بالرأى .

ويتصل بإعداد الجيش وتنظيمه وتسليحه وتدريبه عمليات إقامة عروض عسكرية في مناسبات وطنية وقومية وإسلامية لها جلالها ولها أثرها في حياة المسلمين ، فالعروض العسكرية في ذاتها نوع من الإدلال بالقوة ، بل يمكن أن يقال : إنها نوع من المفاخرة بالقوة واليقظة والبأس ، ومن هذا القبيل أن تقوم جيوش الأمة الإسلامية بإجراء مناورات كبيرة بين قواتها : ففي المناورات نوع من

التدريب حيث تستخلص منه نتائج عسكرية لها قيمتها العلمية والعملية في الإعداد القتالي لمواجهة العدو وتحت أى احتمال .

الخيلاء فى الحرب :

صحيح أن القرآن الكريم قد نهى عن التفاخر والخيلاء فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] . وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] . وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

لكن الخيلاء مستحبة فى الحرب فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال عن أبى دجاجة يوم أحد لما رآه يختال عند القتال : « إنها مشية يبغضها الله ورسوله إلا فى هذا الموطن » . وعن جابر بن عتيك أن النبى ﷺ قال : « إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما التى يبغض الله فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة . وأما الخيلاء التى يحبها الله : فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، والخيلاء التى يبغضها الله فاختيال الرجل فى الفخر والبغى » رواه أحمد وأبو داود والنسائى .



من آداب الجهاد

أولى آداب الجهاد فى تصورنا وتقديرنا أن الإسلام الحنيف يقول بكرامة الإنسان كما كرمه وذلك بناء على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠]

وبناء على هذه القاعدة الأصلية فما جاء الإسلام إلا رحمة للعالمين ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . والرحمة لا تعرف انتقام الحقد والإبادة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

والإسلام لا يعرف الحرب من أجل الحرب ولا الحرب من أجل المغنم والأسلاب فهو يطلبها أنى وجدها ويشكلها حسبما يشتهى . لكنما الحرب عند الإسلام لدفع العدوان والتحرر من نير العدو وأطماعه أو الهداية إلى سبيل الله ، فإذا تغلب على عدوه وقهره فإن كلمة السلام هى العليا ، من أجل هذا قال رسول الله ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، ولكن إذا لقيتموه فاصبروا » .

فلا غرابة إذن حين تكون كلمة التسامح هى العليا . وهذا ما صنعه النبى ﷺ مع قريش عندما تغلبت كلمة الله عليهم فقد قال لهم عليه السلام : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » « قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم » . قال : « أقول ما قاله أخى يوسف لإخوته : ﴿ لا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] . اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

دين على مثل هذه القاعدة الإنسانية فى حربه وسلمه وتسامحه وغايته . ترى ماذا تكون آدابه فى جهاده ؟

نعرف آدابه من سياسته وهو يوجه قواته لقتال أعدائه والمتربصين به ، وذلك من سنة رسول الله ﷺ . فعن سليمان بن برة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ

إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : « اغزو باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإذا أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم الذي يجرى على المسلمين ولا يكون لهم في الفىء أو الغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فسلهم الجزية وقتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذلك ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تقبل منهم ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى .

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الشيخ والمرأة والطفل كما أمر بالإحسان إلى العمال والأجراء وأصحاب المهن . فقال عليه الصلاة والسلام وهو يودع جيشه : « انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ونهى رسول الله ﷺ عن التمثيل بالجثث ؛ فقال عليه السلام : « سيروا باسم الله وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (أى لا تخونوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الذرية » .

وقال عليه السلام لخالد بن الوليد : « لا تقتل ذرية ولا عسيفاً (أى أجيراً) » .

ويبلغ رسول الله ﷺ أن أحد قواده قتل بعض الأطفال فوقف يقول لجنده : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتال حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية » .

وبهذه الروح الإنسانية نهى رسول الله ﷺ عن تشويه الأجسام وأوجب على المسلمين دفن قتلى العدو وحتى لا يتركوهم نهباً للوحوش فى الأرض أو وحوش الطير فى السماء .

فقد أوصى عليه السلام بوضع جثث قتلى بدر فى القليب (وهو بئر جاف) ، وكذلك نهى عليه السلام عن تعذيب الجرحى - والأسرى بل يجب مداواتهم أو مفاداتهم أو المن عليهم .

وعلى هذا المنهاج اقتدى أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ؛ فقال فى خطبته التى ودع بها أسامة بن زيد لغزو أرض الروم : أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة ، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم ، وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان من الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد الشيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاحفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله أقتانكم الله بالطعن والطاعون .

ولقد جاءت وصية الرسول ﷺ ، ومن بعده وصية أبى بكر ، وقد جاءت على هديها وفى نُصوئها وهما تنهيان عن التخريب ، ولقد عقب الأوزاعى وكان من فقهاء الشام ومعاصراً لأبى حنيفة والكرخى ، فقال : إنه لا يجوز التخريب ولا قطع الأشجار أخذاً بأمر الصديق لجنوده ؛ ولأن التخريب إفساد والله تعالى لا يحب المفسدين ؛ ولأنه لا ضرورة حربية تسوغ ذلك ، فإذا كان ثمة ضرورة حربية كأن يستتر العدو فى الآجام والغابات والحصون جاز . وأيضاً قال الكثيرون من الفقهاء : إنه لا يجوز قطع الأشجار وتخريب بناء العدو ، وذلك لأن النبى ﷺ أمر المؤمنين بأن يخربوا بيوت بنى النضير فكانوا يخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين

ولأنه عليه السلام أمر بتحريق قصر مالك بن عوف ، وكان أمير الجيوش بالطائف ولأنه عليه السلام أمر برمي حصن بالمنجنيق ، وأمر عليه السلام بقطع كروم بنى ثقيف ، وقد ذكر في المغازي والسير أنهم عجزوا عن إرادة قطعها وقالوا: كيف نعيش من بعدها .

وقد استدل هؤلاء الفقهاء بقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٥] ، على أن اللينة لا تدل على الشجرة لأن اللينة تطلق على الثمرة والآية تدل على ذلك . لأن النص : ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا ﴾ . والذي يقوم على أصله ظاهراً هو الثمرة والروايات تؤيد ذلك ، فقد روى أن رسول الله ﷺ استعمل في هذا القطع ، وكان في غروس بنى النضير أبو ليلى المازنى وعبد الله بن سلام ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة وهى ثمرة طيب يقطع اللون (جمع لينة) وهى ثمرة ردىء ، وقيل لابن سلام : لم قطعت اللون أى الردىء ، فقال : لأنى علمت أن الله تعالى مظهر نبيه ومغنمه أموالهم فأحببت بقاء العجوة . ولا شك أن قطع الثمرة لا يعد تخريباً .

أما عن تخريب ديار النضير فقد وقع ذلك لأنهم اتخذوها حصناً ، فكان لا بد من تدميرها عليهم ، وذلك التخريب جائز ، لأن الضرورة الحربية تسوغه إذا كان لا بد لزوال أذاهم من تخريب تلك الحصون ، واليهود عندما رأوا ذلك وأن حصونهم ذاهبة فى الحال إلى أيدي المسلمين ، أتوا عليها هدماً وتخريباً فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، وأما رمى حصون بنى ثقيف بالمنجنيق فلأنها حصون اعتصموا بها ولا بد من إنزالهم منها ، وقد كانوا أولى بأس شديد أصحاب قلوب قدت من حديد ، فكان لا بد من تدمير حصونهم للوصول إليهم ولم يكن تخريب الحصون لذات التخريب . - كما أومأنا - إنما كان الهدف الإيهان من قوة العدو ، وأما التهديد بقطع كروم ثقيف الطائف فلأنهم كانوا يصنعون منها الخمر وأن النبي ﷺ أمر بالقطع ؛ وذلك لأنه عليه السلام علم أثر البقطع فى نفوسهم وأنه بالتهديد به قد يرغمون على التسليم فتحقن الدماء بدل الاستمرار

على القتل و القتال ، ويدخل فى هذا الإطار هدم الأبنية التى قد يغتصم بها قادة العدو وذلك شأن لا يحسب تخريباً .

الوفاء بالعهود والمواثيق :

قبل أن توجد الأمم المتحدة وعصبة الأمم من قبل ، فإن الإسلام الحنيف هو الذى وضع المحالفات والمواثيق الدولية على منهاج إنسانى لا يشذ عنه ولا يحتال عليه ، ومن ثم كان الوفاء بالعهود شريعة من شرائعه التى يجب الأخذ بها وعدم تجاهلها لأى سبب من أسباب الأناية البشرية حتى أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

إذن فمسلمة أولية هى القاعدة الرئيسية للعهود والمواثيق أنه يجب الوفاء بالعهود ، فقال سبحانه ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَانًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل : ٩١ ، ٩٢] .

وفى تصور الفقهاء اعتماداً على هذه الآية الكريمة أن العهد الذى لا يكون بين المسلمين فى دار الإسلام وبين الكفار لا ينتقض بتعديهم على المسلمين الخارجين من دار الإسلام ، وإنما ينتقض العهد بتعدي المعاهدين على حكومة الإمام أو أحد البلاد الداخلة فى حكمه وإذا تضمن العهد بالأىقاتلوا أحداً من المسلمين غير الخاضعين لأحكامه أو يؤذوهم فإنه ينتقض بقتالهم المخالف بنص العهد ، وحيث يجب نصر أولئك المسلمين على المعتدى عليهم لأجل دينهم وكذلك لأجل دنياهم .

ولقد حافظ النبي ﷺ والخلفاء من بعده على العهد حتى إن عهد الحديبية الذي قست شروطه على المسلمين ، جاء فيه : « على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه » إلى آخر العهد . وقد قام عليه السلام بتنفيذه حرفياً كما نقول عادة .

ومن دلائل ذلك أنه بينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد قد لجت (تمت) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتره (يجذبه بشدة) بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال ﷺ : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

وروى ابن إسحاق أنه لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد عهد الحديبية أتاه أبو نصر عتبة بن أسيد بن جارية ، وكان ممن حبس بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى إلى رسول الله ﷺ وبعثا رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم فقدموا على رسول الله ﷺ : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » . فانطلق معهما .

إذن فإنه وجب على المسلمين أن يحافظوا على العهود ويوفوا بها طالما أن المعاهد منفذ لشروط العهد ومستجيب لقراراته بالنص والروح ، وفى هذا المقام فقد تبرأ الله تعالى من المشركين الذين نقضوا العهد ؛ فقال سبحانه : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ

اللَّهُ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِّمُوا أَنْكُمْ
 غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿التوبة : ١ ، ٢﴾ واستثنى سبحانه من هؤلاء
 الذين تبرأ من عهودهم وأمر بوعيدهم وتهديدهم وضرب لهم موعداً ، الأشهر
 الحرم ، من حافظوا على عهدهم بكل حرص ونية صادقة ؛ فقال سبحانه : ﴿إِلَّا
 الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ
 عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة : ٤﴾ .

أما إذا خيف من العدو المعاهد أن يتراجع عن عهده ، وظهرت فيه نية
 التراجع واضحة من أقواله وأفعاله ، فإنه لحتم على إمام المسلمين أو رئيسهم أن
 يعلن في صراحة ووضوح أنه قد رجع عن ذلك ، فهو لم يعد يعترف به ؟ فقال
 سبحانه : ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿الأنفال : ٥٨﴾ .

أما من يعلن صراحة أنه لا يعترف بالمعاهدة التي أبرمت بينه وبين المسلمين
 فإنه لمن حق الحاكم المسلم أن يجاهر ذلك العدو بالحرب . وذلك كما فعل النبي
 ﷺ حين نقضت قريش عهد الحديبية الذي عقده معه بمظاهرة بكر على خزاعة
 الذين كانوا في ذمته ﷺ . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ .
 فالخيانة يبغضها الله سبحانه .

ولقد نقض اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ مرة بعد أخرى فقد صالح عليه
 السلام يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف : بني
 قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة . أما بنو قينقاع فإنها حاربتهم بعد بدر وكانوا
 أول من حارب من اليهود ، فسار ﷺ إليهم وضرب الحصار الشديد عليهم وقذف
 الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم
 ونسائهم وذراريهم وكلم عبد الله بن أبي فيهم رسول الله ﷺ ، وكان حليفاً لهم ،
 فوهبهم له وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، وأن لا يجاوروه فيها ، فاتجهوا إلى



أذرعاً بالشام . وعلى نفس المسار نقص بنو النضير وبنو قريظة عهدهم مع النبي ﷺ ، فكان نقض العهد وبالأعلى عليهم أجمعين .

ولقد بوأ الإسلام المحافظة على العهد وتنفيذ بنوده مكانة رفيعة من التكريم وبالمقابل ، فإنه شدد في النهي عن الغدرو الخيانة وأبان أن للغادر يوم القيامة لواء يعرف منه أنه غدر فضيحة له وتشهيراً به ، فعن ابن عمر رضی الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال : هذه غدرة فلان ابن فلان » رواه الأربعة .

وكان بين معاوية وبين أهل الروم عهد ، وكان يسير في بلادهم فلما انقضى العهد أغار عليهم ، فإذا رجل على فرس وهو يقول : « الله أكبر . . وفاء لا غدراً » . فإذا هو عمرو بن عبسة . فسأله معاوية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهداً ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء ، قال : فرجع معاوية بالناس » رواه الترمذي وأبو داود .

ومن هنا شدد الإسلام على أن نقض العهود خيانة وأوجب أن يعامل مرتكبو الخيانة بالشدة حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، فلا يقدموا على ارتكاب جريمة الخيانة فقال سبحانه : ﴿ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٧] .

وهكذا الجهاد في سبيل الله هو في الإسلام عقيدة وشريعة وشريعته ليست متروكة للنزعات والأهواء .

ولكنها الرحمة والعدل والإنسانية والتعارف بين شعوب العالمين على سنة التقوى التي شاءها الله لعباده .







الفصل الرابع

غزوات الرسول ﷺ



الفصل الرابع

غزوات الرسول ﷺ

تمهيد :

يعالج فصلنا هذا غزوات الرسول ﷺ ، ثم نتبعها بحروب الردة على عهد
 أبى بكر الصديق رضوان الله عليه لما كان لها من خطورة على مصير الإسلام . .
 فبعد هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة حيث وحد فيها بين المسلمين فجعل
 منهم أمة واحدة يسودها التواد والتراحم على شريعة من عدل الله سبحانه ، ومن
 هنا صارت المدينة دولة الإسلام الأولى ، وكأى مجتمع كان لهذا المجتمع
 الإسلامى الأول مشكلاته الخاصة التى تهدد وحدته ، فكان هناك المنافقون وكان
 من دأبهم الإيقاع بين الأوس والخزرج من المسلمين ، وبين المهاجرين والأنصار بما
 يفت فى عضد الوحدة ويمزقها ، إزاء ذلك الموقف الحرج ، نهض الرسول بعمل
 سياسى جليل يدل على بعد نظره وحكمته وحنكته السياسية ، فكان من توجهات
 نظامه السياسى أن أحسن إلى اليهود وأوجد بينه وبينهم أصرة من المودة على اعتبار
 أنهم أهل كتاب يعبدون الله وحده ، وبلغ من عطفه عليهم أن كان يصوم يوم
 صومهم كما توجه فى صلاته نحو بيت المقدس قبل أن يتحول عنه بأمر ربه ، وفى
 نفس الوقت كانت سيرة الرسول وأخلاقه وتعامله مع أهل يثرب قد أورثه حبههم
 وإجلالهم ومناصرتهم ، وقد حفزته هذه المكانة التى نالها بفضل خلقه الرحمانى
 إلى أن يعقد معاهدة صداقة وتحالف بين الجميع على أساس من الحرية فى
 الاعتقاد . وتلك المعاهدة تعد من الوثائق السياسية الجديرة بكل تعظيم وإكبار ،
 ودلالاتها الكبرى أن محمداً صلوات الله عليه كان ينشئ أمة ، ويؤسس دولة قائمة
 على قيم الإسلام وشريعته المتجسدة فى القرآن الكريم ، فكأنه صلوات الله عليه
 مسئول عن كيان تلك الدولة من حيث سلامتها وقوتها ، وكأنه صلوات الله عليه

بهذه المعاهدة كان يدل دلالة قاطعة لا مطعن فيها ولا تأويل على أن الإسلام دين ودولة وهنا يختلف الرسول في رسالته عن الأنبياء الذين سبقوه كل الاختلاف من حيث الرسالة والغاية . فكان حسب الأنبياء السابقين أن يقفوا عند مجرد إبلاغ الناس برسالتهم الدينية وما تدعو إليه من مبادئ أخلاقية واجتماعية يتجادلون مع الناس بشأنها داعمين جدالهم بمعجزة خارقة وهذا حسبهم ، وعلى من يأتي بعدهم من أصحاب الدين يؤمنون بذلك الدين أن يتولوا هم الدفاع عنه بقوة السلاح . . هكذا كان شأن المسيحية فإنها انتشرت بفضل الحواريين الذين توزعوا بين الأقطار بعد عيسى عليه السلام ، وقد عانى المسيحيون الكثير من صنوف العذاب على أيدي المخالفين والمناهضين ، فلما آمن بعض ملوك أوربا بالمسيحية فإنهم زادوا عنها بقوة جيوشهم .

وكان هذا شأن الأديان قبل الإسلام .

أما محمد صلوات الله عليه فكانت رسالته هي العقيدة وهي الشريعة ، أو هي العقيدة والدستور ، أو هي العقيدة والنظام السياسي ، أو كلمة الحق التي شاء الله أن يكون محمد هو صاحبها فيكون الرسول والمجاهد والسياسي والفتاح .

كتب محمد صلوات الله عليه معاهدة صداقة وتحالف بين المهاجرين والأنصار، عاهد فيها اليهود وأمنهم على دينهم وأموالهم على أساس من التزامات لا إجحاف فيها ولا نكوص ، وقد جاءت هذه المعاهدة أو الكتاب بهذه الصورة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم يفدون عانيهم بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى

(١) ربعتهم : على أمرهم الذي كانوا عليه .

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين». ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل الدار: بنى الحارث، وبنى ساعدة، وبنى جشم، وبنى النجار، وبنى عمرو بن عوف، وبنى النبيت. وإلى أن قال:

«... وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمناً دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا بنصر كافر على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عاليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها، وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشركاً مאלاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط^(٢) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قودٌ به إلا أن يرضى وليُّ المقتول.

وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً^(٣) ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد عليه الصلاة والسلام، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم

(١) مضرخ: مثقل بالدين.

(٢) اعتبط: قتل.

(٣) مُحدثاً: جانياً.

وأنفسهم إلا من ظلم أو آثم فإنه لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار ، ويهود بنى الحارث ، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى جشم ، ويهود بنى الأوس ، ويهود بنى ثعلبة ، ولجفنة ولبنى الطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن موالى ثعلبة كأنفسهم . وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا يأذن محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه لا يتحجر على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأنه لم يآثم امرؤ بحلفه ، وأن النصر للمظلوم . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا يأذن أهلها .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وأن الله على من أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأنه بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ويلبسونه ، فإنهم يصلحون ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليتهم وأنفسهم ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم وأن الله جار لمن بر واتقى . «

هذه الوثيقة السياسية أو هذه المعاهدة تقرر وتؤكد الحرية فى كل أبوابها

(١) يوتغ يهلك .



وخصائصها ، وهى بعد ذلك ترد بعد ألف وأربعمائة وثمانى وعشرين سنة أولئك الذين يقولون بغير وعى أو تدبر أنه لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياس ، وفاتهم أن الإسلام لا ينضوى تحت هذه المقولة الضالة المضللة ذلك لأن هذه الوثيقة تقرر : حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرية المدينة (الوطن) وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة ، والآن اطمأن المسلمون إلى دينهم وشرعوا يؤدون فرائضه جماعة وفرادى لا يخشون تهديداً ولا وعيداً ولا فتنة تفسد كيانهم فى مدينتهم .





الغزوات

فى العام الثانى للهجرة اتخذ رسول الله ﷺ سبيل الجهاد لنشر الإسلام ويزود فى نفس الآن عن العقيدة والذين آمنوا بها ، وإذا قام صلوات الله عليه بتنظيم دولة المدينة على أحكم الخطط الاجتماعية والسياسية والإنسانية فإنه شرع بعدها وقد اطمأن إلى دولته إلى أن ينفذ خطة نشر الإسلام والدفاع عن الدعوة وأصحابها، وبنظرته الصائبة أدرك أن دولته فى موقع استراتيجى له فاعليته فى دحر القوى المعادية للإسلام والتي تتربص به ، فيثرب تتحكم بفضل موقعها فى طريق القوافل الرئيسى الذى كانت تعتمد عليه قريش فى تجارتها مع الشام . فيثرب إذن تهدد الحياة الاقتصادية لقريش تهديداً مباشراً ، فكأنها تحمى المسلمين من غوائل هجمات المشركين على المسلمين .

استهلت الغزوات انطلاقها بمناوشات قام بها سرايا معلومة فبدأها صلوات الله عليه بأن بعث عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكباً من الأنصار فحسب اتجهوا إلى شاطئ البحر من ناحية العيص ، وهناك التقى بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ولحظتها تأهب حمزة لمقاتلة قريش إلا أن مجدى بن عمرو الجهنى فصل بينهما وكان محايداً بين الطرفين ثم اتخذ كل سبيله إلى حيث جاء .

ثم سير رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا من المهاجرين بغير الأنصار فاتجهوا إلى ماء الحجاز بوادى رابع ، فواجهوا فريقاً من قريش فوق المائتين يقودهم أبو سفيان فراجعوا بغير قتال .

ثم خرج النبى ﷺ بعد اثنى عشر شهرا من إقامته بالمدينة وأتاب عنه بها سعد ابن عبادة واتجه إلى الأبواء ، ثم سار إلى ودان ، هدفه قريش وبنو ضمرة ، فلم يجد قريشا وحالفته بنو ضمرة ، وبعد ذلك بشهر عاد وخرج يقود مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط ، هدفه قافلة يقودها أمية بن خلف قوامها ألفان

وخمسمائة بعير يحرسها مائة محارب ففاته ، لأنها اتخذت سبيلا غير السبيل المطروق للقوافل ، وبعد شهرين أو ثلاثة من قفوله إلى بواط من ناحية رضوى ، اصطنع على المدينة أبا سلمة بن الأسد ، ثم اتخذ سبيله وهو فيما يزيد عن مائتين من المسلمين ، ثم نزل العُشيرة من بطن ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣) ، أملا أن تمر قافلة من قريش يقودها أبو سفيان غير أنه لم يلحق بها ، ورغم ذلك فإنه أفاد من رحلته هذه إذ أنه سالم بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، ولم يكد صلوات الله وسلامه عليه يقيم بالمدينة عشر ليال حتى أغار كُروز بن جابر الفهري وكان على وفاق مع مكة وقريش على إبل وأغنام يمتلكها أهل المدينة ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن خرج فى طلبه جاعلاً على المدينة زيد بن حارثة ثم واصل سيره حتى وصل وادى سفوان من جهة بدر غير أنه لم يلحق كرزاً . وتلك الإغارة هى التى أطلق عليها كتاب السير باسم : غزوة بدر الأولى .

ومن الممكن أن نقول ونحن على صواب أن تلك السرايا الأولى أو المناوشات كان الغرض منها أن تكون رسالة للقرشيين تنبههم إلى أن من الخير لهم أن يتفقوا مع المسلمين الذين أرغموا على الخروج من مكة تحت وطأة العذاب الشديد الذى تعرضوا له ، وأن تكون غاية الاتفاق أن يكف كل طرف عن الاعتداء على الطرف الآخر بما يتيح للمسلمين حريتهم فى الدعوة لدينهم . وتتيح لأهل مكة أمن الطريق فى تجارتهم إلى الشام ، ومن هنا كان لابد لقريش أن تعى جداً قدر ما يتهدد تجارتها ما لم تتفاهم مع المهاجرين من أبنائها ، ومما يؤيد رأينا هذا أن الرسول صلوات الله عليه عندما خرج إلى بواط وإلى العشيرة صحب معه عدداً من الأنصار أهل المدينة وقد بايعه الأنصار على أن يدافعوا عنه لا ليهاجموا ، وثمة هدف آخر من وراء تلك السرايا والرحلات هو إنذار اليهود القاطنين بالقرب من المدينة بأن يكفوا عن الدس والوقية بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج بذكر يوم بَعَثَ وترديد الشعر الذى أنشد فيه .

غزوة بدر

انطلقت الغزوات عندما أطلق واقد بن عبد الله التميمي سهما على عمرو بن الحضرمي فقتله ، فكان ذلك أول دم يراق في الإسلام ، وعلى إثرها شرع القرآن الكريم القتال فريضة على المسلمين حتى لا يفتنوا عن دينهم ويُصدَّوا عن سبيل الله .

أجل ، كانت سرية عبد الله بن جحش هي فاتحة الغزوات فقد أصبح لزاماً على المسلمين أن يدافعوا عن دينهم ومجتمعهم ووحدتهم ودولتهم ، واهتدى تفكيرهم إلى أن يبدؤوا حربهم بضرورة أن يسترجعوا أموالهم التي انتهبتها قريش بشن الغارات عليهم هذا فضلا عن أن قريشاً سعت إلى تأليب شبه الجزيرة كلها على النبي ﷺ لأنهم قتلوا في الشهر الحرام ، أتذ أصبح النبي ﷺ على يقين من أنه لا فائدة تُرجى من وراء مهادنتهم أو تحقيق تسوية مرضية .

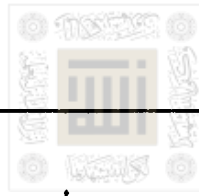
ففي أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة خرج أبو سفيان في قافلة كبيرة متجهاً بها إلى الشام ، وهي القافلة التي أراد المسلمون الوقوف في وجهها . فخرجوا مع النبي ﷺ إلى العُشيرة غير أنهم فوجئوا بأن قافلة أبي سفيان مرت قبل وصولهم بيومين ، فكان عليهم أن ينتظروها حتى أوبتها ، فتلبت رسول الله حتى تعود من الشام ، فبعث كلا من طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ليراقبا عودتها فنزلا على يكشُد الجُهنيّ بالحور ، وقعدا عنده في خباء حتى مرت العير، فذهبا من فورهما إلى محمد ﷺ ليبلغاه بما شاهداه ، إلا أن محمداً لم ينتظر مجيء رسوله إلى الحوراء بما يفضيان به من أخبار العير ، فقد انتهت إليه الأخبار بأن أهل مكة جميعهم رجالا ونساء قد أسهموا في هذه القافلة الكبيرة التي بلغت ميزانيتها ما يقرب من خمسين ألف دينار ، ولذلك فإنه عليه السلام لم ينتظر عودتها خشية أن تفوته فكان أن استجمع المسلمين قائلًا لهم : « هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » فكان أن أسرع البعض في الاستجابة بينما تناقل آخرون ، ورغبت جماعة في أن تنضم إلى جماعة المسلمين طمعا في

غنيمة ؛ ولكن رسول الله ﷺ رفض اشتراكهم ما لم يسلموا .

نأتى إلى أبي سفيان فإنه كان على علم بأن محمداً قد خرج ليقف في سبيل قافلته التي ربحت الكثير من تجارتها ، فتريث في حركته تنسما للأخبار ، وكان الجهنى الذى نزلا عليه رسولا النبي بالحوراء من الذين استفسر منهم . ولئن كان الجهنى لم يبلغ أبا سفيان الحقيقة إلا أن أبا سفيان علم بأن النبي قد خرج لاعتراضه ومعه المهاجرون والأنصار ، ولما كانت حراسة أبي سفيان لا تزيد عن ثلاثين أو أربعين رجلا فإنه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ليذهب إلى مكة ليبلغ قريشاً أن أموالهم أصبحت تحت رحمة محمد ، وصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادى فقطع أذنى بعيه وجدع أنفه وحول رحله ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح : « يا معشر قريش اللطيمة (المال والتجارة) اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أدرى أن تدركوها الغوث . . الغوث » .

فما كان من أبى جهل إلا أن صاح بالناس يستنفرهم وما كانت قريش فى حاجة إلى استنفار فقد كان كل منهم مشاركاً فى القافلة .

إلا أنه كان من بين القرشيين من أدركوا أن قريشاً غبت المسلمين من أهلها وظلمتهم مما اضطرتهم إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وقد أصابت القرشيين الحيرة بين النهوض لاسترجاع أموالهم التى بعثوا بها أو أن تحجم حتى لا ينال العير أذى ، وينبه هؤلاء المترددين إلى أن بين قريش وكنانة جرحاً غائراً لدماء أراقها الطرفان فإن هى (أى قريش) ، بادرت إلى مواجهة محمد ﷺ لأخذ غيرها منه خشية بنى بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها . وأوشكت هذه الذريعة أن تؤيد المنادين بالعودة ؛ لكن جاء فى هذه اللحظة مالك بن جعشم المدلجى ، وكان من عليه بنى كنانة فقال : « أنا لكن جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه » آنئذ تغلب رأى أبى جهل وعامر بن الحضرمى والمنادين بالخروج لإبعاد محمد ومناصريه ، بذلك بطلت حجة المنادين بالعودة أو أن يرسل



القاعد من ينوب عنه ، ولم يتخلف من أشرف قريش إلا أبو لهب الذي أرسل العاص بن هشام بن المغيرة ليكون مكانه ، وكان لَط له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها ، وكان أمية بن خلف من الذين ناصروا القعود ، وكان شيخاً جليلاًً جسيماً ثقيلاً فاتاه بالمسجد عقبه بن أبي مُعَيْط وأبو جهل ، ومع عقبه مِجْمرة فيها بنور ومع أبي جهل مكحلة ومروود فوضع عقبه المِجْمرة بين يديه ، وقال : يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء ، وقال أبو جهل : اكتحل أبا علي فإنما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي . وخرج معهم ، وهكذا لم يتخلف في مكة أحد قادر على القتال ، أما جانب المسلمين فإن النبي ﷺ خرج في أصحابه وأنصاره في اليوم الثامن من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وجعل عمرو بن كلثوم إماماً للصلاة بالناس في المدينة، ثم جاء بأبي لبابة من الروحاء وجعله قائماً على المدينة لتصريف شئونها .

وسار المسلمون وأمامهم رايتان سوداوان وكان عدد إبلهم سبعين بعيراً صاروا يتبادلون امتطاءها فكان كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يتبادلون بعيراً ، فكان النبي ﷺ وعلى بن أبي طالب ومرثد بن مرثد الغنوي يتبادلون بعيراً ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يتبادلون بعيراً . وقد بلغ عدد الذين خرجوا مع النبي في هذه الغزوة خمسة وثلاثمائة رجلاً منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج ، وانطلق القوم مسرعين خشية أن يفلتهم أبو سفيان ، وفي الوقت نفسه كانوا يتنسمون أخباره ، فلما وصلوا عرّق الظبية صادفوا أحد الأعراب فاستعلموا منه ، فلم يجدوا عنده ما يغني ، ثم أسرعوا فاتجهوا إلى وادي ذفران ، فأقاموا به حيث جاءهم الخبر بأن قريشاً غادرت مكة ؛ ليصدوا الخطر عن عيرهم ، وهنا انقلب الأمر رأساً على عقب ، فالمسلمون المهاجرون والأنصار لم يجدوا أمام أبي سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلاً معه بل الجديد والخطير أن مكة خرجت بأجمعها يقودهم الأشرف لإنقاذ تجارتهم ، ولو فرضنا أن المسلمين لحقوا بأبي سفيان وتغلبوا على رجاله

وأخذوا منهم من الأسرى ما استطاعوا ثم استولوا على إبله ، وما تحمل ، فإن قريشاً ستخف بلا شك لنجدته يحرضهم حرصهم على أموالهم .

أما إذا رجع محمد ﷺ إلى حيث جاء فإن قريشاً ومعهم اليهود سوف يزداد طمعهم في النبي ، مما قد يحمل المسلمين على اصطناع سياسة المهادنة ، فيكونون هدفاً لأذى اليهود والموقف برمته يضع المسلمين في حرج خطير ، إزاء ذلك لم يجد النبي بدءاً من أن يستشير أصحابه وأنصاره فيما بلغه عن قريش ، فعرض كل من أبي بكر وعمر وجهة نظرهما ثم عرض المقداد بن عمرو وجهة نظره فقال : « يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت فقاتل إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معك بما مقاتلون » . وسكت الناس فقال الرسول : « أشيروا عليّ أيها الناس » وكان يقصد الأنصار بعبارته هذه فهم الذين بايعوه في يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم وفسادهم ولم يبائعوه على اعتداء خارج مدينتهم ، فلما فطن الأنصار إلى أن الرسول يقصدهم فإن سعد بن معاذ وكان صاحب رأيتهم التفت إلى رسول الله وقال : « لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » . . قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف بنا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا . إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله » .

ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه الرسول بالمسرة وبدا عليه النشاط الكبير وقال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين .. والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم » ونهضوا جميعاً واتخذوا طريقهم ، وعندما اقتربوا من بدر أسرع النبي عليه السلام وهو على بعيره فوجد شيخاً من العرب فاستفسر منه عن قريش وعن محمد وأصحابه ، فعلم منه أن غير قريش على مسافة قريبة

منه فعاد إلى قومه وبعث على بن أبي طالب والزيير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في مجموعة من رجاله إلى ماء بدر ، ليتأكدوا من الخبر ، ثم رجعت الطليعة ومعها غلامان علم منهما النبي أن قريشاً وراء الكثيب بالعدوة القصوى . وعندما ذكرا أنهما لا يعرفان عدد رجال قريش سألهما النبي : كم ينحرون كل يوم؟ فأجابا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، وهنا استنتج النبي أن عدد القرشيين ما بين التسعمائة والألف . عندئذ قال لقومه : « هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها » .

إذن فقد وجد المسلمون أنفسهم وهم أمام قوة تبلغ ثلاثة أضعافهم ، فعليهم من ثم أن يوطنوا أنفسهم على أنهم سيواجهون قوة ضارية ، فعليهم الصبر وعليهم شدة البأس بقدر ما يستطيعون ، وأنه لن يتحقق لهم نصر إلا إذا كان إيمانهم بالنصر مكيناً .

بعد ذلك ذهب اثنان من المسلمين فنزلا بدرًا ، فأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذا لهما وعاء يستقيان فيه ، وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبتهما بدين عليها والثانية تجيبها : « إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيه لك . فلما عاد الرجلان أخبرا النبي عليه السلام بما وعته أذناهما ، من الجانب الآخر سبق أبو سفيان العير ليتقصى الأخبار خشية أن يكون النبي قد وصل إلى الطريق قبله . وعندما وصل إلى الماء فوجئ بوجود مجدي بن عمرو ، فاستفسر منه إن كان قد شاهد أحداً فرد عليه مجدي بقوله : إنه لم يجد أحداً غير راكبين أناخا إلى التل القريب ، فأتى أبو سفيان إلى مناخهما ، فوجد في روث بعيريهما نوى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع عائداً إلى أصحابه ، وعدل بالسير عن الطريق مساحلاً البحر مسرعاً في سيره حتى بعد ما بينه وبين محمد ونجا ، وفي الصباح ترقب المسلمون مرور أبي سفيان غير أنهم فوجئوا بأنه مر بغير أن يشعروا ، آتئذ لم يبق غير مقاتلة قريش وكانوا قرييين منهم . فذوى في نفوس جماعة من المسلمين ما كانوا يطمعون فيه من الغنيمة ، وجماعة أخرى جادلت النبي في أمر

التراجع إلى المدينة بغير أن يواجهوا القرشيين الذين قدموا من مكة . وفي هذا الوقت نزل قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقَطَّ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧] .

وعلى الجانب الآخر رأى كثيرون من القرشيين أن لم تعد لهم حاجة إلى القتال بعد أن نجت تجارتها فما أجدرهم أن يعودوا إلى مكة تاركين المسلمين ينعمون بخفي حنين . تلك كانت فكرة أبي سفيان الذي قال لرجاله : « إنكم خرجتم لتمنعوا غيركم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا » وأيد رأيه هذا عدد لا بأس به من القرشيين . أما أبو جهل فلم يعجبه هذا الرأي وصاح في الناس : «والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » .

وفي رأى أبي جهل أن بدرًا إذ هي موسم من مواسم العرب فإذا انصرفت قريش عنها بعد أن نجت تجارتها ربما رأت فيه العرب - كما رأى أبو جهل - نوعا من الخوف من النبي وأنصاره مما يؤدي إلى أن تزداد قوة محمد وتزداد دعوته انتشارًا ، ولاسيما بعد الذي كان من سرية عبد الله بن جحش ، وقتل ابن الحضرمي وأخذ الأسرى والمغانم من قريش ، واختلفت أهواء الناس فمنهم من خشى عار الجبن فشايح أبا لهب ، وآخرون آثروا الرجوع منهم بنو زهرة ، وقد علموا بنصيحة الأحنس بن شريق ، وكانت له مكانته بينهم وسارت عامة قريش وراء أبي جهل في ضرورة اختيار الموقع الذي يجهزون فيه أنفسهم للحرب حيث يتشاورون ، وما كان منهم إلا أن نزلوا بالعدوة القصوى للاختباء خلف كثيب من الرمل ، أما المسلمون فإنهم وقد ضاعت منهم الغنيمة ، رأوا ضرورة الصمود للعدو إذا أصر على محاربتهم ، فاتجهوا إلى ماء بدر ، فلما اقتربوا منها نزل رسول الله ﷺ ، وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يعرف المكان جيدا ، ولذلك فإنه ما إن نزل الرسول ﷺ في مكانه حتى قال له : « يا رسول الله أرأيت هذا

المنزل ، أمزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة . قال محمد ﷺ : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتزل ثم تغور ما وراءه من القلب (جمع قلب وهو البئر) ثم نبى عليه حوضاً فملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا ، وهنا أدرك الرسول صواب رأى الحباب فعمل ورجاله بما أشار به ، وأئذ نبه الرسول قومه إلى أنه بشر مثلهم ، وأن الرأى شورى بينهم فهو لا يستبد برأيه ومن ثم فإنه يرحب بالمشورة الطيبة .

ولما أتموا بناء الحوض أشار سعد بن معاذ قائلاً : « يا نبى الله ، نبى لك عريشاً تكون فيه وتعدُّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن أشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » فما كان من الرسول إلا أن أثنى على سعد ودعا له بخير . وبنى العريش للنبي لأنه إذا لم يتحقق النصر للمسلمين استطاع الرسول أن يلحق بأصحابه فى يثرب فلا يقع فى يد عدوه .

واتخذت قريش مواقعها للقتال والنزال ، ثم بعثت بطليعة من رجالها لتعلم كم هى قوة المسلمين فجاءها أن عدد المسلمين ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً وليس لهم كمين يرد عنهم المفاجأة ولا مورد لهم يعتمدون عليه ولا يملكون غير سيوفهم . وإذ خرجت قريش بعليتها ، فإن بعض عقلائها خشوا أن يقتل المسلمون صفوتهم فتفقد قريش مكانتها ، ورغم ذلك الهاجس إلا أن منهم من خشى أن يواجه أبا جهل خوفاً من أن يرميهم بالخوف والجبن ، وهنا جهر عتبة بن ربيعة برأيه فقال : « يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك

الذى أردتم وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون » .

فلما انتهى ذلك القول إلى أبى جهل غضب وثار وأرسل إلى عامر بن الحضرمي يقول له : « هذا حليفك يريد أن يرجع الناس وقد رأيت تأرك بعينك فقم فانشد مقتل أخيك » فنهض عامر فى الحال صارخاً واعمراً . وانطلقت الحرب سريعة ولحظتها اندفع الأسود بن عبد القيس المخزومي من بين الصفوف القرشية إلى صفوف المسلمين ليهدم الحوض الذى بنوه . فأسرع إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بسيفه فأطاح بسيفه فوق على ظهره والدم ينهمر من رجله ، ثم عاجله بضربة أخرى أنهت حياته قبل أن يصل إلى الحوض ، وما سقط الأسود حتى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه كتيبة من أبناء المدينة ، فلما عرفهم قال لهم : « ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا » ونادى مناديهم : « يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا » وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث ، وفى لحظة خاطفة قتل حمزة كلا من شيبه وابنه الوليد ، ولما اشتعلت حماسة الفريقين تزاحف الناس والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان . ونهض الرسول صلوات الله عليه لتنظيم صفوف المسلمين ، وأبصر قلة رجاله وضعفهم فى عدتهم بينما عدد القرشيين أضعاف أضعافهم وأغنى فى عدتهم ، ثم عاد إلى عريشه يصحبه أبو بكر ، وقد شمل النبى الخوف على مصير الإسلام والمسلمين فى ذلك اليوم إذا لم يتحقق النصر ، وتوجه الرسول صلوات الله عليه إلى القبلة رافعا أكف الضراعة يدعو ربه ويهتف به أن يفيض عليه بما وعده ، وقال فى ابتهاله : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ... » وظل فى دعائه وهتافه ماداً يديه فى حضور متصل بربه حتى سقط رداؤه وأبو بكر يرد على منكبیه قائلاً : « يا نبى الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك » ، ولكن الرسول ظل فى تضرعه وخشيته ودعائه لربه فى هذا الموقف

الخرج الصعب الذى لم يكن يتوقعه المسلمون ولا اصطنعوا له عدته ، وإن هى إلا خفقة من نعاس رأى خلالها رسول الله النصر جليا . وبعدها انتبه مستبشرا وخرج إلى الناس يحثهم على الصمود فقال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » وفى هذا الموقف المصيرى الرعيب نزلت الآيتان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥ ، ٦٦] .

وكانت عين المسلمين على كبراء قريش وسادتها تريد القضاء عليهم استئصالاً لأنهم أصلوا المسلمين عذاباً شديداً ، وطالما منعوهم من الاقتراب من المسجد الحرام .

وكان أمية بن خلف هو الذى عذب بلالا فقد كان يلقي به فى رمضان مكة فيضجعه على ظهره ثم يضع صخرة كبيرة على صدره عساه يتبرأ من الإسلام ؛ فيقول بلال : « أحد ، أحد » فعندما رآه بلال فى المعركة اتجه نحوه مسرعا وهو يقول : « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » وحاول بعض المسلمين أن يفصلوا بين أمية وبلال فصرخ بلال بأعلى صوته فى الناس : « يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لا نجوت إن نجا » وأصر بلال على قتل أمية فقتله . كما قتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام ، وانطلق أبطال المسلمين حمزة وعلى يقتلون المشركين وارتفع النقع فوق المتقاتلين وفيه طارت رؤوس زعماء قريش ، والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة وهم يهللون : « أحد ، أحد » ووسط هذا المعترك وقف الرسول صلوات الله عليه فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال : «شاهت الوجوه» ثم رماهم بها وهو يقول لأصحابه : « شدوا » وهنا تضاعفت قوة المسلمين المادية ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى

المَلَائِكَةُ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ [الأنفال: ١٢] وقال سبحانه: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] ولما لاحت تباشير النصر عاد الرسول إلى عريشه وأخذت قريش تولى الأدبار . وانطلق المسلمون يطاردونهم ويأسرون منهم .

تلك هي غزوة بدر الكبرى التي رسخت فيها قواعد المسلمين في بلاد العرب فكانت فاتحة لوحدة الجزيرة العربية في ظلال الإسلام بل فاتحة لإمبراطورية إسلامية تشع في العالم نور الإسلام .

ومع أن محمداً ﷺ كان يحث أصحابه على قتال المشركين ويحضهم على استئصالهم ، فإنه وهو الذي بعث رحمة للعالمين كان يحث المسلمين وهم في بداية المعركة على أن يتفادوا بنى هاشم ما استطاعوا ، وأن يتفادوا أيضا بعض رجال من سادات قريش ، ولو أنهم قتلوا من المسلمين من قتلوا وعلى استعداد لأن يقتلوا منهم من يستطيعون . وفي ذلك رد لجميل بنى هاشم لحمايتهم للمسلمين مدى ثلاثة عشر عاما من يوم بعثته إلى يوم هجرته . فهذا عمه العباس كان معه ليلة بيعة العقبة . كما أنه صلوات الله عليه لم ينس جميل من كانوا على الكفر الذين طالبوا بنقض الصحيفة التي أرغمته عليها قريش ولبابها أن يلزم هو وأصحابه الشعب بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة ، وسواء هؤلاء أو هؤلاء فإن النبي اعتبر ما صنعوه حسنة يُجزى من قدمها بمثلها وبعشر أمثالها ، ولذلك فإنه شفع لهم عند المسلمين إبان القتال ، ومع ذلك فإن بعض هؤلاء القرشيين أخذتهم العزة فأبوا أن يستظلوا بهذا العفو كأبي البختری الذي ، وإن اعترض على الصحيفة فإنه رفض العفو وقُتل .

وظل المسلمون مقيمين ببدر إلى آخر النهار بعد أن دفنوا من قتل من قريش في قليب واحد ، ثم أخذ الرسول وأصحابه يعملون بجمع الغنائم وبيحث شأن الأسرى ، حتى إذا ما جن الليل جعل يفكر في فضل الله بنصره على الكافرين

رغم قلة عدد رجاله ، ثم انطلق وهو فى تفكيره يخاطب المشركين الذين دفنوا قاتلا : « يا أهل القليب : يا عتبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام » ، وأخذ يذكر من فى القليب واحداً بعد الآخر : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقا » . . قال المسلمون : « يا رسول الله أتنادى قوما جيفوا ؟ » قال عليه السلام : « ما أنتم بأسمع ما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » ونظر رسول الله فى وجه أبى حذيفة بن عتبة فألقاه كثيراً قد تغير لونه . فقال : « لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ » قال أبو حذيفة : لا والله يا رسول الله ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كدت أرجو له أن أحزننى أمره ، فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير .

ولما حانت ساعة رجوع المسلمين إلى المدينة انطلقوا يتهامون بشأن الغنيمة لمن تكون . فقالت جماعة للذين هاجموها : « نحن جمعناها فهى لنا » وقال الذين طاردوا العدو حتى ساعة هزيمته : « نحن والله أحق بها فلولانا لما أصبتموها » وقال الذين كانوا يحرسون النبى خشية أن ينفذ إليه العدو : « ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين يتصرف فيها أو ينزل الله فيها أمره . وأسرع النبى فبعث إلى المدينة عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليشير أهلها من المسلمين بالنصر ، ثم نهض عليه السلام ومعه أصحابه ، وكذلك الأسرى ، والغنائم وقد جعل عليها عبد الله بن كعب ، وسار موكب النصر فى طريق العودة .

وما إن عبروا مضيق الصفراء نزل الرسول على كتيب حيث شرع يقسم النفل الذى أفاء الله به على المسلمين ؛ وكان لكل نصيبه منه لا المقاتلون المنتصرون وحدهم ، بل كل من أسهم فى المعركة ولو كان بعيداً ، وبينما المسلمون فى

طريقهم قُتِلَ من الأسرى رجلاان : الأول النضر بن الحارث ، والثاني عُقبة بن أبي مُعَيْط وإلى هذه اللحظة لم يكن قد وُضِعَ نظام لمعاملة الأسرى يكون من شأنه قتلهم أو فداؤهم أو استرقاقهم ، ولقد لقي المسلمون من النضر وعقبة أذى شديداً أيام وجودهم بمكة .

وعندما بلغ موكب الرسول الأُتَيْل ، وعرض الأسرى نظر النبي إلى النُضَيْرِ نظرة فرق منها ، وقال الرجل إلى جنبه : « محمد والله قاتلي لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت » قال الذي إلى جنبه : « ما هذا والله منك إلا رعب » وقال النضر لمصعب بن عُمَيْرٍ وكان أقرب من هناك به رحماً : « كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه فهو والله قاتلي إن لم تفعل » فكان جواب مصعب : « إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا وكنت تعذب أصحابه » قال النضر : « لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حي » قال مصعب : « والله إنى لا أراك صادقاً . ثم إنى لست مثلك فقد قطع الإسلام العهود » وكان النضر أسير المقداد وكان يأمل أن يفتديه أهله بمال كثير ، ولما رأى الحديث قد كثر حول النضر سائراً بعِرْقِ الطُّبِيَّةِ أمر النبي بقتل عقبة بن أبي مُعَيْط ، فصرخ عقبة : « فمن للصبيبة يا محمد ؟ » قال : « النار » فقتله عاصم بن ثابت ، وقبل أن يصل النبي المدينة بيوم كان رسوله زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قد سبقاه ، فدخل كل واحد منهما من ناحية ، أما عبد الله بن رواحة فصار ينادى وهو على راحلته أن الله نصر رسوله وأصحابه ، وصار يعدد لهم من قتل من المشركين ، وكان زيد بن حارثة يصنع مثله وهو راكب القصواء ناقة النبي ، وفرح المسلمون فرحاً غامراً وغادروا دورهم مهللين مكبرين .

أما الذين ظلوا عاكفين على شركهم ، وكذلك اليهود فقد أصابهم الغم الشديد فعملوا على التشكيك في النصر العظيم فتصايحوا قائلين : « إن محمداً قتل وأصحابه هزموا ، وهذه ناقته نعرفها جميعاً لو أنه انتصر لبقيت عنده ، وإنما يقول زيد ما يقول هذيانا من الفرع والبرع » وما لبث المسلمون بعد أن اطمأنوا

من الرسولين على نتائج المعركة أن زادت بهجتهم وعم السرور بينهم ، غير أن حادث موت رقية بنت النبي أحزن الجميع ، وكان قد تركها وهي مريضة عند ذهابه إلى بدر وتركها مع زوجها عثمان بن عفان يرضها ، غير أن المشركين والمنافقين عندما تأكدوا من خبر انتصار المسلمين فإنهم أيقنوا أنهم أصبحوا في موقف الذلة والهوان إلى درجة أن قال أحد زعماء اليهود : « بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشرف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن » ودخل المسلمون المدينة قبل الأسرى بيوم واحد ، فلما عرضوا وكانت سودة بنت زمعة زوج النبي قد رجعت من مناحة ابني عفراء ، وكانت بها رأيت سهيل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يده إلى عنقه بحبل ، فلم تملك نفسها أن توجه إليه الكلام قائلة : « أي أبا يزيد ، أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ألا متم كراما » فنادها النبي من البيت : « أعلى الله عز وجل وعلى رسول الله تحرضين؟ » فأجابته : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت . ثم وزع الرسول الأسارى بين أصحابه قائلا لهم : « استوصوا بهم خيراً » .

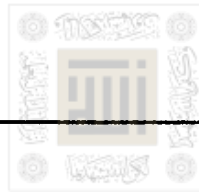
ثم شرع يفكر ما الذى يمكن أن يصنعه بأولئك الأسرى ، أيقتلهم أم يقبل منهم الفداء ؟ إن منهم المقاتلين الأشداء ، وإن منهم لمن يحرق الحقد قلوبهم بعد هزيمتهم فى بدر ، فإن قبل النبي فداءهم فما الذى يمنعهم من أن يكونوا حربا عليه ، أما إذا قتلهم فإنه سوف يثير عليه أهليهم من قريش ، وربما هدأت نفوسهم لو أنهم اقتدوهم ، هنا عرض النبي المشكلة على المسلمين يستشيرهم ، وقد رأى المسلمون من أولئك الأسرى رغبة فى الحياة واستعدادا لدفع الفدية ، فكان مما قاله الأسرى ، لو بعثنا إلى أبى بكر ، فإنه أقرب قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة ، وعظفا ولا نعلم أحداً آثر عن محمد منه ، وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : يا أبا بكر ، إن فينا الآباء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب ، كلم صاحبك بمن علينا أو يفادينا . فوعدهم خيراً ، وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر ، فنظر لهم شزرا ، وذهب
 وزيراً محمد إليه فجعل أبو بكر يلينه ويقول : « يا رسول الله بأبى أنت وأمى ،
 قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان وأبعدهم منك قريب
 فامن عليهم من الله عليك أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما
 أخذت قوة للمسلمين فلعل الله أن يقبل بقلوبهم : » ولكن النبي لم يرد بشيء
 فقام فتنحى ، وجاء عمر فجلس مجلسه وقال : « يا رسول الله هم أعداء الله
 كذبوك وقاتلوك فأخرجوك . اضرب رقابهم ، هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة
 يوطئ الله بهم الإسلام ، ويذل بهم أهل الشرك ، ولم يرد النبي بشيء ، فرجع
 أبو بكر إلى سابق مقعده ، وأخذ يتعطف ويتقرب بالقرابة والرحم وهو يأمل فى
 أن يهدى الله هؤلاء الأسرى إن هو أبقى على حياتهم ، كما رجع عمر إلى سابق
 مقعده وكان كما سبق صارما فى عدله لا تأخذه فى العدل رحمة ولا مهادنة ،
 بعدها دخل النبي قبته وبقى فيها ساعة ثم خرج إلى الناس وهم فى شغل بقضية
 الأسرى فشاورهم فيما عليه أن يصنع . وأخذ يضرب الأمثال بأبى بكر وعمر
 والأنبياء ؛ فقال : « فأما أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن
 عباده . ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل ، قدمه قومه
 إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : ﴿ أَفَ لَكُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧] . . وأن قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] . ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : ﴿ إِن تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ
 عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] ومثل عمر فى الملائكة
 كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله . ومثله فى الأنبياء
 كمثل نوح إذ يقول : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧] .
 وكمثل موسى إذ يقول : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى
 يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨] ثم قال : « وإن بكم عيلة فلا يفوتكم رجل
 من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق » وأخذ القوم يتبادلون الآراء . وكان من بين

الأسرى شاعر هو أبو عزة عمرو بن عبد الله الجحى كان على رأى مخالف وألح فى الإنعام عليه بالعفو ، فقال : « لى خمس بنات لى لهم شىء فتصدق بى عليهن يا محمد ، وإنى لمعطيك موثقاً ألا أقاتلك ، ولا أكثر عليه أبداً » فأمنه النبى وأطلقه من غير فداء ، وكان هو وحده من بين الأسرى الذى فاز بذلك الأمان ، ولكنه سرعان ما انقلب على عقبيه وقاتل مع المشركين فى أحد فأسر وقتل .

واستمر التشاور بين المسلمين زمناً انتهى إلى الموافقة على قبول الفداء ، وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧] .

وفى بهجة الفرح بما أفاء الله به على المسلمين من نصر ومغانم كثيرة كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعى يلهب الطريق إلى مكة حتى دخلها أول فرد حيث أفضى لأهلها بهزيمة قريش ، وما حل بها وبمالها وكبرائها من مذلة وهوان إلى الدرجة التى أصابت أبا لهب بالحى ومات بعد سبعة أيام ، وأخذت قريش تتشاور فيما بينها ، فاتفق الجميع على ألا ينوح أحد على القتلى خشية أن يشمت محمد وأصحابه واتفقوا أيضاً على ألا يتفاوضوا مع محمد بشأن الأسرى حتى لا يغالى فى الفداء ، ومضى زمن وقريش تضمد جراحها حتى جاءت فرصتهم لافتداء الأسرى ، وفى هذا جاء مكرز بن حفص فى فداء وكبر على عمر بن الخطاب ألا يصيب سهيل مكروه فقال لرسول الله : « يا رسول الله ، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً » فرد عليه النبى بما هو الخلق العظيم فقال : « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً » وفى مدار الأسرى بعثت زينب بنت النبى تفتدى زوجها أبا العاصى بن الربيع ، وكان الفداء الذى بعثت به قلايتها عطف عليها عطفاً شديداً وقال لمن معه : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » ووافق أبو العاصى على أن يفارق زينب لأن الإسلام فرق بينه وبينها ، ثم بعث النبى زيد بن حارثة



وصاحباً معه فجاء بها إلى المدينة ، وبعد فك الأسر خرج أبو العاصي إلى الشام في تجارة لقريش ، وفي عودته وعلى مقربة من المدينة خرجت عليه سرية النبي وغنمت ما معه حتى إذا ما جن الليل دخل إلى زينب ، واستجارها فأجارته ورد إليه المسلمون ما أخذوه منه ، وذهب آمناً إلى مكة ، فلما أرجعه لأصحابه من قريش ، قال لهم: « يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا : لا ، جزاك الله خير فقد وجدناك وفيا كريماً . قال : فإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ، ثم رجعت إلى المدينة ورد النبي إليه زينب ، وصارت قريش تفتدي أسراها ، وكانت قيمة الفداء أربعة آلاف درهم أما من لا شيء عنده ، فإن الرسول من عليه بحريته .

غير أن عمليات الفداء لم تهون على قريش ما أصابها في كبرياتها ، فلم تنس هزيمتها أو تهادن محمداً ، ودلالة ذلك أن النساء ظللن شهراً ينحن على قتلاهن فجززن شعر رؤوسهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ، أما هند بنت عتبة زوج أبي سفيان فكانت على غير ذلك ، فقد مشت نساء يوماً إليها ، فقلن لها : ألا تبكين على أبيك وأخيك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشتموا بنا ويتشتم بنا نساء الخزرج ؟ لا والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأري بعيني من قتله « وظلت لا تدهن ولا تأتى إلى فراش أبي سفيان وتحرض الناس على الأخذ بالثأر حتى كانت وقعة « أحد » أما أبو سفيان فإنه نذر بعد بدر ألا يمسه الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً .

مرحلة ما بين بدر وأحد

بعد أن عاد المسلمون من بدر فخورين معترزين بنصر الله لهم أخذت طوائف المدينة على اختلاف نحلها ومشاربها تشن حرباً نفسية على المسلمين بإرسال الأشعار في قدحهم والتحريض عليهم ، فكان أن أصبحت المدينة هي مركز

المقاومة للدين الجديد ، وخلال ذلك اللفظ صار المشركون واليهود يتآمرون للقضاء على هبة محمد أو اغتياله ، وما كان الرسول وصحبه لتخفى عليهم مؤامرات الغل والضغينة ، وقد بلغت جرأة المسلمين أمام أولئك الناقمين المتربصين أن أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على أبي عقك (أحد بنى عوف بن عوف) لأنه كان يطلق أشعاره في هجاء الرسول والمسلمين ، ويحرض قومه على الانقضاض عليهم وظل على حاله حتى بعد بدر ، فذهب إليه سالم في ليلة صائفة كان أبو عقك نائماً فيها بفناء داره فوضع سالم السيف وأنفذ السيف إلى كبده حتى نفذ في الفراش ، وكانت عصماء بنت مروان (من بنى أمية بن زيد) تعيب الإسلام وتؤذى النبي وتحرض عليه ، وظلت كذلك إلى ما بعد بدر ، فجاءها يوماً عمير ابن عوف في جوف الليل حتى دخل إليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام ، ومنهم من ترضعه ، وكان عمير ضعيف البصر ، فجسها بيده فوجد الصبى ، ترضعه فتحاه منها ثم وضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها ، ورجع عمير من عند النبي بعد أن أخبره الخبر ، فوجد بنينا في جماعة يدفنونها فأقبلوا عليه فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: نعم، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . فوالذي نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم » .

وكان لهذه الجرأة الفدائية أثرها فقد ظهر الإسلام في بنى خطمة ، وكانت عصماء زوج رجل منهم ، فأظهر الإسلام منهم من كان يخفى إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم .

وهناك مصرع كعب بن الأشرف مثل ثالث هو مصرع كعب بن الأشرف ، وهو الذى سبق أن ذكرنا له أنه قال عندما علم بمقتل سادات قريش : « هؤلاء هم أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها » وعندما تأكد من الخبر ذهب إلى مكة يحرض على الرسول وينشد الأشعار متباكياً على أصحاب القليب . ثم عاد إلى المدينة وجعل يشب بنساء المسلمين فاغتاظ المسلمون من فعله المنكر ، وصمموا جميعاً على قتله وذهب

إليه أحد المسلمين يستدرجه بالطعن على محمد ، إذ يقول له : « كان قدوم الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة ، وقطعت منا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس » ولما أنس إلى كعب وأنس إليه كعب طلب إليه ما لا لنفسه ولجماعة من أصحابه على أن يرهنوه دروعهم ، ورضى كعب على أن يجيئوه من بعد ، وإنه لفي داره على بعد من المدينة إذ ناداه صدر الليل أبو نائلة (أحد المؤتمرين به) فنزل إليه على الرغم من تحذير عروسه إياه النزول في مثل هذه الساعة من الليل ، وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبي نائلة وكعب آمن لا يخافهم ، وخرج القوم يتماشون حتى مشوا ساعة بعدوا بها عن دار كعب ، وهم يتجادبون أطراف الحديث ويذكرون من حالهم ما وصلوا إليه من الشدة ما يزيد في طمأنينة كعب ، وفيما هم يسيرون كان أبو نائلة يضع يده في رأس كعب ويشمها ويقول : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ، ولما لم تبق لدى كعب شعبة شك فيهم ، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم وقال : اضربوا عدو الله ، فضربوه بأسيافهم حتى مات .

إجلاء بني قينقاع :

وقد كان هذا الحادث سبباً في أن تفاقمت مخاوف اليهود فأصبح كل منهم وهو يخشى على حياته ، وبذلك لم يخف في نفوسهم الحقد على النبي ﷺ ومما صرح بالعداء أن امرأة من العرب ذهبت إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها ، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها وهي تأبى ، فجاء يهودى من خلفها في سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله ، أجلاء بني قينقاع وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوق الشر بينهم وبين بني قينقاع ، وطلب النبي إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المواعدة أو ينزل بهم ما نزل بقريش ، فاستخفوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرنك يا

محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس» فأصبحت مقاتلة اليهود مما لا بد منه ، فضرب المسلمون الحصار على دور بنى قينقاع لمدة خمسة عشر يوما متوالية لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل إليهم أحد بطعام ؛ فكان أن أرغموا على التسليم بما قضى به النبي ولما أن سلموا قرر - بعد مشورة أصحابه - قتلهم جميعًا ، وهنا قام عبد الله ابن أبي ابن سلول وكان حليفا لليهود والمسلمين ، فخاطب الرسول قائلاً : « يا محمد أحسن في موالى » فما كان من الرسول إلا أن أعرض عنه ، فعمد ابن سلول إلى أن يدخل يده في جيب درع الرسول ، فقال له الرسول مغضبًا : « أرسلنى » ثم كررها مرة ثانية : « أرسلنى ويحك » فقال له ابن أبى : « لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، وكان عبد الله صاحب كلمة مسموعة عند المشركين من الأوس والخزرج ، وإن كان قد قل بعض الشيء بفضل قوة المسلمين وبسبب إلحاح ابن أبى وأيضا بسبب مجيء عبادة بن الصامت ليحدث بحديث ابن أبى فوافق على عدم تعقبهم شريطة أن يرحل بنو قينقاع من المدينة عقابا لهم على ما اقترفوه ، وعندما حاول ابن أبى أن يراجع الرسول فى أمر إجلاء اليهود تصدى له أحد المسلمين ومنعه من لقاء النبي بعد أن شج ، فقالت بنو قينقاع : « والله لا نقيم ببلد تُشج فيه يا بن أبى ولا نستطيع عنك دفاعاً » ثم سار بهم عبادة بن الصامت ، ليخرجهم من المدينة ، وقد خلفوا وراءهم ما يملكون من سلاح وذهب كانوا يصوغونه ، واستمروا فى سيرهم ومعهم أمتعتهم متجهين نحو الشمال حتى انتهوا إلى أذرعات على حدود الشام ، ولعل أرض الميعاد كانت تستهويهم إلى ذلك المكان .

وكان من البدهي أن تضعف قوة اليهود بعد أن هاجر بنو قينقاع من المدينة التى أصبحت للمسلمين وحدثهم ، أما اليهود الذين كانوا يتسبون إلى المدينة فقد كانوا يقيمون خارجها حيث خيبر وأم القرى ، وهكذا تم تطهير المدينة من

الطوائف التي تحدث فتنا تهدد أمن مجتمع المدينة وسلامته حتى يكون التفرغ كاملاً للسياسة الإسلامية الداخلية والخارجية .

وعم السلام المدينة لمدة شهر كان من الممكن أن تمتد إلى ما هو أطول غير أن أبا سفيان ظل متخوفاً بسبب هزيمتهم النكراء ، وهو في أثنائها تراوده فكرة أن يعيد هيبة قريش إلى الجزيرة العربية ، وبأنها لا زالت في قوتها وقدرتها على الغزو والقتال . فكان أن جمع مائتين ، وقيل : أربعين من رجال مكة وخرج بهم بعيداً عن الأنظار ، فلما اقترب من المدينة انطلق سحراً فجاء إلى ناحية يُقال لها: العُريضة فصادف مع رجاله رجلاً من الأنصار وزميلاً له يقومان بالحرث فقتلوهما . كما حرقوا بيتين ونخيلاً بالعريضة ، وهنا توهم أبو سفيان أنه بر يمينه في غزو محمد ، فرجع مسرعاً إلى مكة خشية أن يطلبه النبي ، وخرج النبي على رأس جماعة من أصحابه وراء أبي سفيان حتى وصلوا إلى قرقرة الكدر ، وكان أبو سفيان ومن معه يجدون في هروبهم وهم يلقون ما يحملون من زاد ، فكان المسلمون يأخذونه ، ولما وجد الرسول أن أبا سفيان وعصابته اختفوا عن الأنظار عاد ومعه أصحابه إلى المدينة . وكان فرار أبي سفيان عارا لحق به ، وبسبب السويق الذي ألقته قريش سميت هذه الغزوة باسم غزوة السويق .

وتسامعت شبه الجزيرة بأخبار محمد ﷺ فظلت معظم القبائل البعيدة وهي آمنة ، أما القبائل القريبة من المدينة فإنها أصبحت تدرك خطر قوة محمد وأصحابه عليهم ، فقد أصبحت قريش وسائر القبائل تخشى على طريق التجارة الذي هو عماد حياتها الاقتصادية ، ولما كان الرسول قد عاهد كثيراً من القبائل التي تتاخم شاطئ البحر فقد أصبح الطريق معرضاً للكثير من المخاطر مما يضطر قريش إلى تجنبه وهذا هو الخطر الأكبر ، فماذا يحدث للقبائل إذا حيل بينها وبين تجارتها ؟ وكيف تعيش وهي تعاني شظف الحياة الضنينة في أرضها بما يأكل الناس والأنعام؟ إذ فعلى القبائل جميعاً أن تفكر في المصير الذي ينتظرها ولا سيما بعد بدر ، فهل من الممكن أن تؤلف بينها حلفاً تغير به على المدينة وتدمر قوة المسلمين ؟ لقد

تناهت الأخبار إلى النبي أن عصابة من غطفان وسُليم قررت مهاجمة المسلمين فخرج إلى قرقرة الكُدْر ليأخذ عليهم الطريق ، فعندما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار أناس قد ارتحلوا وشيكا ، فما كان منه إلا أن أرسل إليهم جماعة من أصحابه في أعلى الوادي وأقام هو في بطنه ، وصادفه غلام اسمه يسار فاستفسر منه ، فعلم أن الخصم ذهب إلى الماء ، فما كان من المسلمين إلا أن استولوا على ما وجدوه من أنعام وقسموها بينهم على شرعة القرآن ، كان ما غنموه خمسمائة بعير أخذ النبي خمسها وقسم الباقي على رجاله فجاء نصيب كل رجل بعيرين . ثم علم النبي أن جماعة من بني ثعلبة ومحارب وغيرهما تريد أن تنقض على أطرافه ، فكان أن عاجلهم بقوة من أربعمائة وخمسين من المسلمين وفي مسيرة إليهم لقي رجلا من ثعلبة فسأله عن القوم فأخبره بمكانهم قائلا له : « إنهم يا محمد إن سمعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال وأنا سائر معك وذلك على عورتهم » . وما كاد المغيرون يسمعون بتوجه النبي إليهم حتى فروا فوق الجبال . وأيضا علم النبي أن جماعة من بني سُليم بنجران يستعدون لقتاله فما كان منه إلا أن خرج إليهم في ثلاثمائة رجل وجهد للوصول إليهم . وقبل أن يصل نجران بليلة لقيه رجل من بني سُليم فاستفسر منه عن القوم فقال له : إنهم عادوا مذعورين . وهكذا كان الأعراب في خوف متصل على مصيرهم .

أثناء هذه المعارك المتفرقة التقى اليهود بالرسول ﷺ يشونه ما صار إليه حالهم ويذكرون له مقتل كعب غدرا بغير ذنب اقترفه فأجابهم بقوله : « إنه آذانا وهجانا بالشعر ولو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شر » .

ثم انتهى الأمر بعد حديث طويل إلى أن كتب النبي معهم كتابا نزلوا على شروطها خوفاً ، ولذلك ظلت نفوسهم قرحة على الإسلام ونبي الإسلام .

نعم صارت قريش في ضنك شديد بعد أن أخذ الرسول عليها طريقها التجارى . وكان من أهداف النبي ﷺ الحصار الاقتصادي لمكة والقضاء على مكانة قريش في نفوس العرب ، وهذا ما نبه إلى مخاطره صفوان بن أمية فقد وقف يوما

في قريش وقال لهم : « إن محمداً وأصحابه قد عَوَّروا علينا متجرنا فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه فما ندرى أين نسكن . . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . عندئذ قال له الأسود بن عبد المطلب : « تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق » ودله على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل يدلهم على الطريق وقال لهم فرات : « طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد فإنما هي أرضٌ نجدٌ وفياتٌ » ولم يخش صفوان الفيافي لأن الفصل كان شتاء ولم تكن الحاجة إلى الماء كبيرة ، وأعد صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم ، وتصادف أن وجد بمكة وقت إعداد لقافلته للخروج من يثرب هو نعيم بن مسعود الأشجعي ، فعندما عاد إلى المدينة نقل الخبر إلى الرسول ﷺ . وفي الحال بعث النبي زيد بن حارثة في مائة راكب لتعرض تجارة قريش عند القردة (ماء من مياه نجد) فولى أصحاب القافلة هارين وأصاب المسلمون العير وكان فيها خير كثير ، وعاد زيد بغنائه إلى الرسول فخمسها وقسم ما بقى على رجاله . أما فرات بن حيان فعرض عليه الرسول الإسلام لينجو فأسلم ونجا .

وبذلك كان فقد قريش لقافلة صفوان بن أمية مما زاد من شدة حرصها على أن تأخذ بثأرها ، وما كان هذا ليغيب عن بديهة الرسول ، وهذا ما حثه على أن يزيد من أواصر التواد بينه وبين المسلمين وبين المسلمين وغيرهم .



غزوة أحد

بعد غزوة بدر الكبرى التي منيت فيها قريش بهزيمة نكراء شنعاء أخذ المشركون يوحدون إرادتهم وخطتهم وصفوفهم للأخذ بالثأر من المسلمين ، فانفق كبراء مكة جبير بن مطعم ، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وحويطب بن عبد العزى ، وغيرهم على أن تباع العير وتنفق أموالها على إعداد جيش لقتال محمد ، فضلاً عن إغراء القبائل بالمال لحثها على الاشتراك مع قريش في الأخذ بالثأر ، وكذلك استنفر القرشيون أبا عزة الشاعر ، وكان النبي قد عفا عنه مع أسرى بدر ، كما استنفروا جماعات من الأحباش ليشاركوا في القتال . وأكثر من هذا ، فإن نساء قريش أصررن على أن يشتركن مع الغزاة لينتقمن من محمد وأصحابه ، وكان من الطبيعي أن يتشاور أولئك المشركون بشأن اشتراك النسوة في القتال . فمنهم من قال يخرجن : فإنه يحفظكم ويذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه . ومنهم من قال : « يا معشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرضوا حُرْمكم لعدوكم ولا آمن أن تكون الدبرة عليكم ، ففتضحوا في نسائكم » وأثناء احتدام التشاور صاحت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان في الذي يرفض خروج النساء : « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ، نعم ، نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة ، فقتلت الأعبة يومئذ أن لم يكن معهم من يحرضهم » . وخرجت قريش ومعها نساؤها تقودهن هند تتأجج حرقاً للأخذ بالثأر ، خرجت قريش في ثلاثة ألوية عقدت في دار الندوة ، فعلى اللواء الأكبر كان طلحة بن أبي طلحة ، وكان يتألف من ثلاثة آلاف رجل منهم مائة من ثقيف والباقيون من مكة في سادتها ومواليها وأحايشها تسلحوا بأسلحة كثيرة وكانوا يقودون مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير من بينهم سبعمائة مسلحون بالدروع ، واتخذ هذا الجيش أهبطه للزحف ، وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي واقفاً لحظتها وعينه على ما يدور ويجرى ، ومع أن العباس

كان متمسكاً بدين آبائه وقومه إلا أن إحساسه بالعصية والشعور بالإعجاب بمحمد وتذكرة لحسن معاملته له يوم بدر ، كل هذا جعله يشهد مع النبي بيعة العقبة الكبرى ويقول في الأوس والخزرج بأنهم : « إن لم يكونوا مانعي ابن أخيه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه زيادهم من قبل » ذلك كله حث العباس على أن يكتب إلى النبي بما سمع وشاهد . وسلم رسالته إلى رجل غفاريّ يصل إلى المدينة في ثلاثة أيام .

وسارت قريش في جيشها حتى وصلت الأبواء ومرت بقبر أم النبي آمنة بنت وهب فتهور بعض السخفاء واندفع إلى القبر محاولاً نبشه . ولكن بعض الكبار منعوهم وصدوهم حتى لا تكون سنة عند العرب وقالوا : « لا تذكروا من هذا شيئاً ، فلو فعلنا لنبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا » واستأنفت قريش سيرها حتى بلغت العقيق ، ثم نزلت عند سفوح جبل أحد على مسافة خمسة أميال من المدينة ، ووصل الغفاريّ المدينة فوجد الرسول بقاء فاتجه نحوه حيث وجده على باب المسجد ممتطياً حماره ، فسلمه الرسالة فقرأها عليه أبي بن كعب فأوصاه النبي ألا يذيع منها شيئاً ، ورجع إلى المدينة حيث قصد إلى سعد بن الربيع في داره فروى له ما جاءه من العذاب وطلب إليه ألا يذيع شيئاً مما قاله ، غير أن زوج سعد كانت بالمنزل فتناهى إليها الحديث وبذلك انكشف السر ، وما كان من الرسول إلا أن أرسل أنساً ومؤنساً ابني فضالة ليتحسبا أخبار قريش فأدركا أنها اقتربت من المدينة وجعلت إبليها وخيلها ترعى في زروعها ، وكذلك أرسل الرسول الحباب بن المنذر بن الجموح ، فلما تجمعت لديه الأخبار أشكل على الرسول الأمر ، وخرج سلمة بن سلامة فوق بصره على كوكبة من خيل قريش وهي تقترب رويدا رويدا من المدينة فأسرع فأخبر القوم بما وقعت عليه عيناه ، وخاف الأوس والخزرج مما قد يقع لهم من الغزو الذي حشدت له قريش خير رجالها وأكثر سلاحها ، وبلغ الخوف غايته حين عمد سادات المسلمين من أهل المدينة إلى أن يكونوا في سلاحهم ، يحيطون بالنبي خوفاً على حياته ، وفي نفس

الوقت وضعت المدينة تحت الحراسة العامة طوال الليل ، وفي الصباح اجتمع النبي بوجوه القوم من مخلصين ومنافقين ليتنافسوا في الخطة التي يمكنهم بها أن يواجهوا عدو الإسلام ، وكان من رأى النبي أن يعتصم المسلمون بالمدينة فإذا حاولت قريش اقتحامها تيسر لأهلها الدفاع عنها والتغلب على المهاجمين ، وكان عبد الله ابن سلول على رأى النبي وقال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة ونشك المدينة بالبنان فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسياقنا في السكك ، إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ، ما فُضَّت علينا قط وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله ، وأطعني في هذا الأمر ، فإنني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم » .

وكان كبار أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار يتفقون مع ابن أبي في رأيه الذي كان هو رأى النبي كما أشرنا ، غير أن الحماسة أخذت بنفوس الفتیان الذين لم يشهدوا بدرا ، والذين شهدوها وغنموا النصر العظيم رأوا أن لا بد من التصدي لذلك العدو ومواجهته هذا فضلا عن أنه خشوا أنهم يتهموا بالجبن والتردد وقد قال أحدهم : « إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمدا في صياصي يثرب وأكامها فتكون هذه مجرأة لقريش وهاهم هؤلاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذبَّ عن عرضنا (كل واد فيه زرع) لم يزرع ، وإن قريشا قد مكثت حولها تجمع الجموع ، وتستجلب العرب من بواديها ، ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءنا قد قادوا الخيل ، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا أفيحسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ، لو فعلنا لآزدادوا جرأة ، ولشئنا الغارات وأصابوا من أطرافنا ، ووضعوا العيون ، والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا .

وتلا ذلك كلمات المؤيدين للخروج فإما النصر وإما الجنة . وهنا اهتزت



القلوب لحديث الاستشهاد . قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة . لقد أخطأني وقعة بدر وكنت عليها حريصا حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو يقول : « الحق بنا ترافقنا في الجنة فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ، والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة وقد كبرت سني ورق عظمى وأحببت لقاء ربي : « فعندما أصبح الرأي الغالب للقائلين بالخروج قال النبي ﷺ وكأنه كان يقرأ الغيب : « إني أخاف عليكم الهزيمة » ومع تحذيره أصروا على موقفهم ، فلم يملك صلوات الله عليه إلا أن ينزل على : « رأى الأغلبية » وهكذا تكون الشورى في الصميم واللباب .

وفي يوم الجمعة صلى النبي بالناس وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ثم دخل بيته ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه الدرع والسيف ، وفي أثناء إعداده للقتال صار الناس يتحاورون ، قال أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وكانا يريان التحصن بالمدينة : « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة ، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه » .

وشعر الذين كانوا يدعون إلى الخروج أنهم عصوا الرسول فتألموا كثيرا ، فلما خرج النبي إليهم لابسا درعه متقلدا سيفه قالوا له معتردين : « ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله وإليك » قال النبي : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتكم وما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه انظروا ما أمركم به ، فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم » وتقدم الرسول برجاله نحو أحد ، فكان أن نزل مكانا يسمى (الشيخين) ، (موضع كان به شيخ أعمى وعجوز عمياء) وفجأة جاءت كتيبة لتنضم إليه وهو لا يعرف أهلها فسأل عنها فقيل : « هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود » فقال عليه السلام : « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل

الشرك ما لم يسلموا» فتراجع اليهود وعادوا إلى المدينة .

أمام هذا الموقف وجدها حلفاء ابن أبي فرصتهم لكي يثروه عليه ، فكانوا أن قالوا له : « لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى من آبائك ، فكان رأيه مع رأيك ثم أبي أن يقبله ، وأطاع العلمان الذين معه » وأعجب ابن أبي برأيهم فانسحب مع كتيبة من أصحابه ، ولم يبق في الميدان إلا النبي ومعه المؤمنون الصادقون ، وكانوا لا يزيدون عن سبعمائة ، أمام ثلاثة آلاف من قريش من أهل مكة لكل منهم ثأره عند محمد ، وتحرك المسلمون في الصباح الباكر حتى وصلوا أحدا واخترقوا دروبه جاعليه خلفهم . وتوقف بينهم ، وأخذ منهم خمسين رجلا وضعهم على شُعب في الجبل وقال لهم : « احموا ظهورنا فإن نخاف أن يجيئوننا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا عنه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكريهم ، فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا فلا تدافعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » ثم أصدر أمره لغير الرماة ألا يقاتلوا إلا بأمره .

أما الجبهة المقابلة وهي قريش ، فإنها رتبت مواقع قواتها : فكان على الميمنة خالد بن الوليد وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل ، وكان صاحب اللواء عبد العزى طلحة بن أبي طلحة ، وكان لنساء قريش عملهن ؛ فكن يمشين بين الصفوف يضربن بالدفوف ، وكن يتحركن مرة أمام الصفوف ومرة في مؤخرة الصفوف تتزعمهن هند بنت زوج أبي سفيان ، وكن في مشهدهن هذا يقلن :

ويها بنى عبد الدار ويها ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

ويقلن :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراقًا غير وامق



وأخذ كل فريق يحرض فريقه على القتال ولكل حجته ، أما قريش فتذكر بدرا وقتلاها . أما المسلمون فيذكرون الله ونصره ، وفي هذا كان رسول الله يحض ويحث على الجهاد ويطمئن أنصاره على أن لهم النصر ما صبروا . ثم مد يده بسيف فقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دجانة سِمَاك بن خَرَشَةَ أخو بني ساعدة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » . وقد عرف أبو دجانة بالشجاعة وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل وأنه أخرج عصابة الموت . فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصب رأسه ، وجعل يتبختر بين الصنفين على عادته إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه النبي قال : « إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن » .

وانطلقت شرارة القتال عندما انتقل أبو عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى من المدينة إلى مكة يحرض قريشاً على قتال محمد ، ولم يكن قد اشترك في معركة بدر ، وانطلق تجاه أحد في خمسة عشر رجلا من الأوس وجماعة من عبيد أهل مكة ، وكان يتباهى بقوله : إنه إذا نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يناصرون محمداً لانضموا إليه في الحال مناصرين لقريش ، فخرج فنادى : يا معشر الأوس ، فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ، واشتجر القتال . وعمل كل من عبيد قريش وكذلك عكرمة بن أبي جهل ، وكان على الميسرة أن يفاجئ المسلمين فهاجمهم ، ولكن المسلمين أسرعوا فأطلقوا نحوه الحجارة حتى اضطر أبو عامر ورفاقه إلى الهرب من المعركة ، آئذ أطلق حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال « أمت ، أمت » ، واخترق قلب جيش قريش ، وخرج صوت طلحة ابن أبي طلحة ، وهو يحمل لواء أهل مكة ، وهو يقول : من يبارز ، فخرج إليه علي ابن أبي طالب ، وتقابلا بين الصنفين ، فأسرع إليه على بضربة فلقت هامته ، وفرح النبي وكبر المسلمون وشدوا ، وانطلق أبو دجانة ويده السيف وعلى رأسه عصابة الموت يقتل كل من في طريقه يجوب صفوف

المشركين ، فرأى إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً ، فحمل عليه بالسيف ، فإذا هى هند بنت عتبة فرجع عنها مشرفاً سيف رسول الله أن يقتل به امرأة .

وجمحت قريش فى القتال يتأجج فى عروقها طلب الثأر لمن قتلوا من ساداتهم وكبرائهم أولئك الذين قتلوا منذ عام فى بدر ، وأصبح فى الميدان جبهتان غير متكافئتين لا فى العدد ولا فى العدة ، الأولى قريش يحركها ثأر عميق ، والثانية جبهة المسلمين تدافع عن عقيدة الإيمان بالله عقيدة وشريعة ، وكانت الجبهة الأولى تنعم بزاد من الخير الوفير .

فى هذه المعركة قتل حمزة بن عبد المطلب الكثيرين منهم : أرطاة بن شرحبيل ، وسباع بن عبد العزى الغبشانى ، وفى هذه المعركة تأمرت هند بنت عتبة مع وحشى الحبشى على قتل حمزة عم النبى ، ويذكر وحشى وقصة هذه المؤامرة فيقول : « . . فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق (ما لونه بياض إلى سواد) يهذ الناس سيفه هذا ، فهزرت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته (ما بين السرة والعانة من أسفل البطن) حتى خرجت من بين رجله وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه وليس لى بغيره حاجة إنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة أعتقت » .

فى هذه المعركة الضارية وغير المتكافئة كان هناك قُزمان وهو من المنافقين الذين ادعوا الإسلام ، وكان قد تراجع عن الخروج يوم أُحد . فلما أصبح عيرَه نساء بنى ظافر فقلن : « يا قزمان ، ألا تستحيى لما صنعت ، ما أنت إلا امرأة خرج قومك فبقيت فى الدار » فما كان من قُزمان إلا أن دخل بيته وهو فى شدة الغيرة فأخذ فرسه وجعبته وسيفه ، وكان معروفاً بالشجاعة ، وانطلق بفرسه حتى بلغ جيش المسلمين والنبى فى شغل بتنظيم الصفوف واندفع خلال القوات حتى كان فى الصف الأول فخاض بفرسه القتال يطلق نباله كالرماح العاصفة . فلما دنا آخر

النهار فضل أن يبئخ نفسه بعد أن قتل من قريش سبعة رجال في أقل من ساعة غير الذين قتلهم في بداية المعركة . . في هذه اللحظة مر به أبو الغيداق وهو يسلم الروح : « هنيئاً لك الشهادة يا قزمان » فرد قزمان بقوله : « إننى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرماناً وتطأ سعفنا ، والله إننى ما قاتلت إلا عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت » وتراجعت قريش بعض الشيء .

ثم عنفت حدة القتال واستماتت قريش حتى أنه إذا سقط لواء من حامله أخذه من يخلفه ، حمل عثمان بن أبى طلحة اللواء بعد أن قتل على طلحة بن أبى طلحة فلقى مصرعه على يد حمزة وحمله أبو سعد بن أبى طلحة وصاح : « أتزعمن أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار ، والله إنكم لتكذبون ولو كنتم تؤمنون حقاً فليتقدم منكم من يقاتلنى » وضربه على أو سعد بن أبى وقاص بسيفه ضربة ففلقت هامته ، ثم أخذ حملة اللواء يتعاقبون واحداً بعد الآخر حتى قُتل تسعة من بنى عبد الدار كان آخرهم صؤاب الحبشى غلام بنى عبد الدار وقد ضربه قُزمان على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى فقطعها قزمان بسيفه فضم صؤاب اللواء بذراعيه على صدره ثم ضربه على ظهره وهو يقول : « يا بنى عبد الدار هل أعذرت ؟ » وقتله قزمان أو قتله سعد بن أبى وقاص على خلاف فى الرواية . فلما قتل أصحاب اللواء لم يصبر المشركون على الصمود فولوا هاربين تاركين نساءهم وسقط الصنم الذى كانوا يتيامنون به من فوق الجمل الذى كان فوقه .

والحق أن انتصار المسلمين فى هذه المعركة غير المتكافئة كان معجزة من معجزات الحرب ترجع أسبابها إلى قوة العقيدة وقوة الإيمان وقوة الفكر .

ولاحق المسلمون المشركين بأسياهم للقضاء عليهم غير أنهم سرعان ما انصرفوا عيونهم إلى المغانم حتى أن الرماة الذين أمرهم الرسول ألا يتركوا مواقعهم حتى ولو رأوا أصحابه يقتلون ، أولئك الرماة أغرتهم مشاهدة الغنائم . وقد قال بعضهم لبعض : « لم تقيمون هاهنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم

وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » فقال واحد منهم : ألم يقل لكم رسول الله : « لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا؟ » قال الأولون : لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين . ونشب الخلاف فنصحهم أميرهم عبد الله بن جبير ألا يخالفوا ما أمر به رسول الله ، ولكن الكثرة لم تأبه بالنصيحة وأسرعوا إلى المغنم ولم يبق حوله إلا نفر دون العشرة .

وبينما المقاتلون منهمكون في النهب انتهزها خالد بن الوليد وكان يقود فرسان مكة ، فهاجم بهم الرماة فأزاحهم عن مواقعهم ، ولم ينتبه المسلمون لذلك الحادث . وفي لحظة أطلق خالد صيحة عرفت منها قريش أنه دار ليقطفى جيش المسلمين فرجع المنهزمون من قريش وراء المسلمين ، فأثخنوا فيهم ضربا وتقتيلا ، وهنا دارت الدائرة على المسلمين ، فرمى المسلمون ما بأيديهم من غنائم وعادوا إلى سيوفهم وصاروا يتخبطون حتى أنهم قتلوا أحد المسلمين وهو حُسيّل بن جابر أبا حذيفة بغير أن يتبينوه ، وكان أكبرهم كل مسلم أن يلوذ بحياته إلا نفراً قليلاً منهم على ابن أبي طالب ، وفجأة ارتفع صوت يقول : « قتل محمد » وفي لحظة زاحمت قريش إلى الناحية التي كان فيها النبي ، وكل منهم يتمنى أن يفاخر بأن كان له في قتله نصيب ، وأحاط المسلمون بالنبي يدافعون عنه ويذودون الحجارة التي تقذفها قريش ، وقد أصابت النبي فوق ، فأصيبت رباعيته وشُجَّ في وجهه وكُلِّمَتْ شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجنته . وكان رامى الحجر الذي أصابه عُتْبة بن أبي وقاص . وبجهد شديد سار الرسول ومعه أصحابه ولكنه وقع في حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون فأسرع إليه على ابن أبي طالب ، ورفع طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى وسار مع أصحابه ثم تسلقوا أحداً ناجين من متابعة العدو لهم .

ومما يذكر في هذه المعركة أن المسلمين صنعوا من أبدانهم وأرواحهم درعا حول رسول الله ﷺ ليحموه من تهجم القرشيين ، ولم تتخلف المرأة عن هذه

الفدائية . فأمر عمارة الأنصارية خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء وتدور على المسلمين المجاهدين تسقى منهم من استسقى ، فلما انهزم المسلمون ألقوا سقائها واستلت سيفاً وقامت للقتال دفاعاً عن النبي بالسيف وكانت ترمى القوس ، واستشهدت من شدة الجراح ، وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنبيل يقع فيه ، وكان سعد بن أبي وقاص يقف إلى جانبى النبي يرمى بالنبيل دونه والنبي يناوله النبيل ، ويقول له : « ارم ، فداك أبى وأمى » وكان الرسول من قبل يرمى بنفسه عن قوسه حتى اندقت كلها ، فى هذا الوقت الحرج العصيب إشاعة راجفة أن محمداً قتل ، وكان أبو بكر وعمر من الذين ظنوا ذلك فانتحوا الجبل وألقوا ما بأيديهم ، فرآهم أنس بن النضر ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استدار الجميع نحو القوات القرشية يقاتلون قتال الاستشهاد ، وظل أنس بن النضر يصول ويجول حتى أنه لم يُقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة حتى تمزق جسده أشلاء فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه .

وطير خبر مقتل الرسول بين قريش فحسبته صحيحاً ففرحت فرحاً شديداً . وأخذ أبو سفيان وهو فى غامر فرحه يبحث عن النبي بين القتلى ، وكان النبي قد أمر أصحابه المقاتلين أن يشيعوا خبر قتله حتى تخف عنهم وطأة قريش غير أن كعب بن مالك اتجه نحو أبى دجانة ومن معه فتبين محمداً حين أبصر عينيه تزهراً تحت المغفر فرفع صوته منادياً : « يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله » . فأوماً إليه النبي أن يسكت غير أن الخبر ذاع بين المسلمين ، فتكاثروا على النبي بعد أن عرفوا صحة الخبر ، فقاموا مع النبي ، نحو الشعب يصحبه أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وغيرهم وكان لدوى صيحة كعب أثرها فى قريش فقد حسبوها حيلة لشد عزائم المسلمين ، غير أن بعضهم اندفع نحو النبي والذين صحبوه ، وقد لحق بهم أبى بن خلف وهو يقول : « أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا » فما كان من الرسول إلا أن استدار إليه وطعنه بحربة الحارث بن

الصَّمَّة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ليموت في الطريق .

ولما وصل المسلمون إلى فم الشعب خرج على فملاً درقة ماء ، فغسل الرسول به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح حلقتي المنفر من وجه الرسول فسقطت ثنيتاه ، وبينما الجميع حول الرسول صعد خالد بن الوليد، الجبل ومعه مجموعة من الفرسان فتصدى لهم عمر بن الخطاب وبعض من أصحاب الرسول وأرجعهم ، وأسرع المسلمون في صعود الجبل واضطر الرسول إلى أن يصلى الظهر قاعدا من الجراح التي أصيب بها وصلى المسلمون خلفه قعودا .

أما قريش فإنها فرحت بنصرها ظانة أنها قد انتقمت لبدر وبلغ من سرورها أن صاح أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ، والموعد العام المقبل » وتملكت هند بنت عتبة زوجه حمى الانتقام الدموى ، فلم يكفها النصر ولم يشف غليلها مقتل حمزة ، فقد اندفعت ومعها مجموعة من الموتورات يمثلن بالقتلى بجذع الآذان والآناف وصنعت منها هند قلادة وأقراطا ، ثم أبصرت جسد حمزة فبقرت بطنه وانتزعت كبده من جسده وأخذت تلوكها بأسنانها بغير أن تتمكن من بلعها فلفظتها ، غير أن أبا سفيان تبرأ من تلك الشناعات ومن تبعتها ، وأعلن أنه لم يأمر بها حتى أنه قال لأحد المسلمين : « إنه قد كان في قتلاكم مثلٌ » ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما نهيت وما أمرت » .

وانصرفت قريش لدفن قتلاها وانصرف المسلمون كذلك لدفن قتلاهم ، وبينما رسول الله يبحث عن عمه حمزة أبصره وقد بقر بطنه ومثل به فحزن عليه حزناً شديداً حتى أنه قال : « لن أصاب بمثلك أبداً . وما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا » ثم قال : « والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب » فكان أن نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٦ ، ١٢٧] بهذه الآية الكريمة عفا الرسول عن



الذين أخطؤوا وصبر على ما أصابه وأصحابه ونهى عن المثلة ، وسجى عمه حمزة بيرده وصلى عليه ، أما صفية أخت حمزة فإنها ألقت نظرتها الأخيرة عليه ثم صلت عليه واستغفرت له ، ثم دفن حمزة وبعدها أمر النبي بدفن القتلى فدفنوا حيث قتلوا . ثم ذهب المسلمون إلى المدينة وعلى رأسهم الرسول ﷺ .

بعد أن دخل النبي ﷺ بيته صار يتفكر فيما آل إليه من أمر المسلمين : فأهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا مبتهجين لكارثة الهزيمة التي حاقت بالمسلمين وفي ذات الوقت كانت هيمنة المسلمين على كل شؤون المدينة قد أصابها زعزعة بسبب الأراجيف التي روجها المنافقون ، فعبد الله بن أبي ابن سلول رجع من أحد ، ولم يشترك في القتال بذريعة أن محمدا أهمل نصيحته ، وأنه أساء إلى مواليه من اليهود ، وكذلك فإنه لو بقيت هزيمة أحد هي السائدة في المجتمع الإسلامي لضعفت هيبة المسلمين ولأصابتهم سخرية المشركين لا في المدينة فحسب ولكن في شبه الجزيرة العربية بأسرها ، وأكثر من هذا فإن من عبَاد الأوثان والمشركين من سوف لا يصددهم أحد عن الاجترار على المسلمين ، إذن فلا بد من ضربة قوية ومباغته تبعث في نفوس المسلمين الثقة وتستنهض إرادتهم على أن يكون في مقدور هذه الضربة أن توهن قوة اليهود والمنافقين .

كل ذلك تكون له فاعليته المؤثرة في استعادة المسلمين لسلطانهم وقوة كلمتهم في المدينة ، ففي صباح اليوم الثاني من أحد وهو يوم الأحد السادس عشر من شوال ، وقف مؤذن النبي وأذن في المسلمين يدعوهم إلى ضرورة الخروج لمطاردة العدو ودحر فلوله شريطة ألا يخرج إلا من اشترك في الغزوة ، وعندما تقدم المسلمون بقواتهم فقد ظن أبو سفيان أن المسلمين قد جاءهم المدد ومن ثم فإنه لن يقوى على مواجهته فخاف ، في هذا الوقت كان الرسول قد بلغ « حمراء الأسد » (موضع على ثمانية أميال من المدينة) أما أبو سفيان فإنه كان بالروحاء فمر به معبد الحزاعي ، وكان قد التقى بمحمد ورجاله فاستفسر منه عن حال قوة المسلمين ، فرد عليه معبد وكان لا يزال مشركا : « إن محمدا قد خرج في أصحابه يطلبكم في

جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه وكلهم أشد ما يكون عليكم حَقًا ومنكم للثأر طلبا « وتخير أبو سفيان في موقفه هذا فلو أنه فرض الميدان ، فسوف يكون فراره هو السقوط لمكانة قريش . فاصطنع الحيلة فأرسل مع ركب من عبد القيس متجهين إلى المدينة رسالة إلى محمد فحوهاها أن أبا سفيان عازم على إعادة الكرة على محمد وأصحابه ليفنيهم عن آخرهم . وعندما وصلت تلك الرسالة إلى الرسول وهو في موقعه « بحمراء الأسد » فإنه ظل على قوته في إيمانه وإرادته وليوهم قريشا أنه مصر على موقفه منهم ، ولذا فإنه ظل في مكانه يوحد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابة حتى خارت إرادة الصمود عند أبي سفيان ففضل أن ينصرف بنصره إلى مكة خشية أن يحدث له ما لا يُحمد .

وبهذا الموقف التكتيكي انتصر المسلمون ، فرجع الرسول إلى المدينة فعاد إليها الكثير من الهيبة ، ورغم ذلك النصر التكتيكي الذي أصاب قريشا بشيء من الرعب ، فإن الرسول كان يشعر بدقة موقفه تماما ، ومن ثم فإنه رأى أن من الضروري تقويم الموقف العام للمدينة ولجزيرة العرب جميعًا ، فبعد شهرين من أحد نعى إلى علمه صلوات الله عليه أن طليحة وسلمة ابني خويلد وكانا على رأس بني أسد يحرضان قومهما ومن على شاكلتهما أن يشنوا الحرب على محمد في المدينة ، وأن يغنموا الكثير من الأنعام التي ترعى حول المدينة ، ومما شجعهم على هذا الوهم ظنهم أن محمدا وأصحابه لا يزالون واهنى الإرادة بسبب ما وقع لهم في أحد . ولما انتهت إلى النبي تلك الأنباء لم يتردد ، فقد دعا إليه أبا سلمة ابن عبد الأسد وعقد له لواء سرية مؤلفة من مائة وخمسين مقاتلا منهم أبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيّد بن حُضَيْر وكلفهم بأن يكون سيرهم بالليل واستخفاءهم بالنهار ، وأن يكون طريقهم غير مطروق من أحد ، ثم يفاجئوا العدو القرشي بالإغارة عليه . وقام أبو سلمة بما كلف به فأحاط بالعدو في عماية الصبح وهاجمته برجاله فهرب المشركون ، فوجه وراءهم من يطاردهم ويغنم

منهم. وفعلا عاد المسلمون بالغنائم فتحوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل وقسموا الباقي بينهم ثم قفلوا إلى المدينة منتصرين ، وكان ذلك النصر سبباً في أن عاد للمسلمين شيئاً من عزة الهيبة .

وأيضا انتهى إلى النبي خبر أن خالد بن سفيان بن الهذلي يقيم بنخلة أو بعُرنة وأنه يعد جموعا ليغزو بها النبي ، فأوفد إليه عبد الله بن أنيس ليتعرف على حقيقة الخبر ، وسار عبد الله حتى لقي خالدا وهو في ظعن يرتاد لهن منزلا . فلما انتهى إليه سأله خالد : مَنْ الرجل ؟ فأجابه : أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك . فلم يُخف خالد أنه يجمع الجمع ليغزو المدينة . ولما رآه عبد الله في عزلة من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للسير معه حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله ، ثم ترك ظعائنه مُنكبات عليه يبكيه وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر ، وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمنا ثم فكرت تحتال لتأخذ بثأره .

في هذا الوقت وصل رهط من قبيلة مجاورة فقالت للنبي : « إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئونا القرآن » وكان من سنة النبي ﷺ أن يندب نفراً من أصحابه ليقوموا بذلك العمل الجليل الذي يدعو الناس إلى الهدى ودين الحق . . ثم يكونوا من أنصار الرسول حتى يشدوا أزره وينصروه على أعدائه ، فبعث الرسول ستة من كبار أصحابه صحبوا ذلك الرهط وساروا معه حتى إذا جاؤوا إلى ماء لهذيل بالحجاز عند مكان يسمى الرجيع غدر ذلك الزهط بالمسلمين بل استصرخوا عليه هذيلاً ، وكم كانت فزعة المسلمين الستة وهم في رحالهم عندما أحاط بهم ذلك الرهط وبيدهم السيوف ، فأسرع المسلمون الستة إلى سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم ، غير أن هذيلاً قالت لهم : « إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم » فأوجس المسلمون خيفة ورأوا أن الذهاب بهم إلى مكة فرادى لن يجلب عليهم سوى عار الذل والهوان ، فرفضوا بل إنهم بادروا إلى القتال وهم على يقين

من أن موقفهم في غاية الخطورة ، وتمكنت هذيل من أن يقتل منهم ثلاثة . أما الثلاثة الآخرون فإنه استسلموا فأخذهم الهذليون إلى مكة لبيعهم . غير أن عبد الله بن طارق استطاع أن ينزع يده من غل الأسر ، وأشهر سيفه للقتال غير أن القوم ظلوا يرحمونهم بالحجارة حتى مات ، أما الأسيران الآخرون فإنهما بيعا في مكة ، بيع زيد بن الدثنة لصفوان بن أمية الذي اشتراه ليقتله بأبيه أمية بن خلف فدفع به لمولاه نسطاس ليقتله ، فلما قُدِّمَ سألَهُ أبو سفيان « أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن في مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال زيد : «والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي » فعجب أبو سفيان وقال : « ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً » ثم قتل نسطاس زيدا ، وهكذا استشهد زيد لأمانته الدينية وحبه لنبيه . أما خبيب فحبس حتى خرجوا ليصلبوه فقال لهم : « إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا فأجازوه ما أراد ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال : « أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة » ورفعوه إلى خشبة فلما أوثقوه نظر إليهم بعين مغضبة ، وصاح : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحدا » فأخذت القوم الرجفة من صيحته واستلقوا إلى جنوبهم حذراً من أن تصيبهم لعنته ثم قتلوه ، وكذلك جاء استشهاده في سبيل الله . وغمر المسلمون الحزن الشديد لما وقع لأصحابهم الستة ، وأخذ التفكير العميق طويلاً بالمسلمين ، وأثناء تفكير الرسول فيما وقع جاءه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة . فعرض عليه الرسول أن يُسلم فرفض بغير أن يظهر عداوة للإسلام ، ولكنه قال : « يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فخشي محمد أن يؤذى أهل نجد أصحابه فيغدرون بهم كما فعلت هذيل بخبيب وأصحابه ، وبعث الرسول بجماعة من أربعين رجلا من خيار المسلمين على رأسهم المنذر بن عمرو أخو بني ساعدة ، وانطلقوا فنزلوا عند بئر معونة

بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سليم ومن موقعهم أرسلوا حرام بن ملحان إلى عامر الطفيل برسالة النبي ، فما كان من عامر إلا أن قتل الرجال ، وفي نفس الوقت استصرخ قبائل أخرى ، فأسرت إليه وخرجت معه وأحاطوا بالمسلمين في رحالهم ، وما كان من المسلمين إلا أن أسرعوا إلى سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا ولم ينج منهم إلا اثنان : كعب بن زيد فقد تركه ابن الطفيل وبه رمق فعاش ولحق بالمدينة ، وكذلك عمرو بن أمية وقد اعتقه عمرو بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه . وأثناء عودة عمرو في طريقه التقى برجلين ظنهما من الذين عدوا على أصحابه ، فأمهلهما حتى إذا ناما هجم عليهما وقتلهما ثم استمر في سيره حتى وصل المدينة فأخبر الرسول بما عمل ، فإذا الرجلان عامريان من قوم أبي براء وإذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدي ديتهما ، وقد حزن الرسول على قتلى بئر معونة غاية الحزن وأمضه وقال : « هذا عمل أبي براء لقد كنت لهذا كارها متخوفاً » أما أبو براء فقد شق عليه ألا يصون ذمة عامر بن الطفيل وقد بلغ الأمر أن ابنه ربيعة طعن عامراً بالرمح انتقاماً منه لأبيه .

واستمر حزن النبي شهراً كاملاً يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر ليتنقم له من قتلة المسلمين ، وقد شمل الحزن المسلمين جميعاً لما أصاب إخوانهم ولم يخفف عنهم إلا أنهم آمنوا بأنهم جميعاً استشهدوا وأنهم جميعاً في الجنة .

تلك المحن التي نزلت بالمسلمين : في الرجيع ، وبئر معونة ، وانتصار قريش في أحد أضعفت هيبة المسلمين في نظر المنافقين واليهود ، وفكر النبي في هذا الشأن الخطير تفكير دقيقاً وحصيفاً إذ وجد أن ثمة حرباً أهلية توشك أن تندلع بين اليهود والمنافقين من جانب والمسلمين من جانب آخر ، فقرر أن لا شيء خير من أن يستدرج المنافقين واليهود ليستكشف نواياهم . ولما كان اليهود من بنى النضير حلفاء لبنى عامر فإنه ذهب إلى محل إقامتهم وكان على مقربة من قباء في عشرة من كبار المسلمين من بينهم أبو بكر وعمر وعلي ، وطلب إليهم أن يساعده في دية القتيلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية خطأ من غير أن يعلم أن محمداً

أجارهما، وأمام هذا الطلب أظهر اليهود كل بشر وترحاب ، وأثناء حديثه معهم ذكروا مقتل كعب بن الأشرف وكأنهم يومئون إلى شيء ، ثم يدخل أحدهم وهو عمرو بن جحاش بن كعب البيت الذي كان الرسول مستنداً إلى جداره ، وقد رابه خروجهم ودخولهم . وازداد ارتياحه عندما علم بائتمامهم به ، وفي لمحة انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره ، وهنا وقع اليهود في مأزق إذ ماذا يقولون لأصحاب محمد وماذا يصنعون بهم ؟ فإن غدروا بهم وقتلوهم فإن محمداً سينتقم منهم ، وإن تركوهم فإن مؤامرتهم على النبي لا تكون قد كشفت وبذلك يظل العهد قائماً بينهم وبين المسلمين . وكل هذا وهم يحاولون جاهدين بأساليب التمويه أن يظهروا أنهم لا يريدون شراً بمحمد ، في هذه الأثناء راب أصحاب محمد مغادرته فقاموا إلى طلبه فقابلهم رجل مقبل من المدينة عرفوا منه أن محمداً دخلها وأنه قصد من فوره إلى المسجد ، فذهبوا إليه وعرضوا عليه ما رابهم من اليهود وأنهم يضمرون الغدر به . آتئذ أدرك الرسول بفضل بصيرته وما أوحى إليه أن بقاء اليهود خطر داهم ، فبعث إلى محمد ابن مسلمة وقال له : « اذهب إلى يهود بنى النضير ، وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

وأبلىست بنو النضير فلم يجدوا لهذا الكلام دَفْعاً ، ولم يجدوا له جواباً إلا أن قالوا لابن مسلمة : « يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا الرجل من الأوس » وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل فى حرب الخزرج ، فما كان جواب ابن مسلمة إلا أن قال : « تغيرت القلوب » وظل اليهود عدة أيام وهم يستعدون وأثناء ما كانوا فى شغلهم جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أبى يقولان لهم : « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونهم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم » وبحث بنو النضير رسالة ابن أبى وقد شتتهم الحيرة ، فإن منهم من كان

يشك في قول ابن أبي ، ولا سيما أن له سابقة مع بني قينقاع فقد وعدهم ثم خذلهم ، هذا فضلا عن أن بني قريظة لا يعتمد عليهم بسبب الحلف الذي بينهم وبين محمد ثم أنهم لو غادروا مساكنهم إلى خيبر وفي إمكانهم أن يرجعوا إلى يثرب لجنى ثمار نخيلهم ثم يعودون إلى حيث أقاموا بذلك لا تكون خسارتهم كبيرة . غير أن زعيمهم حِيّ بن أخطب قال : « كلا ، أنا مرسل إلى محمد » إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له وما علينا إلا أن نرمُ حصوننا وندخل إليها ما شئنا وندرب أزقتنا وننقل الحجارة إليها وعندنا من الطعام ما يكفيننا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ولن يحاصرنا محمد سنة كاملة .

ومرت الأيام العشرة ولم يغادروا مساكنهم ، فنهض المسلحون إلى سلاحهم واتجهوا إليهم وظلوا يقاتلونهم عشرين ليلة ، فكان أثناءها إذا ظهر المسلمون على الدرب أو الديار اليهودية تراجع اليهود إلى الديار التي بعدها بعد أن يكونوا قد خربوها ، ثم أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود ثم يحرقوه حتى لا يبقى لليهود من قال يدفعهم إلى القتال ، ووجل اليهود كثيرا حتى انهم نادوا : « يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من يصنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ » وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] .

وخذل ابن أبي والعرب جميعاً اليهود فلم يتقدم أحد لنجدتهم حتى إذا أيقن اليهود أنهم مقبلون على الهلاك ، فإنهم سألوا الرسول : « أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ، فصالحهم على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره » وغادر اليهود المدينة وعلى رأسهم حِيّ بن أخطب ، وكان أن استقر بعض منهم في خيبر واتجه الباقون إلى أذرعات بالشام مخلفين وراءهم الكثير من الغنائم من غلال وخمسين درعا ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً علاوة على أرضهم الزراعية . ولم تعتبر تلك الأرض من مغانم الحرب فلم تقسم بين المسلمين

بل كانت لرسول الله خاصة . ثم قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن جعل للفقراء والمساكين جزءاً خاصاً توزع ثماره عليهم .

وفى جلاء بنى النضير نزلت سورة الحشر وفيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فَيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر: ١١ - ١٣] وساد الأمن بعد رحيل اليهود من المدينة ، ولم يعد المسلمون يخشون المنافقين .

ثم مر عام على قول أبي سفيان : « يوم بيوم بدر والموعود العام المقبل » لكن العام المقبل الذي تمناه أبو سفيان كان جدبا وتمنى لو أن محمداً أرجأه المنازلة إلى العام الذي يليه ، ولكى يؤرق فكر النبي فإنه أرسل نعيماً إلى المدينة ليقول للمسلمين : إن قريشاً أعدت جيشاً ضخماً لا قبل للمسلمين به . وهنا توجس المسلمون شراً واختلقت مواقفهم بالنسبة لجيش المشركين . فمنهم من رأى أن الأصوب عدم الذهاب إلى بدر إلا أن النبي ﷺ غضب غضباً شديداً ، وأقسم أنه ذاهب إلى بدر ولو وحده ، وقد أدت صيحة النبي وقسمه إلى أن تختفى من النفوس بواعث الخوف والتردد ، وأسرع المسلمون إلى أسلحتهم وتجهزوا للزحف . وأقبل النبي على القيادة وكان قد عين على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول ، ووصل المسلمون بدرًا وانتظروا قريشاً التي خرجت مع أبي سفيان من مكة فى أكثر من ألفى رجل غير أنه بعد مسيرة خامرته فكرة التراجع فنادى فى الناس : « يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جذب وإنى لراجع فارجعوا » وتقهقر المشركون ورجعوا . أما النبي فإنه ظل فى جيشه ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة قام المسلمون أثناءها بتجارة رابحة فعادوا إلى المدينة موفورين منتصرين . وكان ذلك هو انتصار بدر الآخرة التى نزل فيها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرِعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ [آل عمران: ١٦٨ - ١٧٥] .

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة كل ما جاءت به هزيمة أحد من قبل . وأقام النبي بالمدينة مطمئناً بعد أن تحقق نصر الله ، ذلك النصر الذي أرجع للمسلمين هيبتهم وارتفاع شأنهم ، غير أنه عليه السلام لم يستنم إلى ذلك النصر ، فقد بث العيون والأرصاد في كل النواحي ليأتوه بأخبار المنافقين والأعداء ، ولقد بلغه أن جماعة من غطفان بنجد يعدون جيشاً لمحاربتة ، وكانت خطته التي دأب عليها صلوات الله عليه أن يباغت عدوه قبل أن يستكمل عدته ، ومن ثم انطلق في أربعمئة من رجاله نزل بهم منطقة ذات الرقاع حيث اجتمع بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان ، فعندما بوغتوا بطلوعه عليهم في قواته مهاجماً فإنهم ولوا هارين تاركين مساكنهم وأبنائهم ومتاعهم ، فغنم المسلمون الكثير من متاعهم ورجعوا إلى المدينة وافرين ، ومع هذا الانتصار إنهم ظلوا في حراسة ويقظة متصلة ليل نهار خشية أن يرجع العدو إلى محاولة الهجوم ، وأخذ رسول الله ﷺ يصلى صلاة الخوف مع جنود الله ، ونظام هذه الصلاة أن جماعة تستقبل العدو خشية هجومه ويصلى الآخرون مع النبي ركعتين لله .

ولما لم يعد هناك أثر للعدو رجع النبي وأصحابه إلى المدينة بعد أن غابوا عنها خمسة عشر يوماً وهم فرحون وبعد فترة وجيزة خرج النبي ﷺ في غزوة جديدة هي غزوة دومة الجندل ، ودومة الجندل واحة تقع على الحدود بين الحجاز والشام

فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس ، غير أن النبى لم يصادف القبائل التى أراد مقاتلتها فى هذا الموقع التى جعلت مكننا لمهاجمة القوافل . فما أن تراعى إليها أن المسلمين متوجهون نحوها حتى ولت هاربة تاركة للمسلمين أن يحملوا ما يقدرّون من غنائم .

وعندما نلقى على دومة الجندل نظرة جغرافية فإننا ندرك فى الحال مدى الاتساع الذى وصل إليه نفوذ دولة الإسلام والقوة التى صارت إليها بحيث أن شبه الجزيرة بأكملها أصبحت تخشى هذه القوة وتتوارى منها ، وفى هذا دلالة على أن المسلمين تكبدوا الكثير من المشاق والكثير من التضحيات فى غزواتهم لنشر الإسلام .

بعد هذا اطمأن المسلمون بالمدينة عدة أشهر متوالية وهم يترقبون موعد قريش لعامها القادم - سنة خمس من الهجرة - فى أثناءها كان الرسول ﷺ ينظم شؤون المجتمع الإسلامى حسبما يوحى إليه ربه ، وحسبما يصل إليه مع جماعته ويكون متفقا مع ما جاء فى الكتاب الكريم .

غزوة الخندق

كانت جموع اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير فضلا عن عرب غطفان وهذيل ، والقبائل القريبة من الشام ، كل هؤلاء كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على النبى ﷺ وكل منهما تنتهز الفرصة لتأخذ بثأرها من الرجل الذى مزق العرب فى دينها وتقاليدها ، وخرج من مكة بكلمة الإيمان وعمر المدينة بكلمة الإيمان . أما اليهود فكانوا على معرفة برسالة محمد ﷺ وما سوف يكون لها من شأن فقموا عليها ولم يجد المتآمرون مفرا من أن يثيروا العرب على محمد ، وكان اليهود هم أصحاب هذه الفكرة ، وليضعوها موضع التنفيذ فقد تألف وفد منهم ومن غيرهم من القبائل الأخرى ، نذكر منهم حبي بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الحقيق صاحبهم نفر من بنى وائل هودبة بن قيس ، قدموا على قريش مكة فسأل أهلها حياءً عن قومه ؛ فقال : «تركته بين خيبر والمدينة يترددون

واقتربت قريش من المدينة وذهلت عندما شاهدت الخندق لأنه كان من الدفاعات التي يجهلون بها ، واستبد بها الحنق حتى أنها روجت أن الاحتماء بالجدران هو الجبن الذي لا يعرفه العرب ، وما كان من قريش ومن انضموا إليها إلا أن عسكرت بمجتمع الأسيال من رومة ، أما غطفان ومن تبعها من أهل نجد فإنهم عسكروا بذنب نغمى . . هذا في الوقت الذي خرج فيه رسول الله ﷺ في قوة بلغت ثلاثة آلاف مقاتل وقد جعل ظهره إلى هضبة سلَّع وجعل الخندق حاجزاً بينه وبين أعدائه ، وفي هذا الموقع ضرب الرسول عسكره ورفعت له خيمته الحمراء .

ووجدت قريش وحلفاؤها أن من العسير عبور الخندق فاكتفوا بالتراشق بالنبال لعدة أيام ، أثناءها فكر أبو سفيان في موقفه العصيب والمخرج ، فهو وحلفاؤه واقفون أمام يثرب يفصلهم عنها خندق طويل لا سبيل إلى اجتيازه ، والشتاء قارس له عواصف هوج والسماء تنذر بمطر غزير ، ويمكن لأهل مكة أن يتقوه بمنزلهم ، أما غطفان فالخيام التي ضربوها قبالة يثرب لا تسترهم من المطر ، وما كان اشتراكهم إلا طمعاً في نصر لا يكلف كثيراً فحسبهم يوم واحد كيوم أحد . وما كان اشتراك غطفان في الحرب إلا على وعد من اليهود بأن لهم إذا تحقق النصر ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها . . لكن تبين للجميع أن النصر جد عسير أمام تلك الصعوبات وأما أن تقتصر قريش لما أصابها في بدر وما نزل بها بعد ذلك من هزائم فكان الأمد بعيداً . فالخندق قائم وبنو قريظة تمد قوات المسلمين بما تحتاجه من سلاح ومؤن . إذن فمن الممكن أن تمتد المقاومة شهوراً بعد شهور ، أما والحال على هذا الوضع ، فالأصوب أن ترجع كل جماعة إلى حيث جاءت لكن كيف يمكن لهذه الأحزاب أن تجتمع كرة ثانية ؟ ذلك أمر جد صعب . نظر حُيِّ بن أخطب في شأن الموقف من كافة جوانبه فأدرك أن السبيل الوحيد هو الوقيعة بين الرسول ﷺ وبنو قريظة ، وما كان منه إلا أن عرض على الأحزاب أن يقوم هو بإقناع بني قريظة بأن ينقضوا عهدهم مع النبي وأن ينضموا إليهم ،

ومن سليم ومن بنى سعد ومن أسد ومن كل من له ثأر عند المسلمين . حرضوا كل هؤلاء لمحاربة محمد وطمأنهم حياً من أن النصر سيكون حليفهم . وهكذا تجمع الأحزاب وصاروا جبهة واحدة بتحريض من اليهود ، وذلك أمام المسلمين بقيادة محمد ﷺ . وكان أن خرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب فى جيش بلغ أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة فارس وألف يركبون البعير ، وعقد اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة الذى قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى أحد . وخرجت بنو فزارة يقودها عيينة بن حصن بن حذيفة فى عدد كبير من الرجال وألف بعير ، وأسهمت أشجع ومرة بأربعمائة محارب لكل منهما ، وقد تزعم الحارث بن عوف مرة وتزعم مشعر بن رخيصة أشجع ، أما سليم أصحاب بئر معونة فجاءوا فى سبعمائة رجل وأسهمت بنو سعد وأسد بعدد لا بأس به من المقاتلين . وتآلف من هؤلاء جميعاً جيش بلغ ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل . والجميع تحت إمرة أبى سفيان وتوجهوا إلى المدينة . فلما وصلوها اتفق الزعماء على تبادل إمرة القيادة أثناء الحرب على توالى أيامها .

وبلغت المدينة أنباء هذا الجحفل الكبير ، وعندها أدرك المسلمون أن ليس أمامهم سوى التحصن بيثرب العذراء حسبما وصفها عبد الله بن أبى ، لكن هل يكفى التحصن للدفاع عن المدينة ؟ وهنا أشار سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة وهو أسلوب فارسى فى الحرب ، ونهض المسلمون مسرعين بحفر الخندق وقد عمل الرسول ﷺ فيه بيديه فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين ودعاهم إلى أن يبذلوا كل ما فى وسعهم ، وقد أمدت قريظة - وكانت على ولائها - المسلمين بآلات الحفر من مساح (جمع مسحاة : المجرفة) وكرازين (جمع كرزون : الفأس) ومكاتل (جمع مكاتل : الزنبيل (المقطف) وانتهى المسلمون من حفر الخندق مباشرة وجيء بالنساء والأطفال إلى هذه البيوت التى حصنت وفى نفس الوقت وضعت الأحجار على جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحاً يقذف به عند الضرورة .

يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه « وسألوا عن قريظة ؛ فقال : « أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » .

بيد أن الشكوك ساورت قريشًا : هل تهاجم محمدًا أم تتركه لشأنه فما بينهم وبينه خلاف إلا على دعوته على عبادة الله وحده . وإزاء ذلك الموقف قالت قريش لليهود : « يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ » قالت اليهود : « بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه » وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۗ (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۗ [النساء: ٥١ ، ٥٢] ، وفي هذا الموقف الذي قبل فيه اليهود أن يزيفوا دينهم فضلوا الوثنية على التوحيد .

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه « تاريخ اليهود في بلاد العرب » كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرخوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلًا عن أنهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة » .

ولقد بذل حَيٌّ ومن معه من اليهود غاية وسعهم في تحريض قريش على محاربة محمد وكان الموعد الذي ضربوه فيما بينهم عدة أشهر ثم انتقل وفد من اليهود إلى غطفان من قيس غيلان ، ومن بنى مرة ، ومن بنى فزارة ومن أشجع



فإذا فعلوا ذلك انقطع المدد والميرة عن محمد ، وبذلك يصبح الطريق ممهدا لاقتحام يثرب . وما كان من كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة إلا أن أغلق باب حصنه عليه عندما عرف بمقدم حبي ونيته في نقض عقده مع محمد وانضمامه إلى عدوه . وأيقن كعب أن هذا الأمر الخطير مرهون بالانتصار ، فماذا يحدث لو انهزمت الأحزاب وغادرت مواقعها ؟ غير أن حبياً ما زال بكعب يزين له نقض العهد حتى فتح له باب الحصن . ثم قال : « ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدنيا وبيحر طام ، جئتك بقريش وغطفان مع قادتها وسادتها وقد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه » وساورت قریش الشكوك إذ كيف ينقض العهد ومحمد وفي صادق في عهده وخاف نتيجة ما يدعوه إليه حبي .

لكن حبياً لم ييأس وظل يذكر كعباً بما أصاب اليهود من محمد وما هو منتظر أن يصيبهم منه إذا فشلت خطة الأحزاب في القضاء عليه . ثم أخذ يصف قوة الأحزاب في عدتها وعديدها وأنه لم يصددها عن محمد سوى ذلك الخندق اللعين فلولاه لقضوا عليه وعلى أنصاره في سويعة . وأخيراً نجح حبي في استمالة كعب غير أن كعباً سأله : « وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ؟ وما كان من حبي إلا أن أعطاه موثقاً إن رجعت قریش وغطفان ولم يقضوا على محمد أن يدخل معه في حصنه فيشركه في حظه ولم تغادر السخيمة اليهودية نفس كعب فقبل عرض حبي ونقض العهد الذي كان بينه وخرج عن حياده ، وطيرت الأخبار إلى المسلمين بأن قريظة نقضت عهدها مع محمد وأصحابه . فوجلوا منها وخشوا نتائجها . وعلى الفور بعث الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ، يرافقهما عبد الله بن رواحة بن جبير ليتقصوا حقيقة تلك الأخبار على ألا يذكروا الحقيقة إذا كان الأمر صحيحاً عند رجوعهم حتى لا يترزعج الناس . وعندما وصل هؤلاء الرسل إلى قريظة وجدوها على أخبث مما توقعوا وعندما راجعوهم طلبوا منهم أن يرجعوا أولاً لإخوانهم من يهود بني النضير إلى المدينة .

وأراد سعد بن معاذ وكان حليف قريظة أن يردهم إلى صوابهم خشية أن يقع لها ما وقع لبنى النضير وربما أكثر منه . لكن اليهود أطلقوا لسانهم في رسول الله ، وكان مما قاله كعب : لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . .

ورجع الرسل إلى رسول الله ﷺ وحكوا ما علموا . آئذ اشتد الخطب وفزعت النفوس ، وفي الحال قطعت قريظة المدد الذي كانت ترسله . وأخذت قريش وغطفان تستعدان منذ أن بشرهما حيي بانضمام قريظة إليهم آئذ ارتفعت هامات المشركين وهم يستعدون للحرب . وقد كان شرط قريظة للأحزاب أن تقاتل محمداً مدة عشرة أيام أشد قتال . وكان أن تألف منهم ثلاث كتائب لمحاربة النبي ﷺ فأتت كتيبة ابن الأعور السلمى من فوق الوادي ، وأتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب ، وتزعمه أبو سفيان من قبل الخندق . والكتيبة الثالثة كانت للأحزاب .

في هذا الموقف القتالي نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٣] .

ولعله كان لأهل يثرب شيء من العذر في أن يقول أحدهم : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن نفسه أن يذهب إلى الغائط» . وارتفعت النخوة القتالية عند الأحزاب حتى إنها ستحت بعض فرسان قريش على اقتحام الخندق ، وكان منهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب فاختاروا منه مكانا ضيقا فضربوا خيولهم فاجتازته وصارت في السبحة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبي طالب في مجموعة من المسلمين وحاصروهم في الثغرة التي اجتازتها خيلهم وتقدم عمرو بن عبد ود ينادى : من يبارز . . ولما دعاه على بن أبي طالب إلى النزال قال في كبرياء : لم يا بن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك . قال على : « لكني أحب والله أن

أقتلك» فتنازلا فتمكن منه على وقتله ، فما كان من خيل الأحزاب إلا أن فرت يجللها خزي الهزيمة . فى هذه الأثناء جاء نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرسه بعد ما غربت الشمس يبغى اجتياز الخندق فسقط هو وفرسه فيه فلقي مصرعهما ، فبعث أبو سفيان يريد استرداد جثته مقابل دية مبلغها مائة من الإبل ، فلم يقبل النبي ﷺ ذلك العرض وقال : « خذوه فإنه خبيث خبث الدية » فماذا تصنع الأحزاب ؟ طمعوا فى تخويف المسلمين فأوقدوا نيران عالية لإرهاب المسلمين وقت إرادتهم ، وبدأ المتحمسون من قريظة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى بيوتهم بالمدينة والقريبة منهم والقصد إرهاب المسلمين . وكانت صفية بنت عبد المطلب فى « فارح » حصن حسان بن ثابت . وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، وكان يهودى يطيف بالحصن فقالت صفية مخاطبة حسان : « إن هذا اليهودى يطيف يا حسان ، بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمن أن يدل على عوراتنا من وراءنا من اليهود ورسول الله وأصحابه. قد شغلوا عنا ، فانزل إليه فاقتله . ثم قالت : « يا حسان ، انزل إليه فاسلبه ، فإن لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل » فقال حسان : « ما لى يا بنت عبد المطلب من سلبه من حانجة » وطاف الفرع بقلوب أهل المدينة بينما كان صلوات الله عليه يفكر فى طريقة ينهى بها ذلك الموقف الحرج . وهنا أدرك ﷺ أن وسيلة القتال المباشر غير مجدية وأن الخير فى أعمال الحيلة . فبعث إلى غطفان يعرض عليها ثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت وغادرت الساحة . وكانت غطفان قد ضافت بالحرب وطول الحصار . وذهب نعيم بن مسعود بأمر رسول الله ﷺ إلى قريظة وكان لا علم لها بإسلامه وكان نديمها فى الجاهلية . فصار يذكرهم بالأيام الحلوة التى كانت بينهم وبينه . ثم نبههم بأنهم يدعمون قريشاً وغطفان ضد محمد ولسوف تسأم قريش وغطفان من المقام طويلاً أمام المدينة ومن ثم فلسوف ترتحلان فيصبحون هم وخدمهم أمام محمد فيستأصلهم عن بكرة أبيهم ، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع الأحزاب ما لم يأخذوا منهم رهائن تكون تحت أيديهم حتى لا تتخلى عنهم قريش وغطفان وصدقت

قريظة كلام نعيم بن مسعود ووجدته مقنعاً . ثم غادرهم وذهب إلى قريش فأسر إليهم أن قريظة ندمت على ما فرطت في عهدتها مع محمد وأنهم سوف يبذلون كل حيلة لاسترداد ثقته وذلك بأن يدفعوا له بنفر من أشرف قريش يضرب أعناقهم . ومن ثم كات نصيحته لقريش أنه إذا جاءهم اليهود يطلبون منهم رهناً من رجالهم فلا يبعثوا أحدا ، وتوجست قريش وغطفان من كلام نعيم وخافته . فتشاور الزعماء فيما أبلغوا به وحذروا منه . وهنا أرسل أبو سفيان إلى كعب زعيم بني قريظة يقول له : « قد يا كعب طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل وقد رأيت أن تعمدوا إلى في الغد ونحن من ورائكم » فرجع رسول أبي سفيان إليه بقول زعيم قريظة : « إن غداً السبت وأنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت » فاستبد الغضب بأبي سفيان ولم يشك في حديث نعيم . ورجع الرسول يقول لقريظة : « اجعلوا سبتا مكان هذا السبت فإنه لا بد من قتال محمد غدا ولئن خرجت لقتاله ولستم معنا لنبرأ من حلفكم ولنبدأن بكم قبل محمد » .

وأصرت قريظة بعد أن سمعت كلام أبي سفيان بأنها لن تتعدى السبت : « وقد غضب الله على قوم منهم تعدوه فجعلهم قرده وخنزيراً ثم نبه الرسول إلى الرهائن حتى يطمئنوا إلى مصيرهم ، وعندما سمع أبو سفيان ذلك لم يعد لديه شك في كلام نعيم . ثم توجه لمشاورة غطفان فإذا هي مترددة في الإقدام على قتال محمد طامعة فيما وعد بها وهو ثلث ثمار المدينة . وهذا لم يتم إذ اعترض عليه سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله ﷺ : « فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيراً وقصف الزعد ، ولمح البرق ، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب ، وكفأت قدورهم وهزت نفوسهم وخيل إليهم أن المسلمين انتهزوا فرصته ليعبروا إليهم وليوقعوا فيهم » فنادى طلحة بن خويلد فنادى : « إن محمداً قد بدأكم بشر ، فالنجاة النجاة » وقال أبو سفيان : « يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع (تقال للخيل والبغال والحمير) والخلف ، وأخلفنا بنو قريظة

وبلغنا منهم ما نكره . ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل» .

فأسرع القوم فحملوا ما استطاعوا وولوا مدبرين ، والريح تعصف بهم من كل جانب ، وتبعتهم غطفان وسائر الأحزاب ، وفي الصباح نظر الرسول ﷺ في ساحة القتال فلم يجد أثراً لأحد فعاد إلى المدينة ومعه سائر المسلمين .

ومع انفراج هذه الغمة وذهاب ريح الأحزاب نظر رسول الله ﷺ في موقف اليهود وقدرتهم على المناوأة . فقد أدرك أن بإمكان اليهود أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلاً من السنة غير الشتاء الذي كان من جند الله في هزيمة عدوه . هذا فضلاً عن أنه لولا إديار الأحزاب والشقاق الذي دب بينها فإنه كان بم استطاعها أن تفتك بالمسلمين فتكا بشيعاً ، ولهذا : « لا تقطن إذاً ذنب الأفعى وتركها » إذن فلا بد من القضاء على بني قريظة جزاء فعلتها .

غزوة بني قريظة

أتئذ عندما استقر هذا القرار أمر رسول الله ﷺ أن يؤذن المؤذن في الناس : «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة » ونهض الجميع للمهمة الكبيرة تحت راية علي بن أبي طالب وهم على يقين من أن النصر هو النتيجة . ولا ينكرون أحد أن اليهود يمتنعون بحصونهم التي أغتتهم في الدفاع عن أنفسهم ولكنها لا تصلح في مهاجمة المسلمين . يضاف إلى هذا أن الميرة أصبحت ميسرة لأهل المدينة بعد أن ذهبت الأحزاب . وهنا فرح المسلمون كثيراً وساروا وراء علي ابن أبي طالب . وعندما وصلوا بني قريظة وجدوا بينهم حياً بن أخطب النضيري وكلهم في شغل بسبب رسول الله ويكذبون رسالته وبلغ بهم سوء الخلق أن وقعوا في أعراض نسائه . وكان لديهم إحساس دفين بعد أن تخلت عنهم الأحزاب بأن المسلمين يدبرون لهم أمراً . في هذه الساعة جاء رسول الله ﷺ فلقية علي وحذره من الدنو من حصون اليهود ، فسأله محمد : « ولم ؟ » « أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ » قال : نعم . قال رسول الله : « لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً » . فلما

دنا من حصونهم ناداهم : « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله فأنزل بكم نقمته ؟ »
 قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وصار المسلمون يهرعون على بنى قريظة حتى بلغوا جيشاً كبيراً . ثم أمرهم الرسول ﷺ أن يضربوا عليهم الحصار . وبقي المسلمون في حصارهم خمسا وعشرين ليلة جرى فيها بعض التراشق بالنبل والحجارة . وخشى بنو قريظة مغبة الخروج من آطامهم طوال مدة الحصار . ولما أعياهم الإرهاق وأيقنوا أن حصونهم لن تنجهم من الهلاك وإن هي إلا مجرد أيام بل ساعات يقعون بعدها في قبضة المسلمين ، فإنهم لم يجدوا مناصاً من أن يبعثوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم أبا لبابة ليستشيره في أمرهم ، وكان أبو لبابة من الأوس . فلما التقى بهم قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رق لهم ، فقالوا له : أترى يا أبا لبابة أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، إنه الذبح إن لم تفعلوا ، وعندما غادرهم أبو لبابة عرض كعب بن أسد أن نجدتهم الوحيدة تكون بأن يسلموا جميعاً بذلك يأمنون على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ، لكن أصحاب كعب رفضوا أن يسمعوا هذا الكلام وصاحوا به : لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره . فاقترح عليهم بعدها أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه مصليتين السيوف غير تاركين وراءهم ثقلاً حتى يحكم الله بينهم وبين محمد ، فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء . لكن هذا العرض لم يصادف قبولا وقالوا : « نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم » قال لهم كعب : « لم يبق إذن إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعد لكم » وأخذوا يناقشون حالهم ، وقد قال أحدهم : « إنهم لن يكونوا أسوأ من بنى النضير مصيراً وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشر وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد محمد بأساً من قبول عرضهم » أمام ذلك الموقف العصيب لم تجد قريظة مناصاً من أن تعرض على محمد أنهم على استعداد للالتجأ إلى أذرعات على أن يتركوا

له كل ما يملكون فرفض صلوات الله عليه وأصر على أن تخضع للحكم . فأرسلت إلى الأوس ترجوهم الوساطة قائلين : «ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم؟» فذهبت جماعة من الأوس إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : «يا نبي الله ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج؟» فقال النبي : «يا معشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلا منكم؟ قالوا : بلى ، قال : فقولوا لهم فليختاروا من شاؤوا» فاختار اليهود لسوء سعيهم سعد بن معاذ ، وكانهم قد نسوا أنهم نقضوا عهدهم من قبل وتحذير سعد لهم ووقوعهم في محمد وسبهم للمسلمين بغير حق . وأخذ سعد الموثيق على الفريقين أن يطيع الفريقان ما يحكم به . فلما وافقوا على ذلك أمر بنى قريظة أن يضعوا السلاح ففعلوا . آنئذ أصدر سعد حكمه فيهم ومضمونه : أن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية والنساء وتقسم الأموال . فلما سمع الرسول هذا الحكم قال : «والذي نفسى بيده ، لقد رضى بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت» . ثم ذهب إلى سوق فأمر فحفرت خنادق ثم جيء باليهود فضربت أعناقهم جميعاً ثم دفنوا بتلك الخنادق .

وهكذا أصلت غزوة الأحزاب والقضاء على بنى قريظة تواجد المسلمين بالمدينة .

غزوتنا بنى لحيان وذى قرد

بعد مضي ستة أشهر من القضاء على بنى قريظة رابته حركة من ناحية مكة ففكر في أن يجعلها فرصته لينتقم لخبيب بن عدى وأصحابه الذين قتلهم بنو لحيان عندما الرجيع منذ ستين ، ولم يعلن الرسول عن نيته تلك خشية أن يحتاط العدو لنفسه . فأعلن أنه يريد الشام ليأخذ أهلها بالمفاجأة فسار بقواته ناحية الشمال ، فلما أيقن أن قريشا ومن حولها لم يفتنوا إلى قصده ، فإنه توجه ناحية مكة حتى بلغ منازل بنى لحيان بعُران غير أن قوما رأوه وهو ينحدر إلى الجنوب ، فأدرك بنو لحيان أنه يقصدهم فهرعوا يعتصمون بالجبال ومعهم أمتعتهم ، ولم يتمكن النبي ﷺ من أن يصيبهم بشيء ، فبعث أبا بكر في مائة راكب حتى بلغوا عسَّان على

مقربة من مكة . ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة وكان اليوم شديد الحر حتى أنه قال: « آبيون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ، أعود بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال » ولم يكد الرسول ﷺ يستريح بالمدينة عدة ليال حتى أغار عيينة بن حصن على أطرافها حيث وجد بساحتها عدة إبل ترعى يحرسها رجل وامرأته ، فقتل عيينة وأصحابه الرجل وأخذوا المرأة وساقوا الإبل ، ثم ساروا ظانين أن ليس سيلحق بهم أحد ، غير أن سلمة بن الأكوع الأسلمي كان في طريقه يريد الغابة متسلحا بقوسه ونبله . وعندما اجتاز ثنية الوداع وأصبح على مقربة من سلع نظر فرأى القوم قد استولوا على الإبل وأخذوا المرأة فصاح : « واصباحاه » وأسرع يطلب السالين حتى إذا أصبحوا في مرماه رماهم بالنبل وهو مستمر في صياحه . وبلغ الرسول ﷺ صياح سلمة فاستحث أهل المدينة قائلاً : « الفرع ، الفرع » فترامى إليه الفرسان من كل صوب متجهين ناحية المعتدين . أما الرسول ﷺ فإنه جهز قواته وقادهم حتى نزل بالجبل من ذى قرد . وكان عيينة وعصابته يتجهون ناحية غطفان ليحتموا بهم من المسلمين غير أن فرسان المدينة تمكنوا من اللحاق بهم فأنقذوا منهم جزءاً من الإبل وتمكن الرسول من أن يلحق بهم ويساعدهم ، وقد نجت المرأة المسلمة التي كان المشركون قد أخذوها . واستبدت الحماسة ببعض أصحاب النبي فحاولوا أن يلاحقوا عيينة الذي توجه ناحية غطفان ولكن الرسول منعهم .

غزوة بنى المصطلق

ثم مكث الرسول ﷺ في المدينة ما يقرب من شهرين ، ثم كانت غزوة بنى المصطلق بالمريسيع نذكرها لا لكونها غزوة كبيرة الشأن ولكن لأن الشقاق كان قد دب في صفوف المسلمين بسبب حديث الإفك عن عائشة رضوان الله عليها . .
وحكاية غزوة بنى المصطلق أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى المصطلق وهم فرع من خزاعة يتأهبون وهم على مقربة من مكة يحرضون الناس على قتل الرسول ﷺ

يقودهم زعيمهم الحارث بن أبي ضرار ، وعرف الرسول من أحد البدو أن بنى المصطلق يعدون له فأسرع في الخروج حتى لا يأخذوه على غرة . وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر ولواء الأنصار لسعد بن عباد . ونزل المسلمون على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له : المريسيح وحاصروهم وهرب الذين قدموا لنجدتهم . وقد قتل من بنى المصطلق عشرة ولم يقتل من المسلمين غير واحد يقال له : هشام ابن صُبابة قُتل خطأ من أحد الأنصار . ولما اشتد ضغط المسلمين على بنى المصطلق لم يجدوا مفرا من الاستسلام .

النهاية الأخيرة لليهود (فتح خيبر)

كان عهد الحديبية (مارس ٦٢٨) تأمينا للرسول ﷺ من قريش وأصبح الجنوب كله آمنا ، ولكن الشمال هو الذي كان يستثير الريبة فرمما يستعين هرقل أو يستعين كسرى بيهود خيبر فتتحرك نفوس ثلاثهم بثاراتها القديمة . إذن كان لابد من القضاء على اليهود قضاء تاما فلا يكون لهم أثر في بلاد العرب .

فبعد ما يقرب من شهر من عودة الرسول ﷺ من الحديبية دعا الناس للتأهب لغزو خيبر على ألا يصحبه إلا من شهد الحديبية أو أن يكون متطوعا شريطة ألا يكون له حق في الغنيمة . وتحرك المسلمون في ألف وستمائة يصحبهم مائة فارس . والكل على يقين من أن النصر قادم بإذن الله . واستغرق الطريق ما بين خيبر والمدينة ثلاثة أيام ، وقضوا ليلتهم أمام حصون خيبر . وفي الصباح خرج عمال خيبر إلى مزارعهم حاملين مساحيهم ومكاتلهم . وعندما وقعت أبصارهم على جيش المسلمين صاحوا فقال الرسول عند سماع صوتهم : « خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

على أن يهود خيبر كانوا يحسون وكأن الدائرة سوف تدور عليهم فيغزوه الرسول ﷺ ومن ثم راودتهم فكرة التخلص منه . وكان ذلك سببا في أن يتوحدوا ويتناسوا خصوماتهم بغير أن يعولوا على معونة القبائل العربية . وقد ظهر من بين

اليهود من دعا إلى عقد حلف لاستعادة ثقة المسلمين فيهم ، ولاسيما بعد أن اشترك حُيُّ بن أخطب في حلف العرب على اقتحام المدينة والاستيلاء عليها في غزوة الخندق . ولكن كيف التحالف مع محمد والنفوس قرحة بالرغبة في الانتقام ولا سيما وأن المسلمين قبل غزوة خيبر قتلوا كلا من سلام بن أبي الحقيق ، واليسير بن رزام من زعماء خيبر .

وما كان غريبا أن يكون اليهود على اتصال دائم بغطفان فكان أن استعانوا بهم عندما تنهى إلى أسماعهم أن رسول الله ﷺ يعتزم غزوهم ، ولقد كانت معركة خيبر بين المسلمين واليهود من أعنف المعارك وأشرسها إذ كان يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأساً وأوفرها مالا وسلاحاً . ولذا كان المسلمون على يقين بأنه طالما بقى اليهود على قوتهم فسيظلون في احتراب مع المسلمين ومن ثم لم يترددوا في غزوهم .

أمام هذا المشهد القتالي توقفت أنظار العرب في شبه الجزيرة العربية وهم يرجحون هذا الفريق على ذلك وإن كانوا مجمعين على أن الدائرة ستدور على المسلمين : لما عُرِف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال هذا فضلا عن تمرس أهلها بالقتال طويلا .

وكان المشهد : وقف المسلمون أمام حصون خيبر وهم في كامل سلاحهم وعلى استعداد للاقتحام . وهنا تشاور اليهود فيما يصنعون ؛ فنصحهم سلام بن مشكم فنقلوا أموالهم إلى حصنى الوضيج والسَّلام ونقلوا ذخائرهم إلى حصن ناعم ، أما المقاتلون فدخلوا حصن نطاة . وقام سلام بن مشكم يحرض على القتال . . والتقى الجمعان حول حصن نطاة ونشب القتال عنيفا شديداً حتى إن جرحى المسلمين بلغوا خمسين .

ثم تولى قيادة اليهود الحارث بن أبي زينب وتجراً فخرج من حصن ناعم قاصداً منازل المسلمين فتصدى له بنو الخزرج وأرغموه على التراجع ، وأخذ المسلمون يضيقون الحصار على حصون خيبر واليهود صامدون لأنهم كانوا على

يقين من أن هزيمتهم تعنى القضاء عليهم فى بلاد العرب ، واستمر القتال وأرسل الرسول ﷺ أبا بكر براية إلى حصن ناعم ليفتحه ولكنه لم يوفق ورجع ، ثم أرسل عمر بن الخطاب فى اليوم التالى وأيضا لم يوفق ، ثم جاء إلى على بن أبى طالب وقال له : «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك » فتسلم على الراية فلما اقترب من الحصن خرج إليه من فيه من اليهود فتصدى لهم واستطاع رجل من اليهود أن يطيح بترس على من يده فما كان من على إلا أن أخذ بابًا كان عند الحصن فترس به وظل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ثم جعل من الباب قنطرة مر عليها المسلمون ليقترحموا حجرات الحصن .

ويرجع سقوط حصن ناعم إلى مصرع قائده الحارث بن أبى زينب . وفى هذا ما يشى بقسوة وقوة المعركة واستماتة اليهود . وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعد قتال ضار . وقلت مؤن المسلمين بسبب الحصار ، وعند هذا الحال ذهبت جماعة منهم إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه حالهم ويطلبون منه ما يسد رمقهم فأذن لهم فى أكل لحوم الخيل . وبعد أن تم فتح حصن آخر بقيادة الصعب بن معاذ وجد به طعامًا وفيرًا .

ثم خرج مَرَّحِبِ اليهودى من أحد الحصون وهو فى كامل سلاحه ، يرتجز :

قد علمت خير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحين أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب

فصاح الرسول ﷺ بأصحابه : من لهذا ؟ قال محمد بن سلمة : أنا له يا رسول الله . أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس . فنهض إليه بأمر من رسول الله ، وصارا يتصاولان ، وأوشك مرحب أن يقتل ابن سلمة ، لكن ابن سلمة تفادى سيفه بالدرقة فوق السيف فيها فأمسكت به وفى الحال وجه إليه ابن سلمة ضربة قتلته ، بعدها حاصر المسلمون حصن الزبير وقاتلوا حوله قتال طال أمده حتى اضطر المسلمون إلى أن يقطعوا الماء عنه مما أرغم اليهود على الخروج منه



وإلى أن يشتبكوا مع المسلمين في معركة أرغمت اليهود على الفرار بعدها أخذت حصون خيبر تتساقط واحداً بعد الآخر حتى لم يبق في أيديهم إلا حصنان : الوطيح والسلالم . عندها أدرك اليهود أن طلب الصلح هو أسلم وسيلة . فكان أن عقد صلح بينهم وبين الرسول بمقتضاه استولى على جميع أموالهم بالشق ، ونطأة ، والكتيبة مقابل حقن دمائهم ثم آلت إليه الأرض بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم .

وهكذا ضاع كل أمل لليهود في شبه الجزيرة العربية . وضاع ما كان لهم من سلطان . ولقد عامل الرسول ﷺ أهل خيبر بالحسنى حتى أنه أعاد إليهم عدة صحائف من التوراة كانوا قد فقدوها .

وفى أثناء عودة الرسول إلى المدينة عن طريق وادي القرى تجهز يهودها لقتاله غير أنهم اضطروا إلى التسليم والصلح . وبعدها خضع يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب . وهكذا انتهى ما كان لليهود من سلطان في شبه الجزيرة . والنتيجة المذهلة أن خفت بغضاء المهاجرين والأنصار لليهود وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب ووقف النبي مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبي وعزى ابنه . وأوصى النبي معاذ بن جبل ألا يفتن اليهود عن دينهم ولم يفرض الجزية على يهود البحرين وإن ظلوا متمسكين بدينهم . وصالح بنى غازية وبنى عريض على أن لهم الذمة وعليهم الجزية .

ومع كل هذه المعاملة الإسلامية الطيبة لم يطمئن اليهود إلى بقائهم وسط العرب في شبه الجزيرة فغادروها نهائياً في حياة الرسول ﷺ - على قول - وبعد وفاته على قول آخر .



غزوة مؤتة

سبب غزوة مؤتة :

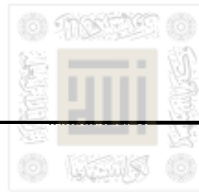
البعض يقول : إن قتل أصحاب الرسول ﷺ كان السبب لتأديب الذين غدروا بهم ؛ والبعض الآخر يقول : إن السبب يعود إلى أن الرسول ﷺ عندما أرسل أحد رسله إلى عامل هرقل على بصرى فإن أعرابيا من غسان قتل هذا الرسول باسم هرقل فبعث صلوات الله عليه بالذين قاتلوا في مؤتة لتأديب العامل وأعوانه . ثم حدث في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩م) أن دعا صلوات الله عليه ثلاثة آلاف من خيرة جند المسلمين وجعل عليهم زيد بن حارثة قائلا له وللجند : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » وتقدم الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعاً ليثبت بقدرته القتالية حسن إسلامه . وكان الناس في وداع الجيش بقياداته وسار الرسول ﷺ إلى خارج المدينة وهو يوصى جنوده ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار . ثم دعا صلوات الله عليه للجيش ومعه سائر المسلمين قائلين : « صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين » .

ووصل الجيش أرض الشام غير أن خبر تحرك المسلمين كان قد وصل إلى شرحبيل عامل هرقل على الشام فأسرع فجمع ما استطاع من رجال القبائل كما طلب من هرقل أن يمدّه بجند من الإغريق ومن العرب ، وتقدم شرحبيل بقواته ونزل مؤاب من أرض البلقاء ، ولما أن ترامى إلى المسلمين خبر جيش العدو في كثافته صاروا يفكرون ، فقال واحد منهم : « نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له » وساد هذا الرأي إلا أن عبد الله بن رواحة تقدم وقال : « يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور



« وما شهادة » وسرت حمية القتال من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله فقال الناس :
« فوالله صدق ابن رواحة » وزحف جيش حتى إذا اقترب من اللقاء التقى بجيوش
هرقل المؤلفة من الروم والعرب عند قرية يقال لها : مشارف . فلما اقترب العدو
منهم أكثر مال المسلمون إلى قرية مؤتة إذ وجدوها أفضل من مشارف إذ يمكنهم
التحصن بها . وفي مؤتة استعرت المعركة شديدة بين مائة أو مائتي ألف من
جيوش هرقل ، وثلاثة آلاف من المسلمين . واندفع زيد يقاتل في جسارة حتى
مزقته رماح العدو . فتسلم الراية من يده جعفر بن أبي طالب وظل يقاتل فلما
أحاط به العدو وهو على فرسه نزل عنها واندفع بسيفه وسط المقاتلين يطوح بسيفه
يميناً وشمالاً رقاب الأعداء . وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت فأخذه بشماله
فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل . ثم تسلم الراية ثابت بن أرقم أحد بنى
العجلان ؛ فقال : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا :
أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد الذي أخذ الراية
وهو يشاهد تفرق صفوف المسلمين ووهن قوتهم المعنوية . . آتخذ أصدر أوامره ثم
أخذ يدور بين المسلمين حتى وحد صفوفهم واكتفى من محاربة العدو ببعض
الناوشات حتى إذا ألقى الليل رواقه كف الجيشان عن القتال حتى الصباح . أثناء
ذلك أحكم خالد تدبير خطته فنشر بعض رجاله في خط طويل من مؤخرة الجيش
حتى إذا أسفر الصباح أحدثوا صيحات صاخبة فظن العدو أن المسلمين قد جاءهم
مدد من عند النبي ﷺ وإذا كان ثلاثة آلاف قد شتتوا الروم في اليوم الأول بعد أن
قتلوا منهم الكثيرين . فماذا سيكون الحال وقد وصل المدد ؟ ولذا تراجع الروم عن
مهاجمة خالد كما أنهم فرحوا إذ لم يهاجمهم ؛ وكم كانت بهجتهم عندما
شاهدوه وهو ينسحب قافلاً إلى المدينة . ويمكن أن نقول بلغة عصرنا : لقد انتصر
خالداً انتصاراً تكتيكياً .

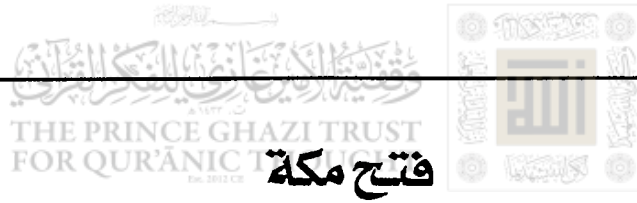
ولما عاد خالد بجيشه إلى المدينة استقبله رسول الله والمسلمون وأتى بعبد الله
ابن جعفر إلى الرسول فحمله بين يديه ثم دفنه بعد أن صلى عليه .



أما الناس فجعلوا يرمون الجيش بالتراب ويقولون : « يا فرار ، فررتم في سبيل الله » فيقول رسول الله : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكُّرار إن شاء الله » ورغم هذه المواساة من الرسول ﷺ للعائدين من مؤتة : فقد ظل المسلمون وهم لا يغفرون للجيش انسحابه حتى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه : « يا فرار ، فررتم في سبيل الله » .

بعد عودة خالد بن الوليد إلى المدينة رأى رسول الله ﷺ أنه من الضروري أن يسترد المسلمون هيبتهم في شبه الجزيرة العربية ، فكان أن أرسل عمرو بن العاص يستنهض العرب إلى الشام ذلك أن أمًّا له كانت من قبائل تلك النواحي فسهل عليه أن يتألفهم . فلما وصل إلى ماء بأرض جُدَام يقال له : السلسل ، خشى الموقف فبعث إلى الرسول ﷺ يطلب المدد فأمده بأبي عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين كان من بينهم أبو بكر وعمر . ولما كان رسول الله ﷺ يخشى أن يختلف عمرو لاسيما وهو حديث عهد بالإسلام مع أبي عبيدة ، فقال لأبي عبيدة حين وجهه : « لا تختلفا » وقال عمرو لأبي عبيدة : « إنما جئت مدداً لي فأنا على قيادة الجيش » وكان أبو عبيدة رجلاً طيباً لين العريكة لا يعبأ بزخرف الدنيا ، فقال لعمرو : « لقد قال رسول الله ﷺ « لا تختلفا » وإنك إن عصيتني لأطعتك ، وبعد أن صلى عمرو بالناس تقدم بجيشه وهجم على جموع الشام الذين قدموا لمحاربته فشنت شملهم وقل قوتهم ، وهكذا عادت الهيئة للمسلمين في تلك الجهة .

ونظرت القبائل العربية القريبة من الشام إلى ما قام به جند المسلمين من أعمال بطولية فنالت إعجابهم وتقديرهم حتى ان أحد زعمائهم وهو فروة بن عمرو الجذامي وكان قائداً لفرقة من جيش الروم أعلن إسلامه . وكان جزاؤه أن قبض عليه هرقل بتهمة الخيانة ، وقد عرض عليه هرقل أن يرجعه إلى منصبه إذا عاد إلى المسيحية ولكنه رفض فقتله . وهكذا ازداد الإسلام انتشاراً بين قبائل نجد القريبة من العراق والشام حيث كانت سيطرة الروم كاملة .



فتح مكة

ولما فتح الرسول ﷺ مكة فإنه ظل على احتراسه من الروم ومن ثم فإنه وزع جيشه في أربع فرق وأمرها ألا تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا اضطرت . وعين الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وقد كلفه بأن يدخل مكة من شمالها ، وعين خالد بن الوليد على الجناح الأيسر من الجيش وقد كلفه بأن يدخل مكة من أسفلها ، وجعل سعد بن عباد بن عبد الله على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي . أما أبو عبيدة بن الجراح فقد أخذ رسول الله مع المهاجرين ، ثم سار معهم ليدخلوا مكة من أعلاها بمحاذاة جبل هند ، وبينما كانوا يستعدون للزحف سمع بعضهم سعد بن عباد يقول : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل المحرمة » وعندما وصلت إلى النبي تلك الكلمة أخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس . وكان رجلاً ضخماً لكنه أهدأ من أبيه أعصاباً ، وزحفت الجيوش ودخلت مكة بغير أن تواجه مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد الذي صادف مقاومة يسيرة .

بعد فتح مكة (١) أحاط الرسول ﷺ أهل مكة بعفوه وعطفه . ثم بقي صلوات الله عليه في مكة خمسة عشر يوماً يؤسس بين أهلها نظام المجتمع الإسلامي ويفقههم في دينهم . وفي هذه الأثناء بعث الرسول السرايا للدعوة إلى الإسلام بغير قتال .

فتح هوازن (٨هـ)

بعد الخمسة عشر يوماً التي قضها المسلمون بأمر القرى تواترت إليهم الأنباء بأن هوازن التي كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقي في جبال هناك علمت أن المسلمين فتحوا مكة وحطموا أصنامها فتوجست من أن يصيبها ما أصاب مكة فعمد مالك بن عوف النَّضْرِي إلى أن يؤلف بين هوازن وثقيف كما انضم إلى التحالف نضراً وجُشَمَ ولم يتخلف عنه من هوازن إلا كعب وكلاب ، وكان في

(١) أوجزنا في الحديث عن فتح مكة لأن الجيش دخل مكة دون مقاومة تذكر .

جشم دريد بن الصمة وكان شيخاً كبيراً لا يُرجى منه في حرب ، لكنما ضموا للانتفاع برأيه ، واجتمعت القبائل كلها وهي تحمل معها أموالها وأبناءها ونساءها ، فلما سمع دريد بن الصمة رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاء ، سأل مالك بن عوف : لِمَ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءه وصغارهم ؟ فلما أجابه مالك بأنه أراد أن يشجع بها المحاربين ، قال دريد : وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فُضحت في أهل مالك « وسار الناس خلف مالك الشاب القوى الفتى . ثم أمر مالك الناس أن يعتصموا بقمم حنين وعند مضيق الوادي فإذا نزل المسلمون الوادي فإن عليهم أن يحاصروهم ويشدوا عليهم فعند ذاك تضطرب صفوفهم ويضرب بعضهم بعضاً وتدور عليهم الدائرة وبذلك يحى انتصار مكة الذي يتفاخر به المسلمون .

على الجانب الآخر سار الرسول ﷺ بجيشه الذي بلغ اثني عشر ألف مقاتل من بينهم عشرة آلاف من الذين فتحوا مكة وألفان ممن أسلم من قريش بينهم أبو سفيان بن حرب وكانت تتقدمهم الفرسان والإبل تحمل المؤونة والسلاح .

زحف المسلمون بجيشهم الكثيف حتى وصلوا إلى حنين وقد أقبل المساء بستره فنزلوا على أبواب وادي حنين حتى أول الفجر . ثم تحرك الجيش وركب الرسول ﷺ بغلته البيضاء في مؤخرته على حين سار خالد بن الوليد على رأس بني سليم في المقدمة . وانحدروا من مضيق حنين في وادٍ من أودية تهامة وأثناء هبوطهم إلى الوادي هاجمتهم القبائل بإشارة من مالك بن عوف وضوبوا إليهم نبالهم ، هنا اضطرب شأن المسلمين واختلط أمرهم وقفلوا منهزمين . وظهرت الغبطة على وجوه من لهم ثأر عند محمد . منهم أبو سفيان بن حرب وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي قال : « اليوم أدرك ثأري من محمد » وكان أبوه قد قتل في غزوة أحد . وقال كلدة بن حنبل : « ألا بطل السحر اليوم » فرد عليه أخوه صفوان : « اسكت فض الله فاك ، فوالله لا يربنى رجل من قري أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن » هذا بينما الجيش في مضطربه الشديد والنبي في المؤخرة تمر عليه

القبائل مهزومة حسبها النجاة ، وصمد الرسول ﷺ في موقعه ومعه أهل بيته وأخذ ينادى في الناس وهم يرون به مهزومين : « أين أيها الناس » لكن الصدمة أذهلت أسماعهم . . في هذه اللحظة انحدرت هوازن من موقعها يتقدمها رجل على جمل أحمر يمسك راية سوداء في رأسه رمح طويل ، وكلما اقترب من مسلم طعنه وخلفه هوازن وثقيف وأنصارهما يطعنون فيقتلون . أمام هذا المشهد المأساوي ثارت حمية الرسول ﷺ فأراد أن يندفع ببغلة أمام أمواج العدو غير أن أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخطام بغلته ولم يتركها تتقدم . وبكل قوته وصوته الجهورى نادى العباس فأسمع الناس كلهم : « يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حى فهلما » وصار العباس يكرر نداءه حتى أسمع كل من بالوادي . وهنا وقعت المعجزة . فقد سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمداً وذكروا عهدهم وشرفهم ، وسمع المهاجرون اسم محمد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم ، وسمع الجميع بثبات الرسول ﷺ في نفر قليل من المهاجرين والأنصار ، وهنا تنادى الجميع بصوت واحد وكلمة واحدة : « لبيك ، لبيك » وعادوا يقاتلون مستبسلين ورجعت إلى الرسول ﷺ طمأنينته حين شهد عودة المسلمين إلى الساحة . وهنا هبطت هوازن من مكانها فكان أن واجهت المسلمين في الوادي . وتألفت حول الرسول بضع مئات صادموا القبائل وصبروا لهم ، وأخذت أعداد المسلمين العائدين إلى القتال تزداد فتزداد العزمات مضاء واندفاعاً وأخذ الأنصار يتصايحون : « يا للأنصار » ، ثم تنادوا : « يا للخزرج » والرسول يحفزهم الحصار حتى إذا اشتد القتال والمسلمون يضحون بأرواحهم في سبيل الله نادى الرسول ﷺ : « الآن حمى الوطيس ، إن الله لا يخلف رسوله وعده » ثم أعطى العباس حفنة من الحصى ليلقى بها في وجوه العدو قائلاً : « شأهت الوجوه » وفي جسارة مستبسلة قاتل المسلمون أعداء الله غير مباليين بالموت .

ولما أدركت هوازن وثقيف أنه لا فائدة ترجى وأن الدائرة توشك أن تقضى

عليهم ، فإنهم فروا عجلين مذعورين تاركين خلفهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم . وقد غنم المسلمون منهم اثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاء ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وبلغ عدد الأسرى ستة آلاف نقلوا تحت الحراسة إلى رادى الجعرانة حيث بقوا إلى أن يعود المسلمون من مطاردة عدوهم ، ومن حصار ثقيف . الطائف وظل المسلمون فى مطاردتهم لهوازن حتى بلغوا أوساط وفيها اندحرت هـ إزن تماما ، أما مالك بن عوف ولو أنه ثبت بعض الشيء إلا أنه فر مذعورا ثم انفصل عن هوازن عند نخلة ثم توجه إلى الطائف فاحتفى بها . وهكذا جاء نصر المؤمنين عزيزاً كريماً ؛ وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ [التوبة: ٢٥ - ٢٨] .

حصار الطائف

وإذا كان الرسول ﷺ قد أراد أن يكون النصر أكثر عظمة وأعظم روعة ، فإنه قاد جموعه نحو الطائف حيث احتفى مالك بن عوف وضيق الحصار عليها مما دفع ثقيف إلى الدفاع عن وجودها بتصويب النبل فقتلت جماعة من المسلمين فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن نقل جنوده بعيدا عن مرمى النبل إلى مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلمت وأسلمت ، وظل المسلمون أمام الطائف ينتظرون . وهنا قال أعرابى للنبي : « إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحره لا سبيل إلى إخراجهم منه إلا بطول المكث فإن تركته لم يلحقك منه ضرر » وصعب على النبي أن يعود إلى مقره بغير أن ينال شيئا من ثقيف . وكان بنو دؤس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) لها خبرة بسلاح المنجنيق وبمهاجمة الحصون فى حماية

الدبابات . وكان من خبراء ذلك السلاح الطفيل ، وكان مع النبي منذ غزوة خيبر كما صحبه في حصار الطائف فأرسله النبي إلى قومه لينضموا إلى المسلمين فجاء بجماعة منهم ومعهم أدواتهم ، وبعدها أخذ المسلمون يطلقون على الطائف قذائف المنجنيق كما أرسلوا نحوها الدبابات ، وقد دخل تحتها نفر منهم ، ثم زحفوا إلى جوار الطائف لكن مقاتلي الطائف أحموا قطعاً من الحديد بذلك لم يتمكن المسلمون من التغلب على الحصون . ولمواجهة الموقف فإن رسول الله ﷺ أمر بأن تقطع الكروم وتحرق ولما أن شاهد الثقيفون تلك الكارثة وهى تحيق بهم لم يعد لديهم شك فى أن محمداً جاد فيما يصنع ، فما كان منهم إلا أن بعثوا إليه بوفد يرجوه بحق الرحم أن يدع كرومهم فأعطاهم مهلة أعلن خلالها أنه معتق من جاء إليه من الطائف فهرع إليه ما يقرب من عشرين من أهلها علم منهم أن بالحصون ما يكفي لمدة طويلة ، وبذلك فسوف يطول أمد الحصار وهنا تدبر الرسول الموقف فالجنود يميلون إلى الرجوع لاقتسام الغنائم ثم إن الأشهر الحرم قد اقتربت وهى مما لا يجوز فيها القتال ولذلك فضل الرسول أن يرفع الحصار ، وكان ذو القعدة قد أهل . فعاد بجيشه معتمرا ، وهكذا رجع المسلمون من الطائف إلى مكة معهم أسراهم ونزلوا الجعرانة ليقتسموا الفىء . . وبعدها أدى الرسول العمرة ثم عاد إلى المدينة .

غزوة تبوك

بينما كان الرسول ﷺ يراقب استقرار الأمن فى بلاد العرب خشية أن يتألب عليه أحد تناهت إليه الأنباء بأن بلاد الروم تجهز جيشاً لغزو الحدود الشمالية لبلاد العرب لتنتقم من انسحاب العرب التكتيكي فى مؤتة لتدمير سلطان المسلمين وما أصبح لهم من هيبة ، ولا سيما أن المد الإسلامى قد أصبح متاخماً لسلطان الروم فى الشام ولسلطان فارس فى الحيرة . ولم يتردد الرسول فى أن يعلن فى الناس بأنه اعتزم أن يواجه ذلك الغزو المحتمل بنفسه فنادى فى القبائل أن تشارك فى تجهيز الجيش بكل ما يستطيعون وأن يكونوا دعاء للناس يحثونهم على القتال حتى

يكونوا كفاء الروم من حيث وفرة الرجال ووفرة عدة القتال ، وسار الرسول بجيشه حتى وصل الحجر وهو موقع به أطلال منازل ثمود القديمة ، وهناك أمر الرسول بالنزول فاستقى الناس من بئر من آبار ثمود ، غير أن الرسول نهاهم عن الشرب منها قائلاً : « لا تشربوا من مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعذتموه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له » وما تلك الاحتياطات إلا لأن المكان لم يكن يمر به أحد وأن العواصف الرملية الشديدة كانت تغشاه أحيانا فتطمس الرمال الناس والإبل .

واتجه الرسول ﷺ بجيشه إلى تبوك . وكانت الروم قد وصل إليها خبر هذا الجيش وضخامته وقوته ففضلت الانسحاب إلى حدودها لتحمي بلادها وحصونها داخل الشام . فلما وصل المسلمون إلى تبوك وعرف الرسول بانسحاب جيش الروم فإنه فضل عدم متابعتهم فأقام عند الحدود يحارب المقاومات القليلة التي كانت موجودة حتى يؤمن الحدود الشمالية للمسلمين . وكان يوحنا رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود وقد أعلنه الرسول بالخضوع للمسلمين أو أن يُغزى ، فما كان من يوحنا إلا أن قدم إلى الرسول وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وأعلن الطاعة وإعطاء الجزية . وكذلك صالح الرسول ﷺ أهل الجرباء (قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام) وأذرح (قرية قريبة من الجرباء) وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله إليهم أمّنهم بها . وهذه رسالة كتبها ليوحنا جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة : سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوه ما لا يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ، ولإثبات الموافقة على العهد أهدى الرسول إلى يوحنا رداء يمينيا وشمله بكل احترام وعطف ، وكان الاتفاق قد تم على أن تدفع أيلة جزية مقدارها ثلاثمائة دينار كل عام .

وهكذا انتهت الحاجة إلى القتال بعد أن انسحب الروم وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود ، وبعد أن اطمأن الرسول إلى عدم رجوع القوات البيزنطية من الشمال إلا أنه خشى أن ينقلب عليه الأكيدر بن عبد الملك الكندي المسيحي أمير دومة الجندل فينضم إلى جيش الروم ، ولاتقاء انتقاضه أرسل إليه النبي ﷺ خالد ابن الوليد في قوة مؤلفة من خمسمائة فارس وعاد الرسول إلى المدينة .

هاجم خالد بن الوليد دومة الجندل في غفلة من حاكمها الذي كان يلهو في ليلة مقمرة باصطياد بقر الوحش مع أخيه حسان . ولم يصادف خالد مقاومة تذكر فقتل حسان وأسر الأكيدر وهدده خالد بالقتل إن لم تفتح دومة الجندل أبوابها . وفتحت المدينة وقد غنم خالد منها ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع ، فأخذ جميع ذلك ومعه الأكيدر حتى وصل إلى النبي ﷺ الذي عرض عليه الإسلام فأسلم وأصبح حليفاً للمسلمين .

هكذا دانت شبه الجزيرة العربية بالإسلام . . فكانت كلمة التوحيد هي الكلمة الوحيدة فيها .







الفصل الخامس حروب الردة



الفصل الخامس

حروب الردّة

أسباب حروب الردة :

لعل حروب الردّة هي أقسى الحروب التي خاضها المسلمون إذ تفوق حربهم مع فارس والروم إذ لولاها لذهب الإسلام من الدنيا بين لحظة وأخرى . وهناك تصور عام عند الناس عن الردة هو أنها ترجع إلى سبب واحد هو ارتداد جماعات من المسلمين عن إسلامهم ، والسبب بهذه الصورة قاصر ومقصر إذ أنه يطمس البواعث الرئيسية وراء تلك الحروب ، ومن هنا فإنه لمن الضروري أن نستقصي الأسباب الرئيسية التي أوجبت على المسلمين أن يحاربوا الذين ارتدوا عن الإسلام.

من هذه الأسباب أن القبائل رفعت راية العصيان على قريش ولا سميا القبائل التي تنتسب إلى ربيعة ومضر ، فقد كانت تعتز أيما اعتزاز بنسبها وتأبى أن تسود عليها قريش بفضل النبوة والرئاسة ، وهذا ما أعلنه طليحة النميري عندما التقى بمسيلمة زعيم بنى حنيفة والذي ادعى النبوة في اليمامة ، فقال : « أشهد أنك كذاب . لكن كذب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر » وكان مسيلمة هذا يدعى الكذاب فقال : « إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش ولكن قريشاً قومًا لا يعدلون » .

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة ، فشأن طبيعي أن يحسد أهل البادية أهل الحاضرة على ما هم فيه من رغد النعمة ولم يخرج عن هذه الطبيعة سوى عدة قبائل كانت تقيم فيما بين مكة والمدينة ، فقد كانت تهاب القبائل الكبرى ما ليست تهابه من سكان المدينتين كما أنها كانت في خلافتها تطلب تدخل أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، وكأنها بذلك كانت تفضل مودة الجوار

على محنة الخلاف ، ومن ثم كان من قبائل البادية من فضل الحياذ وإن كانت بعضها قد لبي دعوة الجهاد فحارب في صفوف المسلمين .

ومن أسباب الردة النصر المبين الذي حققته الدعوة المحمدية بفتح مكة ، فإن هذا النصر أثار في رؤساء العشائر نزعة التطلع إلى تحقيق ما حققته رسالة الإسلام . وذلك أنه بعد أن توطد سلطان المسلمين في الحجاز وما حوله حتى ارتفعت أطماع القيادات لتحقق ما بلغه محمد ، والمسألة كلها - في وهمهم - لا تزيد عن بضعة أسجاع تقال في مناسبات من أحوال الناس وجمهور مصطنع من الأتباع الجاهلين الذين أعمتهم الغوغائية ، وأنى لهم أن يدركوا أن القوة الأصيلة لدعوة محمد ﷺ كانت ممثلة في قيم الأخلاق ومبادئ الإصلاح ومبادئ العلاقات الإنسانية بين الناس على قاعدة الإنصاف والعدل والتراحم . وهو عماد نظام الحكم الإسلامي لا في حاضره أو بيئته ولكن لكل زمان وللعالم كله ، في حياة النبي باليمن ونجد والبحرين . حتى إذا توفى رسول الله ﷺ زادت كهانة المتنبئين والمجاهرة بالعصيان بغير خشية من أحد .

ومن أسباب الردة التي منع القبائل فريضة الزكاة التي جعلها الإسلام من فرائضه ألزم بها كل قادر ، فلما كانت القبائل ضنينة بالمال بطبعها ولاعتزازها بكبرياتها فإن اعتبرت الزكاة نوعاً من الإتاوة المفروضة . وهذا ما لم تتعوده لا من أكاسرة الفرس ولا من قياصرة الروم ؛ لأنهم كانوا ينالون منه أضعاف أضعاف ما يدفعونه من إتاوات ، هذا فضلاً عما ينالونه من منح وعطايا في كثير من الأحيان لكثير من المناسبات . وأكثر من هذا فإن منهم من لم يوفق أداء الصلوات الخمس فرأى المستنبئون إهمالها بل إن منهم من استكبر السجود ، فلقد قال طلحة الأسدی : « إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياماً قياماً الرغوة فوق الصريح » .

وفضلاً عن الأسباب التي ذكرناها فإن الدين الجديد لم يكن قد تمكن من قلوب أعراب البادية بسبب ما توارثوه من عادات الجاهلية من حيث العبادات

وصور المعيشة وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم ؛ فقال سبحانه : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] .

وهناك سبب لا يمكن إنكاره أو التغاضي عنه وإن لم يذكره التاريخ صراحة وإنه للتأمر الذى حاكته الدول الأجنبية المحيطة بشبه الجزيرة العربية وهما : فارس والروم ، فكل منهما حاكت من المؤامرات ما يتفق وسياستها وما هى بحاجة إليه . فقد ظهرت النبوءات بين العرب المواليين للفرس ، ولم تظهر بين العرب المواليين للروم فظهر بين التغلبيين والمواليين لفارس ، وغضت فارس العين عنهم لأنها تريد محاربة الدين الجديد هذا فضلاً عن أن دين الفرس كان يأذن بذلك ، لأنه كان مزيجاً من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب . فلما ظهرت بينهم سجاج وسلكت فى التبشير بدينها العجيب مسلکاً لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسى وبإغراء دولة أجنبية ولا تعمل لغرض دينى ولا المواليين للروم وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية فهم إذ يؤمنون بالمسيحية فإن مسيحتهم لا تسمح بالتنبؤ . غير أنهم وبمعاونة من الروم حاربوا المسلمين على فترات تخللتها بعض مؤامرات الوقية .

ومما لا يمكن إنكاره أن حروب الردة كانت شراً حاق بأمة الإسلام ورغم ذلك فإنها خدمت الإسلام خدمة كبرى إذ أنها وجدت عناصر المدينتين وقد أوشكت على التصادم والاصطراع . فكان أن تألفت منها قوة تعدل قوة البادية وبما مكنها من تحطيم قوى الدول المحيطة والمتربصة .

فلولا حروب الردة لكان من القريب جداً أن ينشب الخلاف بين المهاجرين والأنصار بما ينصب بالتشعب والاستفحال . هذا فضلاً عن الخلاف بين المهاجرين من هاشميين وأمويين والخلافات الصغيرة بين الجماعات . وهناك تنبه المسلمون إلى الخطر الدايم الذى يوشك أن يبدهم عن آخرهم فتوحدوا وعادوا يداً واحدة وكلمة واحدة . وما جمعهم إلا البدهة الإيمانية التى أرجعتهم إلى ربهم فنهضوا

بكل تكاليف التبعة في رد المسلمين إلى صوابهم والقضاء على عناصر الفتنة بينهم .
التهيؤ لحروب الردة :

بعد أن أنزل أبو بكر الصديق الهزيمة بعبس وذبيان وبنى بكر ومن حالفهم وأبعدهم عن أراضيهم بالأبرق فإنهم انضموا إلى طليحة بن خويلد الأسدي بيزاخة، فإنه - أي أبا بكر - رأى أن هذه الأرض قد أعطاهها الله له فلذلك فلن يرجعها إلى أصحابها فقد جعلها لخيول المسلمين كما جعل بلاد الرّبذة مرعى للناس ويعطى المؤمنون ما يستحقونه من صدقات منها . ثم عاد أبو بكر إلى المدينة ليتفكر في أمر القضاء على المرتدين فيستأصلهم تماماً .

ولما أن نال جيش أسامة حظه من الراحة والاستجمام عاد أبو بكر إلى ذي القصة حيث قسم الجند حسب خطورة الجبهات إلى أحد عشر لواء . ثم عاد إلى المدينة لتكون هي مقر القيادة العامة لجيوش المسلمين تتلقى منه الأوامر بالزحف . فقد كانت أوامره ألا ينتقل أحد من القادة من جبهة إلى أخرى إلا بأمر منه . لأنه كان يؤمن بأن وحدة القيادة ضرورية لنجاح العرب .

وإذا كان أبو بكر لم يجعل للأنصار نصيباً في حرب الردة فلم يكن ذلك غمطاً لهم ، ولكن ليحتفظ بهم كقوة دفاع رئيسية عن المدينة فهم أعلم بها وخير من يزود عنها .

ومن السياسة العسكرية الحصيفة أن أبا بكر لم يباغت شبه الجزيرة العربية بالحرب ولكنه عمل إلى تهيئة النفوس والأذهان والوعى إلى ضرورة هذه الحرب لإنقاذ الإسلام ، ومما أصابه ومما ينتظر أن يصيبه إن لم يقض على المرتدين ، فكان أن وجه كتاباً إلى الناس جميعاً ، بدأه بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً . ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلغ ما أمره الله أن يبلغه وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] . وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤] . وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ

أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ثم قال بعد أوصى بتقوى الله والاعتصام بدينه الحنيف : « وقد بلغنى رجوع من رجوع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله عز وجل وجهالة لأمره وإجابة للشيطان . وإنى قد أنفذت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوهُ إلى داعية الله فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان » . ومن هنا كان على المسلمين أن ينتظروا سماع الأذان عند اقترابهم من أى موقع ، فإن أذن أهله لم يقاتلوا وإن لم يؤذونا سألوهم الإسلام فإن رفضوا أسرعوا لقتالهم .

وكان أبو بكر يرمى من وراء ذلك أن يعطى للمرتدين فرصة التفكير ومراجعة النفس فيرفضوا عن زعماء الردة الذين زيفوا عليهم .

كان أبو بكر صاحب بصيرة عسكرية قادرة على تقويم المواقف واتخاذ الاحتياطات الضرورية لتحقيق النصر ، نتبين ذلك فى صورة واضحة عندما أعلن وهو يودع جيش خالد بن الوليد عند ذهابه لمحاربة المرتدين . فقد أعلن على الناس أنه جاء ليودع خالد وهو ذاهب إلى خيبر فقال : « . . . أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته ، فأمركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم فإنى خارج فيمن معى إلى ناحية خيبر حتى ألقىكم » وما كان يقصد فى الحقيقة إلا صرف الأنظار عن الوجهة الحقيقية لخالد ليضمن سرية التحرك وبعدها انفراد بخالد وأسر إليه بما يسفر عن أبعاد الفكر العسكرى عند خليفة رسول الله ﷺ فقال : « . . . عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه والجهاد فى سبيله والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم . فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالذاد وسر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع تترد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك

الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإنه بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم . وإذا أتيت داراً فأقحم ، فإن سمعت أذاناً أو رأيت مصلياً أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة واحدة من الخمس ، وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك لا لك ، متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، لكن الخوف عندى من أهل الإمامة فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاجية فامض بأهل الإمامة ، سر على بركة الله » .

وحقيقة الأمر أن أبا بكر سير جيش خالد بن الوليد إلى بزاخة وليس إلى خيبر وكان له من وراء ذلك عدة أهداف :

الأول : إخافة بطون طيئ فيقضى على كل تردد تهجس به صدورهم .

الثانى : إقناع طليحة بأن يساند أنصاره ويدافع عن بلادهم .

الثالث : بذلك يأخذ طليحة على غرة وهو يتوهم أن خالد لن يتجه إلى بزاخة .

الرابع : عدم إتاحة الفرصة لأهل خيبر ليشتركوا فى القتال .



القوات تتحرك لقتال المرتدين :

وجه أبو بكر الصديق أحد عشر جيشاً لمحاربة المرتدين وقد وزعه على النحو التالى :

الجيش الأول : بقيادة طريفة بن حاجب ، وقد توجه إلى قبائل بنى سليم وهوازن وهو فى الشمال الشرقى من المدينة .

الجيش الثانى : بقيادة خالد بن الوليد وقد توجه إلى طليحة بن خويلد

الأسدى الذى تزعم حركة الردة فى شرق المدينة ، ثم انضم بعد أداء مهمته إلى الجيش الأول ليعاونه فى مطاردة القبائل المرتدة .

الجيش الثالث : وكان على قيادته شُرْحَبِيل بن حسنة ، وقد تكفل بمساعدة جيش عكرمة فى قتاله لمسيلمة .

الجيش الرابع : وكان على قيادته عكرمة بن أبى جهل ، وقد توجه إلى مسيلمة باليمامة .

الجيش الخامس : وكان على قيادته حذيفة بن محصن ، وكانت مهمته حرب المرتدين من أهل دبا فى عمان .

الجيش السادس : وكان يقوده عرفجة ، وقد توجه إلى أهل مهرة .

الجيش السابع : وكان يقوده المهاجر بن أمية ، وقد توجه إلى الأسود العنسى بصنعاء وليدعم المسلمين هناك .

الجيش الثامن : وكان يقوده سويد بن مقرن ، وقد توجه إلى تهامة اليمن .

الجيش التاسع : وكان يقوده العلاء بن الحضرمى وكانت وجهته البحرين .

الجيش العاشر : وكان يقوده عمرو بن العاص وكانت جهته قضاة شمال بلاد العرب .

الجيش الحادى عشر : وكان يقوده خالد بن سعيد وكانت جهته مشارق الشام وليشد من أزر الجيش العاشر .

أما الجيش الأول ، فإنه تمكن فى يسر من إخضاع بنى هوازن ، ثم انضم إلى الجيش الثانى جيش خالد بن الوليد الذى كان يحارب المرتدين فى بلاد بنى عامر التى تمتد من شرق المدينة حتى الخليج العربى . وكانت قبائل تميم التى قطنت تلك الجهاد قد تأثرت بأقوال المتنبة سجاح التى استطاعت أن تغرى أهلها بالاستقلال عن المدينة . بيد أن سجاح حين شاهدت القوات المسلمة وهى تزحف بسرعة فإنها

أسرعت بالهرب إلى بنى تغلب فى الجزيرة بشمال العراق ، أما خالد بن الوليد فإنه تمكن من إخضاع قبائل تلك الجهات وأن يقتل مالك ابن نويرة أحد قادتها وأمرائها ، ثم توجه خالد إلى أرض اليمامة ، وهى شاسعة تمتد إلى الخليج العربى وكانت تقطنها بطون من ربيعة من أقواها بنو حنيفة . وقد تزعم فتنة الارتداد فى تلك الناحية مسيلمة الذى نجح بدهائه وكهاتته بلغ أن يكون جيشاً كبيراً بلغ أربعين ألف شخص ، فكان بذلك أخطر جبهات الردة . وقد تمكن مسيلمة بفضل كثافة جيشه من أن يوقع الهزيمة بالجيش الرابع الذى كان بقيادة عكرمة بن أبى جهل وصار بذلك قوة يخشى بأسها ، وهنا عمل خالد بن الوليد على إعادة تنظيم قوات الجيش الرابع التى دخلت تحت قيادته وذلك لمواجهة جيش مسيلمة ، فقسم جيشه إلى أقسام متميزة لكل قسم موقعه وعمله ، وكذلك رايته الخاصة ليسهل تحريكه حسب ما يصدر إليه من أوامر .

ونشب القتال فى منطقة صحراوية فى آخر اليمامة تدعى « عقرباء » وقد أظهر جيش المسلمين وجيش المرتدين استماتة قوية فى القتال غير أن كفة المسلمين رجحت فتحقق لهم النصر بفضل نظام التعبئة وتحريك القوات الذى اتبعه خالد . ولم يجد المرتدون أمامهم سوى الهرب تاركين مسيلمة ليعتصم بحديقة من نخل عرفت بسبب كثرة القتلى عندها باسم « حديقة الموت » وكانت النتيجة أن انتصر خالد وعاد قلب شبه الجزيرة العربية مرة أخرى إلى دائرة الدولة الإسلامية .

أما عكرمة بن أبى جهل قائد الجيش الرابع فإنه بعد أن لم يتمكن من مواجهة مسيلمة قصد عمان لدحر ما بها من مرتدين مسلما القيادة العليا فى اليمامة إلى خالد بن الوليد .

ولقد تمكن عكرمة من قتل زعيم المرتدين فى عمان وهو « ذو تاج » مستولياً على « دبا » عاصمة عمان بمعاونة الجيش الخامس الذى كان يقوده حذيفة بن حصن ، وقد انضم إليهم الجيش السادس بقيادة عرفجة بن هرثمة ، ثم واصل الجيش الزحف على الشحر وحضرموت واليمن فكان القضاء على المرتدين .

وفى اليمن نشبت ثورة داخلية ضد المرتدين كان فيها القضاء على الأسود العنسى زعيمهم .

وكذلك صار جنوب بلاد العرب مستقراً بعد أن تطهر من المرتدين وصار جزءاً له أهميته فى الدولة الإسلامية الناشئة .

وقد مكنت هذه الانتصارات الكبيرة التى حققتها الجيوش الإسلامية فى قلب وجنوب شبه الجزيرة العربية - مكنت لخالد بن الوليد من أن يمد القوات التى أرسلها الخليفة للقضاء على المرتدين فى البحرين ، وكان من بدو جبهة البحرين قد تمكنوا من أن يهزموا الجيش التاسع الذى توجه إليهم بقيادة ابن الحضرمي وحاصر المسلمين فى مدينة هجر ، إلا أن يأخذ خالد بن الوليد استطاع بفضل قيادته أن ينزل الهزيمة النكراء بمرتدى البحرين ، وبذلك تم رفع الحصار عن الجيش التاسع فى هجر .

وهكذا عادت شبه الجزيرة العربية إلى الدولة الإسلامية فى وحدتها الكبرى .

وقد أغرى ذلك النصر العظيم القبائل العربية المقيمة بأطراف العراق والشام بأن توجه أنظارها نحو الدولة العربية الإسلامية التى قامت فى المدينة فحظيت بإعجابها وتقديرها خاصة بعد أن دب الصراع بين تلك القبائل من جهة والدولتين الفارسية والرومانية من جهة أخرى ، وبلغ الإعجاب بدولة الإسلام أن طلبت تلك القبائل من أبى بكر أن يساعدها على غزو العراق والشام ، ولم يتوان الخليفة فلبى طلبهم ، وعندما أحس بدنو أجله قبل أن يتم فتح العراق والشام فإنه عهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب الذى تحقق فى عهده معارك الفتوح الإسلامية الكبرى .







الفصل السادس

الفتوحات الإسلامية



الفصل السادس

الفتوحات الإسلامية

الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين وأمراء المؤمنين

فتح : العراق ، وفارس ، والشام :

لم يدرِ بخَلْدِ الخليفة أبي بكر الصديق أن يحارب الفرس فقد كان الحجاز بعيداً عن فارس والبلاد العربية الموجودة على حدود الفرس هي التي تفتشت فيها فتنة الرِّدَّة ، ومن ثم فلا يسهل الاعتماد عليها ولا يؤمن جانبها ولا سيما وهي تعيش في كنف دولة الفرس التي مازالت على قوتها رغم تغلب الروم عليها في حروب متقطعة .

وبينما كان أبو بكر يفكر في أحوال المسلمين من كل جانب انتهت إليه الأخبار بأن المثنى بن حارثة الشيباني قد تحرك بقواته شمالاً في البحرين فاستولى على القطيف وهجر حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات ، وأنه تمكن أثناء مسيرته من القضاء على الفرس وعمالهم ممن ساعدوا المرتدين في البحرين . وقد استفسر أبو بكر عن شخصية المثنى من حيث قبيلته ونسبه ، ف قيل : إنه من البحرين من بني بكر بن وائل وأنه تحالف مع العلاء بن الحضرمي في محاربة المرتدين. يقود من تمسكوا بالإسلام من سكان تلك الجهات وأنه ظل زاحقاً بجوار ساحل الخليج الفارسي إلى أن نزل عند القبائل العربية القاطنة بدلتا التهرين فحالفهم ، وكذلك علم أبو بكر أن المثنى رجل جليل المكانة يُعتمد عليه وقد قال عنه قيس بن عاصم المقرئ : «هذا رجل غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد . هذا المثنى بن حارثة الشيباني » .

كل ذلك حث أبا بكر على أن يدفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة العربية حيث العراق وفارس والشام . ومما شجع أبا بكر على بحث هذه المسألة ما كان

يعلمه من شؤون فارس فقد انتصر هرقل على فارس قبل وفاة النبي ﷺ وبدد جيوشهم في نينوى ووسنجرّد ، وظل في زحفه حتى بلغ المدائن عاصمة الفرس . وقد وصل الفرس إلى حالة من الضعف أن خرجت اليمن من سلطانهم وتحالف باذان مع رسول الله . وبذلك تهاوى سلطان الفرس في البحرين وسائر الإمارات المشرفة على الخليج الفارسي وخليج عدن .

وفجأة جاء المثني إلى المدينة واستقبله أبو بكر فعرف منه من الأنبياء ما جعله يرى أن من الأصوب أن يبدأ بفتح العراق لأنه لن يصادف مقاومة مثل ما سوف يلقاه بالشام ، وعرض أبو بكر الأمر على أصحابه وقول المثني له : « أمرني على من قبلي من قومي من أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفك ناحيتي » وجاء خالد بن الوليد فاستصوب رأى المثني وأقر الجميع تأميره ، وكانت الخطوة الحاسمة تعين خالد بن الوليد ليكون قائداً عاماً لجيوش الفتح . ثم توجه المثني لمحاربة الفرس فانتصر عليهم ثم أمده أبو بكر بما يعينه على مواصلة غزواته . وفي نفس الوقت أصدر أبو بكر أمره إلى خالد بأن يسير بجنده إلى الحيرة فإن وصلها قبل المثني كانت القيادة العامة له وإلا فإنها تكون للمثني . وكذلك وجه عياض بن غنم إلى دومة الجندل ليخضع الخارجين من أهلها على أن يتجه بعدها إلى الحيرة .

وبنظرة إنسانية أمر أبو بكر قواده أن يعاملوا الفلاحين العرب بالرحمة والحسنى . وهذا ما حث عليه وأوجه إسلامهم ومما يكفل لهم النصر . وفي هذه الأثناء كان خالد قد طلب من أبي بكر مدداً فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي . وعندما دخل العراق فإنه قسم جيشه إلى ثلاث فرق لكل فرقة طريقها على أن يكون اللقاء عند الحفير . فالفرقة الأولى كانت بقيادة المثني بن حارثة الشيباني وقد تحركت قبل خالد بيومين ، والفرقة الثانية كانت بقيادة عدي بن حاتم الطائعي ، وتحركت قبله بيوم . أما خالد فإنه توجه إلى المؤخرة . وكان قد أرسل برسالة إلى هرمز قائد الجيش الفارسي قال له فيها : « أما بعد ، فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة وأقر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتكم بقوم

يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

ووقف هرمز في جيشه وعلى يمينه ويساره أميران من بيت الملك هما : قُبَاذ ، وأنوشجان . ونادى هرمز : أين خالد ؟ يريد أن يخرج إليه ليبارزه ، وعندما سمع خالد نداء التحدى نزل فرسه وتصارول معه وتمكن من قتله ، آنئذ اندفع المسلمون إلى القوات الفارسية التي دُعرت لشدة الهجوم ففضلت الهرب بالعراق اسم « ذات السلاسل » لأن الفارسيين ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من الميدان . وبعد المعركة بعث خالد بخمس الغنائم إلى أبي بكر بالمدينة كما بعث أيضاً بقلنسوة هرمز وبفيل أخذه المسلمون في الموقعة .

وقد استثارت هذه الغزوة حمية المسلمين فظل المثنى يتعقب الفرس وكأنهم يريد أن يدحرهم تماماً قبل أن يصل المدائن . وبينما هو في تعقبهم جاءت الأنباء بأن الفرس مقبلون من المدائن في جيش كبير . وكان الملك أردشير قد استدعى قارن بن قريانس - وهو من كبار الأمراء وكلفه بأن يذهب بجيش كبير ليدعم جيش الثغور والتقى قارن وهو متجه إلى الجنوب بقباذ وأنوشجان يقودان قواتهم المهزومة فشجعهم وضمهم إلى قواته وعسكر بهم في المذار على شط قناة تصل دجلة بالفرات . وتبين للمثنى أن مهاجمته لقوة العدو الكبيرة قد تلحق به هزيمة فكان أن اختار موقعاً على مقربة من المذار وحط بجنده . ثم كتب إلى خالد يشرح له الموقف ، ثم انقضت قوات المسلمين على القوات الفارسية فذبحت الكثيرين من القادة والجند وفر الباقون على سفنهم طلباً للنجاة .

وبعد أن استتب الأمر لخالد بعد هذه المعركة فإنه عمل على تأمين مواصلاته إلى الخليج الفارسي ثم عين قواداً للجند الذين استبقاهم بالحفير وعلى الجسر الأعظم ثم عين عمالاً لتحصيل الجباية ، وظل هو في موقعه ليتعرف على أخبار عدوه ، وكان على يقين من أنه لم يقض تماماً على قوات كسرى بالعراق لا سيما ، وأن شمال المدائن يعج بجند كثيف للفرس كما أنه لم يستبعد أن يغري الفرس قبائل العرب بالعراق بالانضمام إليهم . وكان خالد صائباً في تقويمه .

بعدما رأى الفرس ما حل بهم من هزائم وجدوا أنهم من الضروري أن يستعينوا على العرب بالعرب . فأغرى كسرى جماعة كبيرة من بنى بكر بن وائل وكوّن منهم جيشاً عين عليه قائداً منهم ووجهه إلى الوجة . وحتى لا يفوز جيش العرب بكل شرف النصر ، فإنه أرسل خلفه جيشاً فارسياً يقوده واحداً من أكبر قواده هو بهمن جاذويه ، فلما وصلت هذه الأنباء إلى خالد وهو بالمدار ، فإنه أصدر أمره إلى قواده وجنودهم الذين خلفهم على الحفير وكاظمة وغيرها من مدن العراق التي استولى عليها بأن يكونوا على حذر وألا يستنيموا إلى النصر الذي تحقق ، ثم انطلق هو في جنده إلى الوجة لمحاربة جيش كسرى الذي كان قوياً ومتمرساً يخشى بأسه ، فكيف تحقق النصر للمسلمين ؟ هنا برزت عبقرية خالد فإنه أمر اثنين من أمراء جنده أن ينفصلا عنه بقواتهما أثناء مسيره وأن يتخذا لهما كميناً وراء العدو لينقضوا عليه على غرة أثناء القتال غير أن هذا الكمين تأخر بعض الشيء ، أثناءها كانت صفوف المقاتلين المسلمين تتقدم مرة وتراجع أخرى ، وفجأة وعلى غير ارتقاب خرج كمين المسلمين من ناحيتين من خلف جيش كسرى بينما خالد يضغط عليه بشدة من الأمام ، هناك حلت الهزيمة النكراء بجيش الأعاجم ومن والاهم من العرب بينما سيوف المسلمين آخذة برقابهم وجنود المسلمين يأسرون منهم ما استطاعوا . غير أن العرب هم الذين غضبوا للهزيمة هم بنو بكر ابن وائل لأن الذي هزمهم هم بنو عمومتهم من شبه الجزيرة ، فاتصلوا بالفرس واتصل بهم الفرس وعقد اجتماع بينهما في أليس على شط الفرات في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة ، واتصل كسرى بهمن جاذويه وأمره أن يسير إلى أليس ليضم إليه بعض الفرس ونصارى العرب وأخيراً وصل القائد الفارسي جابان بجيشه إلى أليس وإلى جانبه عبد الأسود العجلي قائد جند بنى بكر بن وائل .

وعندما علم خالد بن الوليد بتحرك نصارى العرب تجاه أليس ، ومعهم بعض من عرب العراق فإن أسرع إلى الحفير ليؤمن مؤخرته ، وبأسرع ما يمكن توجه لمصادمة العدو في عسكره فيتصدى له العرب ، وتكمن من قتل قائدهم مالك بن

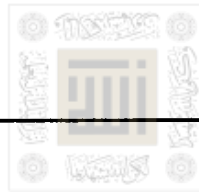
قيس ، ولما رأى جابان صفوف العرب فإنه خف لنجدتهم وهنا اشتد القتال فتوجه إلى ربه قائلاً : « اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » وفي هذا الموقف العصيب استخدم خالد كل أساليب المداورة حتى ضيق الخناق على عدوه الذي لم يجد مناصاً لنجاته إلا بالفرار بعد أن قتل منه كثيرون وبعد أن انتهت المعركة أرسل خالد بأخبار النصر وبخمس الفىء والسبى إلى أبى بكر مع رجل يدعي جندياً من بنى عجل . فلما قص عليه ما حدث وأخبره بفتح أليس والمغانم فإن أبا بكر قال بصوت عال : «عقمت النساء أن يلدن مثل خالد » .

بعد هذا نظر خالد بن الوليد فى الموقف العسكرى نظرة تقويمية فوجد أن قبائل العرب فى العراق هى التى حرّضت الفرس على القتال فى أليس . وإذا كانت قد سكنت اليوم فما الذى يمنع من أن تثور غداً ؟ إذن فلا بد من القضاء عليهم . والحل الأمثل عنده أن يحتل الحيرة عاصمة العرب وأن يستولى على منازلهم غرب الفرات إلى حدود شبه الجزيرة . وكان يحكم الحيرة مرزبان فارسى يسمى آزاد به ؛ وكان أهل الحيرة على يقين من أنهم لم يفلتوا من حصار خالد لهم ولا سيما بعد أن بلغت انتصاراته فى أليس وأمغيشيا . وتصور حاكم الحيرة أن خالدًا سوف يستقل سفن أمغيشيا للإغارة عليهم . فما كان منه إلا أن أمر بسد قناطر الفرات حتى لا يعجرى الماء وراءها وبذلك تعجز السفن عن السير ، وكان آزادبه مصيباً فى تقديره . فقد ركب خالد وجيشه سفن أمغيشيا وسيروها تجاه الشمال إلى الحيرة غير أن السفن اصطدمت بقاع النهر فوجل المسلمون وغضب خالد ، ولما أن سأل عن السبب قيل له : إن الفارسيين سدوا القناطر فتحول الماء وغاض النهر وسرعان ما خف خالد ولقى بن آزادبه على فم العقيق فأنزل به ضربة أزالته وعاد الماء يعجرى فى النهر وعادت السفن إلى الإبحار محملة بجيش خالد الذى سار به إلى الخورنق واقترب من الحيرة وهنا حدثت مفاوضات بين عرب الحيرة وخالد وأسلموا فيها بدفع الجزية وأن يبقوا على نصرانيتهم ،

وكذلك استسلمت الحيرة وأقام خالد بها كمركز قيادة له فكانت بذلك أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب .

ولما رأى أهل البلاد القريبة من الحيرة مبلغ عدل المسلمين ورحمتهم فإنهم أسرعوا إلى مصالحة خالد على أن يتقاضى منهم الجزية . بعدها أقام خالد فرق جيشه في مواقع حصينة لإخماد أية مقاومة قد تنجم ، وكذلك للإعلان عن قوة المسلمين بين أهالي تلك البلاد .

ثم أرسل أبو بكر أوامره إلى خالد بالألا يتحرك قبل أن يأتيه عياض بن غنم ليحمي ظهره ، وكان عياض قد ظل في دومة الجندل من غير أن يتمكن من التغلب على أهلها ، وقبل أن يصل عياض تحرك خالد بن الوليد وجعل على مقدمته الأقرع بن حابس وسار بحذاء الفرات ليبدأ بمدينة الأنبار فحاصرها ثم هاجمها ، ولم يجد قائدها الفارسي شيرازاد سوى الرضوخ للصالح بشروط خالد ، ثم دخل خالد الأنبار وصالح من حولها ثم استقرت له الأمور ، ثم خلف عليها الزبرقان بن بدر قاصداً عين التمر ، وهي على حافة الصحراء بين العراق وبادية الشام ، وقد جمع عقبة بن أبي عقبة الكثيرين من قبائل العرب المناهضة للمسلمين ، وتقدم خالد نحو عقبة فأوقعه أسيراً فولى جنده الأدبار وتعقبهم المسلمون فأكثروا فيهم القتل والأسر ثم اقتحموا حصونهم ، وبعدها انطلق خالد لنجدة عياض في دومة الجندل فجعل دومة بين عسكره وعسكر عياض ، ونشب القتال بين الفريقين ثم تمكن خالد من اقتحام حصن دومة الجندل فقتل المسلمون من قتلوا وأسروا ، من أسروا وخطورة موقع دومة الجندل أنها كانت تقع على رأس الطريق الذي يؤدي إلى الحيرة وإلى العراق وعلى أبواب وادي سرحان الذي يؤدي إلى الشام . بعد هذا صار القعقاع إلى حصيداً فانهمز الذين أمامه وقتل قائدهم ثم فر جيشهم وعندما حاولوا أن يتحصنوا ببلدة الخنافس ، ذعروا بمقدم خالد إليهم ، فكان أن سلموا ، ثم باغت خالد التغلبيين في دراهم فأغار عليهم ، ومعه قائده القعقاع وأبو ليلي . ثم انطلق شمالاً على شاطئ الفرات وحوله فلا



يواجه إلا التسليم والإذعان حتى بلغ الفراض وهي على حدود العراق والشام . وبذلك اقترب جداً من الروم ، وهنا انضم إلى الروم العرب القريبون وغيرهم من ناصروا الفرس . واندلعت المعركة أمام مدينة الفرائض وكانت عنيفة عاصفة ولكن بفضل مداورات خالد دارت الدائرة على الروم وحلفائهم فولوا مدبرين ، وتحقق النصر في موقعة الفرائض . ثم عاد خالد إلى الحيرة وفي نيته أن يغزو الروم في عقر دارهم وليس على التخوم وتوجه خالد إلى تيماء وكانت أوامر أبي بكر إليه ألا يتحرك إلا بعد أن يعد عدته من الرجال ، فيدعو القبائل العربية التي حول تيماء بالانضمام إليه . وكانت جبهة الروم تعد عدتها لمهاجمة خالد بن سعيد الذي كتب إلى أبي بكر يستأذنه في منازلهم فكتب إليه أبو بكر يقول : « أقدم ولا تحجم واستنصر الله » .

أقام خالد بن سعيد في جيشه في تيماء وقد انضم إليه عدد ليس بالقليل من قبائل البادية على حدود الشام ، وكان يواجهه جيش الروم في كثافة عالية وقد انضمت إليه القبائل العربية القريبة منه ، ورأى خالد بن سعيد هذا التجمع الهائل فكتب إلى أبي بكر يستمده ، فأمدته بعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة بجيوشهم . وتقدمت هذه الجيوش بقيادة خالد بن الوليد نحو الروم ، وعندما شاهدتهم القائد الروماني باهان فإنه تظاهر بالتراجع نحو دمشق لاستدراج خالد بن سعيد ، وهذا ما حذره منه خالد بن الوليد ، وتمكن باهان من محاصرة خالد بن سعيد وهاجمه بعنف مما أرغم خالد على الفرار نحو المدينة ، ولكن أبا بكر منعه ، وأمام ذلك الموقف الخطر زود أبو بكر جيش خالد بن الوليد بشرحبيل ابن حسنة وجيشه ، ثم أردفه بأخيه معاوية كما ندب جيشاً عظيماً على رأسه أبا عبيدة بن الجراح وأمره على حمص ، وتحركت كل تلك الجيوش - وكانت تعسكر بالجرف حتى نزلت الشام ، أما هرقل فإنه واجه المسلمين بقوات ضخمة جداً ، وهنا رأى المسلمون أنه لا بد من توحيد القيادة ، وتقدم المسلمون وتقدم الروم وكان خالد قد نظم جيوشه فرقاً أو كراديس ، وجعل على كل فرقة



قائداً شجاعاً ، وقد قال خالد في رجاله : « الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا اليوم من أيامك انزل نصرك على عبادك » .

وتصادمت القوات المسلمة والرومية وتراجع الروم هزيمة وحاولوا الفرار غير أن المسلمين تمكنوا منهم فقتلوا وأسروا ، وانتهت معركة اليرموك بهذا النصر العظيم .
وبذلك فقد الروم كل أمل في الحفاظ على الشام .

وبعد اليرموك صار المسلمون إلى أرض الأردن ليطاردوا الروم ثم طاردوهم إلى دمشق وأثناء حرب الشام هذه حاول الروم الانقضاض على المسلمين في العراق غير أن المثنى الشيباني استدار إليهم أوقع بهم هزيمة شنعاء .
ثم كانت خلافة عمر بن الخطاب ، وتواصلت الفتوح . أجل تواصلت الانتصارات .



عودة إلى العراق وفارس :

بعد أن أصبح عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين فإن استهل فتوحه بأن دعا المسلمين إلى قتال الفرس لإدخال فارس بأكملها في الإسلام ، فأرسل خمسة آلاف مقاتل تحت إمارة أبي عبيدة بن مسعود الثقفي وأمره أن يستشير أصحابه وأن يستجيب لما يرون ومن ناحية فارس فإن بوران مليكتها استعانت لتثبيت ملكها والدفاع عنه بقائدها الكبير رستم الذي اتصل بالدهاقين ، وحرصهم بأن يثوروا على المسلمين جاعلاً في كل رستاق أو إقليم عاملاً لتحريض الناس ، فثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله حيث عسكر الفرس بالنمارق يقودهم جابان وبمجرد أن قدم أبو عبيدة على المثنى وقام على إمرة الجيش حتى دارت المعركة وانتصر المسلمون وأسر جابان .

معركة الجسر :

بعدها كانت موقعة الجسر أو المروحة « شعبان سنة ١٣ هجرية » .

لقد حزن القائد الفارسي رستم عندما بلغته أنباء هزيمة جنده في النمارق ، فسأل عن قائد يمكنه أن يواجه العرب ويكون رادعاً لهم ، ف قيل له : « ليس غير بهمن جاذويه » فاستقدمه ووجهه إلى جبهة المسلمين وزوده بعدد من الفيلة كما أعطاه راية كسرى : « درفش كايان » وكانت مصنوعة من جلد النمر ، واستقر بهمن في قس الناظف على الضفة الشرقية من نهر الفرات بينما استقر أبو عبيدة في المروحة على الضفة الغربية ، ثم اتصل القائد الفارسي بقائد المسلمين إما أن يعبر إليه أو يعبر هو ، وأشار أصحاب أبو عبيدة بعدم العبور ، غير أنه رفض نصيحتهم قائلاً : « لا يكون الفرس أجراً على الموت منا ، بل نعبر إليهم » فأقام جسراً من السفن ليعبر عليه الجنود ، فلما عبروا وجدوا أنفسهم محاصرين في مكان ضيق لا يمكنهم من الحركة الحرة ، ودارت المعركة بعنف وضراوة ، وكانت البداية مبشرة بانتصار المسلمين إذ تمكنوا من قتل ستة آلاف جندي ، حيث إنه حدث ما لم يكن في الحسبان إذ أجمعت خيول المسلمين من الفيلة ، آنثد نزل أبو عبيدة وسائر الفرسان عن خيولهم ثم صوبوا سيوفهم نحر الفيلة محاولين قطع أحزمتها وعندها قتل الفيل الأبيض أبا عبيدة ، وبسرعة تسلم لواء الحرب بعده سبعة من ثقيف استشهدوا جميعاً واحداً واحداً ، ثم تسلم اللواء المثنى بن حارثة الشيباني وحاول أن يتقهقر بالجند عندما تأكد من رجحان كفة الفرس إلا أن عبد الله بن مرثد الثقفي أسرع إلى الجسر فقطعه وقال للجند : « أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا » ولكن الموقف ازداد تعقيداً إذ تأكد للكثيرين أن الهزيمة مما لا مهرب منها ، فألقى البعض بأنفسهم في الفرات فماتوا غرقاً ، غير أن المثنى استطاع بفرسانه أن يؤمن المسلمين في تقهقرهم ، وأعاد إصلاح الجسر وخاطب الناس قائلاً : « إنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا ، إنا لن نزال حتى نراكم بعد ذلك الجانب ولا تغرقوا أنفسكم » وعبر الجند وكان آخرهم

المثنى ، وقد اشتدت عليه وطأة الجراح ، وعرف عمر بالكارثة ممن جاء إلى المدينة فخطب الناس قائلاً : « عباد الله إن كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيدة لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكان لنا فئة » وهكذا أعاد عمر إلى الجموع ثقتهم فى أنفسهم فكأنهم لم يفروا ، ولكنهم تحيزوا إليه فهو فئتهم ، وقد كان لهذه الكلمة أثرها العميق فى نفوس الجند إذا أخرجت منهم بطولات ليس لها نظير فيما وقع بعد ذلك من معارك .

معركة البويب :

المعركة الثانية وكانت موقعة البويب ، وقد حدثت فى الثالث عشر من رمضان ١٣ هـ .

لقد جرت أحداثها على نحو عجيب ، فالمثنى بن حارثة الشيبانى ظل فى موقعه على الجانب الغربى لنهر الفرات ومعه من الجنود حوالى ثلاثة آلاف وصار يترقب المدد من عمر الذى أدرك ببصيرته الصائبة أن الذين عادوا إلى الإسلام من المرتدين متحمسون للجهاد فى سبيل الله فوجههم إلى المثنى الذى كان معسكراً بالبويب ، أما الجانب الفارسى أرسل جيشاً كبيراً يقوده مهران الهمذانى .

فتراسل مهران والمثنى فقال مهران : « إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليكم » فقال المثنى : « اعبروا » فعبر الفرس إلى الضفة الغربية ، وكان المثنى قد أعد جيشه إعداداً حسناً ، وقد انضم إليه أنس بن هلال النمري فى رجال من نصارى النمر ، وابن مردى الفهرى التغلبى فى رجال من نصارى تغلب ، وقد رأوا أن من المروءة أن يقاتلوا مع قومهم العرب ، ثم أخذ المثنى وهو على فرسه الشموس ينتقل بين صفوف الجيش ويتأكد من الرايات ويوجه أوامره ويستحث إرادة الإيمان فى الجند ثم قال لهم : « إنى لأرى أن تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم » ولما أذفت ساعة الهجوم قال فى الجموع : « إنى مكبر ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة » .

وانطلق الصدام مدويًا صاخبًا فلما طال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال :
« يا أنس ، إنك امرؤ عربى إن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى حملت على مهران
فاحمل معى » وكذلك قال لابن مردى الفهرى ، ثم انقض المثنى على المهران
فجنبه حتى تمكن من اقتحام ميمنته ، ثم انخرط المسلمون فى صفوف الفارسيين ،
وعلا الغبار فوق المقاتلين وجاء المسلمون من وراء الأعاجم وقتلوهم ، هنا دعا
المثنى لهم بالنصر قائلاً : « انصروا الله ينصركم » ثم وقعت الهزيمة بالفارسيين
محاولين عبور الجسر لكن المثنى تمكن من قطعه فتمزق الفرس على شاطئ الفرات
واقترفاهم المسلمون حتى أبادوهم وقدر قتلاهم يومئذ بمائة ألف ، ولقد قال المثنى
عن هذه المعركة التى أبلى فيها المسلمون بلاء عظيمًا : « قد قاتلت العرب والعجم
فى الجاهلية والإسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد من ألف من
العرب ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم . إن الله أذهب فصد
وقتكم بردهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ولا قسمى فيج ولا نبال طوال فإنهم إذا
أعجلوا عنها وفقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » ومن العظيم فى القيادة أن
يعترف القائد بخطئه وهذا ما فعله المثنى يوم أخذه الجسر ومنعه الفرس من الفرار
فقد قال : « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه
حتى أخرجتهم فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت
منى زلة لا ينبغى إخراج إلا من يقوى على امتناع » .

وكان من أثر هذه المعركة أن دب الرعب فى نفوس الفرس فعجزوا عن القتال
فأعان ذلك المسلمين الإغارة على عامة جماهير الفرس فيما بينهم وبين دجلة
واستمروا فى الإغارة حتى أشرفوا على تكريت وفى نفس الوقت أغارت بعض
الفرق على المدائن فغنمت الكثير .

ثم كانت موقعة القادسية .

معركة القادسية :

لقد رأى الفرس بعد هزيمتهم القاسية فى معركة البويب ضرورة توحيد قواتهم وتنظيمها وتوحيد كلمتهم حتى يمكنهم رد المسلمين الذين أصبحوا على مسافة قليلة من عاصمتهم ، وكان أول من فعلوه أن أسندوا الملك إلى يزدجرد وهو شهریار بن كسرى ، فكون جيشاً ضخماً بلغت كثافته مائة وعشرين ألف مقاتل وقد سلحه تسليحاً تاماً ثم جعل على قيادته رستم أعظم قواد الفرس وفى هذا الإطار انضم سواد الشعب الفارسى إلى قواته المسلحة . ومن هنا أصبح وضع القوات المسلمة حرجاً مما دفع بالمتنى إلى أن ينسحب إلى ذى قار ، وفى نفس الوقت بعث برسالة إلى عمر بن الخطاب يعرض فيها الموقف فأجابه عمر بقوله : « اخرج من بين ظهر الأعاجم ورابط فى المياه التى فيها الأعاجم على الحدود ، ولا تدع ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه ، احملوا العرب على الجرد إذا جد العجم » وفى نفس الوقت كتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل يقول لهم : « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى ، والعجل العجل » وجاءت القبائل بجندها وقياداتها إلى المدينة وقد بلغ جيش المسلمين بضعة وثلاثين ألف مقاتل بينهم كثيرون من صحابة رسول الله ﷺ . وقد أمر عمر عليه سعد بن أبى وقاص ، وعندما تأهب الجيش للتحرك نحو العراق أوصى « عمر سعداً فقال له : « يا سعد بنى وهب لا يغرنك من الله أن قيل : خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لا يحو الشئ بالسيئ ، ولكنه يحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، اللهم ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ولا يدركون ما عند الله بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ منذ بعث إلى أن فارقتنا فالزمه فإنه الأمر » .

ثم توجه سعد على العراق أميراً على أكبر جيش إسلامى توجه إلى فارس وفى أثناءها توفى المتنى بن حارثة الشيبانى متأثر بالجراح التى أصابته يوم الجسر ،

غير أنه قبل وفاته بعث إليه بنصيحته فقال فيها : « قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يظهر المسلمون عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فالجئوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجراً على أرضهم إلا أن يرد الله الكرة عليهم » .

ثم نزل سعد بالقادسية وفي خلال شهر كان يرسل الطلائع التي تغير على أهل السواد كما وجه بعض الغارات بين تسكر والأنبار فاستطاعوا أن يغنموا من الأطمعة ما يكفيهم زمناً ليس بالقليل ، وفي نفس الوقت بعث العيون والأرصاد إلى أهل الحيرة وإلى صلحوبيا للحصول على أخبار الفرس فعرفوا أن رستم قد نزل بساباط ، ثم أرسل سعد وفداً من رجاله بناء على أمر من عمر بن الخطاب ليفاوض يزيدجرد بشأن الغزو والإسلام ، فقال يزيدجرد للوفد : « ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا والولع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتنا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم » فما كان من النعمان بن مقرن - وكان رئيس الوفد إلا أن بين له أسباب بعثة الرسول ﷺ وغاية الإسلام فهو رحمة للعالمين ، ولهذا انضوى العرب تحت لوائه ؛ وكان مما قاله : « إن الرسول أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر من الجزاء . فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتهم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم » وهنا ثار يزيدجرد عليهم وقال لهم : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلناكم ، لا شيء لكم عندي » ثم قال : « لئن لم ترجعوا لأرسلن لكم رستم ليدفعنكم في خندق القادسية » ثم ذهب وفد إلى رستم برئاسة المغيرة بن شعبة ، وقد خاطبه رستم بقوله : « لا صلح بيننا وبينكم » فقال المغيرة : « تعبرون إلينا أو نعبر إليكم » فقال رستم : « بل نعبر إليكم » فعبر

الفرات ثم اتخذ كل من القائدين أهبتة ودارت المعركة محتدمة عنيفة واستمرت أربعة أيام وقد ظهر في اليوم بوادر رجحان الفرس بسبب ما أصاب خيول المسلمين من ذعر عندما شاهدت فيلة الفرس وفي الثاني دفن القتلى ، أما الجرحى فإنهم حمداً لمن يراهم من النساء وفي هذا الوقت انضم إلى جيش المسلمين مدد من الشام بقيادة بن عتبة بن أبي وقاص مما دعم قوة المسلمين . وقد عمد المسلمون إلى حيلة طريفة فإنهم غيروا في أشكال الإبل بأن وضعوا على وجوهها براقع وطافت بين خيول الفرس فأذعرتها وأخافتها ، وظل القتال ناشباً إلى منتصف الليل حيث رجحت كفة المسلمين ، وقد سمي ذلك اليوم بيوم أغواث لورود الغوث فيه ، وفي اليوم الثالث تجدد القتال بضراوة وإصرار حيث عادت الفيلة لمهاجمة المسلمين فما كان من المسلمين إلا أن صوبوا رماحهم إلى عيونها فأجفلت في جنون فأحدثت بذلك خللاً في الصفوف وولت هاربة مما أضعف من قوة الفرس ، ثم هبط الليل والمعركة ما زالت على شدتها فلم يسمع إلا صليل السيوف وهزيز الفرسان ، ثم كان اليوم الرابع وفيه أطبق جيش المسلمين على قلب الجيش الفارسي وجناحيه ، وقد استطاع هلال بن علقمة أن ينفذ إلى حيث رستم فقتله فصار ينادى في المسلمين : « قتلت رستم ورب الكعبة » وهنا كبر المسلمون .

وعنفت هجمات المسلمين على الفرس الذين لم يجدوا مناصاً سوى الهرب السريع ، وجدَّ المسلمون في أثرهم حتى طردوهم إلى الضفة الشرقية للفرات ، وسمى هذا اليوم من أيام القادسية « يوم عماس » - أي الحرب الشديدة - والحق أنها من أشرس المعارك التي خاضها المسلمون في قتالهم كله ، وقد استشهد فيها ثمانون ألفاً من المسلمين وقتل من الفرس ثلاثون ألفاً .

وبمجرد أن انقشعت غاشية المعركة حتى كتب سعد رسالة إلى عمر قال فيها :
« . . . أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين في بعدة لم ير الرءاون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموها ونفل عنهم إلى المسلمين واتبعهم

المسلمون على الأنهار وإلى طفوف الآجم وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد ابن عبيد القارئ ، وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم «

وإبان حرب القادسية هذه كان عمر بن الخطاب قلقاً فكان لا يترك يوماً بغير أن يخرج إلى الطريق ليعرف من الركبان ما يجرى بالقادسية وذلك من الصباح إلى أن ينتصف النهار ثم يعود إلى مقره بالمدينة ، وفي يوم من الأيام لقي شخصاً على ناقة فسأله : من أين ؟ فأخبره . قال : يا عبد الله حدثني ، قال : هزم الله العدو وظل يستخبره حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة أمير المؤمنين فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله . وعمر يقول : لا عليك يا أخي ، هات ما عندك . فسلمه كتاباً من سعد بالنصر .

والحق أن معركة القادسية من المعارك الفاصلة بين المسلمين والفرس فقد مكنت المسلمين من استرجاع الحيرة وغيرها من المدن كما فتحت الباب إلى المدائن عاصمة الفرس ، ودفعت بالكثيرين من عرب العراق إلى الدخول في الإسلام والانضمام إلى صفوف المقاتلين المسلمين هذا فضلاً عن المغنمات الكثيرة التي غنمها المسلمون .

فتح المدائن ١٦ هـ :

ظل سعد بن أبي وقاص بالقادسية قرابة شهرين ، كان فيهما يرأسل عمر عما يمكن صنعه بعد ذلك وكانت في نفس الوقت فرصة يستريح فيها جيش المسلمين من جهد القتال . ولقد تمكن بعض الذين فروا من الجيش الفارسي من أن يتجمعوا في بابل تحت إمرة بعض القواد فما كان من سعد إلا أن خف إليهم فمزقهم فولوا الأدبار . ثم بقى سعد في بابل عدة أيام ثم قصد بجيشه في ذي الحجة سنة ١٥ هـ إلى بَهر سَير وهي مدائن سواد الفارسيين وظل أمامها شهرين رماها خلالهما بالمجانيق والعرادات ثم تمكن من الاستيلاء عليها وكان الفرس قد

غادروها إلى المدائن العليا وبينما كان سعد محاصر البُهر سير حدث تراسل بينه وبين الدهاقين ، وقد دعاهم سعد إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة وتم الاتفاق على الجزاء والمنعة ، وبذلك لم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب من السواد إلا وقد سعد واطمأن بالإسلام ، وعندما استقر المسلمون بمدائن السواد أو المدائن الدنيا وقعت عيونهم إلى إيوان كسرى أو قصر كسرى الأبيض حينئذ قال ضرار بن الخطاب : « الله أكبر ، أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله » وتابع المسلمون التكبير ، وكان للقصر وقع كبير في نفوس المسلمين إذ ارتفعت روحهم المعنوية .

وقد علما أن الفرس قطعوا الجسر بعد أن عبروا إلى المدائن العليا ؛ ليمنعوا زحف المسلمين على عاصمتهم فظل المسلمون ببهير سير أياماً من سفر سنة ١٦ هـ ، وهم يشيرون على سعد بضرورة العبور ولكنه كان يخشى على المسلمين من الفرس حتى جاءه رجل من أهل الكتاب الناقلين على ملوك الفرس فدلّه على مخاضة يمكن للمسلمين أن يجتازوها ، فما كان من سعد إلا أن انتدب نفرًا من أهل البأس والمخاطرة فاقتحموا دجلة وقاتلوا الفرس على الضفة الشرقية ، ثم أعطى أمراً لقواته باقتحام دجلة ، وفي هذا الوقت العصيب قال سعد وكان إلى جواره سلمان الفارسي : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزم الله عدوه إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلبت الحسنات » فقال له سلمان : « الإسلام جديد ذلت له والله البحار كما ذلل لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً فطبّقوا الماء حتى لا يرى الماء من الشاطئ » وخرج المسلمون ولم يفرق منهم أحد وعندما شاهد الفرس المسلمين وهم يزحفون إليهم انسحب يزدجرد إلى حلوان وصار معه أهل المدائن فانقض المسلمون على القصر الأبيض فخرج منهم بعض القوم فخاطبهم سلمان الفارسي بوصفه داعية أهل فارس فقال لهم : « إني منكم في الأصل وإني أرق لكم ولكم في ثلاث فاخترأوا ما يصلحكم : أن تسلموا فإخواننا لكم ما لنا



وعليكم ما علينا ، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين « فقبل أهل القصر الأبيض الجزية ، ودخل سعد إيوان كسرى وهو يقرأ قول الله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨] ثم صلى صلاة الفتح وهى ثمان ركعات لا يفصل بينهن . ثم اتخذه مسجداً وصلى به أول جمعة فى صفر سنة ١٦ هـ فكانت أول جمعة بالعراق ، وقد ربح المسلمون من الفارسيين مغانم لا تحصى من الأموال والذخائر وقد ضمت الكثير من الحلبي ونفائس كسرى ، ثم أرسل سعد إلى المدينة بخمس الغنائم .

وبعد فتح المدائن كان فتح الفتوح أو فتح نهاوند سنة ٢١ هـ .

فتح الفتوح :

فبعد أن حاقت الهزيمة بالفرس فى المدائن تجمعت بعض فلولهم محاولين استرداد العاصمة ، ولكنهم منوا بهزيمة لم يجد يزدجرد بعدها مفرأً من مغادرة حلوان إلى الرى . فما كان من القعقاع بن عمرو إلا أن خفَّ إلى حلوان فاحتلها وفى نفس الوقت فاستولى المسلمون على تكريت والموصل ، وبعدها لم يواصل المسلمون فتوحهم شرقاً فتوقفوا عند حلوان كما أمر الخليفة حتى لا يقع المسلمون فى مضطرب من مسالك تلك البلاد ، ولكى يتمكنوا فى نفس الوقت من استعادة تنظيم صفوفهم وليؤكدوا تواجدهم فى المناطق التى استولوا عليها . ولكن يزدجرد لم يهدأ بعد فإنه بعد ذلك فى سنة ٢١ هـ بذل جهوداً جبارة فى إعداد جيش بلغت كثافته مائة وخمسين ألف مقاتل يراوده أمل طرد المسلمين من فارس . وبلغ ذلك الاستعداد عمر بن الخطاب فما كان منه إلا أن ولى النعمان بن مقرن قيادة جيش المسلمين الذى تألف من أهل الكوفة والبصرة والحجاز حتى بلغ ثلاثين ألف مقاتل، ثم تحرك المسلمون حتى وصل نهاوند ، ففوجئوا بأن الفرس يتحصنون بحصون منيعة لا يخرجون منها فاحتالوا على استدراجهم للخروج فقامت منهم فرقة تظاهرت بالهزيمة بأن تقهقرت فتبعها الفرس ، فاغتمنها المسلمون إذا أمر

النعمان المسلمين بالهجوم عليهم بأن هز اللواء ثلاث مرات وهو يكبر ، ثم قال : « اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وذل يذل به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة . أمّنوا يرحمكم الله » وبذل جند الإسلام غاية وسعهم في قتال الفارسيين فما كان يُسمع غير صليل السيوف ، ولما كان الفرس قد شدوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا كان عندما يقع منهم أحد يقع عليه سبعة بعضهم على بعض حزمة واحدة فيقتلون جميعاً ، ولقد أصيب النعمان في المعركة بنشابة في خاصرته فاستشهد وأخفى أخوه معقل الخبر ، ثم حمل اللواء حذيفة بن اليمان ، وواصل المسلمون القتال حتى نزلت الهزيمة بالفرس فما كان منه إلا أن كتب إلى عمر يبشره بالفتح وذلك مع رجل قال لعمر : أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأهله وأذل به الكفر وأهله . فحمد عمر الله عز وجل ثم قال : « النعمان بعثك ؟ قال : احتسب النعمان يا أمير المؤمنين ، فبكى عمر واسترجع وقال : ومن ويحك » قال : فلان وفلان حتى عدّ له ناساً كثيرين ، ثم قال : وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم ، فقال عمر وهو يبكي : « لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ولكن الله يعرفهم » .

ولقد سُمي فتح هاوند فتح الفتوح إذا لم تقم للفرس بعدها قائمة . وبعدها استولى المسلمون في يسر على همذان والرى .

أما يزدجرد فإنه فر على أقصى الحدود الشرقية على أمل أن يسترجع ملكه غير أنه توفي وكان ذلك في خلافة عثمان رضى الله عنه .

وهكذا استولى المسلمون على جميع الأراضي الفارسية حيث نشروا الإسلام الذي شرح به صدر الكثيرين من الفرس ، فاعتنقوا الإسلام ، ثم تعلموا العربية فأصبحوا بذلك من نسج المجتمع الإسلامي عرفوا باسم الموالى ، وكان لهم شأن كبير بين المسلمين من حيث النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

نتجه بعدها غرباً نحو الشام ومصر .

كفيف فتحهما فى عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؟

نبدأ أولاً بالشام وفتح دمشق سنة ١٤ هـ .

فتح الشام :

لقد سبق أن ذكرنا أن المسلمين انتصروا على الروم فى معركة اليرموك فى أواخر حياة أبى بكر ، فارتد الروم المنهزمون فى اليرموك إلى بلدة فحل ، إحدى بلاد الأردن ، وفى نفس الوقت جاء إلى دمشق مدد من حمص ليشد من أزر جند الروم . أمام هذا الموقف كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب بأيهما يبدأ : بفحل أم بدمشق ، فكان رد عمر : « ابدؤوا بدمشق ما هتدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تمون بإزائهم فى نحورهم » فقام أبو عبيدة بتنفيذ خطة الخليفة ، فأرسل بعض قواته إلى فحل ، وأرسلت قوات أخرى لتكون فى المنطقة التى بين حمص حيث يوجد هرقل وبين دمشق ، أما باقى القوات فخف بها إلى دمشق فضرب عليها حصاراً محكماً استمر سبعين ليلة دارت فى أثنائها زحوف وتراشق بالنبال والمجانيق وأهل دمشق متحصنون بالمدينة يلحون على هرقل أن ينجدهم ، فكان كل ما فعله أن أرسل إليهم بعض الفرسان فطردتها قوات المسلمين التى كانت بين دمشق وحمص ، وفى نفس الوقت استبد اليأس بأهل دمشق من طول الحصار وقتها كان خالد بن الوليد يث عيونهم لتأتيه بما يجرى داخل المدينة ، ثم جاءه خبر بأن أهل دمشق منهمكون فى احتفال أقاموه ابتهاجاً بمولود رزق به أحد قواد الروم ، وهنا استطاع خالد ومعه بعض رجاله من تسلق سور دمشق وفتح الباب الذى يليه ودخل منه جنده وهاجموا من تصدى لهم بسيوفهم . وعندما سرى الخبر إلى أهل دمشق وافقوا أبو عبيدة على الصلح الذى عرضه عليهم ، وفتحت الأبواب لجند المسلمين إلا خالداً فإنه دخل بابه عنوة ، ثم التقى الجميع وسط المدينة وتم الصلح بين أهل دمشق وبين المسلمين وكان ذلك فى رجب سنة ١٤ هـ .

ثم خلف عبيدة يزيد بن أبي سفيان ليدير أمور دمشق ويصرف أمورها على أن ينهض في نفس الوقت بالاستيلاء على الأقاليم القريبة منه ، أما هو - أي أبو عبيدة - فإنه قصد ، يصحبه القائد شرحبيل بن حسنة ومعه باقى الجيش إلى بلدة فحل حيث كان بها جيش من الروم قوامه ثمانون ألف جندي . وقد عمد الجيش الرومانى إلى إغراق الأرض التى بينه وبين المسلمين بالمياه ، فأوحلها مما عاق من تقدم المسلمين الذين ظلوا فى حصارهم لفحل ، وحاول الروم الخروج لمباغته المسلمين لكن المسلمين كانوا يقظين متأهبين فردوهم على أدبارهم ، وحدث أنه عندما اشتد الظلام حاول الروم الفرار ، ولكنهم ضلوا الطريق ، فغرقوا فى الوحل الذى دبروه بأيديهم ، وأسرع إليهم المسلمون ، ولحقوا بهم ، ولم ينج من الثمانين ألف إلا من شرد من القفار ، ثم توجه المسلمون إلى بيسان وطبرية فصالحهم أهلها على شروط صلح دمشق ، ثم تقدم أبو عبيدة إلى حمص وضرب عليها الحصار الذى استمر طيلة الشتاء ، وكان الروم يناجزون المسلمين فى الأيام القارسة وصبر المسلمون على البرد والقتال ولما أيقن أهل حمص أن لا رجاء من المقاومة فإنهم طلبوا الصلح الذى تم على مثل صلح أهل دمشق . ثم رصد أبو عبيدة أمره إلى خالد بأن يتوجه إلى قنسرين فلما نزل ببلدة الحاضر فإن الروم أسرعوا إليه وعلى رأسهم قائدهم ميثاس فقاتلهم خالد قتالاً شديداً وقتل ميثاس فى المعركة ، وظل الروم يقاتلون تارةً له حتى أفناهم المسلمون جميعاً ، أما أهل الحاضر فإنهم بعثوا إلى خالد يقولون له : إنهم عرب وأن لا دخل لهم فى الحرب ، فقبل منهم اعتذارهم وتركهم لحالهم ، ولما بلغ عمر ذلك قال : « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى » .

وواصل خالد سيره حتى بلغ قنسرين فأسرع أهلها بالتحصن فقال لهم : «إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا ، وهنا استرجعوا ما عاناه أهل حمص من الحصار فأسرعوا بطلب الصلح الذى تم على شروط أهل حمص ، وعندما أيقن هرقل أنه لم يعد له مقام بالشام فإنه قرر أن يغادر سوريا

نهائياً وكان أن ودعها الوداع الأخير قائلاً : « عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً » .

ثم واصل المسلمون فتوحهم في شمال الشام حتى اتصلت البلاد التي فتحوها بالشام بالبلاد التي فتحوها بالعراق .

ثم انتقل المسلمون إلى خطوة أبعد فقد تقرر فتح أجنادين وبيت المقدس ، وكان ذلك في سنة ١٥ هـ .

وقد حدث أنه عندما قصد عبيدة وخالد إلى حمص كان عمرو بن العاص ، وشرحبيل ابن حسنة يعملان على فتح فلسطين ، وهنا استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يفتح قيسارية وصالحت الأردن شرحبيل ، ثم زحف عمرو بن العاص إلى أجنادين وعلى رأس قواته شرحبيل ، وكان قائد الروم في أجنادين الأربطون، وكان من دهاة الروم وأوسعهم حيلة وعندما بلغ ذلك عمر قال : « قد رمينا أربطون الروم بأربطون العرب فانظر عما تنوح » ونشب القتال رعباً حاداً حتى تكس القتل ثم نزلت الهزيمة بالروم فلجأ الأربطون إلى إيلياء . أما عمرو فإنه نزل بأجنادين ثم ضرب الحصار على بيت المقدس زهاء أربعة شهور بذل فيها المسلمون غاية كفاءتهم وصبرهم ولاسيما أن الشتاء كان قارساً ولا يحتمل . ولما طال أمد الحصار لم يجد الأربطون مفرّاً من الهروب إلى مصر وقد خلفه بطرق المدينة للدفاع عنها وقد بذل غاية وسعه للخلاص من الحصار ولما فشل جنح إلى السلم على أن يتولى عمر بن الخطاب نفسه عقد الصلح وذلك لتأكيد الأمان وتوثيق عرى العهد ، وعلى الفور كتب عمرو إلى عمر بذلك الشأن فسار إلى الشام بعد أن كتب إلى أمراء الشام ليخفوا مقابلته ، وجاءته رسل أهل إيلياء يطلبون الإسلام ، فسالمهم وكتب لهم عهد الذمة والأمان على النحو التالي :

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها ، وأنه

لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ومن حيزها ولا من صليهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا عنها الروم واللصوت « اللصوص » ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض ، قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منه شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس وعشر .

وبعد كتابة هذا الأمان ذهب عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس ثم دخل كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة قال للبترق : أريد الصلاة ، فقال له : صل موضعك ولكن عمر اعتذر وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفرداً . فلما قضى صلاته قال للبترق : « لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر » ثم كتب للمسلمين ألا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ، بعدها قال للبترق : « أرنى موضعاً كي أبني عليه مسجداً » فقال : « على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب » فوجد عليها ردمًا فشرع يزيله وتناوله بيده فرفعه فى ثوبه واقتدى به سائر المسلمين ، وبعد أن تم إزالة الردم أمر عمر ببناء المسجد ، ثم ولى أمراء الشام وعاد هو إلى المدينة .

وعلى هذا المنهاج جاء فتح مصر .



فتح مصر :

رأى عمر بن الخطاب بوعيه وفطنته وعمق تصوره للمستقبل أن لمصر أهمية كبيرة بالنسبة للإسلام ، ومن هنا فإنه أصدر أمره إلى عمرو بن العاص بضرورة التوجه لفتح مصر وكان ذلك في سنة ١٨ هـ ، وكان أن أعد له جيشاً قوامه أربعة آلاف جندي ، ثم اتخذ عمرو سبيله نحو مصر ، فوصل العريش أول ما وصل واستولى عليها بغير مقاومة إذ كانت حصونها متهدمة ، كما كانت خالية من أية قوة رومانية يمكن أن تصد المهاجمين . وبعد الاستيلاء على العريش اتجه عمرو صوب الفرما ^(١) التي كانت محصنة تحصيناً جيداً تدافع عنها حامية رومانية ، فأطبق عليها بالحصار لمدة شهر ، ثم نشب القتال بين المسلمين وبين الحامية كان النصر فيها للمسلمين وباستيلاء على الفرما - وهي المدخل الطبيعي لمصر من الشرق - أمن المسلمون طريق الإمداد والعودة لقواتهم . وقد تم فتح المسلمين لمدينة الفرما في أول المحرم سنة ١٦ هـ . يناير ٦٤٠ م .

ثم واصل المسلمين سيرهم فمروا بمدينة مجدل ثم الصالحية ثم وادى الطليمات وليست بعيدة عن التل الكبير حتى انتهوا إلى مدينة بلبس ، وكان يتزعمها الأرطوبون الذي فر من بيت المقدس ، وقد حاول أن يهزم من صمود القوات المسلمة طيلة شهر كامل ، ولكنه منى بالهزيمة واستولى المسلمون على المدينة وبعدها انطلق عمرو بجيشه نحو أم دين ، ونشب القتال بين قوات المسلمين والبيزنطيين ، وكان شديداً والاستماتة عنيفة مما أبطأ من الفتح فلم يجد عمرو بدلاً من أن يطلب المدد من الخليفة فأمدته في الحال باثني عشر ألفاً من المسلمين يقودهم الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسيلمة بن مخلد ، والمقداد بن

(١) الفرما : مدينة على نهر من الأرض تبعد نحو ميل ونصف من البحر شرقى بورسعيد ، يصب قربها فرع النيل البلوزى وهي قوية الحصون بها كنائس وأديرة . (من كتاب بتلر: فتح العرب لمصر ص ١٨٥) .

الأسود، وكلهم رجال لهم شجاعتهم وحنكتهم القتالية . وقبل أن يصل المدد تمكن عمرو من الاستيلاء على أم دنين ثم توجه إلى الفيوم عابراً النيل حيث استولى على البهنسا ، ووقعت في يده مغنم كثيرة من الأنعام ، وقبل أن يتم استيلاؤه على الفيوم جاءه الخبر بوصول المدد فرجع وعسكر به في هليوبولس «عين شمس» آنذاك فقرر عمرو الاستيلاء على حصن بابلين ، ولما أحست القوات الرومانية بتوجهه إليها فإنها اعتصمت بالحصن وكان يقود جند الروم تيودور تحت رئاسة المقوقس ثم عمل عمرو على استدراج جند الروم خارج الحصن وقد كان، فالتقى بهم في العباسية ، وكان قد أعد كمينين : الأول في الجبل شرقي العباسية والثاني قرب أم دنين ، وكان الهجوم بباقي الجيش ، واشتبك الخصمان وعندما اشتدت حدة القتال خرج الكمين الأول من الجبل ، فحطم مؤخرة جيش الروم الذي تقهقر إلى أم دنين ، وهنا خرج عليهم الكمين الثاني ، وبذلك وقع جيش الروم بين براثن إسلامية ثلاثة فنزلت به الهزيمة الشنعاء فخف جنده للهرب قاصدين الحصن أو راكبين سفن النيل وقد قتل منهم عدد كبير ، وبذلك الهزيمة استطاع المسلمون أن يحاصروا حصن بابلين ، ولما كان الوقت وقت فيضان وأسوار الحصن قوية هذا فضلا عن قلة معدات القتال عند المسلمين فقد طال الحصار ، ثم أخذ الوهن يدب في نفوس الروم بعد أن تبين لهم تصميم المسلمين على فتح الحصن ، فتداولوا أمرهم بينهم ، فانتهوا إلى القرار النهائي بضرورة التسليم . فخرج المقوقس في بعض رجاله إلى جزيرة الروضة ، وأرسل إلى عمرو يعرض الصلح وهنا وضعهم عمرو أمام ثلاثة خيارات : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . ولما عاد رسل المقوقس سألهم عن شأن المسلمين فقالوا ما قاله ابن عبد الحكم : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون في صلاتهم » فقال المقوقس : « والذي يحلف به لو

أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم ، وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم من الأرض ، ووقوا على الخروج من وضعهم » .

وانتهى التراسل بين المقوقس وعمرو ، وقد نصت شروط الصلح على دفع الجزية دينارين على كل نفس شريفهم ووضعهم من بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا النساء شىء ، وتم ذلك بالنسبة للقبط أما بالنسبة للروم فإنهم خيروا بين البقاء ويكون لهم ما للقبط والخروج إلى أرض الروم ، ولهم أن ينتظروا موافقة الإمبراطور هرقل الذى رفض ذلك الصلح مستهيناً بشأن المسلمين وعتب على المقوقس ، واستؤنف إقتال وأثناءه تمكن الزبير بن العوام من تسلق أسوار الحصن ومعه نفر من رجاله وقد فشل الروم فى مقاومته ، ولم يجد الروم مناصاً من طلب الصلح فوافق عمرو وغادر الروم الحصن آخذين معهم ما يكفيهم من الغذاء مخلفين أسلحتهم وعددهم ، وكان ذلك فى المحرم ٢٠ هـ الموافق أبريل سنة ٦٤١ م . وذلك بعد أن مات الإمبراطور هرقل فى مارس سنة ٦٤١ م .

ولإتمام فتح مصر كان لابد من الاستيلاء على الإسكندرية بوصفها عاصمة البلاد ، هذا فضلاً عن أهميتها التجارية والبحرية والعسكرية . فتوجه نحوها الجيش الإسلامى وقد اشتبك فى طريقه بالحاميات الرومانية فى طرنوط ، وتيتوس ، وسلطيس ، والكريون ، وعلى مشارف الإسكندرية وقع التصادم الكبير إذا نشب قتال عنيف بين المسلمين والروم المتحصنين بالمدينة ، وظل الحصار قائماً طيلة أربعة شهور أثناءها كانت الأحوال الداخلية للدولة البيزنطية سيئة جداً بسبب تناحر الطامعين فى العرش فلم يجد الإمبراطور بدأً من أن يبعث المقوقس إلى الإسكندرية ليعقد صلحاً مع المسلمين فكان من نصوصه : « المهادنة بين الطرفين أحد عشر شهراً وأن يحتفظ العرب بمركزهم مدة الهدنة وألا يباشروا أعمال حربية ضد الإسكندرية وأن يكف جند الروم عن الأعمال العدائية وألا يتعرض المسلمون

للكنائس بسوء وألا يتدخلوا في شؤون المسيحيين وأن ترحل الحامية التي بها بأمّعتهم وأموالهم مع دفع الجزية عن شهر عند رحيلهم وبقاء اليهود بالإسكندرية، وألا يعود الرومان أو يحاول جيش رومي استرداد مصر ، وأن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين عن كل سنة ، وأن يكون عند المسلمين مائة وخمسون جندياً رومياً وخمسون مدنياً رهينة لتنفيذ هذه المعاهدة « وكان ذلك في سنة ٢٠ هـ . نوفمبر سنة ٦٤١ م . وتم الجلاء آخر سنة ٢١ هـ ، الموافق سبتمبر سنة ٦٤٢ م .

وبعد ذلك دخل المسلمون الإسكندرية وبسطوا سلطانهم على كل أنحاء مصر شمالها وجنوبها فكان أن أصبح المصريون أهل ذمة في حماية المسلمين .

الفتوح الإسلامية في عهد عثمان بن عفان :

بعد استشهاد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه دخلت الفتوح الإسلامية مرحلة جديدة في عهد عثمان بن عفان :

فعلى الجبهة الفارسية عاود الفارسيون الثورة على أميرهم وقتلوه فأسرع إليهم عبد الله بن عامر أمير البصرة في سنة ٢١ هـ ، وذلك على رأس جيش كبير واشتبك معهم في معارك ضارية فهزمهم في مرو وخوارزم وغيرهما ، وبهذا تمكن من إعادة فتح تلك البلاد فرجع أهلها إلى طاعة المسلمين ، وفي نفس الوقت وحدث الأمر ذاته مع أهل بعض الأقاليم الفارسية مثل نيسابور ، وبلخ . ثم عاد إلى البصرة وقد استقر الولاء إلى الدولة الإسلامية .

ولعل هذه المعارك كانت المشهد الأخير من حياة يزدجرد الثالث آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية فقد قتله أحد أعوانه وهو حاكم مرو .

وكان المسلمون في عهد عمر بن الخطاب قد بسطوا سلطانهم على أرمينية بعد أن انتزعوها من قبضة الرومان غير أن القوة الإسلامية التي كانت بها أرغمت على الرحيل بعد أن حاصرتها أعداد كبيرة من جند الروم ، وعندما جاء عثمان فإنه أصدر أمره إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام بضرورة استرجاع إقليم أرمينية

فكان أن أرسل معاوية حبيب بن مسلمة الفهري في قوة تبلغ ستة آلاف جندي فعقد صلحاً مع أهل قاليقلا على الجزية ، ثم استمر في زحفه حتى نشب قتال بينه وبين الروم قبل أن يأتيه المدد الذي طلبه من الخليفة عثمان ، وكان أن باغت الروم وحقق انتصاره عليهم ، فلما جاءه المدد زحف الجيشان وتمكنا من استرجاع إقليم أرمينية وأن يعيدها إلى دائرة الإسلام ، وكان معاوية بن أبي سفيان بعث بقوات إلى الأناضول كان الهدف منها إفزاع الروم وإخافتهم ، وفي نفس الوقت إلهاءهم عن الدفاع عن الأقاليم المجاورة للعاصمة القسطنطينية ، وذلك حتى يتمكن المسلمون من الاستيلاء على ما تبقى للروم من حصون وقلاع على ساحل الشام .

توغلت قوات المسلمين حتى عمورية واستطاعت بعد ذلك تطهير الشام من الوجود الروماني في ميائى قنسرين وطرابلس وهما آخر ما كان للرومان من مواقع .

نتقل بعد ذلك إلى الجبهة الغربية (إفريقيا والمغرب) :

ففي ذلك الوقت تعاونت حملة بحرية رومانية مع بعض الروم المقيمين بالإسكندرية في الاستيلاء على المدينة فاستغاث المسلمون بالخليفة : أولاً كى يبقى على عمرو بن العاص والياً على مصر ، وكان قد عزل منها ، وثانياً استرجاع المدينة من أيدي الروم ذلك بفضل هبة عمرو وخبرته في قتالهم ، واستجاب عثمان لطلب المسلمين وعادت الإسكندرية إلى مصر الإسلامية وكان ذلك في سنة ٢٥هـ .

ثم لنخرج من مصر ونتجه إلى إفريقية (تونس الحالية) وكان عمر بن الخطاب قد رفض طلب عمرو بن العاص في فتحها فلما أن تولى عبد الله بن أبي السرح إمارة مصر فإنه عرض على الخليفة عثمان غزو إفريقية فاستجاب لطلبه بنخبة من الصحابة كان من بينهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ،

وعبد الله بن الزبير . وكانت إفريقية ولاية رومانية غير أن أميرها غريغور أو جرجير استقل بها عن الإمبراطور وأعلن عن نفسه ملكاً عليها ، وعندما تبين عما هو معرض له من أخطار من ناحيته الشرقية حيث يوجد المسلمون فإنه أعد جيشه لإبعاد المسلمين عن مملكته ، وفي سنة ٢٧ هـ دارت بين الفريقين معارك شرسة ولو أنها طالت إلا أن النصر كان حليف المسلمين هذا فضلاً عن قتل الملك جرجير وأسر ابنته . وبعد النصر توجه أهل إفريقية (تونس) إلى عبد الله بن سعد لطلب الصلح مقابل مبلغ من المال فوافق ثم رجع الجيش إلى مصر .

ثم قام ابن أبي السرح بالتوغل في جنوب مصر حتى بلاد النوبة وكان ذلك في سنة ٣١ هـ ، وقد تمخض غزو النوبة عن عقد هدنة مصالحة بين الطرفين وقد تأكدت المصالحة بالتبادل التجاري بين المسلمين وأهالي النوبة .

أول الفتوحات البحرية :

نشأة الأسطول الإسلامي :

لم يكن للعرب في جاهليتهم ولا في عصر البعثة المحمدية وطيلة خلافة أبي بكر وعمر معرفة بالحروب البحرية ، ولذلك كان موقف العرب حرجاً في فتوحاتهم للشام ومصر إذ إن لهذين الإقليمين سواحل فحكم موقعهما على ساحل البحر الأبيض المتوسط أن لهما ثغوراً كثيرة جعلتهما في تعرض مستمر لغزوات الطامعين ، ولقد كان الروم حتى الوقت الذي قامت فيه دولة الإسلام وبسطت عقيدة الإسلام عقيدتها في الشرق حيث فارس والعراق والشام ومصر وإفريقية - كان الروم هم سادة البحر الأبيض وملوكهم لا ينازعهم في ذلك إلا ساذج أو مغرور ، وبذلك فالأساطيل الرومانية كانت حجرة عثرة أمام الفتوحات الإسلامية فقد كانت تعطل خططها التي كانت تتطلع إلى فتح المدن الساحلية الشامية ، وكذلك الإسكندرية وما بعدها من ناحية الغرب ، وأكثر من هذا جسارة فإن الأسطول الروماني بقيادة عمانويل تمكن من انتزاع الإسكندرية من أيدي المسلمين

ثم استعادها عمرو بن العاص في السنة نفسها .

ولقد كان معاوية بن أبي سفيان - عندما كان والياً على الشام - بصيراً بما عليه المسلمون من ضعف بحري إن أجزى هذا التعبير ومن ذلك كان يدرك ضرورة أن يكون للمسلمين أسطول يكون نداءً للأسطول الروماني فيستطيع أن يفتح باقي الثغور الشامية : قنسرين وطربلس وأنطاكية وغيرها ، ولما عرض معاوية على عمر فكرة إنشاء أسطول إسلامي وتكوين قوة بحرية قادرة على حماية الشواطئ الإسلامية من أي اعتداء روماني ، ولقد كانت العوامل التي تكفل إنشاء قوة بحرية متوافرة تماماً ، فالشام غني بأخشابه الصالحة لبناء السفن والصناع المهرة متوافرون في مصر والشام ، ومع ذلك فإن عمر بباعث الخوف على جند المسلمين من ركوب البحر ، وهم بغير دراية أو علم بشؤون البحر ، فإنه رفض فكرة معاوية ؛ حتى إذا كانت خلافة عثمان بن عفان ، فإن معاوية عرض عليه نفس الفكرة محاولاً إقناعه فوافق شريطة ألا يرغم أحداً من الجنود على ركوب البحر .

ولم يتوان معاوية فكأن أن استدعى كل صاحب خبرة في هذا المجال من أهل الشام ، ثم أقيمت دور لصناعة السفن ، وقد جعلوا سفنهم على شكل سفن الروم سواء أكانت كبيرة أم صغيرة . فالكبيرة قريبة من البارجة في عصرنا وتستطيع حمل ألف جندي بأسلحتهم ، والصغيرة تشبه الطراد وحمولتها مائة جندي . بعد هذا أخذ معاوية يجند للأسطول المحاربيين ويمدهم بما يلزمهم من مؤن وعتاد ، وكانت المشكلة الرئيسية هي توفير العناصر المدربة على قيادة السفن والقيام بالمناورات في عرض البحر ، فكان أن استقدم بعض الإغريق ممن لهم خبرة بالبحر الأبيض وضم إليهم عرب اليمن ، وكان للبحارة اليمنيين شهرتهم القديمة بالتجارة البحرية والتجول بين موانئ المحيط الهندي والبحر الأحمر . من أجل هذا اختار معاوية عبد الله بن قيس اليمنى لقيادة أول قوة بحرية إسلامية .

واستهلت القوة البحرية الإسلامية عملها باعتراض السفن الرومية التي كانت تحمل المؤن والعتاد للمواقع الرومية على ساحل الشام ، فحرمت عليها القيام

بعملها هذا مما أتاح للمسلمين القضاء على الجيوب الرومية ، فكان لهم فتح الشام كله وسارت مصر على هذه الخطة فقد أنشأ واليها عبد الله بن سعد بن أبي السرح أسطولاً يحمى به السواحل المصرية مما قد يشنه الروم من غارات .

وهكذا بدأ الصراع البحرى بين البحرية الإسلامية والبحرية الرومية .

وقد استهلكت البحرية الإسلامية فتوحها بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، وقد دارت بشأن هذه الجزيرة مكاتبات كثيرة بين الخليفين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وبين معاوية ، فقد طلب من كل منهما أن يأذن له بغزوها وقد أعد لهذا العمل عدته التى تتفق والغاية المقصودة ، وكانت استعدادات معاوية توازي الأهمية الكبيرة لهذه الجزيرة فمنذ نشأة الحضارات فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى والتناحر الدموى لا يهدأ من أجل فرض السيادة على الجزيرة التى تعد قاعدة رئيسية لأية دولة تطمح فى الزعامة على بلاد الشرق الأدنى وهى قبرص ، تبين هذا منذ أيام تحتمس الثالث الذى كان ملكاً على مصر الفرعونية ، وحتى فى عصرنا الجاضر حيث تحرص الدول الكبرى فى السيطرة على هذه الجزيرة لما لها من أهمية كبرى فى تحقيق السيطرة الاقتصادية والأمنية والعسكرية . ومما له دلالة الإستراتيجية أن هذه الجزيرة بفضل موقعها الجغرافى الممتاز وهى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط أصبحت تتحكم فى مياه هذا الجزء الشرقى من البحر .

وإدراكاً من معاوية بالأهمية القصوى لهذه الجزيرة ، ليكف غارات الروم على الشام إذا اصطنعها الروم مركزاً لتموين قواتهم وحصناً يلجؤون إليه حين الانسحاب ولقد أظهرت الحملة التى أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ . ٦٤٩ م الغايات التى من أجلها بدأ المسلمون غاراتهم ، ومن الدهاء السياسى عند معاوية أنه حرص على ضم نفر من كبار الصحابة لمصاحبة الحملة وذلك ليضفى على الأسطول العربى مظهر الجلال الإسلامى .

بداية الغزو :

تجمعت قوات معاوية وأساطيله في ميناء عكا مستجلباً جميع سفنه من مصر ، وقد اشترك مع الجند العرب كبار قادة الشام ، يذكر منهم عبادة بن الصامت ومما اتسمت به هذه الحملة أن خرج بها النساء حيث قمن بدور له شأنه في هذه الحملة الأولى التي شنت على جزر البحر الأبيض المتوسط ، فمثلاً اصطحب معاوية زوجته فاختة ، كما أخذ عبادة بن الصامت معه زوجته أم حرام بن ملحان الأنصارية أما السبب في أن عثمان أذن لمعاوية بأن يصحب معه زوجته فذلك ليختبر صدق عزيمته في مشروعه ، وليتأكد في نفس الوقت من أن الجزيرة قريبة من الشام ، فكان مما نبه إليه الخليفة قوله في إحدى رسائله : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا » والواقع أن معاوية كان صادقاً في طموحه ومقصده .

وبدأ غزوته البحرية بأن أبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله ، وذلك بعد أن انتهى شتاء سنة ٣٨ هـ ، ٦٤٩ م ولما بلغ شاطئ قبرص نزل على شاطئه مسجلاً بذلك أول عبور للعرب المسلمين لمياه البحر الأبيض ، وتعد هذه الغزوة رمزاً على شدة الوعي البحري عند العرب رجالاً ونساء فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، فعندما رست سفن الأسطول الإسلامي على الشام ، وبدأ الجند يغادرونها اعتلت أم حرام متن دابتها فنفرت الدابة ، فأوقعتها على الأرض فماتت لساعتها مسجلة بذلك أول صفحة للشهداء من جند الأسطول الإسلامي ، ودفنت أم حرام في أرض جزيرة قبرص ، وقد عرف قبرها منذ ذلك الوقت بإسم : «قبر المرأة الصالحة» .

وبعد أن نزل المسلمون ذخائرهم وأسلحتهم وعتادهم إلى الشاطئ بعثوا إلى أهالي قبرص يعلمونهم بغرضهم الذي جاؤوا من أجله ، وهو أنهم يسعون إلى أن يعاهدوهم على ما فيه سلامة الشواطئ الإسلامية الواقعة على الجانب الشرقي من البحر الأبيض ، لكن سكان قبرص بإيعاز من الروم رفضوا ذلك العرض واتخذوا أهبتهم للدفاع عن مدينتهم فاعتصموا بأسوارها . آنئذ تقدمت القوات الإسلامية

قاصدة العاصمة وهي قسطنطينا . وكانت مدينة كثيفة السكان تكاد تكون مخزناً لكل ثروات الجزيرة وعتادها وسلاحها ، ولم يدم الحصار طويلاً فقد اقتحم المسلمون المدينة وغنموا كنوزها كما أسروا الكثيرين ، أمام تلك الهزيمة عقد حاكم العاصمة أو الهركون صلحاً مع المسلمين . وكان من شروط ذلك الصلح أن يدافع القبرصيون للمسلمين جزية سنوية مقدارها ٧٢٠٠ دينار وهو نفس المبلغ الذي كانوا يدفعونه لدولة الروم . ومن شروطه أيضاً ألا يسمحوا للروم بالإغارة على الأراضي الإسلامية في الشام ، وألا يفشوا لهم أسرار التحركات البحرية للمسلمين ، كما وافق أهالي قبرص على إمداد المسلمين بأبناء أية حملة بحرية يعتزم الروم القيام بها ضد الشواطئ الإسلامية المصرية أو الشامية . وأيضاً من شروط الصلح أن يتخذ القبرصيون موقف الحياد الكامل بين العرب والروم على سيادة البحر المتوسط ومما شجع المسلمين على هذا الطلب أنهم لم يفرضوا على القبرصيين أن يمدوهم بأي مساعدة خاصة بالأسطول الإسلامي وقت إغارته على الروم : «فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينتصروا عليهم» .

وهكذا سجل الأسطول الإسلامي أول سطر له في ميدان المجال البحري الذي خاض فيه معاركه الطويلة في نصرة الإسلام ، وفضلاً عن هذا فإن النصر البحري قد نفخ في روح الإرادة الإسلامية الجسارة التي لم تعد تتهيب ركوب البحر أو تخشاه .

ثم أخذ الأسطول الإسلامي بعد غارته الأولى الاهتمام بقبرص ليرى ما كانوا على عهدهم وليحول في نفس الوقت دون أن يتخذ الروم قبرص مركزاً لهم . لكن حدث أنه في سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م ، لم يلتزم أهل قبرص بشروط الصلح فأعانوا بسفنهم الروم على مهاجمة الشواطئ الإسلامية بالشام . وهنا وجد معاوية أن لا بد من مهاجمة أسطول الروم ليحرمه نهائياً من الاعتماد على جزيرة قبرص ، ولذلك فإنه في العام التالي لفتح قبرص خرج الأسطول الإسلامي سنة ٣٣ هـ /

٦٥٤ م . مؤلفاً من خمسمائة سفينة وعدد كثيف من الجند فأغار به على الجزيرة، وتمكن من انتزاعها عنوة رغم استماتة أهلها في الدفاع عنها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت قبرص القاعدة الدائمة للأسطول الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط ، ولتأكيد تلك الخطة فإن معاوية عين للجزيرة قواتا لحفظ أمنها والدفاع عنها وفي نفس الوقت لحماية ظهر الأسطول ، فكان أن خصص جيشاً قوامه اثنا عشر ألف مقاتل صرف لهم رواتب منتظمة .

ثم انتقل معاوية إلى خطوة متقدمة ، فقد نقل جماعة من أهالي بعلبك إلى قبرص مقابل رواتب مغرية ، وذلك درءاً لأخطار الروم المحتملة ، ولقد تباينت نظرة المسلمين إلى أهالي قبرص فمن المسلمين من ارتابوا فيهم ولا سيما بعد أن نقضوا شروط الصلح ، ففي إحدى المناقشات قال أحد المسلمين : ما وفى لنا أهل قبرص قط ، وقال آخر بضرورة إنزال أشد العقوبات بهم مستشهداً في ذلك بقوله ﷺ : « إنه من نقض عهداً فلا ذمة له » . غير أن معاوية لم يجنح إلى تلك الآراء العنيفة فقد كان يميل إلى سياسية اللين والمصانعة ، فتفادى الشدة التي عامل بها الروم أهل قبرص وقد وجد معاوية من يؤيده رأيه ويؤازره فقد قال أحد المسلمين : « أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم » .

وبتلك السياسة اطمأن أهل قبرص على أنفسهم وأموالهم ، ونتج عن هذه السياسة أن أصبح الأسطول الإسلامي غير مهدد من الروم ، بل إن الروم خشوا بأسه ، وقد تجلّى بأس الأسطول الإسلامي في موقعة « ذات الصواري » التي تقرر فيها بصفة نهائية مصير البحر الأبيض في هذه المعركة كانت دولة الروم هي البادئة بالعدوان والسبب هو الرغبة الجامحة التي زينت للإمبراطور الروماني أمنية القضاء على الأسطول الإسلامي الفتى يشجعه على هذا إيمانه بأن العناية الإلهية قد ادخرته دون غيره لإحياء الدولة الرومانية وبعث القوة الإمبراطورية فيها ، ويعود هذا الإيمان إلى أنه انتزع عرشه بعد فترة عصيبة من الهزائم ، فقد فقدت دولة الروم

أغنى أقاليمها في الشام ومصر ، وفي نفس الوقت فقدت أعظم جزرها قبرص وروودس ، يضاف إلى هذا الصراعات المحمومة التي نشبت بين أبناء البيت المالك في القسطنطينية تحركهم الأطماع والأحقاد ، في هذا المحيط المحموم تربي قنسطانز ونشأ وقد شارك في المؤمرات والدسائس حتى تمكن من الاستيلاء على العرش سنة ٦٤٢ م . وبفضل تلك النشأة الحرجة ، إن أجزى هذا التعبير ، تمكن قنسطانز من تدبير السياسة التي حافظت على وحدة بلاده ، والدفاع عنها . ولعله صادف بعض النجاح حين دمر بعض الطلائع البحرية الإسلامية التي هاجمت بلاده .

وقد وجد قنسطانز أنه من الضروري أن يقوى أسطوله وأن يصلح من شأن القواعد البحرية قى بلاده مما يعدها للمواجهة البحرية مع العدو المسلم ، ولما كانت دولة الروم تعتمد في الحصول على السفن والجند ، وكذلك أمراء البحار على آسيا الصغرى ، فإن قنسطانز رأى أن لابد من إشاعة الأمن في ذلك الإقليم بالقضاء على الفتن والصراعات التي عصفت به ، وما كان ذلك إلا لأن إقليم آسيا الصغرى هذا كان قبله ملجأً للثائرين على حكم الرومان وملجأً للطامعين في بلوغ قمة السلطة ولتحقيق تلك الآمال تمكن قنسطانز من أن يقضى على الخارجين على القانون ويعيد الأمن للبلاد ، وفي نفس الوقت ضمن لأسطوله مورده التقليدي من السفن والرجال . وبذلك شد من أسر قواته البحرية في شرق البحر المتوسط بحماية قواعد أسطوله .

وكانت بعض العناصر من السلاف المقيمة في بلاد اليونان قد شنت بعض الغارات على سواحل بحر إيجه فأثارت الذعر بين أهلها . غير أن قنسطانز أخضعها فعادت إلى سلطانه ، وبذلك أوجد قنسطانز ما يمكن تسميته بتعاون بحرى بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وبتلك الخطة أقام أسطولاً قوياً اتخذ عدته للعمل على طرد المسلمين من مياه البحر المتوسط وإعادة السيطرة الرومانية عليه . هنا أسرع قنسطانز بتوجيه أسطوله نحو هدفه حين بلغت مسامعه أن معاوية وإلى الشام قد جهز بالفعل حملة بحرية كبيرة لضرب القسطنطينية عاصمة الروم . فبذل



قنساظر غاية جهوده في تفادي ذلك الخطر المهدد لعاصمة ملكه قبل أن يدنو منه فاعتمد خطة للخروج إلى الشام ليهدم الأسطول الإسلامي وهو ما زال في قواعده .

وبناء على هذه الخطة فإن عملاء الروم بالشام عملوا على تعطيل الاستعدادات البحرية الإسلامية بقدر جهودهم ، فحدث في هذا الوقت أن اثنين من المسيحيين من مدينة طرابلس ومن عملاء الروم تمكنوا من فتح سجن المدينة الذي كان يضم عدداً كبيراً من أسرى الروم فأطلقا سراح الجميع ، ثم تكاتف العميلان ومعهم أسرى الروم فهاجموا دار الحاكم العربي بطرابلس ، وقتلوه ومن معه من أتباع ، ثم سرقوا جميع العدد والعتاد الذي بذل فيه معاوية جهداً كبيراً في جمعه وتوفيره ثم فروا إلى آسيا الصغرى ، ورغم أن وكلاء الروم نجحوا في تنفيذ خطتهم في طرابلس إلا أن الأسطول الإسلامي لم يمسه سوء ، فكان أن نظم معاوية قواته البحرية وحشدتها في الوقت الذي وصله فيه عدد كبير من السفن المصرية . وبناء على هذا المدد انطلق الأسطول المصري الشامي في البحر متجهاً إلى القسطنطينية حتى إذا ما بلغ ساحل ليكيا بآسيا الصغرى توقف عند فوينيكس إذ وصل إلى علمه أن الأسطول الرومي يقوده الإمبراطور نفسه يقترب منه .

وكانت استعدادات الأسطول الرومي تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن الإمبراطور يقصد إنهاء نفوذ البحرية الإسلامية في البحر المتوسط ، هذا في الوقت الذي دل فيه تواجد الأسطول الإسلامي في البحر على أنه أصبح حقيقة واقعة لا يمكن التقليل من شأنها ، هذا فضلاً عن التعاون البحري بين الشام ومصر قد بلغ أقصاه في فترة قصيرة جداً ، وعلينا أن نشير هنا إلى أن السفن المصرية التي وصلت مدداً إلى الشام كان يقودها والى مصر نفسه عبد الله بن أبي سرح ، فكان أن خلد إسم مصر في خدمة الإسلام ونصرة المسلمين في واحدة من المعارك الفاصلة في تاريخ البحر المتوسط .

أما قنسطانز إمبراطور الروم فإنه : « خرج في جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام » على حد تعبير المراجع الإسلامية ، فقد تكون الأسطول الرومي من

خمسمائة سفينة مزودة بآلات القتال ، وقد دهش المسلمون عندما وقعت أبصارهم عليها ، ولا سيما أولئك الذين دخلوا مع الروم في معارك بحرية من قبل يدل على ذلك ما قاله أحد المشتركين في الحملة : « فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط » وعندما التقى الجمعان كانت الرياح غير ملائمة للقتال فظل المسلمون والروم ينتظرون أن تنفجر هذه الحالة العاصفة في الصباح ، فكان المسلمون يصلون طوال الليل داعين الله أن ينصرهم ، أما الروم فإنهم قضوا الليالي بدق النواقيس ، حتى إذا ما أسفر الصباح دارت المعركة وقد اشترك الإمبراطور نفسه فكان يصدر من سفينة قيادته أوامره لقتال العرب وهو في نفس الوقت يتابع سير المعركة ، وبدأ المسلمون قتالهم باستخدام الأقواس والسهام ، وهنا أدرك قنسطانز تفوق جنده على المسلمين يجيدون استخدام سلاح النبال في البر فقط أما في البحر فسوف تنفذ ذخيرتهم سريعاً وهذا ما وقع فعلاً إذ اضطر المسلمون ، وقد نفذت رماحهم إلى استخدام الحجارة فقاذوا بها سفن العدو ، آنئذ تأكد قنسطانز أن النصر سيكون حليف أسطوله ، وأمام ذلك الموقف الحرج الذي واجهه المسلمون بعد أن نفذت ذخيرتهم من السهام والحجارة ، وأن العدو مازال بعيداً عن مرمى سفنهم وأنه يقصد إرهابهم بمراوغاته فإنه لم يجدوا بداً من ربط سفنهم بعضها ببعض ثم قذفوا خطاطيف في البحر جذبت إليهم سفن الروم . وهنا اصطنعوا من ظهور السفن التي تلاحمت مع بعضها ما هو أشبه بميادين البر ، ووقعت تلك الخطة على رأس قنسطانز كالصاعقة وأدرك لتوه فشل حملته ، وأصبحت هزيمة الروم في حكم اليقين عندما قذف المسلمون بسيوفهم وخنابجرهم إلى سفن الروم فقتلوا من جنودهم أعداداً كبيرة ، وقد وصف شاهد عيان هذه المعركة بقوله : « رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج وطرحت جثث الرجال ركاماً » .

والحق أن جند كل طرف بذلوا أكثر ما عندهم من البأس والشجاعة والتضحية

مما جعل المراجع الرومية وتنوه ببطولات هؤلاء الرجال وتشيد بهم .

ومن ضروب البطولة النادرة التي أبدتها المسلمون أن سفينة القيادة التي كان يستقلها والى مصر عبد الله بن أبي السرح تعرضت لهجوم رومي من مختلف الجهات ، ووسط هذه الفوضى البحرية المدبرة أمر قنسطانز جنده بقذف خطاف على سفينة أمير البحر العربي ، وأخذ الروم يجرون المركب العربي إليهم ، وأوشك الروم أن يفلحوا في عملهم لولا شجاعة أحد الجنود المسلمين واسمه علقمة الذي أحبط هذا العمل إذ رمى بنفسه على السلاسل التي كانت تجذب سفينة القيادة العربية وأخذ يقطعها رغم الضربات التي انهالت عليه من العدو ، ونجح علقمة في عمله وأنفذ سفينة القيادة من الوقوع في الأسر ، وقد شرف هذا الجندي بثناء زوجة أمير البحر وكان اسمها وكانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، ومن عجب المصادفات أن يتزوج علقمة من بعد وفاة زوجها .

وبعد أن أنقذ العرب سفينة قيادتهم فإنهم هجموا على الروم بعنف وقد تمكنوا من أن ينفذوا إلى السفينة التي كان الإمبراطور يقيم عليها وأخذوا يقتلون من عليها من الجند ، وكاد الإمبراطور نفسه يقع أسيراً في يد المسلمين لولا أنه تخفى في زى أحد ضاربي الطبول كان على سفينته ثم تمكن من الفرار من المعركة على مركب آخر اتجه إلى صقلية ، وبذلك الفرار يكون المسلمون قد دمروا « الأرمادا » الرومية وخرجوا بنصر مبين يقل نظيره ، وقد سميت تلك الموقعة « موقعة ذات الصواري » لكثرة السفن التي اشتركت في القتال ، وتعد هذه المعركة مناظرة للمعارك البحرية الكبرى في التاريخ مثل معركة أكتيوم سنة ٣١ ق . م ، ومعركة أبي قير بين الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون والأسطول الفرنسي سنة ١٧٩٨ م .

ومن النتائج التاريخية الهامة لمعركة ذات الصواري أن الإمبراطور قنسطانز أيقن - وكذلك من جاؤوا بعده من الأباطرة - أن قد أصبح للأسطول الإسلامي الكلمة العليا في البحر المتوسط ، وأن دولة الروم لم تعد تجرؤ على إخراج المسلمين من الأقاليم التي فتحوها على ساحل هذا البحر .



الحملة البحرية على القسطنطينية

بعد أن أصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة العالم الإسلامي وأصبحت دمشق عاصمته فإنه جد في تصفية الموقف المعلق بين دولة الإمبراطورية الرومانية وبينه ، فبعد أن تم النصر للمسلمين في موقعة ذات الصواري ورسخ التواجد العربى الإسلامى فى كل من الشام ومصر ، اتخذ النزاع بين المسلمين والبيزنطيين طابعاً جديداً ، ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية فقدت كل أمل لها فى استعادة سيطرتها القديمة على الشام ومصر ، ومما أرغمها على انتهاج سياسة جديدة تتفق مع الحال الذى أصبح فيه المسلمون أصحاب الكلمة العليا على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط ، وهذا ما حلا بمعاوية أن يؤكد السيادة على البحر المتوسط الشرقى ، وأن تكون هذه السياسة هى حجر الزاوية فى علاقته بالقسطنطينية التى طالما حاولت أن تحمى من التوسع البحرى للمسلمين .

وبدأ معاوية جهاده ضد البيزنطيين فأعد حملة قوية ضد عاصمتهم القسطنطينية ثم وجهها سنة ٤٩ هـ ، ٦٦٨ م ونصب عليها قائداً ابنه وولى عهده يزيد ، وكانت لمعاوية مآرب شتى من وراء أن يكون ابنه هو قائد الحملة ، منها إعطاء ابنه فرصة يرفع فيها من شأنه واسمه فى ميدان الجهاد ضد البيزنطيين ليبدد ما لحق ابنه من معابة فى شخصه لسلكه الخاص ، فقد أشيع عنه أنه ماجن خليع ، وأنه ليس أهلاً لتصريف شؤون المسلمين ، فلا ينبغى من ثم أن تؤخذ له البيعة ليكون هو خليفة المسلمين فيما بعد .

ومن هنا كان ميدان القسطنطينية هو المجال المثالى أو المحك الذى يثبت فيه يزيد جدارته ، ومكانته كقائد عسكرى شجاع مقدم ، هذا فضلاً عن أن معاوية أضفى على هذه الحملة طابعاً من الجلال الإسلامى ، بما يكسبها منحة من الجهاد المقدس ، فقد ضم إليه شخصية كبرى من أصحاب رسول الله ﷺ كان لها شأن كبير فى مناصرة الرسول ومؤازرته فى دعوته ، وإنه أبو أيوب الأنصارى الذى كان أول من استقبل الرسول فى بيته فى المدينة كما شرف بالقتال إلى جانبه فى غزوة



بدر ، وقد بعث ذلك الإجراء الحمية والروح المعنوية العالية فى نفوس جند الإسلام كما أنه أثبت فى أفئدتهم التفاؤل بالنصر .

وبعد الإعداد الجيد لهذه الحملة خرجت بقيادة يزيد بن معاوية إلى خلقدونيا التى كانت المقر القيادى للقوات الإسلامية والمركز الذى تدار منه دفعة الهجوم على القسطنطينية ، وعندما وصل يزيد إلى ضفاف البسفور انضم إلى قوات الطلائع الأموية ثم عبر المضيق إلى الشاطئ الأوروبى فكان بذلك الأسبق فى الوصول إلى الشاطئ الأوروبى ومشاهدة أسوار القسطنطينية ، وأخذ الجند يدقون الأسوار بآلاتهم ويبدلون غاية قوتهم فى تخريبها وفتح ثغرات فيها ، والحق أن يزيد أظهر من ضروب الشجاعة والفداء ما جعله يستحق لقب « فتى العرب » وقد سجلت المراجع العربية المختلفة سيرته وأعماله البطولية فى نضاله من أجل الإسلام ، ومن بين جهوده أنه عمل على ضم نفر من عرب الشام المسيحيين الذين كانوا يقيمون فى القسطنطينية بعد أن استولى المسلمون على بلادهم وكان معظمهم من الغساسنة الذين لجأ زعيمهم جبلة بن الأيهم إلى حماية البيزنطيين أيام عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وتعاطف الغساسنة مع العرب المسلمين فى حربهم مع البيزنطيين فأظهروا لهم تشجيعهم وتأييدهم ، ومما هو شارة على ذلك أنه بينما كان يزيد يحاصر القسطنطينية رأى قبتين عليهما ثياب من حرير ترتفع من واحدة منهما أصوات الدفوف والمزامير ، إذ حقق المسلمون انتصاراً وترتفع من القبة الثانية أصوات التهليل ، إذ حقق البيزنطيون نجاحاً وعندما استفسر يزيد عن السبب علم أن بالقبة الأولى ابنة جبلة بن الأيهم وبالأخرى ابنة إمبراطور البيزنطيين ، وكان لذلك أثر كبير فى نفس يزيد الذى بذله وسعه لإرضاء المناصرين من الغساسنة وليفوز بعدها بابنة جبلة بن الأيهم ، ولقد أبدى المسلمون فى هذا الحصار صبراً واحتمالاً فى سبيل تضيق الخناق على سكان العاصمة البيزنطيين ، وفى هذا الحصار استشهد كثير من المسلمين كان على رأسهم أبو أيوب الأنصارى الذى مات أثناء حصار القسطنطينية فدفن بالقرب منها ، ولقد أسفر ذلك الحصار عن نتائج

كبرى فى التاريخ الإسلامى ، فقد أصبح قبر أبى أيوب شاهداً يستحث عزائم المسلمين على معاودة الهجوم لإسقاط العاصمة البيزنطية ، كما حظى هذا القبر بإجلال المسيحيين اليونانيين المقيمين بالقرب منه على اعتبار أنه يجلب لهم الأمل ، ولذلك فإنهم طالما رمموا القبر وأصلحوه ، وعندما اكتشف الأتراك العثمانيون موضع القبر عند حصارهم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، فإنهم أقاموا بجواره مسجداً ، وهكذا أصبح هذا الصحابى الجليل ولياً عند المسلمين والمسيحيين الأتراك .

وما وافى صيف ٦٦٩ م حتى رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية بعد أن أعطوا الدليل للبيزنطيين على أن عاصمتهم ليست بمنأى عن القوة الإسلامية . وعادت الحملة الإسلامية إلى دمشق لتأخذ استعداداتها لشنّ الحصار على القسطنطينية مرة ثانية ، فإلى حرب السنوات السبع .

حرب السنوات السبع :

بذلت الإمبراطورية البيزنطية جهداً كبيراً لإعادة النظام إلى إدارتها ونظامها الحكومى ، وكان لأجل ذلك أنها عملت على تنظيم الأقاليم الحربية أى الموجهة لأطماع المسلمين . فى هذا الوقت صمم معاوية بن أبى سفيان على القيام بدفع حملة ثانية قادرة على تدمير القواعد التى يقوم عليها البناء العسكرى البيزنطى فقصده أولاً إلى ضرورة الاستيلاء على العاصمة بسرعة خاطفة وذلك قبل أن تتمكن من إنقاذ نفسها من الفوضى التى وقعت فيها ، والتى كانت تمثل فترة الانتقال من القوة والعظمة والتوسع إلى الفوضى والانطواء على صراعاتها الداخلية . ومن ثم فإن معاوية وقد جعلها فرصته المناسبة بعث إلى القسطنطينية سنة ٦٧٣ م ، يقودها عبد الله بن خالد مدعومة بأسطول بحرى ، وكان أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة كزيكوس (أرواد) فى مياه القسطنطينية ، واصطنعوها قاعدة لإدارة حملتهم على العاصمة فاشتغلت الأساطيل الإسلامية بنقل الجنود من

هذه الجزيرة إلى البر لتحاصر أسوار القسطنطينية في فصل الصيف، أما في الشتاء فإنها تعود إلى قاعدتها بجزيرة كزيكوس ثم تنتظر حتى تتحسن أحوال الجو لتعاود حصار المدينة في أوائل الربيع، وبسبب هذه الطريقة الذاتية أصلّت القوات الإسلامية القوات البيزنطية وسكان العاصمة عنتاً شديداً حتى إن الكثيرين ماتوا من شدة الجوع، وهكذا كانت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين قاصرة على فصلي الربيع والصيف واستمرت زهاء سبع سنوات على هذه الوتيرة.

ثم حدثت المفاجأة ذلك أنه في نهاية السنوات السبع وعندما أدرك معاوية أنه أشرف على الموت وأن سلامة الدولة الإسلامية تفرض سحب القوات المحاصرة للقسطنطينية لكي يتيح لابنه وولي عهده يزيد القوات اللازمة لدعم مركزه في الخلافة وكذلك سلطانه إزاء ذلك الموقف، فإن معاوية عقد معاهدة بينه وبين البيزنطيين على إثرها عادت القوات الإسلامية إلى دمشق.

ولقد ابتكر البيزنطيون سلاحاً جديداً استخدموه في حربهم البحرية مع المسلمين أطلق عليه « النار البحرية » فكيف طوره المسلمون لصالحهم؟

تذكر الحوليات البيزنطية والمراجع الأوربية أن العامل الرئيسي الفعال الذي أنقذ القسطنطينية من حصار المسلمين لها هو اختراع جديد توصل إليه العلماء البيزنطيون أثناء حصار السنوات السبع وقد عرف هذا السلاح باسم « النار البحرية » وإن كانت هناك عوامل أخرى أطالت من أمد هذا الحصار، منها أن المدينة كانت محصنة بفضل موقعها الجغرافي، وطبيعة التيارات المائية التي تحيط بجهااتها الساحلية، ولقد نالت قصة « النار البحرية » إعجاب الكثيرين من مؤرخي الدولة البيزنطية، وعلى شاكلة أي اختراع جديد فإنها أدهشت الأنظار التي رأتها أو سمعت عنها، ولعل ذلك يرجع فيما يرجع إلى أنها جاءت في وقت عصيب جداً ذاقت فيه دولة البيزنطية أشد أنواع الضنك والضراء مما حفز البيزنطيين على أن يرفعوا من شأن أي سلاح جديد يرفع عنهم بعض ما حاق بهم، ويرجع السبب

فى تسمية ذلك السلاح « بالنار البحرية » إلى أنها استخدمت ضد السفن فى البحر أو تطلق على الجند فى البر ، ولما لجأ المسلمون إلى الماء ليطفئوها فإنها لم تنطفئ بل على العكس زادت اشتعالاً ، وأيضاً سميت هذه النار « بالنار الإغريقية » نسبة إلى الإغريق وهم البيزنطيون ، وقد ظل البيزنطيون متكتمين لسرها وقتاً طويلاً أشرف على نهاية القرن العاشر الميلادى وكأنهم قد احتكروه لهم وحدهم ، غير أن العلماء المسلمين بفضل بحوثهم الكيميائية أدخلوا تعديلات وتحسينات على ذلك السلاح ما طوره إلى سلاح أشد فُتُكًا وأوسع تدميرًا من النار الإغريقية ، وقد اعتمد المسلمون على ذلك السلاح التَّارِيَّ الجديد فى الحروب الصليبية التى نشبت بين أوروبا والمسلمين على أرض الشام ، وهكذا أثبت المسلمون على أنهم قادرون على مواجهة أى سلاح جديد بما هو أشد منه .

نأتى بعد هذا إلى الحصار الثالث الذى ضربه المسلمون على القسطنطينية فالسياسة الأموية نحو القسطنطينية لم يصبها أى تغيير ، رغم أن الخلافة انتقلت من الفرع السفىانى إلى الفرع المروانى ، فكما أن معاوية بن أبى سفيان زعيم الفرع الأول ركز جهده فى توجيه قوى الدولة الإسلامية لضرب القسطنطينية فإن الخليفة عبد الملك بن مروان ثانى الفرع المروانى بعد أوله مروان بن الحكم فى البيت الأموى عبَّءَ المنهاج السياسى العسكرى لأبنائه من بعده على أن ينهضوا بحمل لواء الجهاد المقدس ضد العاصمة البيزنطية ، وحتى يبقى اسمهم خالدًا بخلود التاريخ الإسلامى ، ويرجع هذا الاطمئنان المستقبلى - إن أجزى هذا التعبير - إلى أن عبد الملك خلف لأبنائه دولة وطيدة الأركان يعمها النظام والاطمئنان ، كما أنه أجبج فى صدور أهلها حب الجهاد ضد أعداء الإسلام والأمل القريب فى إخضاع القسطنطينية وأباطرتها المصابين بنفخة الكبرياء الخرقاء التى تمقت الإسلام والمسلمين .

ثم كان الوليد بن عبد الملك الذى نهض بتبعة الجهاد مستنيراً بسياسة أبيه عبد الملك فتابع الفتوحات فى آسيا الصغرى ، وكان من سياسته القتالية الاستيلاء على

المواقع المهمة على طول الجبهة الرئيسية التي تفضى إلى القسطنطينية ، وإذا كان الوليد قد توفى أثناء المعارك إلا أن أخاه سليمان - وقد أصبح هو الخليفة من بعده - أعد العدة الكافية لضرب القسطنطينية ولا سيما بعد أن تواترت إليه الأنباء بأن فوضى الفساد قد عمت كل مرافقها ، فوجدها فرصته ، وهنا اتخذ من دابق بشمال الشام معسكراً شاملاً جعل منه القاعدة الرئيسية لإدارة القتال والإمداد بالرجال ، وقد أوقف سليمان نشاطه على التواجد فى ذلك المعسكر يشرف منه على كافة الاستعدادات والتجهيزات « وأعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم وإلى القسطنطينية » .

وتنفيذاً لهذا العهد فقد تحركت الجيوش الإسلامية فى سنة ٩٨ هـ ، ٧١٧ م ، متجهة إلى القسطنطينية يقودها مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة ، عندئذ وجه سليمان إلى أخيه أمراً : « أن يقيم عليها (أى على القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه أمره » . ثم بلغ مسلمة بنجيوشه براً وبحراً أسوار العاصمة البيزنطية ، وشرع بعدها فى وضع الخطط لإحكام حصاره لها ، فكانت مهمة قوات مسلمة محاصرة أسوار المدينة من الجانب البرى فى حين كانت مهمة سليمان أمير البحر المسلم سد المنافذ والمسالك المائية التى تتيح للعاصمة الحصول على الأمداد والمؤن ، وكذلك محاصرة الأسوار البحرية للمدينة ، فكان إن احتل الأسطول الإسلامى مدخل البسفور الجنوبى لمنع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة ، وبحر إيجه ، ووجدها أمير البحر سليمان فرصته حين هبت ريح جنوبية طيبة ، فأرسل بجزء من أسطوله ليحتل مدخل البسفور الشمالى لحرمان المدينة من أى مدد قد يأتيها من البحر الأسود ، وما كان هذا الإجراء إلا لأن الشواطئ الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تمد القسطنطينية بما تحتاجه من الغلال .

وتحركت السفن الإسلامية فى تُوْدَة رغم أنّ الرّيح كانت رُخَاء بسبب التيار المائى المتدفق بشدة من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، وعلى غير ارتقاب تغير اتجاه الرياح كما هو دأب الأحوال الجوية المضطربة فى تلك المنطقة

فكان أن تلاطمت السفن واختل توازنها في هذه المياه الإقليمية للقسطنطينية واهتبل البيزنطيون هذه الفرصة فأرسلوا سفنهم المحملة بالنار الإغريقية ليكبّدوا السفن الإسلامية صعوبات أشد ثم حاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً محكماً وإن ظلت جبهته المطلة على القرن الذهبي مفتوحة ، وبقي الحصار قائماً حتى أقبل فصل الشتاء ببرده القارس بالنسبة للمسلمين ، وإن كان مفيداً بالنسبة للمدينة إذ كان يعينها على إصالة مدة حصار عدوها لها فلعلة سيأس ويرجع ، ولقد تنبه أمير البحر سليمان لذلك فما كان منه إلا أن عمل بيوتاً من خشب وقضى الشتاء فيها ووزع الناس وأقام على القسطنطينية قاهراً لأهلها ومعه وجوه أهل الشام .

ولقد أثبت المسلمون بصمودهم طوال ذلك الشتاء القارس أنهم أولو بأس شديد وعزم لا ينال منه الحديد ، لأن عملهم جهاد في سبيل الله ورفع لراية الإسلام .

وأثناء ذلك الحصار الإسلامي المستميت لمدينة القسطنطينية توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك وأصبح عمر بن عبد العزيز هو الخليفة الجديد ، ولئن كان الخليفة سليمان بن عبد الملك يمثل قمة ازدهار الفتوحات الإسلامية لأنه بذل أقصى ما يمكنه في تزويد الجيوش الإسلامية أمام القسطنطينية بما يجعلها الكفة الراجحة في ميدان السيادة والقوة - إلا أن هذا الوضع قد تغير في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقد كان لا بد من توخي فترة هدوء واستقرار لتقوية ومساندة هذا البناء الحضاري الإسلامي العظيم الذي أصبح ولا يمكن لأحد أن ينكره أو يغض من شأنه ، وكيف ينكره أو يغض منه وهو يمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، ومن بحر آرال شمالاً إلى شلالات أعالي النيل جنوباً ؟ ولقد اقتضت تلك المكانة الحضارية والواقع التاريخي من تقديم أقصى ما استطاع من وسائل لتنظيم تلك الإمبراطورية وإشاعة الأمن والاستقرار بين ربوعها بما يكفل حمايتها ورخاءها وبما يكفل لها القدرة على مواصلة الفتوح فيما بعد .

لهذه الأسباب وما في حكمها أخذ الخليفة عمر بن عبد العزيز على عاتقه

إرساء تلك الأسس . ففي ١٥ أغسطس ٧١٨ م ، أى بعد حصار للقسطنطينية استمر سنة كاملة أرسل إلى مسلمة أمراً بضرورة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام بعد أن قدمت ما فيه إعزاز لدولة الإسلام ، وفي نفس الوقت أرغمت بيزنطة بأباطرتها وأمرائها وجيوشها عن التخلي تماماً عن كل ما قد يراودهم من أحلام فى استعادة ما أصبح أرضاً إسلامية ، وأكثر من هذا فقد أصبح التطلع إلى إسقاط الدولة البيزنطية وإزالتها من الوجود والاستيلاء على عاصمتها ، هو الأمل الذى يؤجج إرادة النضال فى نفوس الخلفاء المسلمين ، وإنه للأمل الذى تحقق على يد الأتراك العثمانيين أى بعد مضي ما يقرب من سبعة قرون على الحملة الأموية الكبرى التى كان قد أرسلها الخليفة سليمان بن عبد الملك .





فتوحات الميدان الشرقي

- ما وراء النهر (التركستان) .
- الهند (باكستان وبنجلاديش) .
- على حدود الصين .



فتوحات ما وراء النهر « التركستان »

نعود إلى الفتوحات الإسلامية الشرقية لنستكمل الجناح الشرقي لدولة الإسلام وقاعدتنا التي سوف تنطلق منها هي العراق ، فقد جعل الأمويون العراق المنطلق الحربي لفتوحاتهم التي كانت قد توقفت في أواخر خلافة عثمان بن عفان ، فمنذ أن أصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين فإنه أخذ يرسل جند الإسلام لنصر الإسلام في آفاق حضارية يقطنها الأتراك حيث بلاد ما وراء النهر « نهر جيحون » وكذلك إلى بلاد الهند صاحبة الحضارة العريقة الراسخة والتأثير الواسع في الفكر الإنساني ، غير أن الفتوحات أيام معاوية لم تكن قوية راسخة وذلك بسبب الصراعات التي نشبت بين الأمويين والمعارضين لهيمنتهم وسلطانهم ، ومن هنا فإن الفتوحات الشرقية المنظمة ولاسيما في الجهات الهامة من الميدان الشرقي لم تبدأ إلا حين أصبح الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق يحكمه ويصرف شؤونه في إطار السلطان الأموي .

نبدأ أولاً :

بفتح بلاد ما وراء النهر « التركستان » :

أصدر الحجاج بن يوسف الثقفي أمره إلى قتيبة بن مسلم الباهلي بفتح بلاد ما وراء النهر ، وكان قتيبة عاملاً على بلاد خراسان من قبل الحجاج ، وكانت تلك البلاد تعد القاعدة الرئيسية لفتح أواسط آسيا ، ولقد استهل قتيبة فتوحه بغزو أخرون وشومان فخطب الناس وحثهم على الجهاد وقال : « إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقمما الوقم : الذل » ووعده نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩] . ووعده المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الدُّخْرِ عنده ، فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا

يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٠ ، ١٢١] . ثم أخبر عن قتل في سبيل الله أنه حر مرزوق فقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر...

هذا هو الإسلام في رسالته وجهاده في سبيل الله ليهدى الناس إلى الإسلام ، ثم أخذ قتيبة يستعرض جنده ليطمئن على سلاحهم وكرامهم ونظامهم ، بعدها سار إلى الفتح وقد استخلف بمرور وعلى حربها أى على جيشها إياس بن عبد الله ابن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدى فلما وصل إلى مدينة الطالقان استقبله دهاقين بلخ ومجموعة من كبرائهم فلما اجتازوا النهر استقبله تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب وأسلم له بلاده ، وكذلك فعل ملك كفتان ، ثم واصل قتيبة مسيرته إلى (أخرون وشومان) ففتحهما ثم صالح أميرها غشتاسبان على فدية دفعها ، بعدها انصرف قتيبة إلى مرو وقد استخلف على الجيش أخاه صالح بن مسلم الذى فتح مدينة باسار وكان معه نصر بن سيار الذى أبلى معه بلاء كبيراً ، بعدها خف قتيبة لمحاربة أهل بلخ.

وفى سنة سبع وثمانين من الهجرة ، كان أمير طرخان واسمه نيزك يحتجز عنده بعضاً من أسرى المسلمين ، فأرسل إليه قتيبة يطلب منه إطلاق سراحهم ، فخافه نيزك فأطلق سراحهم وبعث بهم إلى قتيبة ، وما كان من قتيبة إلا أن وجه إليه سُلَيْمًا الناصح مولى عبيد الله بن أبى بكره يعرض عليه الصلح وأن يؤمنه وكتب إليه كتاباً يحلف فيه بالله « لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك » ، فذهب سليم إلى نيزك بكتاب قتيبة - وكان يستنصحه - فقال له : « يا سليم ما أظن عند صاحبك خيراً ، كتب إلى كتاباً لم يكتب إلا مثلى » قال له سليم : « يا أبا الهياج ، إن هذا رجل شديد

فى سلطانه سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك
 مما أحسن حالك عنده وعند جميع مُضَرَّ ! « ووافق نيزك سليم على كتاب قتيبة
 فتم كتاب الصلح ونشر الإسلام فى باذغيش .

فى هذه السنة نفسها غزا قتيبة بيكند ، فانطلق من مرو إلى مرو الروذ
 فاستولى عليها ومنها ، إلى أمل التى دانت له عبر النهر إلى بيكند ، فاستنصر
 أهل بيكند بالصغد وتحالف الجميع ثم استطاعوا قطع الطريق على قتيبة ، فأشفق
 الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى
 الأمصار وهم يقتتلون ، وأمام هذا المأزق وبسرعة خاطفة نظم قتيبة صفوف قواته ،
 وهجم بها وهو يحض أهل الرايات على الاستماتة فى الجهاد ، ثم التقى الخصمان
 بالسيوف واستمر القتال حتى زوال الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتاف المشركين
 فانهمزوا يريدون المدينة ، وأتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ففرقوا وركبهم
 المسلمون قتلاً وأسراً ، ثم طلب أهل بيكند الصلح فأبى ابن قتيبة لغدرهم
 بعهودهم ثم قاتلهم حتى ظفر بالمدينة عنوة ، وكان مما ظفر به الكثير جداً من آنية
 من الذهب والفضة عادت بخيرها على المسلمين ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقد
 أصبح فى ثراء مكنه- من شراء ما يلزم جيشه من السلاح والخيل والدواب ، وقد
 قال الكميت الشاعر :

ويوم بيكند لا تُحصى عجائبه وما بخاراء مما أخطأ العدد

وكان الذى غنمه قتيبة الكثير من السلاح وقد وزعه على جنده بأمر الحجاج
 ثم أخذ عدتهم وأهبتهم لقتال جديد ، فلما كانت أيام الربيع ندب قتيبة الناس
 وقال : «إنى أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى
 الإدفاء» ثم صار فى تمام التسليح حتى وصل إلى مدينة أمل ثم عبر النهر إلى
 نومشكت ، وهى من مدن بخارى وكان ذلك فى سنة ثمان وثمانين هجرية ،
 وخشى أهلها مصائب القتال فصالحه أهلها ثم صار إلى مدينة مئينه فصالح أهلها ،
 ولقد تمكن الترك من جمع فلولهم يعاونهم السغد وأهل فرغانه فوقفوا فى طريق

المسلمين حتى كادوا يتغلبون عليهم ولكن المسلمين صمدوا واستماتوا عندما تحرك فيهم قتيبة بقواته يؤازرهم حتى تمكنوا من هزيمة الترك ، وعاد قتيبة منتصراً ومعه نيزك .

وفى سنة تسع وثمانين من الهجرة غزا قتيبة بخارى ففتح رامشينة ثم رجع فى طريق بلخ فعندما وصل الفارياب جاءته رسالة من الحجاج أن « رد وردان خذاه » وهو ملك بخارى ولكن وقعت بعض المناوشات ولم يستمر فيها قتيبة إذ أنه اتخذ طريقاً آخر فما كان من الحجاج إلا أن عاتبه وفتح بخارى وكان مما قاله له : « وإياك والتحويض (كثرة المراجعة) ودعنى من بينات الطريق (أى سلك الطريق الذى لا تعريج فيه) » فكان أن خرج قتيبة إلى بخارى سنة تسعين ، فاستنصر وردان ملك بخارى السغد والترك ومن يحيطون بهم ويكرهون المسلمين فلبوا مسرعين ، غير أن قتيبة كان قد سبقهم إليها فحاصر بخارى قبل أن يصلها المدد فلما جاء المدد خرج جند بخارى - ومعه المدد - للقتال ، وبعد مداورات قتالية شديدة كُتب النصر للمسلمين وعاد قتيبة إلى مرو ، وقد حدث أن قتيبة عندما أوقع الهزيمة بأهل بخارى فإن طرخون ملك السغد خشى على مصيره فطلب الصلح وتم بينه وبين قتيبة .

ومن الغريب أن نيزك الذى كان حليفاً لقتيبة وساعده على التحركات العسكرية حسد قتيبة على فتوحه وأضمر الغدر ، وكان مما قاله لأصحابه وخاصته : « متهم أنا مع هذا ولست آمنه ، وذلك أن العربى بمنزلة الكلب إذا ضربته نبج وإذا أطعمته بصبص ، واتبعك ، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئاً رضى ونسى ما صنعت به ، وقد قاتله طرخون مراراً فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر فلو استأذنت ورجعت كان الرأى » .

وبمثل هذه الروح الخبيثة الماكرة جاء غدر نيزك وكان مصيره القتل على مشهد من الجند وأمراء الرايات ، وعندما عاد قتيبة إلى مرو بعد قتل نيزك خاف ملك إقليم الجوزجان على حياته فطلب من قتيبة الأمان فأمنه شريطة أن يأتيه فيصالحه

فما كان من ملك الجوزجان إلا أن طلب رهائن متبادلة فأعطى قتيبة حبيب بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلي وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته فخلف ملك الجوزجان حبيباً في أحد حصونه ثم جاء إلى قتيبة فصالحه ، وفي رحلة عودته مات بالطالقان ، فما كان من أهل الجوزجان إلا أن سموا حبيباً ، وفي المقابل قتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده . وفي هذا الحادث قال نهار بن توسعة لقتيبة :

أراك في الأتراك حكماً كحكّم في قريظة والنضير
قضاء من قتيبة غير جـور به يشفى الغليل من الصدور
فإن ير نيزك خزيّاً وذلاً فكم في الحرب حمق من أمير

وقال المغيرة بن حبناء يمدح قتيبة ويذكر قتل نيزك ووصول ابن أخي نيزك عثمان أو سُقران :

لمن الديار عفت بسفح سنام إلا بقية أنصر وتُمام
عصفت الرياح ذيولها فمحوها وجرين فوق عرصها بتمام
دار لجرارية كأن رضا بها مسك يُشاب مزاجه بمُدام
أبلغ أبا حفص قتيبة مدحتي واقرأ عليه تحيتي وسلامي
يا سيف أبلغها فإن ثناءها حسن وإنك شاهد لمقامي
يسمو فتتضعُ الرجال إذا سما لقتيبة الحامي حمى الإسلام
لأغر منتجب لكل عزيمة بحر يباح به العدو لهام
يمضي إذا هاب الجبان وأحمشت حرب تسعّر نارها بضرام
تُرى القناة مع اللواء أمامه تحت اللوامع والنحور دوام
وإلهام تفرية السيوف كأنه بالقاع حين تراه قيض نعام

وترى الجيادَ مع الحياتِ ضوامراً بفنائِه لحواذِثِ الأيامِ
 وبهن أنزل نيزكاً من شاهق والكرز حين يروم كل مرام
 وأخاه شقراً سقيت بكأسه وسقيت كأسهما أخوا باذام
 وتركت صولاً حين صال مجدلاً يركبُه بدوابر وحوام

وتواصل الفتوح فعندما عمد قيسبشتان ملك شومان إلى طرد عامل قتيبة
 وامتنع عن دفع الفدية التي تصالح عليها مع قتيبة ، فإن قتيبة غضب لنقض
 الاتفاق وأرسل أحد عيونه إليه يراجعُه في تصرفه ، فقال : « ما تخوفني به من
 قتيبة وأنا أمنع الملوك حصناً أرمى أعلاه ، وأنا أشد الناس قوساً وأشد الناس رمياً
 فلا تبلغ نشابتي نصف حصني فما أخاف من قتيبة » فاتجه قتيبة من بلخ إلى
 شومان وقد تحصن بقلعته فرماه بالمجانيق فتهشم جزء من الحصن ، ولما خاف ملك
 شومان من المصير ، بل أيقن منه فإنه جمع ماله وجواهره ورماه في عين وسط
 القلعة ، ثم فتح أبواب القلعة وقاتل حتى قتل . بذلك استولى قتيبة عنوة على
 القلعة ، ثم انتقل بعدها إلى كش حيث صالح ملكها طرخون على الجزية ، فقال
 لسُغْد لطرخون: إنك رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير فلا حاجة
 لنا بك، قال : « فولوا من أحببتهم » فولوا غوزك وحبسوا طرخون ، ثم قال :
 « ليس بعد سلب الملك إلا القتل فيكون ذلك بيدي أحب إلي من أن يليه مني
 غيري » فاتكأ على سيفه حتى خرج من ظهره لكن الدائرة لم تلبث أن دارت على
 خصومه فاستسلموا ودفعوا الجزية .

وفي سنة اثنتين وتسعين فتح قتيبة سجستان وصالح ملكها ثم ولى عليها عبد
 ربه بن عبد الله بن عمير الليثي .

ثم نأى إلى فتح عظيم من فتوح قتيبة ، ألا وأنه فتح سمرقند ، فقد وقع أنه

عندما اقترب المسلمون من مدينة سمرقند فإن السغد هجموا على المسلمين فكرّ المسلمون عليهم حتى ردوهم إلى عسكرهم بعد أن قتلوا منهم عدداً كبيراً ، آنذاك تمكن المسلمون بقيادة قتيبة من اقتحام سمرقند ثم صالح ملكها غوزك ، وهنا ردد قتيبة قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ [النجم: ٥١] ولما حقق قتيبة ذلك النصر المين وقف على جبل سمرقند وتمثل بقول الشاعر طرفة بن العبد :

وأرتع أقوام ولولا محلنا بمخشية ردوا الجمال فقوضوا

ثم ارتحل إلى مرو بعد أن استخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وقد أعانه بجند كثيف وآلات كثيرة للحرب ، وكان قتيبة قد استولى على خوارزم ومن بعدها نيسابور وأخذ الجزية بل أخذ ما هو أكرم وأعظم فقد انتشر الإسلام بسرعة مذهلة في أرجاء تلك الأقاليم حتى صار جندها عماد جيش قتيبة .

وفي سنة ٩٤ هـ ، فتح قتيبة الشاش وفرغانة ، وفي هذه الغزوة أشرك ما يقرب من عشرين ألف رجل من المسلمين الجدد الذين تحمسوا لنشر الإسلام بأن وجههم تحت رئاسة أمرائهم إلى الشاش وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى حُجَندة وكانت من المدن المهمة ، وقال الشاعر سحبان وائل يزكى قتال المسلمين بخنجة :

فسل الفوارس في حنجة تحث مرهفة العوالى
 هل كنت أجمعهم إذا هزموا وأقدم في قتالى
 أم كنت أضربُ هامة السد عاتى وأصبر للعوالى
 هذا وأنت قريع قيد س كلها ضخم النوال
 وفصلت قيساً في الندى وأبوك في الحجج الخوالى
 ولقد تبين عدلُ حكيمك فيهم في كل قال

تمت مروءتكم ونا غى عزكم غلب الجبال

ثم عاد لغزو الشاش ، وكان الحجاج قد أمده بجيش كبير من العراق لمواصلة الفتوح وبينما كان قتيبة فى الشاش - أو كُشْمَاهَنَ - أتاه موت الحجاج فكر راجعاً إلى مرو ، وقد تمثل بقول الشاعر :

لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أعلقته الحبال

فإن تحيا لا أملل حياتى وإن تمت فما فى حياتى بعد موتك طائل

ثم أتاه كتاب الوليد بن عبد الملك وقد جاء فيه : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وصبرك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذى يجب لك فالمر مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى أنظر إلى بلادك والذى أنت به »

هذه الرسالة أثرت فى نفس قتيبة فزادت طموحاته فقام بفتح كاشغر كما غزا الصين وكان ذلك سنة ست تسعين من الهجرة ، فلما من الله على المسلمين بفتح كاشغر توغل قتيبة فى الغزو حتى اقترب جداً من الصين ، فلما علم ملك الصين باقترابه منه كتب إليه يقول : « ابعث إلينا رجلاً من أشرف من معكم يخبرنا عنكم ونسأله عن دينكم » فأرسل إليه قتيبة وفداً ترأسه هبيرة بن الشمرج ، وعندما التقى الوفد بالملك هدد الملك بالقتل ، فقال له هبيرة : « أما تخويفك لنا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلنا نكرهه ولا نخافه » بعد هذا تصالح ملك الصين مع قتيبة على الجزية وفق شروطه ، وفى هذا قال سودة بن عبد الله السلولى :

لا عيب فى الوفد الذين بعثتهم للصين إن سلكوا طريق المنتهج

كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج

لم يرض غير الختم فى أعناقهم ورهائن دُفِعَتْ بحمل سمرج



أدى رسالتك التي استرعيتَه وأتاك من حنث اليمن بمخرج
وفى هذا المقام كم تغنى الشعراء وكم تباهاوا بفتوح قتيبة ، فقال الكميت
يزكى غزو السغد وحوارزم :

وبعد في غزوة كانت مباركة تردى زراعة أقوام وتحتصد
نالت غمامتها فيلا بوابلها والسغد حين دنا شؤبوبها التبرد
إذ لا يزال نهب ينقله ينقله من المقاسم لا وخش ولا نكد
تلك الفتوح التي تدل بحجتها على الخليفة إنا معشر حُشدُ
لم تثن وجهك عن قوم غزوتهم حتى يقال لهم : بُعداً وقد بعدوا
لم ترض من حصنهم إن كان ممتنعاً حتى يكبر فيه الواحد الصمد
وأخيراً جاء مصرع قتيبة الذي جاوز كل تصور فما كان إلا بسبب صراعات
داخلية بين أمراء البيت الأموي على من هو أحق بالخلافة ، ولقد قال عبد الرحمن
ابن جمانة الباهلي في قتيبة معدداً مناقبه التي يفخر بها الإسلام ويعتز المسلمون :

ألم يأن للناس أن يعرفوا لنا
بلى نحن أولى الناس بالمجد والفخر
نقود تميماً والموالى ومدحجاً
وأزد وعبد القيس والحى من بكر
نقتل من شئنا بعزة ملكنا
ونُجبرُ من شئنا على الخسف والقسر
سليمان كم من عسكر قد حوت لكم
أستتنا والمقرباتُ بنا تجرى

وكم من حصون قد أبحنا منيعة
 ومن بلد سهل ومن جبل وعر
 ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا
 غزونا نقود الخيل شهراً إلى شهر
 مُرَّن على الغزو الجرور ووقرت
 على النفر حتى ما تهال من النفر
 وحتى - لون أن النار شُبَّتْ وأكْرِهَتْ
 على النار خاضت في الوغل لهبَ الجمر
 تلاعب أطراف الأسنة والقنا
 بلباتها والموت في لجج خضر
 بهن أبحنا كل أهل مدينة
 من الشرك حتى جاوزت مطلع الفجر
 ولو لم تُعجلنا المنايا لجاوزت
 بنا رَدَمَ ذى القرنين ذا الصخر والقطر
 ولكن آجالاً قضين ومدة
 تناهى إليها الطيبون بنو عمرو

ويشهد تاريخ الحضارة الإسلامية على أن الفتوح التي امتد بها قتيبة بن مسلم في التركستان حتى وصل إلى حدود الصين وراسل ملوكها وتعاهد معهم كانت ذات شأن بعيد المدى في انتشار الإسلام عقيدة وشريعة وفكراً. وتواصل إنسانياً مع الشعوب التي دخلت الإسلام في منطقة أواسط آسيا وشمالها ، ونوه هنا بأن

مسجد قتيبة الذي أسسه في بخارى كان مناراً شاهقاً من منارات الإسلام التي ذاع صيتها في الخافقين .

فتح الهند

نتجه بالفتوح الإسلامية نحو الهند وبالذات نحو إقليم السند الذي أضاءه نور الإسلام ونشأت به شعوب إسلامية كانت نعم العون للعقيدة والشريعة والإنسان .

و حين نهج الخطوات الأولى للفتح فإننا نجد أن التفكير في فتح الهند كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ولي عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان سنة ٢٥ هـ ، ٦٣٦ م ، وما كان من عثمان إلا أن وجه إلى أخاه الحكم بن أبي العاص الثقفي إلى البحرين ، أما هو فإن مضى إلى عمان ثم بعث بجيش إلى تانة (١) فلما عاد الجيش كتب إلى عمر بن الخطاب ينبئه بذلك ، فكان أن كتب إليه عمر : « يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود وإني أحلف بالله لو أصيبوا لآخذن من قومك مثلهم » بعدها وجه عثمان أخاه الحكم إلى بروص ، كما وجه أخاه المغيرة إلى خور الديبل (٢) ، ومعنى هذا أن عثمان بن أبي العاص كان أول من حاول فتح السند « أي شمال الهند » ثم استمرت الغزوات إلى السند إلى عهد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أتم فتح السند ، ولقد كانت غزوات الفتوح في مستهلها تتخذ شكل قوات قليلة غايتها استطلاع الطريق في مواقعه وموانعه تمهيداً لخطة الفتح الشامل فيما بعد ، وما كان ذلك بطبيعة الحال إلا خشية عثمان من عمر بن الخطاب إلا يوافق على الفتح هذا فضلاً عن شأن آخر لم يكن ليغيب عن عمر ، وهو أن الفتوح الإسلامية قد توسعت توسعاً هائلاً لا يتفق مع المجازفة بفتوحات جديدة . ومن هنا عمل عمر على كبح جماح طموحات قادة المسلمين ولا سيما وأن السفن التي كان يزج بها في الحرب البحرية كانت في مستهلها سفناً تجارية غير مهيئة لأعمال القتال .

(١) تانة : مدينة تقع شمال مدينة بومباي الهندية .

(٢) الديبل : مدينة على شط ماء السند وهي على ساحل البحر .

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فإن عين عبد الله بن عامر ابن كُرَيْزٍ واليًّا على العراق ، ثم كلفه أن يوجه إلى ثغر الهند من يأتيه بتقرير عن الهند يتضمن أحواله الاجتماعية وقوته العسكرية والطرق إليه وكان رسوله حكيم ابن جبلة العبدى فلما عاد ذلك الرسول ذلك الرسول بعثه إلى عثمان بن عفان . فلما سأله الخليفة عن أحوال تلك البلاد قال له : « يا أمير المؤمنين قد عرفتُها وتنخرتها » قال : « فصفها لى » قال : « ماؤها وشل (قليل) وثرها دقل (الدقل أردأ التمر) ، ولصها بطل ، وإن قل الجيش فيها ضاعوا وإن كثروا جاعوا » فقال له عثمان : « أخابر أم ساجع ؟ ! » فقال : « بل خابر » فلم يُغزها أحد .

ويبدو أن حكيم بن جبلة نزل بأحد الموانى البحرية التى تقوم حياتها وشؤونها على التجارة فجاء بهذا الوصف العام وكان الأجدد أن تكون سياحته كشفية واسعة حين يكون تقريره شافيًا نافعًا للهدف المقصود .

حتى إذا ما كنا فى أواخر سنة ثمانين من الهجرة ٦٥٨ م ، وأول سنة تسع وثلاثين للهجرة ٦٥٩ م ، وكانت خلافة على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فإن الحارث بن مرة العبدى تطوع للذهاب إلى الهند بعد أن أذن له على فإنه حقق فى الجهة التى ذهب إليها نصرًا سريعًا غنم وسبى الكثير غير أنه بوغت بهجوم خاطف من الهنود الذين جاؤوا من أرض القيقان فقتلوا وهو معظم من معه . وكان ذلك فى سنة اثنين وأربعين من الهجرة ٦٦٢ م ثم نشطت حملة استطلاعية أخرى تكونت من قوة خفيفة تعتمد على نفسها قادها الحارث ومن تحمل إليها من رجال قبيلته ، وقد حققت هذه الحملة انتصارًا حسنًا غير أن الهنود سرعان ما قضوا عليها لقلّة عددها ولأنها بعدت كثيرًا عن مواقعها الأصلية وهى قواعد إمدادها بالرجال والسلاح .

فإذا كنا فى أيام معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وأربعين من الهجرة ٦٦٤ م قام المهلب بن أبى صفرة بغزو الهند . وكان وقتها على البصرة عبد الله بن عامر فتوحه المهلب إلى بَنَّةِ « مدينة بكابل » ولا هور « من ولايات الهند جنوبى

كشمير» وهما بين الملتان « مدينة بنواحي الهند قرب غزنة » وكابل ، فاصطدم بالهنود فأنزل بهم المهلب خسائر جساماً ، وفي هذا قال أحد الأزديين :

ألم تر أن الأزد ليلة بيتوا بينة كانوا خير جيش المهلب

وقد اتخذ المهلب في حملته هذا الطريق الرئيسي الذي يربط بين أفغانستان والهند عبر مضيق خيبر وهو الطريق الذي سلكه الإسكندر ، كما أنه الطريق الرئيسي الذي يربط بين أفغانستان وإيران والهند ، ويمكن القول أن المهلب كان الممهد الأول لفتح الهند فكانت حملته نعم الحملة الاستطلاعية .

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن سوار ثغر الهند فغزا القيقان فغنم منها الكثير ، ثم سار إلى معاوية وأهداه خيلاً قيقانية وظل عنده وقتاً ثم عاد إلى القيقان ، فلما استثار الترك تمكنوا منه وقتلوه ، وقال فيه الشاعر :

وابن سوار على عداته موقد النار وقتال السَّغْب

وكان كريماً جواداً لم يوقد أحد ناراً غير ناره في عسكره مما يدل على سخائه وحبه لإقراء الضيوف وإيوائهم نيابة عن رجال عسكره ، ولم يعد عبد الله بن سوار يهتم بالمناطق الشمالية ، وكانت حملة ابن سوار استطلاعية كذلك ، وقد قتل في حملته تلك لاندفاعه في العمق كما لم تكن معه قوة كافية هذا فضلاً عن بعده عن قواعده الرئيسية ، وبعدها ولي زياد بن أبي سفيان - وكان والياً على العراق من قبل معاوية - سنان بن سلمة المحبب الهذلي ثغر الهند . وكان إنساناً فاضلاً تقياً وهو من أحلف الجند بالطلاق ، فجاء الثغر وفتح مكران وحقق بها الأمن المنظم ، ومن المعلوم أن مكران في يد عمر بن الخطاب على يد الحكم بن عُمير التغلبي ، ولكنها عادت فتألبت فأعاد سنان فتحها ، ومن المعروف أن مكران تتاخم الهند فهي من ثم ولاية واسعة تقع بين كرمان من الغرب وسجستان من الشمال والبحر من الجنوب ، وإذا كانت عمان والبحرين قواعد لانطلاق الحملات البحرية لغزو الهند ، فإن مكران كانت قاعدة انطلاق الحملات البرية ، وذلك

بالنسبة للطريق الساحلى ، كما كانت مكران وكابل لانطلاق الحملات البرية الغازية للهند التى تقتفى مضيق خيبر وتؤدى إلى شمال الهند ، ومن هنا اكتسبت مكران أهمية حربية عظيمة بالنسبة للحملات البرية التى تقتفى الطريق البرى الساحلى ، فكأن السيطرة على مكران ضرورياً لمن أراد فتح الهند .

ثم ولى زياد بن أبى سفيان على ثغر الهند راشد بن عمرو الجديدى ، من الأزد فجاء إلى مكران ومنها غزا القيقان فانتصر غير أنه قتل فى غزوة أخرى ، وقد تزعم الناس بعد مقتل راشد فى حملته سنان بن سلمة ، فلما تولى ثغر الهند ظل به ما يقرب من سنتين ولما كان رجلاً مسلماً فإنه اكتفى بالدفاع فكان أن اشتدت مقاومة الهنود للمسلمين . وبعد أن ولى زياد عباد بن زياد ثغر الهند فخرج من سجستان وأتى سنارود « اسم لنهر فى سجستان » ثم ذهب إلى بئر كَهَزْ ثم توجه إلى الروذ بار « عدة مواضع » من أرض سجستان وبعدها إلى الهندمند « اسم لنهر مدينة سجستان » وهنا نزل كِش « مدينة تقارب سمرقند » ثم قطع الصحراء حتى بلغ القندهار « مدينة من بلاد الهند » فهاجم أهلها وأنزل بهم الهزائم وتم فتحها بعد أن استشهد الكثيرون من رجاله .

ثم تولى ثغر الهند من قبل زياد المنذر بن الجارود العبدى ، ويكنى أبا الأشعث فغزا البوقان « مدينة بالسند » والقيقان فانتصر المسلمون وغنموا الكثير ثم عمل على بث سراياه فى بلادهم ، كما نجح فى فتح مدينة قُصْدَار « مدينة كبيرة فى السند » ولئن كان سنان فتحها من قبل إلا أنها عادت فانشقت ، ولكنها رضخت ، ثم مات بها المنذر ، فقال الشاعر :

حل بقُصْدَار فأضحى بها فى القبر لم يقفل مع القافلين

لله قصْدَار وأعناؤها أى فتى دنيا أجنت ودين

وبعدها ولى عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان الذى أصبح والياً على العراق بعد أبيه زياد بن أبى سفيان ثغر الهند حَرَى الباهلى فتمكن من فتح تلك البلاد بعد

قتال شديد وقد غنم الكثير من وراء الانتصار ، وفيه قال الشاعر :

لولا طعاني بالبوقان ما رجعت منه سرايا بن حري بأسلاب

وكان ميدان القتال الذي حقق فيه حري انتصاره البوقان والقيقان هو نفس ميدان من سبقه .

فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي العراق بدأ عمله في الهند بأن ولى عليها سعيد بن زرعة الكلابي ، غير أن محمداً ومعاوية ابني الحارث العلافيين خرجا عليه فقتلاه ، وأصبح العلافيان هما أميرا أثغر الهند ، غير أن الحجاج عاد فولى مُجاعة بن سَعْر التميمي ثغر الهند فجد في الغزو ، فحقق نصراً وفتح مناطق من قنڊاويل «مدينة كبيرة بالسند» غير أنه مات بعد سنة بمكران ، وقال فيه الشاعر :

ما من مشاهدك التي شاهدت ألا يُزينك ذكرها مُجاعا

وبعد مُجاعة عين الحجاج محمد بن هارون بن ذراع النهري ، وما كان من ملك جزيرة الياقوت « سيلان » إلا أن أهدى إلى الحجاج نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات أبائهن وكانوا تجاراً ، فأراد التقرب بهن فعرض للسفينة التي كن فيها من ميد « الديبل » في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن ، وكانت من بني يربوع : « يا حجاج » وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : « يا لبيك » فأرسل إلى داهر ملك السند يسأله تخلية النسوة فقال : « إنما أخذهم لصوص لا أقدر عليهم » فأغزى الحجاج عبید الله بن نبهان الديبل فقتل ، وبعدها كلف بُديل بن طَهْفَةَ البجلي وكان والياً على عمان أن يسير إلى الديبل وعندما واجه العدو قتله زُطُّ البُدْهَة « الزط جنس هندي متدني القيمة الاجتماعية » والبدهة جهة بالسند فقتلوه هو الآخر ؛ هناك أدرك الحجاج أن المسلمين أصبحوا في موقف مهين ولهذا خطورته على هيبة المسلمين ومسيرة الفتوح ، ولهذا فإنه أخذ يقنع الخليفة الوليد ابن عبد الملك بأن يقوم المسلمون بفتح السند فاقنع وسمح له أن يعد ما يحتاج إليه هذا العمل الكبير . فكان أن عين الحجاج ابن أخيه محمد بن

القاسم الثقفى على ثغر الهند بعد أن أعاده من الرى ، وقد أمده بجيش قوامه ستة آلاف من جند الشام وغيرهم من العراق ، كما أعد له وزوده بكل ما هو بحاجة إليه حتى الخيوط والإبر ، ثم أمره أن يقيم بشيراز حتى يكتمل للجنود أسلحتهم وأدواتهم ، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنُقِع بالخل الحاذق ثم جفف فى الظل فقال للجنود : «إذا صرتم إلى السند ، فإن الخل بها ضيق ، فانقعوا هذا القطن فى الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا » .

ثم سار محمد إلى مكران فظل بها أياماً ثم خرج منها قاصداً الديبل فى اثنى عشر ألف جندي من الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير عليها أمتعتهم ، أما العتاد الحربى فإن محمد بن هارن والى مكران هو الذى قام بتجهيزه ، ثم اتخذ محمد ابن القاسم طريقه بحراً وكان أن التقى الجيش بسفنه خارج مدينة الديبل فى ربيع الأول من سنة تسع وثمانين من الهجرة ، ٧٠٧ م ، وقد انضم إلى جيش المسلمين عند الديبل أعداد كبيرة من الميد والزط وهم من القبائل السندية التى فر كثير من أهلها مهاجرين لشدة ما كانوا يقاسونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية فهم من المنبوذين الذين يحرم عليهم ركوب الدواب ولبس الملابس الفاخرة كما كانوا لا يشتغلون إلا بالحرف الحقيمة .

وقد انتفع المسلمون بانضمام الميد والزط إليهم لأنهم فوق شجاعتهم وقوة احتمالهم كانوا أصحاب خبرة بمسالك السند ودروبها وطباع أهلها وأساليبهم فى الحرب والنزال ، وتوجه الجيش الإسلامى نحو الديبل فاتحاً فكان أول فتح مدينة فنزبور ، ومدينة أرمائيل ثم قصد الديبل وكانت قريبة من مدينة كراچى الحالية ، فحدد للجنود مواقعهم وحفر لهم خنادقهم ثم نصب منجنيقاً ضخماً كان يسمى «العروس» وكان يقوم بتشغيله خمسمائة من الرجال لهم خبرتهم وصنعتهم وتدريبهم العالى ، فأطلق المنجنيق قذائفه التى حطمت معبد البُد ، وهو من أكبر معابد الهنادكة ، وكان يضم الكثير من الأصنام يسمى كل واحد منها بُد ، ثم قام



محمد بن القاسم بمهاجمة الديبل فقاتل المدافعين عنها عندما خرجوا إليه ولكنه ردّهم فردهم إلى المدينة ثانية ثم أمر بالسلام فنصبت على أسوارها وارتقاها الرجال ، وكان أول من صعد رجل من بنى مراد من أهل الكوفة ففتحت المدينة عنوة وقد هرب منها عامل الملك السندی «داهر» فأنزل بها محمد أربعة آلاف جندي وبنى بها مسجداً فكان أول مسجد أقيم في هذه الجهة .

ثم غادر محمد الديبل إلى النيرون التي تعرف باسم : « نيرانكوت » «وموقعها حيدر آباد السند» الحالية وكان أهلها قد سالموا الحجاج فصالحوه ولقوا محمدًا بالعلوفة ورحبوا به في مدينتهم ووفوا بالصلح وكان أن دخلوا في دين الله أفواجًا .

ومن نيرون سار محمد في طريقه فكانت المدن تتساقط في يده الواحدة تلو الأخرى ، ثم عبر نهر السند فجاءه أهل مدينة سربيدس مصالحين ومسالين فرحب ثم فرض عليهم الخراج ، ثم غادرهم بعدها إلى سبهان ففتحها ، واتجه بعدها إلى نهر السند ، فنزل بجواره آنئذ اتخذ داهر ملك السند عدته للدفاع عن بقائه ، وهنا كان محمد بن القاسم قد أقام جسراً على نهر السند فعبره والتقى بداهر وجيشه ، والتحم الجيشان فكان القتال بغير نظير في ضراوته ووجد داهر نفسه مرغماً عن النزول عن فيله ليقاتل وظل في مصاولته حتى لقي مصرعه عند المساء ، فتراجع جيشه وحاقت به الهزيمة النكراء ، وبمقتل داهر تغلب محمد على الكثير من بلاد السند ، ففتح روار عنوة وكانت من المدن السندية الكبيرة ، ثم اتجه نحو الشمال الشرقي حتى وصل إلى مدينة برهمن آباد وكانت على بعد فرسخين من مدينة المنصورة ، وكان الذين فروا عن داهر هم الذين يدافعون عنها ففتحها محمد عنوة بعد أن قُتل من جندها خلق كثير .

ثم قصد محمد مدينتي الرور وبغورور فطلبوا منه الأمان فأمنه ، وبعدها عبر المسلمون نهر بياس وهو من روافد نهر السند ، إلى الملتان أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه فصمدت عدة شهور لحصار المسلمين حتى نفذت مؤنة



جندها وأكلوا حميرهم ، ثم جاء إلى المسلمين رجل دلهم على مصدر الماء الذي يشرب منه السكان فقطعوه عنهم ، وصمد الهنود في قتالهم الذي استمر سبعة أيام ثم خارت آمالهم فتسور المسلمون الأسوار وتمكنوا من فتح الملتان التي كان آخر حصون السند الكبرى ، وكان من العظيم حقاً أن أقبل على محمد بن القاسم كبار رجال المدينة وأصحاب الحول وعدد كبير من سكان الأقاليم الكبيرة من رجال الميد والزط الذين وطئهم البراهمة وبغوا عليهم وذلك لما بلغهم عن تسامح القائد العربي المسلم فأعلنوا ولاءهم فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

ومات الحجاج بن يوسف الثقفي والى العراقيين سنة ٩٥ هـ ، ٧١٣ م ، فما كان من محمد بن القاسم إلا أن رجع من المكران إلى الرور والبغور ، وكان قد فتحهما فأعطى الناس أمانهم وما يطمئنون به على حياتهم ، ثم وجه جيشاً إلى البيلمان وهي جزء من أرض السند ففتحها صلحاً ، كما سألهم أهل سُرْسُنْت وهي مغزى أهل البصرة وأصل أهلها من الميد الذين يعملون في البحر ، وأتى محمد الكيرج « مدينة بومباي الحالية » وكانت مقدسة عند أهلها فتصدى له الملك ، وكان ذا شأن كبير ، فقاتل محمداً غير أنه تحت ضغط الجيش الإسلامي اضطر إلى الفرار فصالح محمد أهل المدينة وأمنهم .

وبينما كان محمد يحقق نصراً بعد نصر ويجهز قواته ومعداته ليفتح مملكة قَنُوج أعظم إمارات الهند شيئاً واتساعاً إذا كانت تمتد من السند إلى البنغال فإنه مهد لمشروعه هذا بأن أرسل وفداً إلى ملكها يعرض عليه الإسلام أو الجزية غير أن الملك لم يكن موفقاً في رده ، فأهان الوفد مما حفز محمداً على فتح قَنُوج فأعد جيشاً قوامه عشرة آلاف فارس ، وفي الوقت الذي تأهب فيه للانطلاق إلى فتحه الجديد بلغه خبر خليفته الوليد بن عبد الملك بن مروان وكان حاميه وسنده هو وعمه الحجاج بن يوسف الثقفي ، ثم تولى الخلافة من بعده سليمان بن عبد الملك عدو الحجاج وأسرته ، وكان أمراً طبيعياً أن يعزل عن السند محمد بن القاسم الثقفي ويحل محله يزيد بن أبي كبشة السكسكى . غير أن يزيداً هذا لم يطل به

العمر إذا مات بعد وصوله بثمانية عشر يوماً فولى سليمان مكانه محمد بن المهلب ابن أبي صفرة ، وبسبب هذه الأزمة اضطربت أحوال السند فانتزها سنك بن داهر فهاجم مدينة برهمن آباد واستولى عليها وعجز حبيب بن المهلب أن يستردها منه ، ثم مات سليمان بن عبد الملك ، فخلف عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه . وقد استهل عمر حكمه بأن كتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة والدخول في ملكه عل أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأسرع سنك بن داهر وكثيرون غيره من ملوك الهند بالدخول في الإسلام ، واتخاذ أسماء عربية .

ولقد ولي عمر بن عبد العزيز عمرو بن مسلم الباهلي أخا قتيبة بن مسلم الباهلي ثغر الهند فحقق بعض الانتصارات ، في هذه الفترة حاول بعض المهالبة الذين لجؤوا إلى السند في أيام يزيد بن عبد الملك أن يسيطروا نفوذهم على ما فتحه المسلمون في الهند ، وبذلك ينشئون لأنفسهم دولة أموية خاصة فما كان من يزيد إلا أن وجه إليهم هلال بن أحوز التميمي فصادمهم في مواقعهم ، وقتل منهم مدرك بن المهلب بقنداويل وقتل المفضل وعبد الملك وزياد مروان ومعاوية بنى المهلب . ثم صارت السند لعهد هشام بن عبد الملك إلى الجنيد بن عبد الرحمن المري ، فجاء الجنيد إلى الديبل ، ثم نزل شط مهران فما كان من جاي سنك إلا أن منعه من العبور وبعث إليه رسالة قال فيها : « إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح عمر ابن عبد العزيز بلادى ولست آمنك » فتجنى الجنيد عليه وحاربه وانتصر عليه واسترد منه برهمن آباد ثم قتل ابن داهر غدرًا .

وبعد الجنيد تولى تميم بن زياد العتبي شأن السند ولكنه كان ضعيفًا مترددًا فأضاع بضعفه وتردده ما جاهد من أجله رجال الفتوح ، ثم تولى السند الحكم بن عوانة الكلبي وقد صحبه عمرو بن محمد الثقفي ، وعملا كل ما يقدران عليه لإشاعة الأمن والعدل ، وقد أنشئت في عهدهما مدينتنا المحفوظة والمنصورة: على شاطئ بالقرب من برهمن آباد غير أن الحكم قتل ، فأصبح عمرو بن محمد

القاسم هو الحاكم فسار على هدى أبيه محمد بن القاسم ، فعامل الهنادكة معاملة طيبة كما نشر العدل والأمن ، وبعد عمرو تولى يزيد بن غرار السند غير أن جمهور بن منصور الكلبى خرج على سلطانه الخلافة الأموية فاعتصب الإمارة سنة ١٣٠ هـ ، ٧٤٧ م ، غير أنها لم تدم له طويلاً .

وبعد أن قضى العباسيون على الخلافة الأموية أسند السفاح ، أول خلفائهم ، إلى نصيره أبي مسلم الخراسانى الإشراف على الأقاليم الإسلامية ، فكلف عبد الرحمن بن أبي مسلم العبدى بأمر السند ولكنه أخفق فى القضاء على واليها جمهور بن منصور الكلبى ، ولاقى مصرعه على يده . ثم خلفه موسى بن كعب التميمى الذى طار كالثائر حتى أهلكه بالصحراء عطشاً .

على هذا التواتر التاريخى جاء فتح المسلمين للهند وقد أبلوا بلاء عظيمًا ، وبفضل الإسلام انتشر الخير وعم العدل بل فرح الهنود بالإسلام فدخلوه مطمئنين إلى بره ورحمته وإخائه ، ولا يفوتنا ونحن فى هذا المقام إلا أن نقول إن قادة الفتوح كانوا على مستوى الرسالة التى بعثوا من أجلها من حيث الحنكة العسكرية والقدرة القتالية التى تنزهت عن التشفى ، وكان من بينهم من تميز بخصائص العبقرية العسكرية نذكر من هؤلاء فاتح السند وحامل لواء الإسلام فيها محمد بن القاسم الثقفى ولا نجد أفضل مما سجله اللواء الركن محمود شيت خطاب فى تصوير هذه الشخصية العسكرية الفذة فقد قال : « كانت قيادة محمد تميز (١) بالجرأة والمجازفة فقد أقدم على التغلغل فى مجاهل السند غير هيب ولا وجل ، فكان لجرأته النادرة أثرها فى جنوده فأقدم بعضهم على مجازفات بالغة الخطورة كما فعل المرادى من أهل الكوفة فى إقدامه على تسلق السلالم المقامة على أسوار الديبل فأشرف على قمة الأسوار ، فتابعه إخوانه مرددين النداء الخالد : الله أكبر .

(١) كتاب : « قادة فتح السند وأفغانستان » تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب ص (٢٢٥) .



الله أكبر . وكانت خطط محمد تتميز بالمرونة ، يسهل تحويلها عندما تتبدل المواقف ، وكمثال واقعى على مرونة خطته ، الخطة التى قاد بها معركة الديبل ، فقد عاجلت تلك الخطة ثلاثة احتمالات : محاصرة المدينة فقط حتى تنفذ ذخيرتها وأرزاقها فتضطر على التسليم ، وقبول المعركة خارج الأسوار إذا حاول العدو الخروج من المدينة ، وقبول المعركة داخل الأسوار بمحاولة نصب السلاالم وتسلقها وفتح الأبواب عنوة كما حدث فعلاً فى معركة الديبل .

وكانت قيادة محمد متميزة : يدير العمليات بكفاية وسيطر على المعركة عند الاشتباك ويعد الخطط المرنة الدقيقة ، ويصدر القرارات السريعة الصائبة ، وينتهز الفرص لإنزال الضربة القاضية بالعدو ، ويستفيد من الإمكانيات المتوفرة كافة ، ويستعمل الخدع والتضليل فى إيهاام الخضم ، وتلك هى أهم ما تتميز به القيادة الفذة .

وكان بالإضافة إلى ذلك يتبع سياسة حكيمة فى معاملة البلاد المفتوحة ، فقد اعتنق قسم من الهنود قبل محمد بن القاسم الإسلام على أيدي قسم من التجار المسلمين ، فوجدوه دين عدل ومساواة وسلام وتوحيد على عكس ما كانوا عليه من التفرقة ونظام الطبقات والعبودية . وقد طبق الفاتحون تعاليم الدين الإسلامى الحنيف على البلاد التى فتحوها ، فكانت خير دعاية لهم فى حسن المعاملة ونشر العدل والمساواة بين الناس . وكان محمد بالذات يحرص كل الحرص على تطبيق المثل العليا للإسلام نصاً وروحاً على أهل البلاد المفتوحة مما أدى إلى ازدياد عدد جنوده من الهنود المسلمين أنفسهم الذين أسلموا رغبة فى سماحة هذا الدين فعاونوا العرب المسلمين فى كثير من الأحيان معاونة حاسمة لإحراز النصر .

هذه العبقرية العسكرية التى تولت الفتح منذ شبابها الباكر استحوذت على إعجاب وتقدير كل من عرفها أو قرأ سيرتها فنالت حسن الثناء وحسن التعظيم .

قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم :

ساس الجيوش لسبعة عشرة حجة ولداته عن ذلك فى أشغال

فغدت بهم أهواؤهم وسمت به همم الملوك وسورة الأبطال

وقال فيه حمزة بن بيض الحنفى يرثيه :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبعة عشر حجة يا قرب ذلك سوّدا من مولد

ولكن النكبة السياسية لحقته نتيجة للتأمر على منصب الخلافة فزج به من

أتونها بغير ما ذنب أو جريرة ، فبكى نفسه وهو مقيد إلى العراق فقال :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كرهية وسداد ثغر

وكان يهتف فى أعماق سجنه وفى ظلمته وكأنه يذكر الباغين عليه بفضلته

عليهم فيقول :

أتنى بنو مروان سمعى وطاعتى وإنى على ما فاتنى لصبور

فتحت لهم ما بين سابور بالقنا إلى الهند منهم زاحف ومغير

فتحت لهم ما بين جرجان بالقنا إلى الصين ألقى مرة وأغير

وما وطئت خيل السكاسك عسكرى ولا كان من عك على أمير

وكانت خاتمة ذلك الفاتح العظيم أن مات فى سجنه من التعذيب .

فتح أفغانستان

تقع أفغانستان في قلب آسيا في منطقة بعيدة عن البحر وهي تشكل القسم الشرقي من هضبة إيران « فارس » ، وتغلب الصفة الجبلية على سطحها .
ولما كانت حدود أفغانستان هي حدود إيران فقد انطلقت منها الفتوح الإسلامية لفتح أفغانستان .

وبدأت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، فلما كان قد عقد سبعة ألوية لسبعة قادة عهد إليهم بفتح المناطق الخاضعة للحكم الساساني « الفارسي » فإنه كان بين هذه الجيوش جيشان توجهتا نحو أفغانستان وكان الجيش الأول تحت قيادة الأحنف بن قيس التميمي ووجهته خراسان ، والجيش الثاني تحت قيادة عاصم بن عاصم التميمي ووجهته سجستان ، أما خراسان ففتحها الأحنف وهي تقع بين هضبة إيران وسفوح جبال هندكوس وتلال « بلاد ما وراء النهر » وهي الآن تدخل ثلاث دول : أفغانستان ومن مدنها هراة وبلخ ، وإيران ومن مدنها نيسابور ، وتركستان التي كانت تخضع لروسيا ومن مدنها مرو الشاهقان وكانت عاصمة خراسان كلها في زمن الأحنف ، ومن المعلوم أن الأحنف شهد فتح نهاوند مع أهل البصرة الذين جاؤوا مدداً للفتح وكان يقودهم أبو موسى الأشعري ، فلما أن فتح نهاوند انصرف عنها أبو موسى إلى « قم » ثم وجه الأحنف إلى قاشان ففتحها عنوة ، ثم صار الأحنف يعد قواته ويجهز بما هي بحاجة إليه حتى إذا أكملها على خير ما يكون فإنه سار بها لفتح خراسان وكان ذلك في سنة ١٨ هـ ، ٦٣٩ م فدخلها من جهة الطَّبَسِين « مدينتين » ، ففتح عاصمتها « هراة » وبعدها أمر عليها من ينوب عنه ، ثم اتخذ طريقه إلى مرو الشاهجان ، ولما أحس الملك الفارسي يزدجرد بالخطر المقبل عليه وكان وقتها في مرو الروذ ، فإنه استنجد بخاقان ملك الترك وملك الصغد وملك الصين ليساعده على صد المسلمين ، تريت الأحنف بعد أن كان خرج من مرو الشاهجان حتى وصلته إمدادات الكوفة فاتخذ الطريق إلى مرو الروذ خلف مدد الكوفة الذي كان

متجهاً إلى بلخ ، وعندما تصادم أهل الكوفة بيزدجرد في بلخ فإنهم أنزلوا به هزيمة شديدة حتى إذا ما لحقهم الأحنف كان الله قد نصر المسلمين ففتحوا بلخ ، ولم يتوان أهل خراسان ممن خرج منها أو تحصن فيما بين نيسابور إلى طخارستان - ممن كان في مملكة كسرى - لم يتوانوا عن طلب الصلح فصالحهم ثم أسلموا .

وعندما توجه الأحنف غزوه بالفتح فإنه كتب إلى عمر بن الخطاب بفتح خراسان وهنا قال عمر عن ابن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه » غير أن عمر قال : « لوددت أني لم أكن بعثت إلى خراسان جنداً ، لوددت لو أنه كان بيننا وبينها بحر من نار » ذلك لأنه كان يخشى أن يغرى النصر الأحنف إلى التقدم إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق كما خشى أن تستبد الحماسة بجيش المسلمين فينطلق شرقاً ، لهذين السببين فإنه كتب إلى الأحنف يقول : « أما بعد فلا تجز النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأى شيء دخلتم على خراسان فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر وإياكم أن تعبروا فتنفضوا » .

ولقد كان عمر مصيباً في حذره هذا ذلك لأن الفتوح الإسلامية قد ازدادت رقعتها إلى حد كبير إذ أنها ضمت أرض فارس كلها فضلاً عن أن خطوط المواصلات قد طالت وتشعبت ، علاوة على توزع قوات المسلمين بين الشام ومصر، والعراق وفارس ، ومما يشهد على بعد نظر عمر بن الخطاب أنه عندما سار خاقان ملك الترك في جنده يصحبه بيزدجرد وعبر النهر إلى بلخ فإنهما أرغما جيش الكوفة على التراجع عنها إلى مرو الروذ وكان الأحنف قد خرج ليلاً من المدينة وعسكر خارجها ، وعند الصباح جمع الأحنف جنده وقال لهم : « إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولنكم ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ارتحلوا عن مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد » .

وكانت قوات الأحنف تقدر بعشرين ألفاً : عشرة آلاف من الكوفة وعشرة



آلاف من أهل البصرة .

وتقدم الترك نحو جيش المسلمين وقد قام منهم عدد قليل بعمليات استدرجية أو مناوشات يفعلونها نهاراً ويتوقفون عنها ليلاً ، عند ذلك خرج الأحنف على رأس رجاله مقترباً من معسكر خاقان الترك . فلما أصبح خرج فارس من الترك وضرب بطبله فهاجمه الأحنف فتبادلا طعنتين ففاجأه الأحنف بطعنة أردته وهو يقول :

إن على كل رئيس حقاً أن يخصب الصَّعْدَةَ (١) أو تندقا

إن لنا شيخاً ملقى سيف أبي حفص الذي تَبَقَّى

ثم خرج إليه فارس تركي ثان ، فوجه إليه الأحنف طعنه نجلاء فقضت عليه فقال مرتجياً :

إن الرئيس يرتبى ويطلع ويمنع الخلاء أما أربعوا

ثم فارس ثالث وبطعنة خاطفة أورده الأحنف حتفه ، وقال وهو يرتجى :

جری الشموس (٢) ناجزاً بناجز محتفلاً بجزية مشارز (٣)

بعدها استدار الأحنف إلى عسكره مهياً رجاله للقتال ، غير أن الترك فضلوا أن يعودوا إلى بلادهم لأن بقاءهم قد طال بغير فائدة ترجى فضلاً عن الخسائر البشرية التي تكبدوها . هذا فضلاً عن أن الأمل في النصر كان ضئيلاً وكذلك لاعتقادهم بأن المسلمين لن يعبروا إليهم النهر لأن الخليفة قد أمرهم بعدم العبور وحدث أنه عندما انسحب جند الكوفة من بلخ ، وانضموا إلى الأحنف « بمرور

(١) الصَّعْدَةُ : الرمح ، ملقى : طريق ويقصد به الشهيد ، يرتبى : يصعد الراية ، الخلاء :

جمع خلى ، رُبِعَ بالمكان : أقام .

(٢) الشموس : الفرس تمنع ظهرها .

(٣) مشارز : الشدة والصعوبة والقوة .

الروذ» فإن يزيدجر تمكن من أن يفصل بقوة فارسية من بلخ إلى مرو الشاهجان وتمكن من محاصرة المسلمين في هذا الموقع ليستخلص خزائنه من أماكنها وذلك بغاية أن يلحق بخاقان الترك عندما علم يانسحاب الترك من فارس كلها والعودة إلى بلادها وعندما وصل الأمر إلى هذا الوضع قال أهل فارس لملكهم يزيدجر : «أى شيء تريد أن تصنع ؟» فقال : «أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين» فقالوا : «مهلاً فإن هذا رأى سوء ، فإنك إنما تأتي قومًا في مملكتهم ، وتضع أرضك وقومك ، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا وإن عدوا يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدونا يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما وفاؤهم» فلما أبى عليهم رأيهم قالوا له : «فدع خزائنا نردها إلى بلادنا ومن يلينا ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها» غير أن يزيدجر تمسك برأيه ، فعادوا إليه وقتلوه ومن انتصر بهم وأخذوا منه الخزائن ، فاضطر إلى الفرار إلى بلخ ، وكان خاقان قد سبقه إلى الانسحاب منها فواصل فراره حتى وصل إلى فرغانة عاصمة الترك ، عنئذ قال المسلمون للأحنف : «ما ترى في أبنائهم ؟» فقال : أقيموا بمكانكم ودعوهم .

وهنا استرضى أهل فارس الأحنف فصالحوه وعاهدوه وسلموا إليه خزائن كسرى وأمواله ، وبعدها سار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأقاموا بها أما هو فإنه عاد إلى مقر قيادته في مرو الروذ ، بعد أن استخلف طخارستان بعد أن فتحها عنوة ، وقد كتب إلى عمر بن الخطاب يبشر بفتح أفغانستان باعثةً إليه بالأخماس فجمع عمر المسلمين فقرأ عليهم الفتح ثم قال في خطبته لهم : «ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبنائهم لينظر كيف تعملون والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا على أمره على رجل يعرف لكم بعهدته ويؤتكم وعده ولا تبدلوا ولا تتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم فإنني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم» .

وهكذا جاء فتح الأحنف لخراسان بشارة بزواله دولة الأكاسرة من بني ساسان وأن ترفرف عليها دولة الإسلام .

نأتى بعد هذا إلى فتح ساجستان فقد حمل لواءه عاصم بن عمرو التميمي وكان جيشه مؤلفاً من أهل البصرة وبجيش من أهل الكوفة . وبعد أن أتم عاصم تجهيز قواته واطمأن على تعبئتها انطلق بها نحو ساجستان وهي أعظم من خراسان وأوسع أرضاً ليقاتل من بها من أهل القندهار والترك وغيرهم ، واندفع عاصم بقواته نحو جيش سجستان الذي كان موجوداً على حدود بلاده غير أنه لم يثبت أمام هجوم المسلمين إذ سرعان ما انسحب إلى زرنج عاصمة ولاية سجستان فحاصره عاصم كما أنه بث كتائب في المنطقة كلها لتخضع جيوبها العسكرية . ولما أيقن شعب ساجستان أن لا طاقة له على احتمال الحرب وما تسببه من ويلات فإن جنح إلى الصلح شريطة أن تكون مزارع سجستان حمى لا يقربه المسلمون . وتم الصلح ، وبذلك أصبح ساجستان دولة مسلمة .

غير أن فتح أفغانستان بأقاليمها أصيب بما يشبه التمرد من جانب بعض الجيوب العسكرية الأفغانية . فبعد مقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه فإن من أهل خراسان من نقض وغدر ، وهنا فإن عبد الله بن عامر بعد أن استعاد فتح فارس فإنه غزا خاسان بجيش أمر عليه الأحنف بن قيس التميمي فوقف الجيش أمام الطبيين وهما حصنا وبابا خراسان فصالح أهلها على الإسلام . ثم تقدم نحو مهستان فأوقع الهزيمة بالفرس وفتح المدينة عنوة ، ثم توالت الفتوح : فقد بعث عبد الله بن عامر يزيد الجرشي أبا سالم بن يزيد إلى رستاق « زام من نيسابور » ففتحه عنوة ، وأيضاً تمكن بسهولة من فتح باخرز من أعمال نيسابور ، كما فتح جوين من أعمال نيسابور ، أما ابن عامر فإنه فتح بُشت من نيسابور ، بعدها جاء إلى أبرشهر وهي مدينة بيسابور فضرب عليها الحصار ، وكانت المدينة مقسمة إلى أربع مناطق وكان على قسم من يقوم عليه ويرعاه ، فتقدم صاحب منطقة بطلب الصلح على أن يدخل المسلمون المدينة بغير قتال فأجيب إلى طلبه

فدخلها المسلمون ليلاً . إلا أن مرزبانها الأكبر كان قد تحصن بأحد الحصون وطلب الأمان لمدينة نيسابور بأسرها فأجيب إلى ما أراد وفتحت المدينة أبوابها للمسلمين .

وفى نفس الوقت كان ابن عامر قد سير جيشاً إلى نسا ، وأبيورد ، فجاء فتحهما صلحاً . ثم سير فرقة صغيرة إلى سرخس فقاتل أهلها الذين أنقذوا أنفسهم بطلب الصلح والأمان ، ثم سعى مرزبان طوس إلى ابن عامر لطلب الصلح فصالحه على طوس ، بعدها سير ابن عامر جيشاً إلى هراة ، ولم يكد مرزبانها يسمع بتقدمه حتى إنه هرع إلى ابن عامر طالباً الصلح على هراة ، وباذغيس ، وبشنج .

نأتى بعد هذا إلى الأحنف بن قيس فإن ابن عامر قد وجهه إلى طخارستان فتم الصلح مع أهل رستاق بعد حصار لم يدم طويلاً ، أما مرو الروذ فإنه استعادها صلحاً بغير قتال ، ثم التقى الأحنف بأهل طخارستان وقد جمعوا لهم حلفاً تألف من أهل الجوزجان والطاقان ، والفارياب ، ومن تشيع لهم لكن الهزيمة القاسية كانت من نصيب ذلك الحلف ، ثم فتح الأحنف الطالقان صلحاً وبعدها توجه إلى بلخ فصالحه أهلها .

وكل تلك الفتوح أو عمليات الاستعادة تمت سنة ٣١ هـ ، ٦٥١ م ، فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ثم قام الجيش الإسلامى الفاتح بعمليات استعادة أخرى : ومنها استعادة فتح سجستان . فلقد فتحت سجستان فى أيام عمر بن الخطاب لكن أهلها نقضوا عهد الصلح ولذلك فإنه عندما توجه ابن عامر إلى خراسان فإنه سير إلى سجستان من كرمان جيشاً يقوده الربيع بن زياد الحارثى فقطع صحراءها حتى وصل إلى حصن زالق فأغار على أهله فى يوم مهرجان أحد أعياد الفرس فوق دهبانها أسيراً فافتدى نفسه ثم أتى بلدة كركوية فطلب أهلها الصلح فصالحهم ، وواصل سيره إلى زرنج فحاصر مدينة هيسون فصالح أهلها على غير قتال ، ثم عبر نهر هندمند

ثم نزل وادياً يُقال له : نُوق حتى بلغ مدينة دوشت فتصدى له أهلها وقتلوه بشراسة ووقع من جند المسلمين شهداء غير أن المسلمين كروا عليهم وأرغموهم على الدخول فى المدينة وما زالوا بهم حتى أرغموهم على الاستسلام وطلب الصلح وبعدها توجه الربيع إلى ناشروذ ناحية بسجستان فقاتل أهلها وانتصر عليهم، ثم واصل شرواذ بسجستان ، فتمكن منها وسبى ومنها خرج إلى زرنج ، فحُرب عليها الحصار وبعد قتال شديد طلب أبرويز مرزبانها الصلح والأمان فأجيب إلى ما طلب .

وسار الربيع من زرنج إلى نهر سناروز ، وهو نهر سجستان فعبره حتى أتى بلدة قرنين فاشتد أهلها فى حربه وفى النهاية انتصر عليهم ، وبعدها رجع الربيع إلى زرنج ، ومما يذكر أنه بعد أن صار معاوية بن أبى سفيان هو الخليفة ، فإنه عزل عبد الرحمن بن سمرّة عن سجستان وولاهها الربيع بن زياد الحارثى ، وكان ذلك فى سنة ٤١ هـ ، ٦٦١ م ، فتمكن من إخضاعها ولما أن صار زياد بن أبى سفيان والياً على الكوفة والبصرة ، فإنه عزل الربيع عن سجستان ووجه إلى خراسان أميراً سنة ٥١ هـ ، ٦٧٧ م ، ومعه خمسون ألفاً بأسراهم وعيالهم حيث أسكنهم دون النهر « نهر جيحون » فى خراسان ، وعندما تقدم نحو بلخ ، تمكن من فتحها صلحاً وكانت قد أغلقت أبوابها ، بعد أن عقد أهلها صلحاً مع الأحنف بن قيس التميمى ، أما قهستان ، فإن الربيع فتحها عنوة بعد أن قتل الكثير من أتراكها .

وعلى هذا النسق القتالى المتتابع تمكن الربيع من فتح سجستان وخراسان .

ومما يلاحظ على معارك الفتوح التى قام بها الجيش الإسلامى لفتح الهند والسند وأفغانستان وفارس وغيرها من الأقطار الشرقية أنه كان يستعاد فتح تلك الأقطار بمدنها وقراها فما هو السر فى إعادة الفتح وهو مكلف بغير شك ؟

هل السبب أن شعوب تلك البلاد على اختلاف حظوظها من الرقى الحضارى لم تكن مستجيبة عاطفة وإحساساً وعقلاً متفتحاً للإسلام فكان أن تمردت وانقلبت

على فاتها ؟ لا ، ليس الأمر كذلك إنما كانت استجابتهم للإسلام عن وعى عميق وإدراك صادق الإيمان ، ولكن هناك عدة أسباب فى استعادة الفتح :

أولاً : الطبيعة الجبلية لتلك البلاد فقد كانت جبالها وعرة صعبة المسالك . كما أن أنهارها كانت كثيرة ومتشعبة ومقاطعة ، فهى من ثم تكلف الكثير من المشاق فى عبورها واجتيازها .

ثانياً : كانت مدن تلك البلاد مقامة على شكل هندسى جعلها صعبة الاقتحام ؛ وذلك لأنها كانت محاطة بالكثير من القلاع والحصون والسراديب .

ثالثاً : أنه بدون شك كانت جيوش تلك البلاد تفوق فى أعدادها وعددها ما تملكه الجيوش الفاتحة .

رابعاً : أن قادة الفتوح الإسلامية فضلاً عن جندها كانوا يسيرون فى فتوحهم على هدى من شريعة الإسلام التى تحرم سفك الدماء للإبادة والإفناء والتخلص من الخصم إنما هى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة أى بالتراحم الإنسانى الذى لا يفرق بين الناس بسبب ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم الاجتماعية ، وهنا ما نجده واقعاً تاريخياً إذ كانت الشعوب هى التى تطلب الصلح والأمان من الفاتحين ، وكذلك مما يؤيد هذا الواقع التاريخى أن الآلاف من رجال تلك البلاد كانت تدخل فى الإسلام عن حب و يقين ثم تنخرط فى صفوف المسلمين لتدافع عن الإسلام وتنشر الإسلام .

خامساً : أن الكثيرين من حكام تلك البلاد كانوا يتشبثون بسلطانهم استعلاء على من دونهم وتمسكاً بعقائد وثنية رثة فليس بها أدنى نفع للإنسان فى حاضره ومستقبله .

فتح بلاد المغرب

لقد بذل الأمويون جهدهم لانتزاع مصر من عامل عبد الله بن الزبير ، إذ بادر الخليفة عبد الملك بن مروان قبل أن يقضى على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق بأن أوكل إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بضرورة إعداد جيوش في مصر وكان ذلك في سنة ٦٩ هـ ، ٦٨٨ م ، لانتزاع الأراضي المغربية من البيزنطيين وحليفهم « كسيلة » . وتقدمت الجيوش الإسلامية نحو هدفها يقودها زهير بن قيس البلوى ، وذلك لخبرته السابقة بالميدان الإفريقي . وهنا لابد من الرجوع إلى عمرو بن العاص ودوره في التمهيد للفتوح الإسلامية بالمغرب ، فقد تبين لعمرو ابن العاص أنه مازال للروم نفوذ في شمال إفريقيا وأنه لا استقرار للفتوح الإسلامية في شمال إفريقيا ، إلا بالقضاء على النفوذ الرومي . ولقد عاين بنفسه مدى نفوذ الروم عندما كان يزحف على مصر فإن الروم كانوا يعتمدون على قواعدهم ببلاد المغرب وخاصة برقة التي كانت تمدهم بما يحتاجونه . من أجل هذا الهدف فإن عمرو بن العاص أرسل عدة سرايا لتكشف له عن قوام الروم فجاءت له الأنباء بما يؤكد خطورتها على الوجود الإسلامي في مصر ، ولقد تزعم هذه السرايا الاستطلاعية عقبة بن نافع الفهري التي شاءت الأقدار أن يكون هو حامل راية الإسلام في المغرب ، ثم خف عقبة إلى إقليم برقة للوقوف على أخباره وكانت برقة في ذلك الوقت تتبع مصر إدارياً منذ سيادة الرومان على كل منهما ، ومن هنا فإنها كانت تعد ثغراً يضمن سلامة مصر من جهة الغرب . وبعد تمام الاستيلاء على برقة شرع عمرو في اتخاذ الترتيبات في دراسة بلاد المغرب المجاورة لنشر الإسلام ، ووجد أن أمامه طريقين لتحقيق ذلك الهدف ، الأول يسير بحذاء الساحل إلى طرابلس وما حولها من المدن البحرية مثل سرت ، والآخر يتعمق براً ويوجد به الكثير من المناطق العمرانية الصحراوية وتتكون من مجموعات متجاورة من الواحات والآبار تحتلها بطون لواتة ، ونفوسة ، ولها علاقة اجتماعية بقبائل جنوب شرق إقليم الزاب بالجزائر ، وتوفر عمرو بن العاص على دراسة هذين

الخطين ، فبعث أولاً عقبة بن نافع ليفتح الواحات الداخلية ليضمن إخلاصها بينما سار هو لفتح طرابلس ثم فتح مدنها ، وقد دلت الخطة على حنكة عمرو بن العاص وبعد نظره العسكرى فقد سار عقبة إلى فزان ففتحها وظل يراقب الجهات القريبة بينما سار عمرو إلى طرابلس بعد أن أمن ظهره ، وكانت طرابلس فى ذلك الوقت جزءاً من ولاية إفريقية « تونس » التى كان الرومان قد جعلوا منها قاعدة لجيوشهم بعد تدبير قرطاجة ، لتكون عيناً لهم على تحركات قبائل المغرب المتمردة المقيمة فى إقليم نوميديا ، ولا سيما فى موطنهم بجبال الأوراس . ثم صار عمرو ابن العاص يكتسب خبرات كثيرة من تجمعات الروم فى تلك الجهة وعملها من حيث التقلبات السياسية لا فى برقة وحدها بل فى جميع بلاد المغرب . فقد كان المصطرعون حول العرش الرومانى يقوون صلاتهم بالحاميات الإفريقية لأهميتها وما لها من وزن عسكرى ، نتيين ذلك جلياً حين استطاع الإمبراطور قسطنطين من أن يقضى على منافسيه سنة ٣١١ م ، وأبدت السلطات الرومانية اهتماماً كبيراً بإفريقية لا سيما بعد قسطنطين وتأسيس القسطنطينية سنة ٣٣٣ م ، فقد أصبحت هذه المدينة عاصمة للدولة الرومانية الشرقية التى أصبحت تعرف باسم إمبراطورية الروم أو الإمبراطورية البيزنطية بعد أن تهاوت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦ م ، واهتدت إمبراطورية الروم بالسياسة التى كانت تنتهجها الإمبراطورية الرومانية الكبرى من حيث مساندة قواعدها فى ولاية إفريقية لتبقى على هيمنتها عليها استنزافاً لخيراتها . وكانت ولاية إفريقية « تونس » قبل أن يسير إليها عمرو بن العاص ذات دور هام فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية من حيث تسيير شؤون بلاد المغرب ، فقد جعل منها الإمبراطور قاعدة عسكرية يقوم على أمورها حاكم عسكرى Exarcus ، له السيطرة الكاملة على كل مرافقها وموظفيها ، يقوم بمعاونته فى قضاء اهتماماته حكام عسكريون وظيفتهم إدارة الأقسام الإدارية الجديدة بالولاية ، ولئن كانت هذه القاعدة تعمل على زيادة القوة والرقابة على أحوال المغرب إلا أنها كانت مطمئناً للطامعين فى التمرد على السلطة

المركزية فى القسطنطينية ومن يطمعون فى نفس الآن إلى الاستيلاء على العرش الإمبراطورى ذاته معتمدين على جيوشهم الكبيرة ، وعلى قاعدتهم العسكرية القوية ، ولقد تمكن نفر من القادة العسكريين من أسرة جريجوريوس وكانوا تمكنوا الإمبراطور من الاستقلال بحكم إفريقية عن الإمبراطور هرقل منذ عام ٣١٠ م متخذين شتى الحيل والسبل للانفصال عن زعامة القسطنطينية .

وعندما انتهى عمرو بن العاص إلى طرابلس كان جريجور الثانى والذى عرفه العرب باسم جرجير ، وكان من سلالة تلك الأسرة - قد تمكن من الاستقلال بولاية إفريقية متخذاً من مدينة سبيطة عاصمة له ، وكانت من القواعد البيزنطية القوية على خط الدفاع الثانى الذى سبق أن أقامته السلطات الرومانية فى بلاد المغرب .

ولما كان جريجوريوس ينزع إلى الاستقلال الكامل فإنه اتخذ استعدادات حربية واسعة فى إفريقية ، وفى نفس الوقت لم يرغب هذا الحاكم أن يبدأ هو بالتصدى لعمرو بن العاص خوفاً من أن يباغته ملك القسطنطينية ، ومن هنا فإنه آثر التحصن بولايته لكلا الاحتمالين ، وبذلك تمكن عمرو بن العاص من فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ ، ٦٤٣ م ، بغير أن يحاول التوغل فى إفريقية إذا استبان له أن إتمام فتح إفريقية يقتضى أعباء جساماً هذا فضلاً عن أنه فضل العودة إلى مصر مسرعاً وكان ذلك سنة ٢٣ هـ ، ٦٤٣ م ، عندما بلغته أنباء بأن الروم يدبرون لشن حرب على مصر لاسترداد الإسكندرية والعمل على إحباط التوغل الإسلامى نحو المغرب .

غير أن ولاية عمرو بن العاص لمصر سرعان ما استبدلت بولاية عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد أن أصبح الخليفة هو عثمان بن عفان ، وعمد عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى محاولات استطلاعية لما يجرى فى المغرب ، فأرسل سرايا قتالية صغيرة اتبعت أسلوب الكر والفر لاختبار مدى قوة القاعدة التى تحصن بها جريجوريوس ، ولكشف نوعية استعداداته الحربية فى إفريقية ، وقد شارك فى هذه

الحملة الاستطلاعية السريعة عقبة بن نافع الفهري الذي تدرّب على هذا النوع من العمليات القتالية منذ أن كان عمرو بن العاص والياً على مصر ، وكان عقبة ابن نافع مقيماً في برقة منذ أن ترك عمرو بن العاص مصر واتخذ من برقة مقراً لنشاطه الحربي فاتبع سياسة التعرف على أحوال القبائل والواحات القريبة من برقة من حيث أحوالها الاجتماعية والمعاشية وقدرتها القتالية ، وكانت هذه الجهات تتصل ببعضها عن طريق الساحل بجنوب إفريقية والنواحي الشرقية لبلاد المغرب ، وكانت تعد محيطاً هاماً للاطلاع على أخبار القبائل المقيمة على طول ذلك الطريق ، ثم أخذ عقبة بن نافع يدرس أحسن الوسائل لنشر الإسلام بين قبائل تلك الأقاليم ، وفي نفس الوقت يدرس أحوال البيئة المغربية من الناحية العسكرية ، حتى إذا خلّصت للقيادة الإسلامية صورة صادقة للموقف العسكري للعدو البيزنطي فإن عبد الله بن سعد وعقبة بن نافع بعثا بهذه الصورة إلى عثمان بن عفان الذي قام بدوره بعرضها على كبار الصحابة ، وبعد أن تدارسوها وافقوا على ضرورة غزو إفريقية وتدمير القاعدة البيزنطية في سيطة .

وتم إعداد القوات وقد شارك عثمان في هذا الإعداد ، وتم تجميعها في الحجاز قبل أن تنطلق إلى مصر ، ولم يتوان عثمان على أن يخطب في الناس ويحثهم على الجهاد في سبيل الله . وقد اشترك في هذه الحملة نخبة من الصحابة الأجلاء نذكر منهم عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس . وكان أن أنسبت تلك الحملة إليهم فعرفت باسم « غزوة العبادلة » وبعد أن تم الإعداد واطمأن عثمان على الحملة فإنها اتجهت إلى مصر بقيادة عبد الله بن أبي سعد بن أبي السرح ، ثم غادرت مصر سنة ٢٧ هـ ، ٦٤٨ م متجهة إلى برقة حيث انضم إليها عقبة بن نافع الفهري الخبير بالقواعد العسكرية للروم وأحوالهم في إفريقية ، ثم واصل الجيش الإسلامي زحفه نحو إفريقية بناء على خطة حربية تؤمنه وتحقق له هدفه في نفس الوقت . ومن خطته الأمنية أن الجنود كانوا يسرون ليلاً ليتقوا حر الصحراء



الشديد ولا يرى جواسيس الروم تحركاتهم ، ثم يستريحوا نهاراً ، وظلوا على هذا المنوال حتى وصلوا طرابلس . ولقد انتهت خطة القادة المسلمين إلى ضرورة الاستيلاء على سيطة بأسرع ما يمكن حتى لا يدل أن يبدوا قواهم في حصار القواعد الساحلية فكان أن غادروا طرابلس وغيرها من الحصون الساحلية متجهين إلى سيطة فعسكرت الجيوش في منطقة تسمى قمونية قريبة من سيطة وشرعوا يتخذون أهبتهم للمعركة الحاسمة التي وقعت عندما تصادم المسلمون والروم عند مكان يسمى عقوبة يبعد عن سيطة بمقدار يوم وليلة ، وتراوحت الحرب بين الفريقين فكان الروم يحتمون بحصونهم ، بينما كان المسلمون يحتمون بخيولهم وإبلهم ، اتبع المسلمون أسلوب الكمائن المباشرة التي عجلت بنصرهم وقد سقط جرجير قتيلاً .

بهذه النتيجة أسرع عبد الله بن أبي سعد فأحكم الحصار على سيطة لمنع الروم المنهزمين من دخولها والتحصن بها ، وهكذا تم الاستيلاء على سيطة كما تم تدمير قواعدها العسكرية تماماً ، وبسقوط سيطة أصبح الطريق أمام المسلمين ممهداً لإرسال سرايا استطلاع إلى الجهات المحيطة بها .

وبلغت قوات المسلمين المغرب الأوسط ، واختلطت بقبائلها فأدرك المسلمون مدى الفرق بين الروم وبين أهل البلاد ، فالروم متغرسون متكبرون ، بينما أهل البلاد طيبون سرعان ما رحبوا بالمسلمين ، وعقدوا صلحاً معهم وتقربوا منهم عندما وقفوا على مقصدهم وغايتهم ، وجاءت وفود من قبائلهم إلى عبد الله بن سعد تعلن دخولها في الإسلام ، وكان من زعماء تلك القبائل صولات بن وزمار شيخ قبيلة مغرواة الذي صادق عبد الله بن سعد .

وبعد تحطيم سيطة أدرك عبد الله بن سعد أن الروم لن يصبروا على هزيمتهم وتدمير قاعدتهم الكبرى بداخل إفريقية ، وكان عبد الله مصيباً في ؛ حدسه لأن سراياه الاستطلاعية أبلغته أن الروم يبنون قوتهم في المدن الساحلية والقواعد الكبرى ولا سيما في جزيرة شريك ومدينة قرطاجنة ، وهنا قرر عبد الله بن سعد

الرجوع إلى مصر وكان ذلك في سنة ٢٩ هـ ، ٦٥٠ م ، بعد أن استمرت حملته ما يقرب من سنة وشهرين ، ولقد صحب صولات بن وزمار شيخ قبيلة مغراوة عبد الله بن سعد في رحلته إلى الخليفة عثمان بن عفان حيث أعلن إسلامه أمام الخليفة فكانه بذلك قد نهج الطريق للإسلام في بلاد المغرب ، إذ أن إسلامه كان عن إيمان مكين وتقبل صحيح . وبذلك جاء الرباط وثيقاً خالداً بين الإسلام في الحجاز حيث منشأ الرسالة المحمدية وبين الإسلام في بلاد المغرب ، فكان القضاء على قاعدة سيطرة الرومانية كان مفتاح الإسلام ، في بلاد المغرب ذلك لأن عثمان بن عفان قد كلف صولات بن وزمار ، بأن يكون رئيساً لقومه يهديهم وغيرهم إلى الإسلام . ولم ينس أبناء المغرب هذا التقليد الذي سنه ثالث الخلفاء الراشدين فهم يعتزون به ويعملون له .

أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه لم يتمكن من العودة إلى بلاد المغرب للقضاء على باقى القواعد الرومانية ، لأنه انشغل بصد هجمات الروم البحرية على مصر هذا فضلاً عن ترقب نتائج الفتنة التي اندلعت بين عثمان وعلى ومعاوية .

وإذ لم يصبر البيزنطيون على هزيمتهم فإنهم أصروا القضاء على نشاط المسلمين في شمال إفريقية ولهذا الهدف فإنهم جهزوا حملة بحرية كبيرة غايتها إعادة سلطانهم على مصر التي أصبحت المركز الرئيسى للحملات الإسلامية في فتح المغرب وإمداد قواتها بما تحتاجه من جند وسلاح ، وأدرك عبد الله بن سعد - والى مصر آنئذ - النتائج الخطيرة لهذه النية الرومية المبيتة ، وذلك لأن الروم يعتمدون على بحريتهم التي كانت لها اليد الطولى في البحر المتوسط ، وكان صاحب هذه المخاطرة هو الإمبراطور قنسطانز الثانى التي جاءت نشأته وسط عواصف الفتوح الإسلامية في مصر والمغرب ، فقد تبين له أنه لا نجاة لإمبراطوريته من توسع المسلمين إلا بالهجوم على المراكز الرئيسية للمسلمين في البحر المتوسط وتتجسد في مصر والشام إذ إن الهجوم سيكون خيراً له من الدفاع



لأنه سيحرم المسلمين من طلائع قواتهم البحرية التي يعتمدون عليها في البحر المتوسط . فبعد معركة « ذات الصواري » وفرار قسطنطز إلى صقلية فقد تبين له أن الموقف العسكري يفرض عليه الاهتمام ببلاد المغرب لتعوضه عن فقدان مصر والشام ، فانتهاز فرصة انشغال المسلمين بالفتنة التي وقعت بينهم لإعادة بناء البحرية الرومية بما يكفل لها القوة ، والقوة البرية بما يكفل لها المنازلة والمصاولة فكان لا بد من اتباع سياسة جديدة بالنسبة للمغرب ، فاختر صقلية ؛ لتكون قاعدته العسكرية ضد النشاط البحري للمسلمين وزيادة على ذلك ، فإنه جعل من صقلية عاصمة جديدة له تكون وثيقة الصلة بما تبقى لدولته في جنوب إيطاليا وبلاد المغرب ، بعد هذا وجه نشاطه البحري والبرى من مقره الجديد إلى بلاد المغرب بقدر ما يستطيع لاسترداد سلطاته البعيدة في إفريقية بالقضاء على سلطان المسلمين، فكان أن أرسل أساطيله من سيراكوز بصقلية محملة بالجند إلى إفريقية وكذلك لمساندة القواعد الرومية في قرطاجة وغيرها من القواعد العسكرية المهمة .

غير أن ميل هذا الإمبراطور إلى الشدة في سياسته أعطى للمسلمين الفرصة لاستئناف القتال بغية هدم القواعد الرومية في الجبهة المغربية ، فهذا الإمبراطور قد ساءه أن يتفق زعماء إفريقية وما حولها من قبائل المغرب مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فبعث إليهم الجباة ليحصل منهم الضرائب بغير شفقة أو رحمة فنشب الصراع من جديد بين أهل البلاد وبين السلطات البيزنطية وباتت إفريقية تعاني صراعاً لا زاجر له ، فجعلها معاوية بن أبي سفيان فرصته فصمم على تدمير القواعد الرومانية في بلاد المغرب فبعث قائداً كبيراً من قواده هو معاوية بن خديج إلى إفريقية سنة ٤٥ هـ ، ٦٦٦ م ، وكانت تعليماته إليه أن يدمر القواعد البحرية الرومانية هناك بعدما تبين له أن الإمبراطور قسطنطز وضع اعتماده كله على الأساطيل .

واقضى معاوية بن خديج نفس الطريق الذي سار فيه عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن سعد حتى نفس المكان الذي جعله عبد الله بن سعد مركزاً له وهو قمونية

حيث أنزل المسلمون بقوات الروم - التي كان قنسطانز قد أرسلها لصد زحف المسلمين - هزيمة شديدة ، وعلى إثر الهزيمة التي نزلت بالروم فإنهم انسحبوا إلى سوسة متخذين من حصونها درعاً لهم ، غير أن معاوية بن خديج سار بفرقة من جنده لمطاردة الروم الذين اضطروا إلى مغادرة المدينة والعودة إلى سفنهم التي أقلتهم إلى صقلية ، وكان هذا النصر عوناً للمسلمين على تدمير قاعدة جلولاء الرومية وكانت أهم الحصون بخط الدفاع البيزنطي الثاني لولاية إفريقية ، وأطلقت يد معاوية بن خديج في مهاجمة القواعد البحرية للروم فأرسل بفرقة إلى بنزرت وبفرقة أخرى يقودها الصحابي رويغ بن ثابت الأنصاري ، تمكن بها من فتح جزيرة جربة التي كانت من أكبر القواعد البحرية للروم في هذه المنطقة . بعدها أعد ابن خديج حملة بحرية أخرى إلى صقلية ومكثت بها ما يقرب من شهر لدراسة قواعدها ثم عادت محملة بالكنوز والغنائم من الجزائر ، وهنا أصبحت القواعد البحرية للروم الموجودة على ساحل سوسة خالية من قوة الجند والسلاح .

وبعد هذه الرحلة الفتحية الكبيرة عاد معاوية بن خديج إلى مصر ، وكان ذلك في سنة ٤٧ هـ ، ٦٦٧ م ، والفائدة الكبيرة التي جناها المسلمون أنهم استطاعوا كشف طبيعة القواعد البحرية الرومانية مما مكنهم من إخماد قدرتها على القتال ، وهكذا أصبحت ولاية إفريقية والمسلمون على علم جيد بها وعلى علم جيد بالطرق التي تخرج منها إلى سائر بلاد المغرب ، وإذ منى قنسطانز بفشل ذريع فقد أصبح الأهالي حانقين عليه فدبروا مؤامرة لاغتياله بالتعاون مع بعض الساخطين عليه ممن حوله فتم قتله في عاصمته الجديدة سيراكوز بجزيرة صقلية في سنة ٦٨٨ م .

طبيعة الأرض وتأسيس القيروان

أسفرت سرايا الاستطلاع الإسلامية التي خرجت إلى بلاد المغرب حقيقة عسكرية هامة ، وهي أنه لن يكتب للمسلمين بقاء في بلاد المغرب ما لم تكن لهم قاعدة رئيسية تمكنهم من التغلب على الطبيعة الجغرافية للمنطقة فيستطيعون من ثم أن يتحركوا في ثقة بما يمكنهم لا من مواجهة العدو البيزنطي والدفاع عن أهل البلاد فحسب ، بل بما يمكنهم من الاتصال الإنساني بهم فينتشر الإسلام بينهم وهو الهدف الذي ما خرج المسلمون للفتح إلا من أجله ، ويرجع الفضل في تجسيد هذه الظاهرة تجسيدا عمليا فعليا لعقبة بن نافع الفهري الخبير الواسع المعرفة بالميدان الإفريقي والخبير الواسع المعرفة بأهله وقبائله ، فقد أدرك عقبة أن الجهات الشمالية من أرض إفريقية ذات مظهر جغرافي متميز. إذ تنقسم تلك البلاد من حيث طبيعتها الجغرافية إلى قسمين : الأول : الجهات الساحلية وما بها من فجوت على شكل هلال وتهب عليها الرياح الشمالية صيفا وبسبب هذه الرياح قلت الموانئ الصالحة والأمنة للسفن ولهذا يتعرض من يخرجون من الساحل لهجمات مفاجئة من الخلف يمكنها قطع خطوط التموين بغير رادع تحذره ويلى تلك الجهات الساحلية سلاسل من الجبال حيث توجد الصحراء الكبرى في جنوبها، وهذا من شأنه أن لا يهيئ مواقع صالحة للاستقرار العمراني الكبير ، وانتهى عقبة من دراساته بنتائج إستراتيجية هامة عمادها أنه لن يكتب الاستقرار للإسلام في بلاد المغرب إلا إذا تحقق أمران :

الأول : أن تكون له قاعدة عسكرية دائمة للجيش الإسلامية وأن تكون هذه القاعدة في إفريقية على أن يصحب جيوشها أهلهم وأموالهم إذ من تلك القاعدة تخرج القوات المسلمة بفتوحها وضرب قواعد الروم وهي مطمئنة إلى طريق عودتها القصير بدلا من إضاعة الوقت والجهد بالرجوع إلى الفسطاط في مصر .

الأمر الثاني : كما أن هذه القاعدة ستكون مقراً لانطلاق جند الفتوح فسوف تكون مركزاً لنشر الإسلام بين أهل البلاد وتحييهم في مبادئه الإنسانية وتعاليمه

الدينية . فكأنما أراد عقبة أن يكون للمسلمين « مصر » فى بلاد المغرب على غرار ما أقامه العرب من أمصار فى الأوطان التى دانت بالإسلام مثل العراق ومصر والشام .

وجاء تطور الأحداث أن يقوم عقبة بتنفيذ رؤيته فنتهى مرحلة السرايا الاستطلاعية إلى مرحلة الفتوح المنظمة التى تقوم الجيوش الكبيرة ، فالخليفة معاوية ابن أبى سفيان أوكل إلى عقبة بن نافع بأن يكون أميراً على الجيوش المنطلقة نحو إفريقيا ، فبعد أن عادت حملة معاوية بن خديج ، وبعد أن تمت الدراسات الخاصة عن القواعد الرومية البرية والبحرية ، القائمة فى ولاية إفريقية البيزنطية ، أجل ، بعد تلك الدراسات وإعداد خطة الفتح انطلق عقبة بقواته من برقة سنة ٤٩ هـ ، ٦٧ م ، بعد أن وصلته الإمدادات التى طلبها من مصر والشام . متخذاً من سرت مركزاً مؤقتاً له إذ وجد نفسه مضطراً إلى أن يأخذ جزءاً من قواته ليفتح المناطق الصحراوية وليؤمّن ظهره فى نفس الوقت قبل أن يواصل سيره إلى إفريقية ، وتمكن فى هذا الزحف من الاستيلاء على مدن إقليم فزان ، وقد استمرت هذه الحملة خمسة عشر شهراً رجع بعدها إلى سرت حيث تواجد بها معظم قواته المتأهبة للزحف على إفريقية ، ثم تقدم مفضلاً أن يكون سبيله داخل البلاد متجنباً الساحل الخاص بالقواعد الرومانية ، وقد عمد عقبة إلى اصطناع تلك الخطة حتى يكفى قواته مشقة السيطرة على الساحل وفى نفس الوقت يكون على اتصال مباشر بأهل البلاد يهديهم إلى الإسلام ، وهذا ما صادفه عقبة وجددهم متلهفين على الدخول فى الإسلام بعد أن ذاقوا الأمرين من ظلم الرومان وبغيهم ، ولهذا لقي عقبة الترحيب من سكان الوحدات الصحراوية ، فكان وصوله إليهم بمثابة مفاجأة لم تكن فى حسابان الحكام الرومان ، ولذلك احتفظت قواته بسلامتها لم يدركها إرهاب ، فكان استيلاؤه على تلك الولاية سهلاً بغير عناء ، ثم أخذ بعدها يتجول متفحصاً نواحيها على يهتدى إلى الموقع الذى يصلح أن يكون « مصرّاً » أو قاعدة رئيسية لجند الإسلام . وقد شرح عقبة خطته لجنده فقال لهم : « إن إفريقية إذا

دخلها إمام تحوموا بالإسلام فإذا خرج منها رجوع من كان أسلم بها وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة فجعل فيها عسكرياً حتى تكون عز الإسلام إلى أبد الدهر « فكأن عقبة كان مخالفاً لخطة القادة الذين سبقوه فلم يكن لهم « مصر » خاص في إفريقية ، فكانوا يضطرون إلى الرجوع إلى الفسطاط في مصر فكانت جهودهم تذهب هباء ، هذا فضلاً عن أهل البلاد لم تكن لديهم الفرصة التي يستطيعون فيها معرفة الإسلام معرفة شافية ، ووقع اختيار عقبة على منطقة قمونية الموجودة وسط ولاية إفريقية لا يخفى أن الحملات الإسلامية تعرفها جيداً من حيث مميزاتها ، وقد ضمنت تلك المنطقة إقليم قسطنطينية حيث يوجد بها أهم الجهات المعروفة بأرض الزاب . وكان هذا الإقليم يضم بين جنباته مدناً وقرى مزدهرة ، واختار عقبة حصناً بيزنطياً قديماً قرب جنوب سوسة اسمه « كابوت فاد » ليقم عليه مدينته ، وكان هذا الموقع استراتيجياً بكل المعاني :

فالمدينة التي ستقام عليه ستكون بعيدة عن أيدي الأعداء تواجههم مشقات جمة إذا أرادوا بلوغها ، ومن ثم فهي لا تتيح للعدو فرصة اقتحامها بغتة كما أن من الصعب على الأساطيل البيزنطية أن تباغت الجيوش الإسلامية ، هذا فضلاً عن أن موقع المدينة يساعدها على أن تصلها الإمدادات لا من مصر وحدها بل من سائر العالم الإسلامي ، وهذا يمكنها من أن تستمر في نشر الإسلام بين أهالي المغرب وهي مطمئنة لأن الطرق إليها ذلولة عن طريق برقة وطرابلس زيادة على ذلك ، فالمدينة تسيطر على مداخل الهضاب والجبال التي تمتد إلى المغرب الأوسط والتي تقطنها القبائل الوطنية بزعمائها الأمغار وأبنائها الأمازيغ إذ يتمكن المسلمون من الاتصال بهذا العنصر الأبى وضمه الإسلام ، وهناك عنصر له أهميته القصوى في اختيار هذه المدينة التي عرفت باسم « القيروان » لتكون مصراً للمسلمين وهو أنها تبني في منطقة غنية بالمياه وفيرة الغذاء ، فهي منطقة زراعية تجود بالغلث والمختلفة والفاكهة بأنواعها ، ثم رفع عقبة جدران القيروان فبدأها بدار الإمارة والمسجد . ثم صار الناس بدافع من حبهم للإسلام يقيمون حول المسجد مساكن

لهم لكل جماعة حياً خاصاً بها يشمل ما تحتاجه من مرافق ومساجد وهكذا بفضل الإسلام تكاملت وامتزجت الأواصر المغربية والعربية .

نحو قيادة جديدة وفتوح جديدة :

لقد تم بناء القيرون في أربع سنوات بغير أن يواجه عقبة أية مشكلات خارجية أو داخلية ، فالبرغم من وجود البيزنطيين في قاعدة قرطاج ، وكانت على بعد ثلاثة أيام من القيروان إلا أنهم لم يجرؤوا على مهاجمة عقبة أو يمنعه من القيام بعمله الكبير . لأن القوة الحاكمة في القسطنطينية كانت أثناء بناء القيروان من سنة ٤٩ هـ ، ٦٧٠ م إلى ٥٢ هـ ، ٦٧٣ م ، تعاني أشد ما واجهته في تاريخها كله إذ ان الأسطول والجيش الأموي فرضا حصاراً شديداً على العاصمة البيزنطية فكانت الحاميات البيزنطية في إفريقية من النقص الحاد في الإمدادات التي تعينها على الصمود ، فكان أن بقيت حبيسة حصونها خوفاً من الهزيمة . وفي هذا الموقف أصبحت القيروان هي المصدر الذي استنار منه سكان المغرب بالإسلام ما جعلهم خير عون للقوة الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي .

ولقد استبد الخوف بالسلطات البيزنطية من جراء ما حدث بالمغرب من تحولات خطيرة في غير صالحها ، فقد اكتشفت أن الجماعات العربية الإسلامية أصبحت تشكل الخطر الداهم على وجودها الاستعماري بالمغرب ، فعملت على عزل القيروان وما حولها من مجتمع إسلامي ناشئ ، فاتبعت خطة يكون من شأنها إيقاف النشاط الإسلامي للقيروان ، وكان صاحب هذه الخطة الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥ م) فقد وجد هذا الإمبراطور أن سبب ضعف دولته في المغرب نشوب الخلافات المذهبية المسيحية ، وسياسة البطش والتنكيل التي سار عليها الحكام البيزنطيون في ولايتها مع الأهالي المخالفين لهم في العقيدة ، وقد تجسد هذه الأسباب مجتمعة في ولاية إفريقية التي نشأت بها مدينة القيروان فمعظم السكان الأصليين من المسيحيين كانوا يكرهون الدولة كرهاً شديداً ويتمنون زوالها من الدنيا، فما كان من قسطنطين إلا أن تبني سياسة تعالج ذلك الحال

المرتدى ، فتقرب من السكان ليضمن ولائهم ضد المسلمين ، فكان أن عقد مؤتمر دينياً سنة ٦٨٠ م ، وفق فيه إلى انتزاع بواعث البغضاء المذهبية التي مزقت الدولة البيزنطية وبين رعاياها بشمال إفريقية وإيطاليا ، وظن الناس أن الإمبراطور مخلص فيما قرر وأذاع ، وكان همه الوحيد في إفريقية أن يحول بين انتشار الإسلام من القيروان إلى كل أنحاء المغرب العربي ، فاستطاع بدهائه السياسي أن يتصل بقبيلة أوربة المسيحية التي كان يتزعمها في ذلك الوقت شخص يسمى « كسيلة » وقد وقع اختيار الإمبراطور على تلك القبيلة بالذات لأنها كانت معروفة بكثرة العدد وشدة البأس ، تنتشر مضاربها في جبال الأوراس بالقرب من القيروان . وكان لقبيلة أوربة هذه الكلمة العليا على سائر القبائل المجاورة لها مثل : هواره ، وجراوة ، ونفوسة ، وزناتة . ولذلك اعتقد الإمبراطور أن ضم أوربة إلى جانبه سوف يضمن له ولاء القبائل الخاضعة لها والتي وقفت موقفاً محايداً من الفتح الإسلامي للمغرب ، ومن هنا نشأت فتنة بين السكان المسيحيين والمسلمين .

في هذه الآونة وقع تطور له تأثيره الواسع في الإدارة الإسلامية لإفريقية بعد تأسيس القيروان ، ذلك أن السلطة في دمشق عزلت عقبة بن نافع الفهري عن قيادة جيوش المسلمين وعينت مكانه قائداً جديداً من مصر وهو دينار أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ ، ٦٧٦ م ، ويرجع هذا الفضل في هذا التحول الجديد إلى والي مصر مسلمة بن مخلد الذي أثبت خبرته الواسعة والعميقة بالشؤون الإفريقية ، فقد تبين لهذا الوالي أبعاد التطورات التي حدثت في بلاد المغرب بسبب السياسة الجديدة التي انتهجها قسطنطين ، وأن تلك التطورات تقتضى وجود شخصية قيادية جديدة قادرة على إبطال العدو ، لأن عقبة بعد كثيراً عن الميدان عندما اشتغل بتأسيس القيروان ، ولقد أثبت دينار أبو المهاجر أنه رجل الموقف فعلاً ، كما أنه يعد المؤسس الثاني لصرح الإسلام في بلاد المغرب ، فكانت خطته على أساس سرعة فض التحالف بين البيزنطيين وأوربة حتى يمنع إمبراطور الروم قسطنطين من إفشاء دسائسه في تلك البلاد ، وفي نفس الوقت يقوم بشرح الإسلام وغايته

وذلك استمالة لأهل البلاد وحمایتهم من الوقوع فى شبك التضليل البيزنطى ،
 ومن هنا أصبح الهدف الأول لدينا القضاء على التحالف هذا .

وفور وصول دينار أبى المهاجر إلى القيروان فإنه أعد خطته التى قامت على
 أساس أن الهجوم خير من الدفاع ، فعليه من ثم أن يفاجئ قبيلة أوربة قبل أن
 تسرى أكاذيب البيزنطيين إلى القبائل المحيطة بها . وكانت أوربا قد اتخذت من
 المنطقة المحيطة بتلمسان وجنوبها مقراً للمقاومة بعيداً عن إفريقية ، على حين
 كانت خطة دينار أبى المهاجر قد اتجهت مباشرة إلى مركز المقاومة لإبطال التحالف
 البيزنطى وما قُصد منه ، فالقائد المسلم أقام هناك مدة طويلة أثناءها حفر
 للمسلمين آباراً عرفت فيما بعد باسم « عيون أبى المهاجر » وذلك لتزويد قواته
 بالمياه اللازمة كما يكون إشارة على إصرار المسلمين على عزل منطقة الخطر
 البيزنطى وحلفائه ، وبهذه الخطة أحرز المسلمون النصر بغير جهد كبير .

وبعد أن تحقق ذلك النصر وجد دينار أبو المهاجر أن من الكياسة وحسن
 السياسة استمالة كسيلة زعيم أوربة بشرح صدره لاعتناق الإسلام فتمكن من أن
 يعقد مع كسيلة صداقة قوية توجت باعتناق الزعيم المغربى الإسلام مقدماً غاية ما
 يمكنه من قوات لخدمة هذا الدين ، فكان دينار بهذه السياسة قد فصم بين السكان
 الأصليين وبين البيزنطيين وفك التحالف الذى نشأ بينهما ، وكان دينار يظهر دوماً
 أنه يسعى إلى تحرير أهل البلاد من استبداد الروم ، وبعد ثلاث سنوات أصبح عند
 دينار خطة جديدة هدفها تدمير القواعد الرومانية القائمة على الساحل . ولهذا
 توجه من فوره لضرب قرطاجنة لأنه كانت القاعدة التى تمكن منها الروم من أن
 يحققوا تحالفهم مع قبيلة أوربة ومن ثم يستطيع أن يبدد أسباب التقارب القائم بين
 الروم وبين أهل المغرب .

وانطلق دينار أبو المهاجر نحو قرطاجنة سنة ٥٩ هـ ، ٦٧٨ م ، بعد أن عاد
 من تلمسان ، فنشبت بينه وبين البيزنطيين معارك شرسة اضطرت فيها الجنود
 البيزنطيون إلى أن يعتصموا بقاعدتهم قرطاجنة ، فكان أن ضرب دينار أبو المهاجر

على قرطاجنة وغيرها من المدن الساحلية حصاراً شديداً وبعد أن عانى البيزنطيون كثيراً من الحصار اضطروا إلى إجراء مفاوضات مع المسلمين فتعهدوا بالتنازل عن جزيرة شريك شريطة أن يرفع المسلمون الحصار عن قرطاجنة ووافق دينار أبو المهاجر لأنه وجد أن الحصار قد طال أمده هذا فضلاً عن أن المسلمين لم تكن لهم القوة البحرية التي تمكنهم من الصمود في الحصار وإحكامه تماماً . وهناك سبب آخر فإن جزيرة شريك تعد تعويضاً لا يقل أهمية عن الاستيلاء على قرطاجنة إذ ان هذه الجزيرة بموقعها الحربى تُمكن من مراقبة الساحل وكشف ما يدور في قرطاجنة من تحركات أو تجمعات وإبطال أى محاولة منها للهجوم على القيروان ، ثم عاد دينار أبو المهاجر إلى مقره القريب من القيروان بعد أن حطم التحالف البيزنطى وحقق نشر الإسلام بين القبائل الوطنية وذلك بفضل معاونة كسيلة زعيم قبيلة أوربة .

الفتح الإسلامى فى شرق بلاد المغرب

كانت السياسة العسكرية التي اصطنعها دينار أبو المهاجر من العوامل الحاسمة فى التكوين الإسلامى لبلاد المغرب فضلاً عن أنها أرست المنهاج العسكرى والسياسى لكل من يعمل فى الميدان الإفريقى ، غير أن الوقت لم يكن مهيباً بعد للاستمرار فى سياسة دينار أبى المهاجر فى فتح المغرب بسبب ما كان يحدث من اختلافات بين ولاة مصر ومدرسة العسكرين من جانب وخلفاء بنى أمية من جانب آخر ، ومن دلائل هذا الاختلاف أن الخليفة يزيد بن عبد الملك قام بعزل دينار أبى المهاجر بعد أن توفى من كان يحميه ويسانده وهو مسلمة بن مخلد والى مصر ، معيداً عقبة بن نافع الفهري إلى منصب القائد الأعلى فى الميدان الإفريقى وقد أثبت ذلك الإجراء أن الخلافة الأمورية كانت تجهل طبيعة الأحوال فى بلاد المغرب ، وقد انعكس ذلك الجهل على عمليات الفتوح الإسلامية فى تلك البلاد وعلى إعادة تولية عقبة بن نافع قائداً على الجيوش الإسلامية فى بلاد المغرب وكان ذلك فى سنة ٦٢ هـ ، ٦٨٢ م ، وقبل أن يضل إلى مقر قيادته بشمال إفريقية

نصحه الناصحون وأصحاب الخبرة القتالية بذلك الميدان بالألا يورط نفسه فى قبول هذا المنصب بل واجهوه صراحة بأن خبرته القتالية أصبحت لا تتفق مع التطور الجديد ، ولكنه لم يعبأ بما قيل فبدافع من شجاعته وإصراره توجه على رأس حملة كبيرة نحو شرق بلاد المغرب. وهى التى عرفها العرب باسم « إقليم الزاب » وقد صحب عقبة فى حملته تلك كل من دينار أبى المهاجر وكسيلة زعيم قبيلة أوربة ، وأعد عقبة خططه من غير أن يأخذ برأى الرجلين الكبيرين اللذين صحباه معتمداً على خبرته هو ودراسته هو ، وانطلق عقبة فى طريق السها متجنباً الهضبة الوعرة منتهياً إلى مدينة باغاية قرب خنشلة إلى الشرق من جبال الأوراس حيث الأطراف الشمالية لبلاد الجريد ، وفى هذه المدينة كانت توجد فرقة رومانية كثيفة الجند تصدت لعقبة غير أنها باءت بالهزيمة ، وما كان من العدو البيزنطى إلا أن دخل المدينة معتصماً بأسوارها ، ولم يتلبث عقبة طويلاً فى محاصرته لتلك المدينة فقد قنع بما غنمه منها لا سيما خيول جبال الأوراس التى لم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب منها ، ثم سار عقبة فى سهول الزاب متجهاً إلى مدينة لميز « ليس » وهى عبارة عن قلعة بيزنطية حصينة ، واشتد القتال بينه وبين المتحصنين بالمدينة ولم ينل نصره إلا بعد عناء شديد ، ثم والى سيره دخول الإقليم حيث نال بعض الانتصارات وهو فى زحفه من لميز إلى عاصمة الزاب وهى يومئذ على بعد قليل من شرق المنطقة ، دارت فى هذه المنطقة معركة فى غاية العنف تكلفت بانتصار عقبة .

هنا لم يجد البيزنطيون مفرًا من الرجوع إلى خطة الأحلاف القديمة مع قبيلة أوربة لا سيما أن زعيمها كسيلة لم يكن على وفاق مع عقبة ، وقد تجمع عند تاهرت وهى حصن رومى قديم جماعات من الروم يؤازرهم بعض القبائل التى كانت تقيم فى المنطقة ، وهنا أصيب عقبة بأول أزمة من جراء عدم الأخذ بالآراء العسكرية التى عرضها عليه كل من أبى المهاجر وكسيلة إذ وجد نفسه مضطراً إلى الاستماتة فى القتال ، وهنا خطب فى جنده فقال لهم : « إن أشرافكم وخياركم

رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنة بيعة رابحة ، فأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه . فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء تعالى ، وربكم عز وجل - يسلمكم . فألقوهم بقلوب صادقة فإن الله - عز وجل - جعلكم بأسه الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

وقد تكلل جهاد المسلمين فى تلك المعركة الشرسة التى قادها عقبة بن نافع بمهارة فائقة بالنصر الكبير ، وإنه للنصر الذى قال عنه المؤرخون : « ذهب عز الروم من الزاب وذلوا إلى آخر الدهر » بعدها قصد عقبة إلى تلمسان ثم صوب إلى المغرب الأقصى حتى بلغ طنجة ، وهناك أدخل فرسه فى مياه المحيط ورفع صوته بنبرة تشع إيماناً وقال : « يارب لولا هذا النصر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك » وبعدها رجع إلى القيروان وفى معيته بعض كبار رجال القبائل المغربية كان منهم بنو عبد الواد الذين حكموا تلمسان بعد ذلك .

يبدو أن عقبة أحس بأنه أخطأ خطأ شديداً فى حق معاونه السيد الرأى دينار أبى المهاجر عندما وصل إلى مدينة طبنة وهى إحدى مدن الزاب وعلى مسافة ثمانية أيام من القيروان فإنه أذن لجنده بأن يتوجهوا إلى القيروان ليأخذوا قسطاً من الراحة ، وكان ذلك التصريح ظاهرياً فقط . أما الحقيقة فإنه أدركها فى تغير الموقف إذ أحيا الروم وتحالفهم القديم مع كسيلة زعيم أوربة ، وأغروه بأن ينفصل عن صفوف عقبة وينحاز إليهم ، وتم ذلك ووجد عقبة نفسه وليس جوله إلا ثلاثمائة من أصحابه كان منهم أبو المهاجر الذى أصر على أن يظل إلى جانب عقبة فى حربه مع البيزنطيين مهما كانت خلافاته مع عقبة ، وفعلاً شن الروم وكسيلة هجومهم على المسلمين سنة ٦٤هـ ، ٦٨٤ م ، ونشبت معركة شديدة عند تهودة

بالقرب من بسكرة فى بلاد الزاب ، وقد استشهد فى هذه المعركة عدد كبير من المسلمين كان من بينهم القائدان الكبيران دينار أبو المهاجر ، وعقبة بن نافع . وبسرعة خف كسيلة إلى القيروان وأستولى عليها وظلت تحت حكمه حتى سنة ٥٦٩ م ، أى لمدة خمس سنوات .

غير أن ذلك الانقلاب لم يمخ الإسلام من بلاد المغرب فقد ظلت المغرب على دينها الحنيف تجدد فى نشره بشتى الطرق غير هيابة ولا متراخية حتى إن بعض القبائل المسلمة تحدثت كسيلة ووقفت فى وجهه ، وأكثر من هذا فقد اعتبرت المسيحيين عملاء للبيزنطيين ، على أن كسيلة لم يواجه التحدى بالحرب فقد أثر حسن الجوار مع المسلمين .

ومن المحتمل أن كسيلة لم يرتد عن الإسلام ، ولكنه فعل فعلته من باب العداة الشخصى لعقبة بن نافع .

ومهما يكن فقد ظل الإسلام راسخ الأركان ممتد الجذور فى كيان الشعب المغربى يحدوه الأمل فى أن تعود الجيوش الإسلامية لنصرة الدين الحنيف .

الفتح ينشط بتأمين الثغور البحرية

كان الفرع المرواني من بنى أمية شديد الغيرة شديد الحماسة للفتوح الإسلامية فى بلاد المغرب ، وتمثلت هذه الغيرة حتى تمكن الأمويون من استعادة مصر من عامل عبد الله بن الزبير ، فقد أسرع الخليفة عبد الملك بن مروان قبل أن يقضى على ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز والعراق بأن أسند إلى أخيه عبد العزيز بن مروان مهمة تعبئة الجيوش فى مصر وكان ذلك سنة ٦٩ هـ ، ٦٨٨ م لاسترجاع الأراضى المغربية من البيزنطيين وحليفهم كسيلة ، انطلقت الجيوش الإسلامية يقودها زهير بن قيس البلوى نحو إفريقية وذلك لخبرته الواسعة بالميدان الإفريقى . وكانت وجهة نظر كل من الروم وكسيلة تختلف بالنسبة للزحف الإسلامى نحوهما . فكان البيزنطيون يفضلون البقاء فى قاعدتهم قرطاجنة بغير أن يمدوا يد المساعدة إلى كسيلة ، لأنهم نالوا منهم ما يريدون ، أما كسيلة فكان يعتبر أن الخلاف بينه وبين المسلمين ليس خلافاً حول الدين بل كان خلافاً شخصياً منذ سوء التفاهم الذى نشأ بينه وبين عقبة بن نافع الفهري . فقد ظل كسيلة وهو يعامل جماعات المسلمين معاملة طيبة ، رغم أنه أعد عدته لمواجهة زهير بن قيس البلوى الذى كان نائباً لعقبة بن نافع على القيروان .

وانطلق زهير وغايته عزل القيروان عن شرق بلاد المغرب حيث توجد أوربة قبيلة كسيلة ، ولما أدرك كسيلة الغاية المقصودة من هذا التحرك فإنه أسرع إلى مكان يعرف باسم « ممس » على بعد نحو يوم من القيروان حتى يكون قريباً من وطنه إذا اضطرت له الأحداث إلى التراجع ، غير أن زهير قد تمكن من تحقيق خطته فعزل ممس عن شرق الجزائر وتحقق له النصر فى هذه المعركة . وبعدها استطاع المسلمون أن يستعيدوا بلاد المغرب الأوسط ، حتى قيل آئذ : « إن خيل زهير بلغت نهر ملوية وشرب الجند من مياهه » .

وهنا تخوف البيزنطيون من أن يستعيد المسلمون هيمنتهم على بلاد المغرب ، وما كان أمامهم إلا أن يفسدوا فتوح زهير فعمدوا إلى شن الإغارات البحرية من

قواعدهم على شرق المغرب متوسعين في تلك الإغارات حتى وصلوا برقة ، وأدرك زهير خطورة موقفه وأن الأمر يقتضى أن يطارد تلك الإغارات البحرية حتى يأتيه المدد من دمشق . إلا أن الخلافة الأموية كانت مهمومة بالقضاء على ثورة عبدالله بن الزبير ، وفي هذا الوضع الحرج ظل زهير في نضاله ضد البيزنطيين حتى لقي ربه شهيداً في كمين دبره له أعداؤه على ساحل برقة . وكان لهذه الكارثة أثرها الأليم على الخلافة من جهة ، وعلى والى مصر محمد بن عبد العزيز من جهة أخرى .

وفي هذا الوضع المتأزم جاء إلى مصر أحد قادة العرب المرموقين وهو موسى ابن نصير وانضم موسى إلى هيئة المستشارين العاملين مع واليها عبد العزيز بن مروان . وكان أن اتجه هذا القائد إلى الميدان الإفريقي وكأن الأقدار قد ادخرت موسى بن نصير لدوره القيادي الخالد في الميدان الإفريقي ، ولقد تعاون الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر في مواجهة الموقف الخطير في الميدان فقد قر في أذهان أصحاب الشأن في الدولة الإسلامية أن الروم يعملون على تشويه صورة الجيوش العربية في نظر أهل المغرب بوصمه بأنه عاجز عن أن يتم فتح شمال إفريقية ، هذا فضلاً عن أنه لا ينبغي ألا ينسى أولو الأمر أن قائدين عظيمين راحا ضحية غدر الروم ، وبعد استعراض الحال على هذا النحو وقع اختيار الخليفة على حسان بن النعمان ليكون قائد قوات المسلمين في الميدان الإفريقي ، وانطلق حسان من مصر سنة ٧٦ هـ ، ٦٩٦ م ، وهدفه المحدد تدمير قواعد الروم في شمال إفريقيا فتوجه أولاً إلى مدينة قرطاجنة أهم القواعد البيزنطية على الساحل الإفريقي فأرغم قواتها على الفرار غير أن الروم وإن أظهروا الفرار فإنهم أضمروا معاودة الرجوع إليها بعد أن يغادرها حسان بقواته ومما شجع الروم على اتباع هذه الخطة ما كان لهم من حصون كثيرة متناثرة في المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وهذا ما وقع فعلاً بمجرد أن ترك حسان قرطاجنة قاصداً القيروان ، حتى وصلت الأنباء بأن الروم عادوا إلى قرطاجنة من الجهات التي

حولها فاعتصموا بها مسرعين وأكثر من هذا ، فإنهم أصلحوا حصونها وأسوارها ، فكرَّ حسان راجعاً إلى المدينة واقتحمها بعد قتال ضارٍ كانت هزيمة الروم نكراء مما اضطرتهم إلى التماس النجاة في السفن التي أقلتهم إلى الجزر القريبة من الشاطئ ولم يجد حسان بداً من العودة إلى القيروان ليعطي جنده حقهم من الراحة في الوقت الذي لم يكن يعلم ، أن للروم مواقع حربية في بعض المدن الساحلية القريبة من قرطاجنة ، وقبل أن ينال جنده راحتهم وجد نفسه مضطراً إلى أن يلتحم مع العدو البيزنطي في معركة كبيرة في شرق بلاد المغرب ، فقد علم أن هناك امرأة تسمى الكاهنة ، جمعت كثيرين من قبيلتها وهي قبيلة جراوة القاطنة في جبال أوراس لمواجهة الجيوش الإسلامية .

ولقد جاءت استعدادات الكاهنة كرد فعل للدعاية التي روجها البيزنطيون ضد القوات ، لأن قبيلة جراوة قريبة من الساحل وعلى صلة بالروم هذا فضلاً عن أن الكاهنة كانت قد تزوجت أحد كبار الروم وكان لها منه ولد ، وعلى هذا فما كاد حسان يقصد ملاقة الكاهنة حتى وجدها مستعدة لملاقاته ، ونشبت معركة كانت نتيجتها أن هُزِمَ حسان فأرغم على التراجع بل بالانسحاب لا من القيروان وحدها ، بل من معظم بلاد شمال إفريقيا ، وأقام حسان جنده عند أنطابلس القريبة من مصر على أمل أن يأتيه المدد وتعليمات الخلافة . ووصلت أبناء هذه الكارثة العسكرية الفادحة إلى مصر حيث كان موسى بن نصير مقيماً . وأخذ ذلك القائد يستمع إلى الأسباب التي أدت إلى الكارثة ثم استخلص مما سمع ما يفيد عند ملاقة العدو ، وبعد خلافات ومداومات أعاد الخليفة عبد الملك بن مروان القائد حسان بن النعمان إلى الميدان مرة ثانية ، وقد استغرق إعداد الحملة الثانية خمس سنوات انطلق المسلمون بعدها إلى شمال إفريقيا سنة ٨١ هـ ، ٧٠٠ م ، وقصد حسان مباشرة إلى الكاهنة ، وكانت قد اصطنعت سياسة حربية جديدة تقوم على تخريب البلاد أمام الزحف الإسلامي وهو التخريب الذي وصفه أحد المؤرخين بقوله : « كانت إفريقية ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن

منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألف ميل فخربت الكاهنة ذلك كله». ورغم اتباع الكاهنة لسياسة حرب الأرض المحروقة فإن حسان انتصر عليها، ويرجع الانتصار في أسبابه إلى أهل البلاد كرهوا الكاهنة لما جلبته عليهم من خراب، فابتعدوا عنها مرحبين بالجيوش العربية، وبعد أن انتصر حسان على الكاهنة فإنه توجه مباشرة إلى مدينة قرطاجنة فطرد من بها من الروم ثم دمرها تماماً حتى لا يفكر العدو في العودة، ولتكون درعاً يحمي القيروان والفتوح الإسلامية.

وبذلك أثبت حسان بن النعمان أن للفتوح الإسلامية غاية واحدة هي نشر الإسلام والتواصل بين الناس على سنة الإخاء والمساواة، وما كانت الثغور الساحلية إلا لسلامة عمليات الاتصال الاجتماعي وحمايتها من التشويش والتشويه. ثم عاد حسان في السنة نفسها إلى دمشق ليعرض على الخليفة عبد الملك بن مروان تفاصيل المعارك والوقائع التي دارت في حملته الثانية.

تحرير إقليم الزاب :

رغم الانتصارات التي حققها حسان بن النعمان في حملته الثانية إلا أن والى مصر عبد العزيز بن مروان وجد أنها غير كافية فإنه لا تخرج عن أسلوب الكر والفر الذي اتبعه من سبقوه من القادة العرب، وأن الواجب أن يقتضى أن تتصف الفتوح العربية في مرحلتها الجديدة بالاستقرار وأن يكون الاستقرار منطلقاً للفتوح الجديدة والمتشعبة، وهذا الأمر لا بد له من قائد صاحب خبرة متميزة بالمجال الإفريقي. ولم يكن صاحب هذه المكانة إلا موسى بن نصير، وهنا أقال عبد العزيز ابن مروان حسان بن النعمان في رسالة قال له فيها: « أقعد في بيتك وسيتولى هذا الأمر من هو خير منك وأولى بك منه في تجربته معرفته وسياسته ويغنى الله أمير المؤمنين عنك » ولئن الخليفة كان يؤيد أن تكون القيادة في شمال إفريقيا لحسان إلا أنه استجاب لرأى أخيه عبد العزيز وكتب إليه يقول: « أما بعد،



فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان وتوليتك موسى مكانه وعلم الأمر الذى له عزلته ، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيت وولايتك من وليت ، فاستوص بحسان خيراً ، فإنه ميمون الطائر والسلام » ثم جاءت إجابة عبد العزيز بن مروان بما يفيد ثقته بموسى بن نصير فكتب إلى الخليفة يقول: « أما بعد، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى عزل حسان وتوليتى موسى بن نصير وقد كان مثلها منى منتظراً فى موسى ، ويعلمنى أنه قد أمضى لى من رأى فيما أمضيت وولايتى من وليت ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان الذى فتح الله على يديه ، ولم أعد على نظرى لأمر المؤمنين بأن عزلت حسان ووافيت موسى فى يمن طائره وحسن أثره ، فأما قول أمير المؤمنين قد كنت أنتظرها منك لقد كنت لها فيه مرصداً ، ولأمر المؤمنين أن يسبق بها منتظراً حتى حضر أمر جهدت فيه نفسى لأمر المؤمنين ولنفس الرأى والنصيحة والسلام .

ثم أصبح موسى بن نصير قائداً عاماً للميدان الإفريقي . وقد استهل حياته الجديدة بأن أوضح للجند حين قابلهم للمرة الأولى السبب الذى من أجله حدث ذلك التغيير فوقف بينهم خطيباً وقال لهم : « أيها الناس ، إن أمير المؤمنين أصلحه الله رأى رأياً فى حسان بن النعمان فولاه ثغركم ووجهه أميراً عليكم ، وإنما الرجل فى الناس بما أظهر والرأى فيما أقبل وليس فيما أدبر ، وإنما الأمير «أى عبد العزيز بن مروان والى مصر» صنو أمير المؤمنين وشرائكه ، ولا يتهم فى عزمه ورأيه ، وقد عزل حسان عنكم وولانى مكانه عليكم ، ولم يأل أن أجهد نفسه فى الاختيار لكم ، وإنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى منى حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها ، فإنى أخطئ كما تخطئون وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر المؤمنين - أكرمه الله - لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله قضاؤها على ما عز وهان من المؤاساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

ومن الدراسات الميدانية التى قام بها موسى بن نصير وفي مصر تمكن من أن



يضع خطته بدقة محسوبة موفقة ومما استفاده من دراساته أنه ربط بين طبيعة الأرض وبين الأعمال الحربية . وهذا ما جعل حملاته تختلف عن سبقه الذين مردوا على مبدأ الكر والفر . أما هو فإنه اعتمد على أن تكون له قاعدة أصلية ينطلق منها حسب خطط متواترة ومتكاملة . فعمل أولاً على أن يؤمن القيروان في صلتها بإقليم الزاب بشرق بلاد المغرب ، وذلك على هدى من خطة القائد دينار أبي المهاجر الذي كان يؤمن بأنه ما لم تكسب القيروان عطف أهالي الزاب فلا فائدة ترجى ، وقد تبين رجحان هذه النظرية حين اصطنع الروم من هذه المنطقة مجالهم لإفساد كل تقدم للمسلمين إلى سائر أنحاء شمال إفريقيا ، الأمر الثاني أن موسى ابن نصير أدرك أهمية التقسيمات الإدارية التي وضعها الروم لشمال إفريقية فكانت لها فائدتها الكبرى في تنظيم خططهم الحربية ، ولقد كانت هذا التقسيم يضم بلاد تونس الحالية مع الأجزاء الغربية من طرابلس ، كما يشمل أيضاً ما امتد إلى التخوم الشرقية لبلاد الجزائر الشرقية الحالية إلى بجاية في ولاية قسطنطينة ، فكان إفريقية وأرض الزاب الجزائرية تعد عماد الامتداد الواسع لبلاد شمال إفريقيا كلها من حدود مصر إلى سواحل المحيط الأطلنطي ، وعلى هذا فإن تلك الأرض تعتبر الحلقة بين برقة وطرابلس شرقاً وبين الأقاليم التي أسماها الجغرافيون اليوم والمؤرخون من شمال إفريقيا اسم « المغربين » الأوسط والأقصى ، فإذا رسخت أقدام المسلمين في إفريقية وإقليم الزاب فإن معنى هذا أن الفتوح الإسلامية كتب لها البقاء في كل أنحاء شمال ولا سيما في المغربين الأوسط والأقصى .

ولقد أظهر موسى بن نصير على عزمه على إحداث تغيير جذري في تنظيم العمليات الميدانية في اليوم الأول من دخوله القيروان ، ولقد كشف عن ذلك العزم عندما أعلن أنه سيبدل قصارى جهده في تطهير إفريقية ، وإقليم الزاب من الروم وعملائهم من أهل البلاد ، وذلك حتى لا نعطي فرصة للعدو على إحداث مفاجآت بين صفوف قادة الفتوح العربية ، ولم يضمم موسى بن نصير هذه الخطة بينه وبين رجاله ، ولكنه أعلنها على الجميع فقال لهم : « أيها الناس ، إنما كان

قبلى على إفريقيًا أحد رجلين : مسالم يحب العافية ويرضى بالدون دون العطية ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة راض بالهوينى . وليس أخو الحرب إلا من اكتحل بالسهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من النعم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم أو يبلغ النفس عذرها فى غير حرق يريده ولا عنف يقاسيه ، فتوكلا فى حزمه جازماً فى عزمه ، مستزيداً فى علمه مستشيراً لأهل الرأى فى إحكام رأيه متحنكاً بتجاربه ، ليس بالمتجانبن إحجاماً ولا بالمتخاذلن إحجاماً ، إن ظفر لم يزد الظفر إلا حذراً ، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً ، راجياً من الله حسن العاقبة فذكر بها المؤمنين ورجاهم إياهم لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩] أى الحذرين . وبعد : فأن كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ، وإيم الله لا أريم هذه البقاع ، والجبال الممتعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها أو يحكم الله وهو خير الحاكمين .

لقد كان قدوم موسى بن نصير محفوفاً بالخطوب والمهالك بسبب الخراب الذى تسببت فيه الكاهنة وبسبب سياسة عملاء الروم من أهل البلاد . وللتدليل على ذلك أن أحد المؤرخين قال : « إن قدوم موسى إفريقية وما حولها مخوف بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا فى العيدن لقرب العدو منهم ، وكانت جبالها كلها محاربة لا ترام والسهل عامة » .

لهذا الموقف الخطير فإن موسى بن نصير نظم قواته تنظيمًا حربيًا محكمًا ، وكأنه كان ينشد من وراء ذلك أن يوحى إلى أهل : « إفريقية والزاب » أن القيادة العربية مصرة بكل قوة وحزم على إقرار النظام والأمن فى كل أنحاء البلاد ، ولجعل هذا الشعار حقيقة عملية ، فإنه وزع الأعمال الحربية على القادة الذين هم تحت إمرته ويكونون هيئة أركان الحرب . وقد شرط لهم أن تكون ضرباتهم فى

وقت واحد لإشاعة الرعب في العدو وتمنعه من أن يلتمس طرقاً للهرب أو المرواغة والتحايل . وكانت القيادة العامة التي تعاونت مع موسى بن نصير خير عون على تنظيم خطته وقد تألفت هذه القيادة من أبنائه الأربعة : عبد الله ، ومروان ، وعبد الملك ، وعبد العزيز . وكذلك من مجموعة من كبار المحاربين كان منهم أبناء عقبة ابن نافع الفهري وهم : عياض وعثمان وأبو عبيدة . هذا فضلاً عن مجموعة من أهل البلاد الذين أسلموا وحسن إسلامهم ولعل أشهرهم جميعاً هو طارق بن زياد . ولم يكتف موسى بن نصير بهذه النخبة الممتازة من القادة بل إنه هو نفسه كان ينزل في صفوف الجند متنقلاً بينهم ليتعرف على ما قد يكونون بحاجة إليه مشجعاً لهم رافعاً من روحهم المعنوية ، ولا يترك فرصة بغير أن يفيد منها في هذا المجال ، ومن ذلك أنه تصادف وهو على الجيش الأول أن : « أتى عصفور فوق على صدره فأخذه موسى فدعى بسكين فذبحه موسى ولطخ بدمه صدره من فوق الثياب ورتف ريشه وطرحه على صدره ونفسه ثم قال : « الفتح ورب الكعبة ، والظفر إن شاء الله » .

ثم تحركت الفرق : تحركت الفرقة الأولى بقيادة عبد الله الحشيني نحو قلعة زغوان وما حولها وهي منطقة جبلية تقع بين القيروان وتونس ، وكان يقيم بها جملة من عملاء الروم كانوا خطراً محدقاً بالقيروان ، كان من دأبهم الإغارة على المسلمين مراقبين لتحركاتهم عساهم يستطيعون إثارة الفوضى بينهم . ولقد تمكنت قوات موسى بن نصير من أن تبديد ذلك الخطر تماماً . وما هو أكثر من ذلك فإنها بعثت برأس الفتنة إلى القيروان . وفي هذا الوقت أرسل موسى بن نصير أحد أبنائه لقهر بعض الخارجين عن الطاعة في هذه المنطقة ، أما ابنه الثاني وهو مروان فإنه توجه إلى منطقة أخرى من إفريقيا حيث أنزل بعملاء الروم عقاباً رادعاً مما جعلهم يخضعون للإدارة الجديدة ، وهنا أدركت نواحي إفريقيا والزاب وربما لأول مرة أن قوة الجيوش العربية مما لا يُستهان بها . ولم تغفل عين موسى بن نصير عن القبائل التي سرى بين أفرادها دعايات الروم المغرضة فكان يباغتهم بهجمات ترددهم

إلى صوابهم ، وبهذا التأديب المتصل استقر النظام والأمن فى إفريقيا والزاب مما جعل أهلها يدفعون دسائس الروم .

أمام تلك الانتصارات أرسل موسى بن نصير إلى والى مصر عبد العزيز بن مروان يهنئه بالفتوح التى تمت وبما أفاء الله به على المسلمين من مغنم كثيرة ، وكانت سعادة عبد العزيز بن مروان بتلك الأنباء غامرة حتى أنه أرسل رسالة إلى الخليفة قال له فيها : « أما بعد ، فإنى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان كالمتراهنين أرسلنا فرسهما غايتهما فأتيا معاً وقدمت الغاية لأحدهما ولك عنده مزيد إن شاء الله ، وقد جاءنى يا أمير المؤمنين كتاب من موسى وجهته إليك لتقرأه وتحمد الله عليه والسلام وما إن استقرت الأمور تماماً فى القيروان وإقليم الزاب لموسى بن نصير حتى انتقل إلى المرحلة التالية من الفتح فوجه حملاته نحو المغرب الأوسط ولا سيما وقد أصبح ظهره آمناً تماماً فى إفريقيا والزاب فكلف أحد قادته وهو عياش بن أخيل بالتوجه إلى المغرب الأوسط ، وقد تمكن عياش من أن يدخله فى جماعة من المسلمين ، وكانت تعليمات موسى بن نصير إلى هذا القائد وغيره من القواد فى غاية الحكمة والسياسة ، فعليه أن يعامل القبائل التى تطلب الصلح معاملة إنسانية رحيمة ، وأن يسمح لنفر من أهلها بتدبير شؤونها ، ثم استن موسى لقواده أمراً أن يأخذوا رهائن من تلك القبائل لضمان احترامهم للعهود والمواثيق . وكان من شأن هذه السياسة أن جعلنا نفراً من تلك القبائل يقيمون وسط الجنود العرب ويختلطون بهم ، ومن ثم تعرفوا على الأهداف الحقيقية للفتح ، وإنها لنشر الإسلام بينهم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العدل والتعاطف الإنسانى . وكان ذلك سبباً فى أن يدخل أهل المغرب الأوسط فى دين الله أفواجاً . هذا فضلاً عن ، انخراط الكثيرين منهم فى الجيوش الإسلامية .

ولإتمام تطهير المغرب الأوسط من عملاء الروم ، فإن موسى بن نصير توجه إلى منطقة « سجوما » وهى التى استشهد فيها عقبة بن نافع ، وقد أعد موسى

لهذه العملية خطة محكمة التدبير متكاملة الأجنحة ، وذلك بعد أن عين ابنه عبد الله نائباً عنه فى القيروان ، وتولى هو القيادة العامة ، ثم نظم قيادات الأجنحة على هذا النسق : عياض بن عقبة بن نافع الفهري فى المقدمة ، وزرعة بن أبى مدرك على الميمنة ، والمغيرة بن أبى بردة القرشى على الميسرة ، ونجدة بن مقسم على ساقه الجيش . وقد حرص موسى بن نصير فى تنظيمه هذا على أمرين :

الأول : أن يجنب جنده أقل خسارة ممكنة .

الثانى : إدراكه أن العملية خطيرة وجسيمة . ثم زحف بجيشه حتى بلغ نهر ملوية حيث تصادم مع فلول العملاء التى عاونت الروم فى التصدى لعقبة بن نافع فأنزل بتلك الفلول هزيمة رادعة كانت نصراً كبيراً بغير شك ، ولئن كان موسى بن نصير قد لقى من أبناء عقبة بن نافع معونة صادقة كانت سبباً فى نصره إلا أنه كبح جماح هؤلاء الأبناء حتى لا تكون حربهم عملية انتقامية للأخذ بثأر والدهم . ثم رجع موسى بن نصير إلى القيروان ظافراً بالنصر بعد أن تحقق إخضاع المغرب الأوسط ، وكانت عودته لإعادة المدارس من ناحية ، ولدعم فتوحه بالقوات من ناحية أخرى . وذلك للتوجه نحو المغرب الأقصى .

امتداد الفتوح إلى المغرب الأقصى :

وعلى نفس المنهاج سار موسى بن نصير لفتح المغرب الأقصى فقد وزع نشاطه القتالى فى الأنحاء فى وقت واحد ليوقع الرعب فى نفوس أعدائه . وقد اتفقت هذه السياسة مع الطبيعة الجغرافية للبلاد . فمن الحقائق الجغرافية للمغرب الأقصى أن له وجهين ، أحدهما يطل على البحر المتوسط ويعرف باسم بلاد غمارة « أى بلاد الريف حالياً » والوجه الآخر غربى يطل على البحر المحيط «المحيط الأطلنطى» ويحيط به جبال درن ، وهى جبال أشلس الحديثة . وهذه الواجهة الأخيرة تميز المغرب الأقصى عن بقية البلاد المجاورة له ، وفضلاً عن هذا فإن الجبال تشقها أودية الأنهار التى تتجه نحو المحيط ومن أهم هذه الأنهار وادى سبو الذى يكون منخفضاً فى شمال البلاد عرف باسم السوس الأدنى « خلف طنجة »

تميزاً له عن المنخفض الآخر الواقع في الجنوب الغربي للبلاد والذي يشقه وادي السوس « الذي يصب عند أغادير » ويعرف بالنسبة له باسم « السوس الأقصى » .

وإلى تلك الجهات أرسل موسى ابنه مروان يقود فرقة كبيرة قصدت السوس الأقصى ، وفي نفس الوقت أرسل قائده زرعة بن مدرك إلى القبائل التي تقطن جبال أطلس العليا وتمكن القائدان من إحراز نصر عظيم ، فقد كانت الحملتان أشبه بنزعات عسكرية ذلك لأن أهالي البلاد كانوا يفتدون أفواجاً للدخول في الإسلام وهم فرحون ، وكأنهم قد آمنوا بأن انتصارات موسى الباهرة ، وحزمه في إدارة البلاد وعدله بين الناس جعلهم يؤمنون بأن القيادة العربية جديرة بالطاعة .

وهكذا دخلت بلاد المغرب في طاعة موسى بن نصير وذلك من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة . ، لم يبق سوى بعض المدن الساحلية بالمغرب الأقصى وكانت تخضع لأحد أمراء الروم اسمه يوليان . وكان المتجه أولاً نحو طنجة وما يحيط بها وتعرف باسم السوس الأدنى وما استيلاء موسى بن نصير على تلك الجهات في غاية السهولة ، فقد دخلت قبائلها راضية في دين الله وجاء انتصار موسى في طنجة محققاً للصورة التي رسمها لنفسه لبلاد المغرب . ولقد أولى موسى تلك البلاد المغربية عناية خاصة فقد وقع اختياره على أحسن رجالها خبرة وكفاية من قبيلة نفاوارة بجنوب شرق بلاد المغرب وإنه لطارق بن زياد فأسند إليه حكم ولاية طنجة . وقد أفصحت تلك الخطوة الكبيرة عن مدى بعد النظر والخبرة السياسية التي كان عليها موسى بن نصير ذلك لأن اختياره لأحد أبناء القبائل سوف يعمل على تأليف أهل البلاد وينقل إلى حياة جديدة في ظل الإسلام . وقد زود موسى ولاية طنجة بحامية مؤلفة من ١٧٠٠ جندي كما أمدها بمجموعة من فقهاء العرب ليعلموا أهل البلاد أصول الإسلام وشريعته . ولكم نجحت سياسة موسى بن نصير هذه فقد هرع أهالي طنجة والسوس الأدنى إلى الدخول في الإسلام ، وأكثر من هذا فإنهم انضموا إلى قوات المسلمين حتى بلغ عددهم اثني عشر ألف جندي وكانوا على درجة عالية من الطاعة والنظام .

ولم تبق من المدن المغربية بعد ولاية طنجة صامدة عنيدة سوى مدينة سبتة حيث مقر الأمير يوليان ، ويظهر أن موسى بن نصير لم يشأ أن يبدد وقته أمام هذه المدينة التي أصبحت عاجزة تماماً بسبب الحصار المضروب عليها من القوات الإسلامية ، هذا فضلاً عن أن قربها من طنجة جعل من السير متابعة ما يجري بداخلها من تحركات ، هذا في الوقت الذي وجد فيه موسى إمكانية الإفادة من مدينة سبتة في مراقبة شبه جزيرة أيبيريا مراقبة أحوال البلاد التي تجاور أرض ولايته . فكأن الإبقاء على سبتة في حوزة يوليان يتيح للمسلمين دراسة الأحوال السياسية السائدة عن جيرانهم الأوربيين حيث لا يبعدهم عن سبتة سوى مضيق من المياه أسماء العرب بحر الزقاق « مضيق جبل طارق الآن » وقد أثبتت الأحداث صدق فراسة موسى بن نصير لأن إرجاء السيطرة على تلك المدينة جعل منها النافذة التي يطل منها عرب المغرب على غرب أوربا مما مكنه من حمل راية الإسلام إلى ذلك الميدان الجديد .

وبعد أن استقر شأن ولاية طنجة إلى موسى بن نصير فإنه جعل من مدينة تلمسان بغرب المغرب مقراً لطارق بن زياد يحكم منها البلاد ويكون في نفس الوقت نائبه في المغرب الأقصى .

ثم رجع موسى إلى القيروان ليعد الخطط التي يأمن بها تأمين النظام في الولايات التي نشر عليها راية الإسلام . وفي القيروان أيضاً اتخذ اتجاهه الحربي منحني جديداً فقد عمل على تأصيل البحرية العربية وبعث الحيوية في الأساطيل الإسلامية ليعيد الروم تماماً من القواعد التي يقيمون بها في الجزر القريبة من أرض المغرب وأكثر من هذا ليمهد الطريق أمام السيادة العربية الإسلامية على مياه غرب البحر المتوسط .

لقد أبدى موسى بن نصير اهتماماً خاصاً بالبحرية منذ صدر شبابه فقد عمل مع والده في خدمة معاوية بن أبي سفيان ، إذ إن البيت الأموي قد أبدى اهتماماً خاصاً ببناء الأساطيل ، ومن ثم عمل معاوية على مهاجمة الجزر القريبة من الشام

والتي جعل منها الروم قواعد لتهديد الشواطئ الشامية والمصرية التي أصبحت تحت حكم المسلمين ، ومن هذه البحرية الأولى تعلم موسى أن الامتداد البري ليس كافياً لاستتاب الأمن والاستقرار .

فكان سلامة بلاد المغرب تتطلب الاعتماد على النشاط البحري في مياه غرب البحر المتوسط وذلك لوجود قواعد بحرية للروم في مقدورها أن تقضي على العرب وأهل البلاد من المغاربة ، مما جعل موسى يهتم ببناء بحرية قوية لبلاد المغرب لمواجهة تلك المحاولات الرومية المتكررة في الإغارة على الشواطئ الشمالية لإفريقيا فكانت تقطع خطوط الإمداد والتموين ولاسيما أيام قادة الفتوح الأولى للمغرب ولم يكن من المستبعد أن يعاود الروم نشاطهم البحري بعد أن ذهبت دولتهم من شمال إفريقية لأنهم قد نظموا حياتهم على الاعتماد على فتوحات شمال إفريقيا من القمح وغيره .

وكان أمراً بدهياً أن يبدأ موسى بن نصير عمله في هذا الميدان بتوسيع دار الصناعة التي كان قد شيدها حسان بن النعمان في مدينة تونس ، وقد خصصت دار الصناعة هذه لبناء السفن الحربية حيث عمل بها عدد كبير من الصناع المصريين المهرة ، وكان عبد العزيز بن مروان قد بعث بهم إلى تلك القاعدة وهي بداية عملها، وفضلاً عن هذا فإن موسى بن نصير نظم حركة الملاحة البحرية في قاعدة تونس هذه بما يجعل أساطيل العرب في مأمن من إغارات الروم . إذ إن هذه القاعدة توجد على بحيرة قريبة من شاطئ خليج قرطاجنة وتعبّر السفن من تونس في البحيرة ثم تنطلق منها إلى مياه البحر المتوسط ، وذلك من فتحة البحيرة يقع عليها مرسى يسمى « رادس » ولما كانت البحيرة ضحلة لا تأذن في بعض الأحيان بمرور السفن فإن موسى بن نصير أمر بشق قناة بين مرسى رادس والقاعدة في تونس بطول اثني عشر ميلاً . وقد جعلت هذه القناة من المدينة مشتى للمراكب الحربية إذ تحميها من العواصف والأنواء في فصل الشتاء يُضاف إلى هذا أنه كان بالإمكان إغلاق هذه القناة عند اتصالها بالبحر عن طريق سلسلة قوية . وهكذا

بفضل تنظيم موسى بن نصير أصبحت تونس مزدهرة العمران فتحقق الغرض من إقامتها وهي : « أن تكون قوة واعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب وتجاهد الروم في البر والبحر وأن يغار منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً التي أصبحت حصناً للمسلمين ومعسكراً لهم » وقد نشطت أقوال الحث على الرابطة في هذه القاعدة فمما يروى أن علماء المشرق كتبوا إلى أهل إفريقية : « مز رابط عنا يوماً واحداً حججنا عنه حجة » ودلالة هذا الكلام أن المشرق العربي كان مهتماً غاية الاهتمام بشقيقه المغرب العربي بتشجيع النشاط البحري حماية له .

وبهذا النشاط الحربي البحري أحرز موسى بن نصير انتصارات متتابة في دفع عدوان الروم عن الشاطئ المغربي كما منعت العدو من أن يقوم بقطع مواصلات المسلمين في تلك النواحي الواسعة ، ولم يكتف موسى بعمليات الدفاع البحري ولكنه جهز الأساطيل التي قامت بالهجوم على قواعد الروم القريبة من شمال إفريقيا .

وبذلك أثبت للعدو الرومي أن المسلمين قادرون على ملاحقته في كل مكان من السواحل ، وكانت الغاية الهجومية التي قصد إليها موسى بن نصير الاستيلاء على جزيرة قوصرة لأن تلك الجزيرة موقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال إفريقيا ويساعد في نفس الوقت على تهديد الأسطول الرومي في جزيرة صقلية .

لقد خرج الأسطول المغربي من قاعدته في جزيرة قوصرة بعد أن استولى عليها فأغار على صقلية فخربها ودمرها ولم يسلم الأسطول الرومي الراقد في موانئها من التخريب والتدمير ، وكانت من أشهر الحملات البحرية للأسطول تلك التي قام بها عياش بن أخيل ، فقد أغار على مدينة سرقوسة « سيراكوز » وغنم جميع ما بها وقفل سالماً .

ويتصف النشاط البحري الذي جهزه موسى بن نصير بوجود تعاون بحري

صاقد ومتكامل بين أساطيل المغرب وأساطيل الأقاليم الإسلامية الأخرى وكان هدفها جميعاً ضرب قواعد الروم في غرب البحر المتوسط . ولم يكتف موسى بذلك ، بل إنه بعث أساطيله لمطاردة الروم وضرب قواعدهم بجزر ميورقة ومنورقة وهي تقع قريباً من إسبانيا التي كان يحكمها القوط الغربيون . وتمكنت الأساطيل الإسلامية من السيطرة على تلك الجزر فكان أن أبطلت غارات الروم المتعاقبة على شواطئ شمال إفريقيا .

ثم نقل هذا النصر البحري الساحق بلاد المغرب من الميدان الإفريقي إلى ميدان غرب أوروبا حيث شبه جزيرة إيبيريا ، وكان موسى بن نصير يتطلع إلى نشر الإسلام في أوروبا متخذاً من جزر ميورقة ومنورقة القاعدة الجديدة للفتح الإسلامي .

فتح الأندلس

كان موسى بن نصير يشرب ببصره وبصيرته إلى الاستيلاء على ثغر سبتة ثم يتقدم منه للاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا أو إسبانيا وهي البوابة الجنوبية الغربية لأوروبا ، ويرجع أهل إسبانيا في أصولهم القديمة إلى الكلت القدماء Celts ثم استعمرها اليونان زمنًا ، وبعد اليونان استعمرها الفينيقيون ، ثم أصبحت مستعمرة لقرطاجة في شمال إفريقيا ، ومن إسبانيا خرج القائد العربي الفينيقي هانيبال ليفتح إيطاليا ويسقط الحكم الروماني غير أن الرومان تمكنوا من إسقاط قرطاجة وأصبحت إيطاليا ولاية رومانية . وكان يسكن إسبانيا في ذلك الوقت جماعات متفرقة من البرابرة والأجناس المختلفة التي كانت منشرة في أصقاع الإمبراطورية الرومانية مثل : القوط الشرقيين ، والسويف ، والآلان ، فضلاً عن الوندال «الفاندال» الذين كانوا على شرقي الجزيرة ووسطها ثم تمكن القوط الغربيون الموجودون في جنوب غالة «فرنسا الآن» من أن يبسطوا نفوذهم على المتبربرين في إسبانيا ، ولئن أبدى الوندال بعض المقاومة إلا أن القوط الغربيين قهروهم ثم أرغموهم على الرحيل إلى الجنوب ، ولم يجد زعيمهم الوندال آئذ مناصباً من العبور إلى إفريقيا في القرن الخامس الميلادي ؛ لأنه لم يستطيع الصمود أمام

ضربات القوط الغربيين .

ولقد عُرِف جنوب إسبانيا فيما بعد باسم فاندالوسيا أو إقليم الفاندال ، ثم أخذ العرب هذا اللفظ وصحفوه إلى « الأندلس » الذي أصبح فيما بعد علماً على شبه الجزيرة بكاملها . ولقد كان للقوط الغربيين دولة ذات شأن في إسبانيا ولكنها ما لبثت أن أصابها الانحلال بفعل التطورات الحضارية إلى أن استولى على الحكم الملك غيطشة « ويتزا Witiza » وتقول إحدى الروايات التاريخية أن أميراً من الأمراء واسمه رودريكو Raderic أو لذريق ثار على غيطشة ثم عزله وقتله فكان أن صار هو الملك وكان ذلك في سنة ٩١ هـ ، ٧١٠ م ، ولم يجد أبناء غيطشة مفرأً من الهرب من إسبانيا إلى إفريقيا ، وفي الحال صادر لذريق أملاكهم متهماً إياهم بأنهم من المتآمرين الخارجين على العرش . وعندما توجه العرب إلى فتح أسبانيا فإن أبناء غيطشة كانوا خير عون لهم على فتحها .

والأهداف من فتح العرب لإسبانيا كانت متفقة مع الغاية العليا للفتوح الإسلامية ألا وإنها نشر الإسلام في بقاع الأرض على اختلافها ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الغزو الأول للأندلس كان في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٧ هـ غير أن جمهور المؤرخين يجمعون على أن فتح إسبانيا وتوطن المسلمين بها كان في عهد عبد الملك بن مروان ، وذلك كان في الوقت الذي كان فيه طارق بن زياد ومعه جيشه المؤلف من العرب والبربر على الساحل الغربي عند طنجة وما حولها ينشدون ميداناً جديداً فيه يحققون نشر الإسلام ، ومما لا ريب فيه أن حصن سبته لم يغب عن نظر طارق ، وقد فشل المسلمون مرتين في الاستيلاء عليه وكانت المرة الأولى بقيادة عقبة بن نافع والمرة الثانية بقيادة موسى بن نصير . وكانت سبته في ذلك الوقت تحت سلطان الملك يليان ، ومما نعرفه من أبحاث المستشرق الهولندي دوزي Dozy ، والمستشرق الإسباني سافدرا Saavedr أن إقليم سبته كان في ذلك الوقت في دائرة أملاك الدولة البيزنطية وليس من أملاك إسبانيا القوطية كما أشيع وأذيع ، ولقد بدأ يليان حكمه وهو في سن باكرة وهي الفترة التي تمكن

فيها العرب من القضاء على أغلب المستعمرات البيزنطية كما تمكنوا من القضاء على الحكم البيزنطي في شمال إفريقيا ، واتفق ذلك مع الاضطراب السياسي الذي كان سائداً في الدولة البيزنطية مما أقعدها وأعجزها عن تنظيم شؤون ولاياتها القريبة والبعيدة فصارت من ثم نهباً للمغامرين ، فقد استقل الكونت يوليان بولايته عن الدولة البيزنطية يضاف إلى هذا أنه اتجه نحو قبائل البربر فوثق معها علاقاته الإنسانية والاجتماعية حتى حسبه الناس بريراً ، بل إن ابن خلدون زعم أنه رومي وآخرين كابن عذارى حسبوه قوطياً ، ويروي ابن الأثير أن عقبة بن نافع التقى بيليان في سنة ٦٣ هـ ، ٦٨٣ م ، وعندما غادر موسى طنجة إلى القيروان مولياً طارقاً على طنجة وما حولها ، أدرك يوليان أبعاد خطر المسلمين عليه ، فأخذ في ممالآتهم ومصانعتهم ، ومما تذكره الروايات أن طارقاً بذل جهداً للاستيلاء على سبتة غير أنه لم يوفق فاكتفى بأن صادق صاحبها . على أن المصادر العربية تؤكد أن يوليان هو الذي عرض على موسى بن نصير أن يغزو الأندلس كاشفاً له مدى ضعفها وهوان شأنها ، وأياً كانت الروايات والترجيحات فإن الطموحات الإسلامية في نشر الإسلام كانت تطمح في بلاد ما وراء البحر المتوسط .

ومن أجل هذا الهدف فإن موسى بن نصير كتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح الأندلس ، فكتب إليه الخليفة أن يقيم المسلمين في البر ، وإذا كان ، ولا بد فإن عليه أن يصطنع الحرص ، فيبعث بسرية تكون لجس نبض لأحوال تلك البلاد ، وفعلاً بعث موسى بسرية يقودها أبو زرعة طريف بن مالك ، وهو من البربر ، وكانت مهمته أن يستطلع ويستكشف ، وكانت السرية مؤلفة من أربعمائة جندي ومائة فارس تحملهم أربع سفن قدمها يوليان فعبر عليها المسلمون البحر من سبتة ، ونزلوا بجزيرة صغيرة تسمى بالوماس Palomas وقد عرفت بعد ذلك باسم جزيرة طريف أو رأس طريف أو تريفاً عند الأسبان Tarifa وقد انضمت إلى المسلمين قوة من أتباع يوليان وأبناء غيطشة وكان ذلك في سنة ٩١ هـ ٧١٠ م ، ومن هذه الجزيرة قام بشن عدة هجمات خاطفة على الساحل غنم من

ورائها المسلمون مغانم كثيرة فضلاً عن كثير من السبي .

ولما وقعت عينا موسى على جملة المغانم وعلم أن الصراع على الحكم في مملكة إسبانيا محتدم فإنه أخذ يعد حملة كبيرة ليقوم بعملية الفتح الحقيقي . فكان أن وقع اختياره على مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة ليكون قائد تلك الحملة ، وقد تألف جيش طارق من اثني عشر ألف مقاتل معظمهم من البربر كما أضيف إليهم بعض كبار الجند من الأمويين العرب ، ونزلت طارق عند المنطقة التي عرفت باسمه بعد ذلك وهي جبل طارق ، ثم عبر المضيق الذي عرف باسمه ، وعلى إثر العبور قصد طليطلة عاصمة القوط ، وأثناء مسيره إليها هزم جموع القوط الذين تصدوا له ، بعدها مباشرة التقى بجيش لذريق في سهل شريش Xeres على القرب من قادس شمالي شذونة ، واستمرت المعركة سبعة أيام ، تحقق في نهايتها النصر لطارق وجنده . وكانت هزيمة القوط فادحة . وكان ذلك في سنة ٩٢ هـ ، ٧١١ م . وتعرف هذه المعركة باسم معركة شريش أو وادي لكة ، لأنها وقعت بالقرب من نهر وادي بكة أو لكة . ومما يذكر عن عنف المعركة أنه لما كان عدد جيش الأاسبان قبل المعركة أضعاف جيش طارق ، فإن طارقاً بعث إلى موسى يطلب منه المدد ، فأرسل موسى إليه خمسة آلاف جندي يقودهم طريف بن مالك إلا أن ذلك لم يرجح كفة المسلمين من حيث العدد ولكن رجحهم العقيدة الإيمانية التي ينافع المسلمون من أجلها ويسعون إلى نشرها ، وأيضاً كان يضم عدداً من أفراد الأسرة المالكة والتابعين لهم الذين يتلهفون على المغانم من أيسر سبيل ، يضاف إلى تلك الأسباب التي على أساسها حقق المسلمون نصرهم الكبير أن طارق بن زياد خطب في جنده خطبة زادتهم حماسة على حماسهم ، وكان مما جاء فيها : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقوات موفورة ، وأنتم لا وز لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم » .

ولقد ألفت موقعة شريش هذا الرعب في نفوس القوط ، فاعتصموا بالحصون والجبال وسار طارق في فتوحه ، وما أن وصل خبر نصره إلى إفريقيا حتى انضمت جموع غفيرة من الرجال إلى جيش طارق حتى أضحي جيشاً كبيراً جداً مما حمل طارقاً على أن يوزعهم في سرايا صغيرة إلى الجهات المختلفة من الأندلس ، وكان من آثار النصر أن دخل طارق طليطلة عاصمة القوط ، ثم استمر في مسيرة الفتح شمالاً حتى عبر جبال أشتوريش « أستورية » ، ثم واصل زحفه حتى اقترب من خليج بسكونية « غسقونية » ثم قفل إلى طليطلة حيث مكث لا يبرح مكانه كما أمره موسى ، ولما أن أتم المسلمون فتح طليطلة عاصمة إسبانيا فإن أبناء غطيشة تقدموا إلى طارق يلتمسون منه أن يحقق لهم ما وعدهم به . ويظهر أنهم كانوا يطمعون في أن ينسحب طارق وجنوده قانعين بالغنائم التي فازوا بها من حريهم فيعود أبناء غطيشة إلى عرشهم وسلطانهم ، غير أنه خاب رجائهم في طارق فقد أيقنوا أنه ما جاء إلى بلادهم إلا ليقيم بها لينشر الإسلام وأنه يكفي أن تعود إليهم أملاك أبيهم . غير أنهم لم ييأسوا فقد لجأوا إلى موسى بن نصير غير أن موسى أيد طارقاً في قراره .

ثم أمر موسى طارقاً أن يتوقف قليلاً عن زحفه حتى تتجمع القوات وتبين المواقع وحتى لا يتعثر المسلمون بين آفاق الديار الإسبانية ، وانتهاز الأسباب فرصة تبعث المسلمين فعادوا إلى التجمع وتوحيد قواتهم لإعادة مهاجمة القوات المسلمة ولما أحس طارق بذلك الخطر فإنه استنجد بموسى بن نصير الذي خف إليه مسرعاً نحو الأندلس على رأس جيش كبير من العرب والبربر ، وكان ذلك في سنة ٩٣هـ ، ٧١٢ م . وحدث وهو في طريقه أن فتح إشبيلية وكانت من كبريات المدن الإسبانية . ثم سار موسى نحو طليطلة حيث اشتركا في إتمام فتحها من جديد بعد أن كانت قد تمردت على المسلمين ، وبعد إعادة الفتح والتمكن منه فإن موسى بن نصير بعث برسوليه على بن رباح ، ومغيث الرومي ، إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليبشراه بالفتح العظيم .

ومن الجدير هنا أن نذكر خطة موسى بن نصير في فتح الأندلس : فبعد أن جمع الجيوش فإنه قسمها إلى قسمين : الأول بقيادته ، والثاني بقيادة طارق بن زياد ، وسار طارق بجيشه نحو جبال كتبريه فاستولى على أمايا ، واشترقة ، وليون . وتوجه موسى نحو إتمام فتوحه فأكملها بفتح إقليم قشتالة مدمراً المقاومة التي اعترضه في المقاطعة التي أطلق عليها العرب « بلد الوليد » « فاليدا دوليدا الحالية » ثم واصل سيره شمالاً حتى وصل خيخون Gigon في أقصى الشمال . بعدها أرسل سرية من فرسانه وصلت حتى البحر عند صخرة بولاي Renade Pe- lay . وعند هذا الخط البحري كان قد تم فتح أسبانيا عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي في أقاليم أشتريس وجبليقية التي اعتصم بها نفر من أشراف القوط .

ولقد أطلق العرب اسم الأندلس على الأقاليم التي كانوا يهيمنون عليها كما أطلقوا على الأندلس اسماً آخر هو الجزيرة .

على أن طموحات موسى بن نصير لم تتوقف عند حد جبال ألبرت « البرانس » فقد اتخذ عدته لفتح بلاد غالة أو فرنسا الحالية معزماً الاتجاه شرقاً حتى يبلغ القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، وهي التي لم يوفق العرب في فتحها على أن يواصل فتوحه ليصل إلى عاصمة الخلافة ، فيكون بذلك قد جعل من البحر الأبيض بحيرة عربية خالصة . لكن حدث بعد هذا أن استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك كلاً من موسى بن نصير وطارق بن زياد للحضور إلى دمشق وكان ذلك في سنة ٩٥ هـ ، ٧١٤ م .

وبعدها تولى أمر الفتوح في إسبانيا كلاً من عبد العزيز بن موسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقي ، أما عبد العزيز فإنه استكمل فتح شرق الأندلس وغربه واتخذ من مدينة أشبيلية عاصمة له . أما عبد الرحمن الغافقي فإنه عبر جبال البرانس وحارب حكام فرنسا من الفرنجة في معركة وقعت بالقرب من مدينة تور ومدينة بواتيه ولم يكن النصر حليف الغافقي . وقد عرفت هذه المعركة في

المصادر العربية باسم « معركة بلاط الشهداء » وكان ذلك في سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م ثم رجع الغافقي إلى الأندلس بعد أن أمن أطرافها الشمالية الشمالية وجعل من الأندلس جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الإسلامية وكأنها « الكم من ثوب الإسلام » حسب التعبير الذي جاء في المصطلح العربي .

وهكذا انتهت الفتوح في بلاد المشرق والمغرب تعلوها راية الإسلام وتبهرها كلمة: « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

فتوح وسط أوروبا

الأتراك والإسلام :

للأتراك عراقية أصيلة في الإسلام ، وللأتراك دور محسوب في الحضارة الإسلامية امتد تأثيرهم إلى وسط أوروبا .

فبداية فإن الأتراك يرجع اتصالهم بالدولة الإسلامية إلى الخلافة الأموية حين غزا القائد الأموي قتيبة بن مسلم بلاد ما وراء نهر جيحون سنة ٧٠٥ م ففي تلك البلاد نشأت ومنذ القرن السادس الميلادي عدة دويلات قبلية أنشأها الأتراك الذين هاجروا من بلادهم الأصلية في وسط آسيا . وصار الإسلام ينتشر رويداً رويداً في بلاد ما وراء النهر وتختفى الديانة الشامانية الوثنية التي تقوم على عبادة المظاهر الطبيعية الممثلة في الأصنام .

فلما كان عصر المعتصم العباسي أي سنة ٣١٨ هـ ٨٣٣ م ، أخذ الأتراك يهجرون مواطنهم الأولى إلى العراق ، ولا سيما وأن أم هذا الخليفة كانت تركية ومن هنا صار ميل الخليفة إلى الأتراك شديداً ، حتى إنه اصطنع منهم حرسه الخاص لإعجابه بحسن مظهرهم وجمالهم وشجاعتهم ، وقد أغراه هذا الميل والإعجاب إلى أن يشتري الكثيرين من الأتراك من سمرقند وفرغانة وأتى بهم إلى بغداد ، حتى إذا ما استقروا بالعاصمة فإنهم نالوا عناية خاصة من القائمين بالأمر فتعلموا اللغة العربية وآدابها . فإذا أتم الواحد منهم تعليمه الديني المقرر أصبح

عضواً في الحرس الخاص بالخليفة . ثم تطورت أحوال ذلك الحرس بأن زادت نفوذه بأن أصبح مصدراً للكثير من الاضطرابات في بغداد فلما حدث أن ساءت علاقته بأهل بغداد من العرب والفرس اضطر الانتقال ومعه حرسه وحكومته إلى سامراء .

وقد كانت تلك الأحوال من أسباب انتشار الإسلام بين الأتراك في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي . فقد أقبل شيوخ القبائل التركية على الإسلام بشغف وحمية ، بل إن أفراد قبائلهم اقتدوا بهم . وكذلك عمل خانات القبائل وشيوخها على هداية الأتراك إلى الإسلام ، ففي سنة ٣٤٩ هـ ، ٩٦٠ م ، أسلم الكثيرون من شيوخ القبائل على يد والي قشغر ختي إن عدد الذين أسلموا من الأتراك في تلك السنة بلغ حوالي مائتي ألف أسرة .

ثم أصبح للأتراك وزن سياسي كبير في بغداد حتى إن الخلافة العباسية وولايتها انتهت إليهم . ولئن حل البويهيون محلهم فترة من الوقت إلا أنهم سرعان ما عادوا إلى قوتهم ونفوذهم وذلك عندما تمكن الأتراك السلاجقة من الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥ م ، حين خضع لهم الخليفة القائم بأمر الله العباسي ولقد استطاع الأتراك السلاجقة أن يُدخِلوا في الإسلام الكثير من القبائل التركية من بلاد ما وراء النهر ، وأن يغروهم بالانتقال إلى العراق وغيره من البلاد الإسلامية في غرب آسيا .

نشأة الإدارة العثمانية :

وعندما نشبت الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى « بلاد الروم » نهضت مجموعات من القبائل التركية بغزوات مصغرة لنشر الإسلام والاستيطان في جزء من أجزاء الدولة البيزنطية . وتمكنت الدولة السجلوقية بأرض الروم من الاستقلال عن الدولة السجلوقية الكبرى بعد أن توفي عنها السلطان ملكشاه إذ إن هذه الدولة السجلوقية الكبرى قد تمزقت إلى أجزاء استقر بجزء منها

هو الذى أومأت إليه - أرطغرل وهو أبو عثمان مؤسس الإمارة العثمانية ، وقد خلف أرطغرل ابنه عثمان سنة ١٢٨٨ م ، وكان سنه آنذاك أربعة وعشرين عاماً وهو الذى لقبته به الدولة العثمانية . وقد عمل عثمان على توسيع مساحة إمارته حتى ضمت الإقليم المعروف باسم فريجيا فى التاريخ القديم ، وبدأ عثمان فتوحه التوسعية بالاستيلاء على جزء كبير من مقاطعة بيشنيا البيزنطية المهمة بآسيا الصغرى ثم اشترأت أطماع عثمان بعد ذلك إلى الاستيلاء على بعض المدن البيزنطية بآسيا الصغرى .

ثم توفى عثمان سنة ١٣٢٦ م ، فى الوقت الذى كانت فيه قوات ابنه أورخان قد استولت على مدينة بروصة حيث دفن بها عثمان وقد اتخذها أورخان عاصمة لمملكته .

الفتوح العثمانية فى آسيا الصغرى وأوربا :

بعد أن استولى عثمان على بيشنيا وطرده البيزنطيين منها فإنه ابنه أورخان استولى على نيقية « أسنك الحالية » سنة ١٣٣٧ م وبعدها روادت أورخان فكرة الاستيلاء على أراضى الدولة البيزنطية فى أوربا بالتدخل فى شؤونها بشتى الوسائل والذرائع لكنه لم يتعجل هذا الأمر فقد أخذ ينظم دولته الآسيوية تنظيمًا مدنيًا وعسكريًا استغرق معه عشرين سنة ، ومن مظاهر تنظيمه المدنى أنه بنى الكثير من المساجد والمدارس والمستشفيات ، وجعل الزى القومى للرأس طاقية من الجوخ الأبيض ، كما بنى الفنادق للتجار وسك عملة باسمه على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى الوجه الآخر اسم أورخان .

أما الجيش فقد أولاه عنايته الكبرى فأنشأ الفيالق العسكرية التى أثارت بقوة بطشها الخوف فى العالم لمدة طويلة ، وجاء تنظيم الفيالق على هذا النحو : الإيكنجية ، أى الفرق التى تقوم بالمناوشات الخفيفة ، وفياتق الفرسان الإقطاعيين ، وفياتق الحرس السلطانى ، وفياتق المشاة التى ذاعت شهرتها وكانت تعرف باسم الينى شريه ، وهى التى أسمتها الكتب باسم الانكشارية .

لكن ما معنى الينى شريه ؟ وما المقصود منها ؟ ومعنى الينى شريه الجنود الجدد ، أما المقصود بها فهم الأطفال المسيحيون الذين أخذهم العثمانيون كنوع من الجزية من مختلف البلاد المسيحية التي دخلت في دائرة حكمهم . ثم علم العثمانيون هؤلاء الأطفال الإسلام على منهاج ينسبهم كل ما بذهنتهم من مسيحية . ثم وظف العثمانيون بعضاً من هؤلاء الينى شريه في وظائف الصبية بالقصر السلطاني ، كما عينت الدولة جزءاً آخر كموظفين في الدوائر الحكومية والإدارة المدينة .

أما الغالبية العظمى من الينى شريه فقد تكونت منهم فيالتق المشاة التي عرف عنها الاستماتة في القتال . وترجع تلك الاستماتة القتالية التي أضحت خلقاً عرفوا به إلى أنهم ربوا نشأتهم الأولى على الصرامة والنظام الذي لا يتغاضى عن هفوة . لقد ربي العثمانيون جنود الينى شريه منذ طفولتهم الأولى على أن ينسب الواحد منهم أباه وأمه وإخوته وكل أقاربه وأن تكون حياته خالية تماماً من أى أمل من أن يكون له زوجة وبنين وبنات . فدنياه هذه الثكن العسكرية التي تؤويه والعمل الذي يعيش منه وله هو الحرب ، وعقيدته هي الإسلام ممثلاً في القرآن الكريم . وما عليه إلا أن ينصاع لأوامر قادته فيقاتل أعداء السلطان بروح لا تعرف سوى النصر أو الاستشهاد .

ولقد قلنا إن العثمانيين كانوا يتحينون المناسبات لاختلاق الذرائع للتدخل في الشؤون البيزنطية والأوربية بصفة عامة ذلك لأن هدفهم كان إقامة إمبراطورية عثمانية أى إمبراطورية تركية ، وقد كان نشوب الخلاف في القسطنطينية بين المتنازعين على العرش البيزنطى أصلح الذرائع للاستناد إليها . وفعلاً عبرت قوات عثمانية وأخرى غير عثمانية مساندة لها إقليم تراقيا على الشاطئ الأوربي وذلك تلبية لطلب أحد الفريقين المتنازعين على العرش ضد غريمه ، فكان أن بعث أورخان سنة ١٣٥٦ م ابنه الأكبر سليمان بحملة الاستيلاء على تراقيا ، وقام سليمان بعبور مضيق الدردنيل ثم احتل شبه جزيرة جاليوى وبذلك يكون قد أقام

أول جالية تركية عثمانية قوامها ثلاثون ألفاً من العثمانيين ، ثم تقدم من بعده أخوه مراد فى جيوش عثمانية كثيفة فتحت عدداً من المدن البيزنطية منها أدرنة سنة ١٣٥٧ م ، وبعد بضعة أيام خرج سليمان ليلعب بصقوره فى مرج قريب من بلدة بولير ، لكن لحظه العاثر كبا به فرسه كبوة كانت فيها نهايته ودفن حيث صُرع ، ويمكن اعتبار سليمان المؤسس الثانى للإمبراطورية العثمانية فهو الذى أرسى الحجر الأول فى بناء الإمبراطورية العثمانية بأوربا ، وأول أمير عثمانى ضمت أرض أوربية رفاتة .

بعدها أصبح مراد الأول بوفاة أخيه سليمان هو السلطان وكان ذلك سنة ١٣٥٩ م ، وهنا تنبّهت أوربا إلى ضخامة القوة العثمانية التى نشأت فى عهد أورخان فأدركت مدى الخطر المقبل عليها ، وكان هدف مراد الإسراع فى إتمام فتوحه الأوربية مُعتمداً على النزاع القائم بين أباطرة بيزنطة فوجه جيوشه نحو سالونيك واستولى عليها وعلى غيرها من المدن . ولما تعددت فتوحه واتسعت اتخذ أدرنة عاصمة إسلامية عثمانية . فكأنه بذلك قد نقل مركز القوة العثمانية إلى أوروبا .

فى هذا الوقت والسلطان مراد دائب فى تنظيم مملكته ودعم أركانها بكل ما استطاع أقام لازراس ملك صربيا فى الشمال الغربى من البلقان حلقاً من الدول المسيحية المحيطة سنة ١٣٨٧ م ، للقضاء على القوة العثمانية ، وقد اكتظت معسكرات هذا الحلف بجنود صربيين وبلغاريين وبولنديين ومجريين ، وفى شهر يوليو سنة ١٣٨٩ م ، تصادم الفريقان فى ميدان قوصورة ، وكان السلطان مراد بنفسه هو الذى يقود جنوده العثمانيين . وكانت المعركة شديدة الاحتدام حيث نزلت بالمتحاربين خسائر كثيرة كما لقى مراد مصرعه على يد جندى صربى . ولكن سرعان ما تمكن العثمانيون من أسر الملك لازراس وقتلوه .

ثم تسلم ولى العهد بايزيد بن مراد القيادة ، وواصل المعركة التى انتهت بهزيمة القوات الصربية .

وتوالت غزوات العثمانيين من نصر إلى نصر في البلقان . ورغم ذلك الخطر المحقق قام سيمجسوند ملك المجر بمناشدة ملوك أوروبا شرقاً وغرباً بضرورة الإسراع في وقف الخطر العثماني الداهم واستجاب لاستغاثة الملك الكثيرون من الملوك وتجمع منهم جيوش كثيرة ، ولكن السلطان بايزيد الأول انتصر عليها عند ليقوبوليس سنة ١٣٤٦ م . وبذلك التقت أطراف الدولة العثمانية بأطراف البلقان شمالاً .

نكبة الدولة العثمانية :

وأثناء ما كان بايزيد يفتخر بانتصاراته من عاصمته أدرنة إذ حلت بدولته كارثة مفجعة أبادت كل الجهود العثمانية وأطاحت بكل ما بنته . وما كانت الكارثة المفجعة سوى الهجوم التتري الذي انطلق به تيمور لنك ، أو الأشيب الأعرج من موطنه في تركستان متجهاً إلى غرب آسيا وظل في اندفاعه حتى اقترب من مشارف الدولة العثمانية . وقد لقب هذا الشيطان الرجيم باسم أستاذ التخريب والقدرة على التدمير ، وكانت بدايته الأولى عندما أغار على الدولة الإسلامية مبتدئاً بدولة المغول في تركستان متخذاً من سمرقند عاصمة له ، ثم انطلق في إعصاره الدامي حتى أسلمت له العواصم الحضارية برمتها ، أسلمت له دلهي بالهند ، وبغداد بالعراق ودمشق بالشام . ثم عرج في إعصاره على آسيا الصغرى . وفي سهل أنقرة حوصر الجيش العثماني صاحب الانتصارات الكثيرة في فخ من الفرسان التيمورية كان فيه هلاك معظمه بين قتيل وجريح وقد وقع بايزيد أسيراً في تيمورلنك . ثم تمكنت فرقة من القوات التيمورية في آسيا الصغرى من أن تتوغل حتى مدينة بروصة وخربتها وسائر ممتلكات العثمانية حتى شواطئ الدردنيل ورجع تيمور إلى سمرقند ومعه أسيره بايزيد في قفص من حديد . وانتهى العثمانيون بعد وقعة أنقرة إلى حالة من البؤس الشديد فقد فقدوا أملاكهم في آسيا وسلطانهم أسير في قفص من حديد ، والخلافات من أجل السلطنة تمزق أبناء بايزيد ، ولم تبق سوى أدرنة المدينة الإسلامية التي احتفظت منذ أيام مراد

الأول بالمقومات الضرورية على إعادة الحياة للدولة العثمانية .

فقد تمكن السلطان محمد الأول من أن يتغلب على أخوته من أبناء بايزيد ، فيتبوأ هو مقام الحاكم أو السلطان . وأخذ السلطان الجديد فى تنظيم إدارته الحكومية الجديدة فى أدرنة ويؤسسها على قواعد محكمة متكاملة بغير أن يخشى أية أخطار خارجية ولا سيما الأوربية لأنها غفلت عن أن تفيد من الكارثة التى أصابت العثمانيين ، فقد كانت فرصة أوربا كبيرة فى الخروج على العثمانيين ولا سيما حين فقدوا جيشهم وحكومتهم الثابتة .

وبعد وفاة محمد الأول سنة ١٤٢١ م ، تولى السلطة بعده ابنه مراد الثانى الذى عمل على إحياء الإمبراطورية العثمانية فكان أن أعاد تنظيم الينى شريه إلى سابق قوته وسطوته لأنه قد عزم على القيام بفتوح توسعية فى البلقان .

فتوحات مراد الثانى فى البلقان :

لقد كان أخوف ما يخافه المجرىون أن يعود العثمانيون إلى سابق سياستهم من الحصول على جزيتهم من أبناء المسيحيين اللازمين للجيش . وهنا هب المجرىون إلى حث البلاد الأوربية على إقامة حلف مسيحي يقوم بصد هجمات العثمانيين ، وقد تألف هذا الحلف فضلاً عن بلاد البلقان من البندقية وجنوة ، والبابوية والإمبراطورية البيزنطية ، ودغم الكثافة الكبيرة لجيوش هذا الحلف إلا أن العثمانيين هزموهم هزيمة نكراء ، وكان النصر الكبير للسلطان مراد الثانى عندما أباد الآلاف من شباب الجيوش المجرية فى موقعة قوصوه سنة ١٤٤٨ م ، بعدها لم تستطع المجر القيام بأية عمليات عسكرية لبعض السنين وكيف تعاود الجيوش المجرية الحرب وقد فقدت إدارتها الحربية .

فتح القسطنطينية :

أصبح محمد الثانى سلطاناً على العثمانيين بعد وفاة أبيه مراد الثانى سنة ١٤٥١ م وذلك قبل أن يتوج قسطنطين الحادى عشر إمبراطوراً على الدولة

البيزنطية بثلاث سنوات ، وكانت الدولة البيزنطية آنئذ قد انكشفت حتى لم تعد تتجاوز أسوار القسطنطينية وإقليمًا صغيرًا ، وكان العثمانيون يتطلعون إلى الاستيلاء على هذه العاصمة ليضمنوا سلامة مواصلاتهم بين أملاكهم فى أوربا وآسيا ولتكون العاصمة الجديدة لدولتهم فضلاً عن أنها ستكون خاتمة رحلتهم البحرية التى بدأها عثمان فى داخل آسيا الصغرى .

ورتب محمد الثانى نفسه وجهاز قواته العسكرية الكبيرة بغير أن يخفى أمرها أو يمويه لها خوفاً من الإمبراطور ، وذلك لأن المجر والبوسنة والبندقية وعدته بأنها سوف تكون على الحياد فى حربه تلك . وفجأة أعلن محمد الثانى الحرب على الإمبراطور فى خريف سنة ١٤٥٢ م ، وكانت خطوته الحربية الأولى محاصرة القسطنطينية ، أما شعب القسطنطينية نفسه فقد بلغ بهم الأمل حداً أن مدينتهم لن تسقط فى يد أى مهاجم مهما كانت قدرته وقوته وأساليبه القتالية . ولماذا لا يأملون وكم باءت جهود المحاصرين لها والمهاجمين بالخسران المبين ؟

وكان الشغل الشاغل لأهالى القسطنطينية المسائل الدينية المذهبية التى نشبت بين كنيستهم الأرثوذكسية والكنيسة البابوية الكاثوليكية ، ولقد استنجد الإمبراطور بالبابا فى روما عندما بلغته الأنباء عن الاستعدادات العثمانية ووقف اتفاقية الاتحاد بين الكنيستين مقابل إرسال المساعدة ، وبينما كان الأمر يسير على هذا السياق قامت ثورة فى القسطنطينية وذلك عندما أقام الإمبراطور بكنيسة أيا صوفيا صلاة تعبيراً عن الاتحاد المشؤوم بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

وخلال هذه المحنة الدينية قال أحد زعماء البيزنطيين : أنه يفضل أن يرى عمائم العثمانيين على أن يرى قلانس رجال الكاثوليك بالقسطنطينية . وامتنعت المدن الإيطالية صاحبة الامتيازات التجارية فى القسطنطينية من أن تمد يد العون للإمبراطور ، وأكثر من هذا فإن راجوزة وجنوة والبندقية رأت أن تقربها من الدولة العثمانية يعينها على اتساع تجارتها ورواجها لذلك لم يخفّ لمساعدة البيزنطيين غير مائتين من جنود البابا ومجموعة من السفن الإيطالية ، أما قوات الإمبراطور فإنها

لم تستطع أن تدافع عن أسوار المدينة ، لأنها لم تكن بالعدد الذي يوهل للتصدى والمدافعة ولذلك فإنها لم تصمد أكثر من شهرين . وفى ٢٩ مايو ١٤٥٣ م ، اندفع العثمانيون من الأسوار مخربين ومدمرين ، كما نشب القتال فى شوارع القسطنطينية حتى إن الإمبراطور البيزنطى قتل فى غماره ، وعند منتصف النهار دخل السلطان محمد الثانى العاصمة دخول الفاتحين الظافرين ، ولحظتها أمر الجيش أن يكف عن القتال . وبعد توقف القتال دخل كنيسة أيا صوفيا ثم جعل منها مسجداً جامعاً ، ثم أمر وقد أصبح يُعرف باسم محمد الفاتح بأن يعاد إصلاح أسوار القسطنطينية مما لحقها من دمار . وبعد الإصلاح والترميم جعل منها عاصمة لملكه . وبهذه الصورة انتهت الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد .

هيبة الإسلام وحماية الدولة

كان أمراً بدهياً وقد امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً وغرباً أن تحمى الدولة العباسية حدودها من كل من قد يفكر في الاعتداء عليها للنهب والإيذاء أو ليقطع جزءاً منها ويضمها إلى ملكه وكان ذلك أمراً شائعاً في تلك العصور . ولذلك عملت الدولة العباسية في عصرها الأول على أن تكون مرهوبة الجانب ولا سيما عند أقوى جيرانها وأشدهم عداً لشموخها ورغبة في القضاء عليها ، ألا وأنها الإمبراطورية البيزنطية التي عرفها العرب باسم « إمبراطورية الروم » وكانت هذه الإمبراطورية تنقم على العرب بسبب فتوحاتهم الكثيرة التي ارتفعت عليها راية الإسلام خفاقة وأصبح لأهلها كلمة واحدة وإنها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ولم لا تنقم دولة الروم على دولة الإسلام وقد استولت منها على أقطار متسعة لها شأنها وإنها لأقطار الشام ومصر وشمال إفريقيا . وكان خط الحدود بين الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية قد تحدد عندما سقطت الخلافة الأموية عند منطقة الأطراف التي تفصل جنود آسيا الصغرى والتابعة للإمبراطورية البيزنطية عن شمال الشام والعراق التي أصبحت من أملاك الدولة الإسلامية . ومما زاد من قوة خط الحدود بين المسلمين والبيزنطيين أنه كان يتألف من جبال طوروس والجبال التي بعدها ، وكأن الطبيعة هي التي صنعت هذا الحد القوي بين الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية . وقد نشبت على هذا الخط من الحدود حوادث اقترفها البيزنطيون لا سيما في الفترة التي وقعت بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، حتى ما إذا صار الأمر نهائياً إلى العباسيين فإنهم أسرعوا إلى تحصين الحدود على مشارف دولتهم . وبذلك كانت الحدود تشكل خطاً دفاعياً قوياً لدولة الإسلام .

وكان من سياسة العباسيين إرسال حملات بين آن وآخر تعبر هذا الخط الدفاعي بما يهدد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين فكان أن أصبح البيزنطيون تحت

رحمة الحملات العباسية مما أرغمهم علي دفع جزية سنوية للعباسيين ثمنًا للسلام .
وهذه الخطة الدفاعية ضد البيزنطيين أخذت سياسة منظمة عندما صار هارون
الرشيد خليفة للمسلمين فقد حصن المدن الحدودية والمعازل المواجهة للمنافذ التي
يمكن للعدو أن يمر منها من جبال طوروس جاعلاً منها منطقة متميزة أسماها
«منطقة الثغور» وقد ضمت تلك المنطقة جانبيين ، الأول : سمي باسم « إقليم
الثغور الشامية » ومهمته الدفاع عن الشام . والآخر : «إقليم الثغور الجزرية»
ومهمته الدفاع عن إقليم الجزيرة بشمال العراق . كما قام الرشيد أيضاً بإعداد
سلسلة من الحصون خلف إقليم الثغور جاعلاً منها مجموعة حربية أسماها
«العواصم» لأن جنود الإسلام يعتصمون بها إذا اشتدت هجمات البيزنطيين على
إقليم الثغور .

ونظمت الدولة العباسية غاراتها على البيزنطيين في أوقات محددة من السنة
صيفاً وشتاء ، وقد عرفت تلك الحملات العباسية على الإمبراطورية البيزنطية باسم
« الصوائف والشواتي » وكانت غايتها الدفاع عن الإسلام والإعلاء من هيبة الدولة
العباسية وكلمتها وحتى يخشى بأسها المحيطون بها من الجيران . وقد دأب الخليفة
هارون الرشيد على أن يقوم هو بنفسه بتلك الحملات ، حتى قيل إنه كان يغزو
البيزنطيين عاماً ويحج عاماً آخر وأنه ارتدى غطاء للرأس كتب عليه « غازي
حاج» .

وإن أهم الحملات التي شنها هارون الرشيد على الإمبراطورية البيزنطية كانت
غايتها تأديب الهيئات الحاكمة البيزنطية لامتناعها عن تقديم الجزية التي كانت
تقدمها سنوياً لبغداد ، فقد كتب الإمبراطور البيزنطي نقفور إلى هارون الرشيد
يطلبه بإرجاع الأموال التي كانت قد دفعتها له الإمبراطورة إيريني ، وكانت إيريني
هذه تتولى مقاليد الحكم قبل نقفور ، وكان خطاب الإمبراطور إلى الرشيد خارجاً
عن حدود الخلق الفاضل ، فما كان من الرشيد إلا أن أعد جيوشه لتأديب ذلك
الإمبراطور وقبل أن يتحرك بقواته بعث إليه بكتابه الشهير : « بسم الله الرحمن

الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك .
والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » وانتهت حملة الرشيد على الدولة
البيزنطية بأن أرغم الإمبراطور على إعادة دفع الجزية تسليماً منه وإذعاناً لقوة
الخلافة العباسية وأن لها الكلمة العليا في الخارج .

وعلى نفس المنهاج سار خلفاء العصر العباسي الأول منذ هارون الرشيد كلما
شاءت الإمبراطورية البيزنطية أن تخرج على طاعة الخلافة العباسية أو تحاول
الاستهانة بها . وقد تمثلت هذه السياسة على أوضح ما يكون زمن الخليفة المعتصم
العباسي إذ إن الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل قد تجرأ فأغار على مدينة « زبطرة »
الإسلامية بمنطقة الثغور فأشاع فيها السلب والنهب والتخريب ، فأعد له الخليفة
المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ، ٨٣٨ م ، ثلاثة جيوش زحف بها على آسيا الصغرى
ودمر مدينة عمورية مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل لينزله من ناحية وليؤكد له قدرة
الخلافة العباسية على أن تبطش به وتهدد بقاءه .

وقد سجل وقائع هذه الحملة العباسية على عمورية الشاعر أبو تمام في قصيدة
تعد من عيون الشعر العربي . قال أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصحائف لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الزواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ينبع إذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الأيام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وتخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلباً أو غير منقلب



يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
لو بينت قط أمراً قبل موقعه
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
فتح تفتح أبواب السماء له
يا يوم وقعة عمورية انصرفت
أبقيت جد بنى الإسلام في صعُد
أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا
وبرزة الوجه قد أعيت رضايها
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد
بكر فما افترعته كف حادثة
حتى إذا مخض الله السنين لها
أتهم الكربة السوداء سادراً
جرى لها الفائل نحساً يوم أنقرة
لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كم بين حيطانها من فارس بطل
بسنة السيف وللخطى من دمه
لقد تركت أمير المؤمنين بها
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
ضوء من النار والظلماء عاكفة

ما دار في فلك منها وفي قطب
لم تخف ما حل بالأوثان والصلب
نظم من الشعرا أو نثر من الخطب
وتبرز الأرض في أثوابها القشب
عنك المنى حفاً معسولة الحلب
والمشركين ودار الشرك في صَب
فداءها كل أم برة وأب
كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
شابت نواصي الليالى وهي لم تشب
ولا ترقى إليها هممة النوب
مخض البخيلة كانت زبدة الحقب
منها وكان اسمها فراجة الكرب
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
كان الخراب لها أعدى من الجرب
فانى الذوائب من آتى من دم سرب
لا سنة الدين والإسلام مختضب
لنار يوماً ذليل الصخر والخشب
يشك وسطها صبح من اللهب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
وظلمة من دخان في ضحى شحب



فالشَّمْسُ طالعة من ذا وقد أفلتُ
 تصرح الدهر تصریح الغمام لها
 لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على
 ما رُبَّع مية معمورًا يطوف به
 ولا الخدود وقد أدمين من خجل
 سماجة غنيت منا العيون بها
 وحسنٌ منقلب تبدو عواقبه
 لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت
 تدبير معتصم بالله منتقم
 ومُطعم النصر لم تهكم أسنته
 لم يغز قومًا ولم ينهد إلى بلد
 لو لم يقدر جحفلًا يوم الوغى لغدا
 رمى بك الله بُرْجِيهَا فهدمها
 من بعد ما أشبوها واثقين بها
 وقال ذو أمرهم لا مرتع صدد
 أمانيا سلبتهم نجح هاجسها
 إن الحمامين من بيض ومن سُمُرُ
 لبيت صوتًا زبطريًا هرقت له
 عداك حو الثغور المستضامة عن
 أجبته معلنًا بالسيف منصلتا
 والشمس واجبة من ذا ولم تجب
 عن يوم هيجاء منها طاحِرٍ جُنُبٍ
 بانٍ بأهل ولم تغرب على عزب
 غيلان أبهى رُبِيٍّ من ربعا الحرب
 أشهى إلى ناظري من خدها الترب
 عن كل حسن بدا أو منظر عجب
 جاءت بشاشته عن سوء منقلب
 له المنية بين السُمُرِ والقضب
 لله مرتغب في الله مرتقب
 يومًا ولا حُجبت عن روح محتجب
 إلا تقدمه جيش من الرُّعب
 من نفسه وحدها في جحفل لجب
 ولو رمى بك غير الله لم تصب
 والله مفتاح باب المعقل الأشب
 للسارحين وليس الورد من كتب
 ظبا السيوف وأطراف القنا السُّلبِ
 دلو الحياتين من ماء ومن عُشْبِ
 كأس الكرى ورضاب الخُرْدِ العُربِ
 برد الثغور وعن سلسالها الحَصْبِ
 ولو أجتب بغير السيف لم تُجِبِ

حتى تركت عمود الشرك منقرا
 لما رأى الحرب رأى العين توفلسُ
 غدا يصرف بالأموال جرّيتها
 هيئات زُعزعت الأرض الوقور به
 لم ينفق الذهب المُرْبَى لكثرتِه
 إن الأسود أسود الغاب همتهما
 وليُّ وقد أجم الخَطِيُّ منطقَه
 أخذى قرابينه صرف الردى ومضى
 موكلًا بيفاع الأرض يُشرفُه
 إن يَعُدُّ من حرها عدو الظليم فقد
 تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت
 يا رَبِّ حَوْبَاءَ لما اجتث دابرهـم
 ومغضب رجعت بيض السيوف به
 والحرب قائمة في مآزقٍ لحج
 كم نيل تحت سناها من سنى قمر
 كم كان في قطع أسباب الرقاب بها
 كم أحرزت قصب الهندي ومصلته
 بيض إذا انتضيت من حُجْبِهَا رجعت
 خليفة الله جازى الله سعيك عن
 بصرت بالراحة الكبرى فلن ترها
 ولم تُعرج على الأوتاد والطنب
 والحرب مشتقة المعنى من الحرب
 فعزه البحر ذو التيار والحَدَب
 عن غزو مُحْتَسِب لا غزو مكتسب
 على الحصا وبه فقر إلى الذهب
 يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
 بسكتة تحتها الأحشاء في صَخَب
 يحث أنجى مطاياها من الهرب
 من خفة الخوف لا من خفة الطرب
 أوسعت جاحمها من كثرة الحطب
 جلودهم قبل نضج التين والعنب
 طابت ولو ضمخت بالمسك لم تطب
 حَيَّ الرُّضَا من رداهم ميت الغضب
 يجثو الكماة به صغرا على الرُّكَب
 وتحت عارضها من عارض شَنِب
 إلى المُخَدَّرَة العذراء من سبب
 تهتز من قُصْبٍ تهتز في كُثب
 أحق بالبيض أبدانا من الحُجْب
 جرثومة الدين والإسلام والحسب
 تُنال إلا على جسر من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحم
فبين أيامك اللاتي نُصرت بها
أبقيت بنى الأصفر الممرض كاسمهم
موصلة أو ذمام غير مُنْقَضِبِ
وبين أيام بدر أقرب النسب
صُفِرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجه الغرَبِ



الفصل السابع

معنى الحضارة الإسلامية
بين الصليبية والمفولية



الحروب الصليبية

تمهيد :

ابتليت الحضارة الإسلامية بمحنتين مصيرتين :

الأولى : المحنة الصليبية .

والثانية : المحنة المغولية ، ولكل منهما أسبابها وبواعثها ، ولكل منهما عللها

القريبة وعللها البعيدة .

ونبدأ بالأولى التي لازالت موجودة حتى اليوم . . ولئن كانت الثانية قد

ذهبت بناسها وزمانها إلا أن علينا أن ندرسها لأنه كان لها تأثير له فاعليته على

البناء الفكرى والإنسانى والاجتماعى للكيان الإسلامى فى مشارق الأرض

ومغاربها . ونبدأ أولاً بالمحنة الصليبية فأمر مسلم به لا يمكن تجاهله أو إغفاله أن

المسيحيين أو الصليبيين فى معظمهم يحقدون على الإسلام والمسلمين ويتمنون

زوالهم بكل وسيلة تتاح لهم ومرحبا بالسلاح !!

وبغير وعى أو فهم ، وبحقد شديد الجسارة يرمى الصليبيون أبطال الفتوح

الإسلامية بالدموية . والصورة القريبة التي لدينا هي ما افتراه المؤرخ اليهودى :

«ول ديورانت» صاحب مجموعة « قصة الحضارة »^(١) فهو وإن أفاض فى بعض

المواضع فى مدح الحضارة الإسلامية وبعض الشخصيات الإسلامية إلا أنه لم يصبر

حتى كشف عن طبيعته النفسية وحقيقة ما يضمه للإسلام والمسلمين أو حقيقة ما

يتمناه للإسلام والمسلمين . وكأنه قد فقد موازين التاريخ فى تقدير الحضارات

وتقدير رجالها . ونسوق دليلاً واضحاً صارخاً على ما نقول ما وصف به محمود

(١) كتاب « قصة الحضارة . . الهند وجيرانها » تأليف ول ديورانت ، ترجمة : د/ زكى

نجيب محمود ص ١٢٥ .

الغزنوي الذي أسس إمارة غزنة في الهند ؛ فهو يقول عنه وعنfold الحقد يعتصر قلبه : « لعل الفتح الإسلامي للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطخا بالدماء وإن حكاية هذا الفتح لما يبعث اليأس في النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدينة مضطربة الخطأ ، وأن مركبها الرقيق الذي قوامه النظام والحرية والثقافة والسلام قد يتحطم في لحظة على أيدي جماعة من الهمج تأتي من الخارج غازية أو تتكاثر في الداخل متوالدة ، فهؤلاء هم الهندوسيون قد تركوا أنفسهم للانقسام والقتال الداخليين يفتان في عضدهم واتخذوا لأنفسهم البوذية والجاننية دينا . فأحمد هذا الدين جذوة الحياة في قلوبهم بحيث عجزوا عن الصمود لمشاقتها ولم يستطيعوا تنظيم قواهم لحماية حدودهم وعواصمهم وثرواتهم وحریتهم من طوائف السُّكَّيت والهون والأفغان والأتراك الذين ما فتئوا يجوبون حول حدود البلاد يرقبون ضعف أهلها لينفذوا إلى جوفها فكأنما لبثت الهند أربعة قرون (من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية) تغرى الفاتحين بفتحها حتى جاءهم هذا الفتح حقيقة واقعة آخر الأمر ، وكانت أول هجمة للمسلمين إغارة عابرة منهم على « ملطان » التي تقع في الجزء الغربي من البنجاب (سنة ٦٦٤م) ثم وقعت من المسلمين إغارات أخرى شبيهة بهذه ، كان فيها النجاح حليفهم مدى الثلاثة القرون التالية حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم في وادي نهر السند في نحو الوقت الذي كان زملاؤهم في الدين يقاتلون في الغرب موقعة « تور » (٧٣٢م) ليخلصوا منها إلى فرض سيادتهم على أوروبا . على أن الفتح الإسلامي الحقيقي للهند لم يقع إلا بعد نهاية الألف عام الأولى من التاريخ الميلادي .

فكان الفتح الإسلامي للهند كان في زعم ول ديورانت تجارب متصلة للتدمير والنهب وسفك الدماء ، وترك ما ذكرناه عن الفتح الإسلامي للهند ليرد على مغالطات ول ديورنت ففيه الكفاية وفيه الحجة .

ثم ينتقل بنا ول ديورانت فجأة إلى نهاية الألف عام الأولى من التاريخ الميلادي وتحديدًا في سنة ٩٩٧م ، فيقول : « ففي سنة ٩٩٧ تولى شيخ من شيوخ

الأتراك يُسمى محموداً سلطنة دولة صغيرة تقع في الجزء الشرقي من أفغانستان وهي دولة غزنة وأدرك محمود أن ملكه ناشئٌ وفقير ، ورأى الهند عبر الحدود بلداً قديماً غنياً . ونتيجة هاتين المقدمتين واضحة فزعم لنفسه حماسة دينية تدفعه إلى تحطيم الوثنية الهندوسية ، واجتاحت الحدود بقوة من رجاله تشتعل حماسة بالتقوى التي تطمع في الغنيمة ، والتقى بالهندوسيين آخذاً إياهم على غرة في منطقة بهمناً جار فقتلهم ونهب مدائنهم وحطم معابدهم وحمل معه كنوزاً تراكمت هناك على مر القرون حتى إذا ما عاد إلى غزنة أدهش سفراء الدول الأجنبية مما أطلعهم عليه من « الجواهر واللائي غير المثقوبة والياقوت الذي يتلأأ كأنه الشرر أو كأنه النيذ جمده الثلج والزمرد الذي أشبه غصون الريحان اليانعة والماس الذي حب الرمان حجماً ولوناً . وكان محمود كلما أقبل شتاء هبط على الهند وملاً خزائنه بالغنائم، وأمتع رجاله بما أطلق لهم من حرية النهب والقتل . حتى إذا ما جاء الربيع عاد إلى عاصمة بلاده أغنى مما كان وفي « ماثورة » (على جُمنه) أزال من المعابد الهندوسية تماثيلها الذهبية التي كانت تزدان بالأحجار الكريمة وأفرغ خزائنها من كنوزها التي كانت تتألف من مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجواهر، وأعجبه فن العمارة في ذلك ضريح عظيم لهم ، ثم قدر أن بناء مثله يكلفه مائة مليون دينار واستمر عملاً متصلًا مدى قرنين ، ثم أمر به أن يغمس في النفط، وأن يترك طعاماً للنار حتى أتت عليه . وبعد ذلك بستة أعوام أغار على مدينة غنية أخرى تقع في شمال الهند وهي مدينة « سمنه » فقتل سكانها جميعاً وعددهم خمسون ألف نسمة وحمل كنوزها إلى غزنة ولعله في نهاية أمره قد أصبح أغنى ملك عرفه التاريخ « وكان محمود كلما هم بعمل حربي هام جثا على ركبتيه مصلياً يدعو الله أن يبارك له في جيشه » ثم قال عن سلطان آخر من سلاطين الغوريين غزا الهند : « وجاء السلطان محمود بن طغلق فقتل أباه وتولى العرش من بعده ، وقد أصبح في عداد العلماء الأعلام والأدباء أصحاب الأسلوب الرشيق فدرس الرياضة والطبيعة والفلسفة اليونانية . ولكنه مع ذلك بز أسلافه في

سفك الدماء وارتكاب الفظائع ، من ذلك أنه جعل من أسير له ثار عليه طعاماً أرغم زوجة القتيل وأبناءه على أكله « وقال أيضاً : « وكان لبعض هؤلاء الحكام المستبدين العطشى للطغيان ثقافة إلى جانب ما كان لهم من قدرة فرعوا الفنون وهيئوا سبل العيش لرجال الفن والصناعة . وكان للمسلمين مؤرخون يكادون يبلغون عدد ما كان لهم من قادة الجيش ولم يقلوا عنهم في حبهام لسفك الدماء والحرب » .

يؤخذ مما أوردناه من أقوال « ول ديورانت » أنها افتراءات يهودى مصاب بحمى السباب فى حق الإسلام . وهو فى افتراءه يؤكد على ما يلى :

أولاً : أن الحملات الأولى للفتوح الإسلامية كانت تحارب للنهب وسفك الدماء .

ثانياً : أن الإسلام فى ذاته عبارة عن تقوى دموية يزيد بها سفك الدماء شراسة وإجراما وكيف يستقيم هذا مع الارتقاء الفكرى والعلمى والإحساس بالتعاطف الإنسانى الذى كان من صفات القادة الفاتحين ؟

ثالثاً : أن ول ديورانت فى تضليله يغفل أسماء المؤرخين الذين استند إليهم وذلك بقصد التعمية والتمويه ، وما تضليله إلا اختلاق .

أما جريمة سفك الدماء التى لصقها ول ديورانت وغيره من الأوربيين بكل الفتوح الإسلامية على اختلاف مواطنها وعصورها وتنائجها الحضارية فإننا نسوق هذه الوقائع التاريخية من تاريخ الأوربيين :

أولاً : لقد أباد الأوربيون الذين زحفوا إلى الأراضى التى عُرِفَتْ بعد ذلك باسم أمريكا الشمالية ٩٩,٩٩٪ من الشعب الأصيل لتلك الأرض وهو الذى عرف باسم الهنود الحمر ، ثم أقام أولئك الأوربيون دولة كبرى وسط الأشلاء والدماء وإنها للولايات المتحدة الأمريكية .

ثانياً : عندما كانت الجزائر مستعمرة فرنسية فإن الفرنسيين ارتكبوا أبشع

صنوف الإجرام وسفك الدماء ، من ذلك مثلاً أنهم كانوا يعجنون جثث القتلى الجزائريين بالأسمت ويجعلونها فى صورة قوالب ويتركونها حتى تجف ثم يأخذونها فى طائرات لتلقى بهم فى البحر المتوسط .

ثالثاً : فى هزيمة ١٩٦٧ التى لحقت بمصر نكل الإسرائيليون بأسراهم من المصريين فقتلوا منهم الآلاف . ودفنوا الآلاف وهم أحياء فى حفر أعدوها لهم .

رابعاً : عندما سئل الطيار الأمريكى (فى سنة ٢٠٠٦) الذى ألقى القنبلتين النوويتين على مدينتى هيروشيما ونجازاكي فى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) عندما سئل : أنادم أنت على عملك ؟ قال : ولماذا أندم . وقد جنبتنا القنبلتان خسائر بشرية أكثر ؟

خامساً : اليهود هم أعرق خلق الله سفكا للدماء ، يقول الكلونيل يثير ما يثر عن مذبحه دير ياسين فى فلسطين : « إن الأوامر قد صدرت إلى القوات المشتركة من الهاجاناه والأرجون ولحى لاحتلال قرية دير ياسين واقتحمتها القوات عام ١٩٤٨م إن احتلال القرية وقتل العزل قد تم بسهولة ، وانتهت المعركة بعد مناوشات خفيفة حيث لم يكن بالقرية رجال مقاتلون وهو ما أدى بأهل القرية إلى الاستسلام بسرعة ، بعد الظهر خرجت قوات الأرجون ولحى لتفتيش البيوت وراحت تطلق رصاصها وتستخدم سكاكينها فى أى شىء حتى يتحرك بمن فى ذلك المسنون والنساء والحوامل والأطفال كما تم نقل ٢٥ رجلاً عربياً على لورى إلى منطقة فيها أحد المحاجر ، وأوقفوا وراح الجنود يتسلون بالتنشين على أجسادهم ويطلق النار حتى تم قتلهم جميعاً » .

ويقول الجندى الإسرائيلى ساميخ يزهار الذى اشترك فى حرب ١٩٤٨ فى روايته : « خربة خزاعة » مشجعا للجنود الإسرائيليين على الفتك بالفلسطينيين : «اقتل جيدا يا ابنتا العزيز . اقتل بملء ذراعيك . اقتل من أجلنا بقدر الخير الذى أعطيناك لك عندما ربيناك صغيراً وعلمناه لك . اقتل بوفرة . اقتل كثيرا حتى

نحصل فى النهاية على عالم جميل هادئ ملك لنا . لا تتردد واقتل . . اقتل . .
اقتل . . اقتل « .

مراحل الحروب الصليبية

النداء الصليبي للحرب الصليبية :

قبل أن نتناول مراحل الحروب الصليبية بالدراسة فإننا نستهل عملنا هذا بإيراد صوت النعيب اللدود الحقود الذي يجسد الطبيعة النفسية والأخلاقية التي شنت بها أوروبا حملاتها الصليبية على المسلمين . . لقد وقف البابا « أوربان » الفرنسي (١) وألقى في الجموع الفرنسية خطابا يحثهم على النهوض للقتال من أجل الصليب والمسيح وبيت المقدس . فقد قال : « يا شعب الفرنجة . . شعب الله المحبوب (٢) المختار . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أبشع التعذيب ، وهم يقيمون المذابح فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم . ولقد قطعوا أوصال مملكة وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟ ألا فليكن لكم من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم - أمجاد شارلمان وعظمة وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم . فليثر همتمكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا . الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست . لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسراكم . ذلك بأن هذه الأرض

(١) كتاب « قصة الحضارة . . عصر الإيمان » ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران .

(٢) كان ذلك فى سنة ١٠٩٥ م .

التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين تكاد تعجز بما يكفيهم من الطعام ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون في الحروب الداخلية ، طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث و: لملكوها أنتم .

إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها . هي فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث أن هبوا لإنقاذها . فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى في ملكوت السموات » .



الإعداد الصليبي للحرب الصليبية:

يمكن القول تاريخياً أن قد كانت هناك ثلاثة عناصر أوربية لها فاعليتها في إشعال الحروب الصليبية هي : الكنيسة ، والإقطاع ، وتكوين الإمارات البحرية الإيطالية . أما عن الكنيسة فمذ أن آل بيت المقدس إلى السلاجقة أدركت أوروبا وقتها أن الأماكن المقدسة قد وقعت في يد دولة إسلامية قوية لها طموحاتها . وبينما كانت الدولة السلجوقية قد أصابها التمزق بسبب ما انخرطت فيه من حروب فضلا عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين ، هنا عمدت بعض السلطات الأوربية وكان من بينها الباب جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٦م) إلى أن تنشر على الناس أكاذيب عن تلك المعاملة التي وصفوها بأنها إجرامية حتى إن تلك الأخبار بلغت أسماع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣م فلم يجد أمامه سوى أن يستغيث بالباب ليحول بين السلاجقة وبين زحفهم على آسيا الصغرى بعد أن حققوا نصرهم في موقعة منزكرت . ووجد البابا في تلك الأخبار

فرصته ليرفع من مكانة الكنيسة ويعيد إليها سابق تماسكها الذي كان يؤلف بين الشرق والغرب . ذلك لأن الكنيسة الشرقية في القسطنطينية انفصلت عن كنيسة روما قبل أن تقع معركة منكرت بثمانية عشر عاماً . ومما حفزه على تحقيق هذه الوحدة بين الكنائس المسيحية أن نفرا من البطارقة البيزنطيين صرح بأن من حق الكرسي البابوي أن تكون له القيادة العليا على الكنائس ومن ثم يكون البابا هو الحكم فيما قد يحدث من خلاف بين الكنائس هذا في الوقت الذي لا يوافقون فيه على ما تزعمه روما بأن لها السلطان المطلق على الجميع .

فكان الطريق قد أصبح مهيباً لتحقيق الزعامة التي فقدتها البابوية بسبب الانفصال السابق ، وذلك عندما استنجد الإمبراطور البيزنطي بالبابا جريجورى السابع . فقد أعلن ذلك البابا نظرية السمو البابوي . فعنده أن للكنيسة الكلمة العليا التي تهب الأباطرة والملوك وغيرهم من الحاكمن سلطانهم ونفوذهم . وهنا خطرت في ذهنه فكرة الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية من دول غرب أوربا تنهض بالقيام بمهام متعددة من بينها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وإرجاع البيزنطيين إلى ممتلكاتهم التي كانت لهم شريطة أن يعود الاتحاد بين الكنيسة الشرقية والغربية . غير أن ذلك المشروع كان سبباً في نشوب خلاف بين البابا جريجورى السابع وإمبراطور ألمانيا هنرى السابع ، فكان أن برز خلاف حول الحق في تعيين الأساقفة لوظائف الأسقفية مما تسبب في نشوب حروب بين الجبهتين أدت إلى ضياع استغاثة الدولة البيزنطية . ومع هذا فإن استغاثة الحجاج المسيحيين عادت فأثارت الشعور في غرب أوربا بضرورة محاربة المسلمين ، من أجل هذا جدد الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥ م ، دعوة البابا إربان الثانى بعد أن تأكد له أن إمبراطوريته لا يمكن أن تستمر في حياتها إذا فقدت آسيا الصغرى التي وقعت في أيدي السلاجقة لأن خيرة جنودها من آسيا الصغرى كما أن سواحلها تمد الأسطول البيزنطي بما يحتاجه من السفن والبحارة ، وهنا آمن أوربان الثانى بما يطلبه إمبراطور بيزنطة . . ولذلك فبينما كان في مدينة كلير مونت

بفرنسا سنة ١٠٩٥م ، لحل بعض المشكلات الخاصة بالملكية الفرنسية فإنه صار يدعو إلى تشكيل حملة تكون وظيفتها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وإنقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين .

وبهذه الدعوة تمكنت البابوية من أن تصبح القوة العليا والعامل الحاسم في أن تصبح الاستجابة لاستغاثة الإمبراطور البيزنطي لا مجرد دعوة فحسب بل حرب حقيقية مقدسة .

وكان أمرا بدهياً أن يستجيب الأمراء الأوروبيون لنداء البابوية وهم الذين يمثلون الطبقة الحرة العسكرية علاوة على أنهم أصحاب الإقطاعات الكثيرة من الأرض ، كما أن لهم ثقلهم السياسي الكبير ، والعلة التي يرجع إليها نفوذ هؤلاء الأمراء إلى ما كان يعرف في غرب أوروبا بالنظام الإقطاعي الذي جعل المجتمع الأوربي ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الفلاحين . فوظيفة رجال الدين تصريف شؤون الكنيسة والعبادة وصيانة الدين . وعمل المحاربين هو الحرب وما تتطلبه من حيازة الجيوش وتدريبها على القتال والإنفاق عليها ، أما الفلاحون فهم الذين يكدحون في أرض الإقطاع من الأمراء ومن يعاونونهم من الفرسان .

ولقد كان اسم : « الفرسان » يطلق على المحاربين بصفة عامة لأن الخيل كانت عدتهم في القتال في ذلك العصر ، وقد كان الفارس يلبس الزرد الثقيلة والخوذات وكذلك الملابس المصنوعة من الحديد ، ومن شروط الاندماج في طبقة الفرسان أن ينجح الفارس في شعائر خاصة تقوم عليها الكنيسة والسيد الإقطاعي الذي سوف ينضم الفارس إلى أتباعه ، وعندما يتم التدريب الحربي لشخص ما ويصبح مؤهلاً للفروسية ، فإنه يحضر الحفل الذي تنظمه الكنيسة حيث يعلن فيه أنه قد أصبح مؤهلاً للانضمام إلى طبقة الفرسان ، ومن الطقوس التي تجرى قبل الحفل أن المرشح يغتسل بماء تباركه الكنيسة ثم يقضى ليلة في الصلاة وعندما يسفر الصبح يذهب إلى الكنيسة ليعترف بما اقترفه من ذنوب وآثام ، وبعدها يسمعه

القس ما عليه من واجبات طبقته وفي مقدمتها الدفاع عن الدين وإيواء الأراامل واليتيم ثم القيام بالخدمة العسكرية في حروب السيد الإقطاعي مهما كانت هذه الحروب حتى ولو كانت ضد الملك . وهكذا يصبح الفارس جندياً من جنود الله . ومن هنا كان الفرسان الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ضد المسلمين من هذه الطبقة الإقطاعية المحاربة .

ولما كانت الحروب الإقليمية سائدة بين سادة الإقطاع وملوكهم في غرب أوربا فقد وجدت الكنيسة أن الحروب الصليبية سانحة لا تعوض لصرف الإقطاعيين ورجالهم من الفرسان عن التناحر والصراع إلى مناصرة الدين وفي نفس الوقت وجدها الإقطاعيون وفرسانهم فرصة ليس لها نظير للتوجه إلى الشرق لممارسة هوايتهم المفضلة في تأسيس إمارات أو إقطاعات شرقية وبهذه الوسيلة يستطيعون أن يرفعوا عن كواهلهم المشقات الاقتصادية التي عانوها بسبب الصراعات الإقطاعية التي لم تهدأ بين الممالك الأوربية . فضلا عن سادة الإقطاع وفرسانها فقد وجد عامة الناس في الحروب الصليبية فرصتهم للفرار من الفقر وضيق الحال أو فرصتهم للتعبير عن خالص حبهم للسيد المسيح والمسيحية .

أما عن دور الإمارات البحرية الإيطالية في الحروب الصليبية فمن الوقائع التاريخية أن الصليبيين وجدوا من المدن البحرية الإيطالية العون الكبير من حيث تموينهم وحملهم في السفن إلى الشام ، ولم تكن غاية المدن البحرية الإيطالية لا مجرد مناصرة الدين فحسب ، ولكن جاء تعاونها في تجهيز الحملات الصليبية للحصول على مغنم تجارية في نفس الوقت . وهذا ما ظهر جليا في الطموحات التي أظهرتها كل من البندقية وجنوة وبيزا وأمالغي . ولقد اشتدت حدة الصراعات التجارية بين المدن الإيطالية أثناء اندلاع الحروب الصليبية فقد بذلت كل منها غاية وسعها في بسط سيطرتها وتأكيد وجودها التجاري في بلاد المشرق الإسلامي والمسيحي . فالبنديقية مثلا أتاحت لها موقعها الجغرافي على رأس البحر الأدرياتيكي أن تبسط تجارتها في أنحاء القارة الأوروبية وبهذه الوسيلة أغرت متاجر البلاد

المحيطة بها من التعامل معها ، فكان أن توجهت أساطيل البندقية إلى مصر والشام بذلك استعاضت عن منتوجات أوروبا بما ينتجه الشرق من توابل وعطور وغيرها من الحاصلات الشرقية ، على أن هذا النشاط التجارى للبندقية مع الشرق لم يحدث إبان الحروب الصليبية فقط بل كان قبلها بزمن بعيد ، ومن شواهد ذلك تلك المعاهدة التي عقدها الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول مع البندقية سنة ١٠٨٢م ، وقد نصت تلك المعاهدة على منح التجار البنادقة حرية التنقل بين أرجاء إمبراطوريته مع الإعفاء من الجمارك والمكوس وذلك شريطة أن تساعد البندقية الإمبراطورية في حربها ضد النور مانديين وهم الذين كانوا حكام جنوب إيطاليا آنئذ ، لكن أثناء الحروب الصليبية أنهكت كل من البندقية وجنوة وبيزا ، والحل هو سياسة الاتصال التجارى المباشر بالشرق الإسلامى . من أجل هذا فإنها لم تتوان عن تقديم أساطيلها لمعاونة الجيوش الصليبية على احتلال مدن الشام . ولهذا كان بكل من هذه المدن الشامية ومنها الموانى مواقع خاصة للتجارة الإيطالية .

ومن هنا يمكن القول أن الحافز التجارى كان من الأسباب الرئيسية فى إطالة أمد الحروب الصليبية .



وقامت إمارات لاتينية فى أرض الإسلام :

واتخذ الصليبيون الذين انحدروا من البلاد الأوربية بقصد احتلال الأراضى المقدسة بالشام من مدينة القسطنطينية مركزاً تتجمع فيه جيوشهم قبل أن ينتقلوا إلى آسيا الصغرى ثم إلى الشام . وقبل أن تبلغ الجيوش الصليبية مكان تجمعها حدث أن تجمعت جماهير شتى من الرجال والنساء لا يحكمها نظام وليس لديها خبرة قتالية واجتازت الشاطئ الآسيوى يقودها رجل اسمه بطرس الناسك فأباد السلاجقة معظم الجيوش الصليبية . وأخيراً وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧م تحت قيادة : جودفرى دى بويون دوق لورين ، وأخيه بلدوين ، وروبرت

كونت فلاندرز ، وريموند التولوزي ، وبوهيموند النورماني . وما أن تجمع هؤلاء الأمراء حتى أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين عليهم موثقا أن يسلموا إليه البلاد البيزنطية التي يأخذونها من السلاجقة في آسيا الصغرى . وبناء على هذا الموثق تمكنوا من أن يعبروا البسفور في مايو سنة ١٠٩٧م بعد أن زودهم الإمبراطور بما هم بحاجة إليه من المؤن والعتاد وما يلزمهم من بيانات جغرافية ، ولما كان الإمبراطور يخشى في نفسه من تلك الجيوش فإنه أسرع فأجلاهم عن القسطنطينية لأنهم لم يلتزموا بآداب النظام العسكري فعاثوا في المدينة فسادا هذا فضلا عن عبثهم بالبلاد البيزنطية في البلقان قبل أن يتجمعوا في القسطنطينية .

ثم اتخذ الزحف الصليبي سبيله نحو آسيا الصغرى والشام ولم تكن هناك أية قوة دفاعية إسلامية في مقدورها أن تتصدى للجيوش الصليبية فقد أصبحت الدولة السلجوقية الكبرى بعد أن ذهب عنها سلطانها ملكشاه سنة ١٠٩٢م ممزقة إلى عدة دويلات متناحرة لا تتوقف الحروب بينها . فقد كانت دولة السلاجقة الروم - أي آسيا الصغرى - تحت حكم السلطان قلعج أرسلان وكان صغير السن وكان أول من أصابته الضربات الصليبية سنة ١٠٩٧ ، أما الشام والعراق فلم يوجد في أي منهما حاكم يمكن أن يقال إنه على شيء من قوة النفوذ ، على النقيض ، فإن الخلاف الشديد قد ساد المدن الشامية والعراقية بفضل الأتابكة المتصارعين ، وما كان الأتابكة إلا الموظفين الذين قد عهد إليهم تربية أبناء السلاجقة وعينوا إلى جانبهم في ولاياتهم حتى إذا ما تمزقت الدولة السلجوقية الكبرى ، قفز أولئك الأتابكة إلى مناصب الرئاسة في مدن الشام والعراق .

فإذا نظرنا إلى الخلافة العباسية في بغداد فإننا نجد أنها وقد خارت تماما ولم تعد تجدى استغاثات المسلمين من كل مكان في حث الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) على أن يتصدى لاعتداءات الصليبيين على ديار الإسلام . كما عجزت الخلافة الفاطمية وقد كانت هي صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام - عن أن تقوم بأى عمل قتالي يخفف من وطأة الصليبيين ؛ لأن

الخليفة الفاطمي بالقاهرة كان مجرد صورة فلا حول له ولا قوة إذ أن صراع الأطماع قد استحر بين الوزراء الفاطميين ، هذا الحال المتدهور على شاكلة لم يسبق لها مثل مكنت الصليبيين من أن ينزلوا الهزيمة بالمسلمين ، وما هو أشد نُكرا أن يقيموا إمارات صليبية في الأراضى الإسلامية .

نذكر من هذه الإمارات إمارة الرها . وذلك أنه عندما انطلقت الجيوش من آسيا الصغرى إلى الشام فقد انفصلت عنها فرقة يقودها بلدوين ، وشنت غارة على مدينة الرها . وفي مستهل عام ١٠٩٨ م ، تمكن بلدوين من أن يسقط مدينة الرها في يده . فكانت من ثم أول إمارة لاتينية أى صليبية في الشرق ، وقام بلدوين بصرف شؤون هذه الإمارة فترة من الوقت بينما كانت الجيوش الصليبية في طريقها إلى الشام . وما أن وصل الصليبيون إلى مدينة أنطاكية شمال الشام حتى ضربوا عليها الحصار ، وفي يونيو سنة ١٠٩٨ م تمكن بوهموند النورمانى من اقتحامها بفضل خيانة أحد حراس أبراجها من الجند الأرمن إذ أنه أنزل الحبال ليلا من أعلى الأسوار وبذلك يسر للصليبيين دخولها ، عندئذ أنشأ بوهموند النورمانى الإمارة اللاتينية الصليبية الثانية من هذه المدينة .



الاستيلاء على بيت المقدس :

أجل ، انطلق جود فرى نحو تحقيق الهدف الأول للصليبيين ألا وهو احتلال بيت المقدس ، فصادف في طريقه مدينة الرملة فلم يجد فيها أحدا من الجنود الفاطميين فواصل زحفه حتى انتهى إلى أبواب القدس فى يونيو سنة ١٠٩٩ م ، وهنا سارت جموع الصليبيين وهم حفاة يطوفون بأسوار المدينة تعبيرا عن التقوى والخشوع ، وفى نفس الوقت انطلقوا ينفخون فى الأبواق لإنزال الهلع فى نفوس جنود الحامية الفاطمية المصرية التى كانت ترابط بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس بعد أن أعطوا أهلها موثقا بالأمان وحفظ أرواحهم ، ولكنهم سرعان ما رجعوا عن موثقهم فأنزلوا بسكان المدينة مذبحه

كبرى وذلك هو شأن الصليبيين دائماً .

وقد كان رجال الدين من الصليبيين لا يميلون إلى أن يكون بيت المقدس مملكة ، وكيف وهى البلد الذى قام فيه المسيح منادياً بأن يترفع الناس عن متع الحياة ومباهجها . وأخيراً انتهى الرأى إلى أن يكون جود فرى رئيساً وحامياً لبيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، لا ملكاً فى الدولة الصليبية ، أى بيت المقدس . وبعد وفاة جود فرى حل أخوه بلدوين أمير الرها محله ملكاً على بيت المقدس يوم عيد الميلاد فى سنة ١١٠٠ م ، وذلك بعد أن حدث تحول فى موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية . وعلى هذا يمكن اعتبار الملك بلدوين الأول المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس .

وقد استهل بلدوين عمله بأن زحف إلى المدن الساحلية فأخضعها وذلك لتأمين مواصلاته مع أوروبا . وفى نفس الوقت يحول بين الأسطول الفاطمى وبين استخدام تلك الموانى .

ولقد انهالت المساعدات على بلدوين من المدن الإيطالية البحرية مثل البندقية ، وجنوة ، وبيزا ، ولذلك فإنه تمكن بفضل أسطول جنوة من الاستيلاء على أرسوف وقيصرية الشام سنة ١١٠١ م ، وبعد ثلاثة أعوام سقطت عكا الحصينة فى يده بفضل المساعدة الكبيرة التى قدمتها أساطيل البندقية وجنوة ، ثم تمكن بلدوين من أن يفرض الحصار على بيروت براً وبحراً سنة ١١١٠ م ، وبعد أن دام الحصار أحد عشر أسبوعاً تمكن بلدوين من اقتحام المدينة بعد أن ذبح الكثيرين من أهلها . ثم اتجه إلى ناحية الجنوب توسيعاً لمملكته بقصد الحصول على ميناء على البحر الأحمر ليتسنى له الاشتراك فى التجارة مع الهند ، وتحقيقاً لهذا الهدف فإنه بنى إلى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥ م ، حصن الشوبك ليتمكن من التحكم فى طريق القوافل من دمشق إلى مصر والحجاز ، وراودت بلدوين فكرة غزو مصر فحاول أولاً عن طريق الطور وثانياً عن طريق العريش ومات سنة ١١٠٨ م ، داخل الأراضى المصرية فى محاولته الثانية وذلك فى مكان لا زال إلى اليوم وهو

يحمل اسمه ممزقاً وهو « سبخة البردويل على البحر المتوسط شرقي بور سعيد في موقعها الحالي . وبلغت مملكة بيت المقدس غاية امتدادها الجغرافي أيام بلدوين إذا كانت تمتد من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت على البحر المتوسط .

إمارة طرابلس :

وبينما كانت إمارة بيت المقدس تتحول إلى مملكة عندما أصبح بلدوين حاكمها قامت إمارة لاتينية رابعة في طرابلس بالشام فضلاً عن الرها وأنطاكية ، وقد طمع في تأسيس هذه الإمارة الكونت ريموند التولوزي ، ومن ثم فقد فرض هذا القائد حصاره على طرابلس سنة ١١٠١ م ، وجعلها منقطعة عما حولها من المحيط الإسلامي ، وذلك بأن أقام حصناً على تل قريب منها . وظل يحاصر المدينة مدة طويلة ، وقد استعان في حصاره بأسطول من جنوة مكون من أربعين سفينة تمكن من الاستيلاء على ثغر جبيل سنة ١١٠٤ م ، وجنوب طرابلس . ولما كان ريموند قد مات سنة ١١٠٥ م ، فإن ابنه هو الذي استولى على طرابلس سنة ١١٠٩ م . وهكذا قامت على أرض الشام إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس وكانت تابعة اسماً لمملكة بيت المقدس .

العلاقة بين بيت المقدس والإمارات الصليبية :

نأتى بعد هذا إلى السياسة التي سارت عليها إدارة بيت المقدس والإمارات الصليبية : لقد وفد الصليبيون إلى الشام من غرب أوروبا وهم لا يعرفون سوى النظم الأوربية الإقطاعية وما كان لهم أن يتبعوا سواها عندما استقروا في إماراتهم بديار المسلمين ، ويمكن القول أن هذه الإمارات لم تتجاوز في مساحتها الجزء الشمالي من الشام والسهل الساحلي الضيق ويوجد وراءها المحيط الشاسع للأراضي الإسلامية . هذا فضلاً عن أن هذه الإمارات اللاتينية ما كانت تبعد عن أى بلد إسلامي سوى مسيرة يوم واحد على ظهور الخيل ، ومن هذا السلوك الاجتماعي طبق الصليبيون النظام الإقطاعي الأوربي في ممتلكاتهم فوهبوا أنصارهم

أراضى وإقطاعات صارت فيما بعد ملكاً دائماً لهم . وكان ذلك مثيراً لكثير من المشاحنات النحلية والمشاكل الداخلية بين الصليبيين أنفسهم بالشام . وقد انحرفت تلك الصراعات إلى أن كان بعضهم يعقد تحالفاً مع المسلمين من جيرانه ضد المتنازعين معه من الصليبيين ، ومما جعل هذه الصراعات تتفاقم حتى أصبحت خطراً يهدد الوجود الصليبي نفسه أنها أصبحت صراعاً بين الزعماء الصليبيين أنفسهم حول من هو أحق بأن يكون الحاكم ، وهنا انقلبت الإمارات الصليبية إلى أحزاب متناحرة كل حزب يبغي القضاء على الآخر لينفرد هو بحكم الإمارة .

جهاد المسلمين ضد الصليبيين

اليقظة الإسلامية :

كان أمراً بدهياً ألا يركن المسلمون إلى الخنوع أو يرضوا بالهوان فلم لا يدفعون عدوهم عن ديارهم دفاعاً عن عقيدتهم وإسلامهم ونيبهم وكعبتهم ومدينتهم وقدسهم ووجودهم . وكيف وقد أمرهم الله بالجهاد في سبيله ؟

ومن هنا أخذت اليقظة الإسلامية في سبيل طرد الصليبيين تتطور رويداً رويداً وتأخذ شكل الجهاد في سبيل الله وذلك في دول الأتابك في شمال العراق والشام . وقد ظهر من بين أمراء هذه الدول أتابك تميز بالحمية والقوة والغيرة وكذلك القدرة على تأليف الجنود وجمعهم . وبهذه الخصال القيادية استطاع عماد الدين زنكي أمير الموصل سنة ١١٤٦ م أن يقوم على إدارة مدينة واسط ومدينة البصرة ثم استولى على إدارة الموصل وبذلك ارتفع إلى درجة الأتابكية ، بعدها مد نفوذه إلى مدينة حلب فضمها إليه . وبهذا صار صاحب دولة كبيرة لها خطرها على الوجود الصليبي في شمال العراق والشام .

وكانت بدايته الأولى في جهاده ضد الصليبيين أن حاصر مدينة الرها وهي الإمارة اللاتينية الأولى للصليبيين في شمال العراق كما كانت الخطر الأول المهدد ببغداد ، وظل زنكي ضارباً الحصار على الرها أربعة أسابيع حتى استولى عليها

سنة ١١٤٤ م ، وقد أطلق على هذا التوفيق اسم « نصر الأنصار » إذ نتج عن سقوط إمارة الرها أن زال الحاجز الصليبي الذي كان يشق البلاد الإسلامية نصفين . ثم عمل زنكى على تأمين فتوحاته فى هذه المنطقة المهمة ، فكان أن ترك بها حامية قوية ، بعدها اتخذ سبيله إلى المواقع الصليبية الأخرى القريبة .

وقد ساعد زنكى فى معظم حروبه التى خاضها ضد الصليبيين أخوان من أصل كردى أخلصا فى خدمته بل خدمة الإسلام هما : نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه . ولما مات زنكى قتيلاً سنة ١١٤٦ م ، قام ابنه نور الدين محمود لىتم المرحلة الأولى من الجهاد ضد الصليبيين فسار على الخطة المرسومة التى كان والده قد أعدها له . فعلى هدى من سياسة والده جعل نور الدين محمود بن زنكى من مدينة حلب عاصمة له ، وكانت دولته قد وصلت فى أيامه إلى أكبر اتساع لها وأكبر قوة ومجد ، وما أتاح له هذه المكانة إلا لأنه قد تمكن بعد أن تولى الحكم من أن يقضى فى سرعة خاطفة على مثيرى الفتن الداخلية التى نشبت على إثر مقتل والده ، وما كادت الأمور تستتب حتى نال نور الدين مطامع الصليبيين فى أن يستعيدوا الرها من أيدي المسلمين ، وذلك لأن استيلاء المسلمين على ذلك المعقل المهم قد أدى إلى أن يقوم الأوربيون بحملتهم الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) من أوروبا يتزعمها كتراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا . ولكن النزاع سرعان ما تفجر بينهم لأنه كان لكل منهم مأرب خاص يريد تحقيقه . فكان أن انقلبت الحرب من استعادة الرها إلى حصار دمشق ، فما كان من الأتابك طغتكين أمير دمشق إلا أن قاوم الحصار المباغت سنة ١١٤٨ م ، وبقي الصليبيون أمام دمشق لا يقدرّون على اقتحامها رغم أن فرسان الهيئتين المسيحيّتين : الداوية والإسبترارية ساعدوا الصليبيين فى قتالهم ، وبسرعة أرسل نور الدين زنكى جنوده لمساعدة طغتكين ، وكان ذلك سبباً فى إرغام الصليبيين على التراجع عن الحصار مما اضطر لويس وكتراد أن يرجعا إلى أوروبا خائبين دون أن يحققا أى شىء من أغراض حملتهم . .

أمام هذه الحملة الصليبية الفاشلة أدرك نور الدين بثاقب نظره أنه من الضروري أن تنضم دمشق إليه حتى تتحقق الوحدة بين الجبهات الإسلامية ، وهو العمل الذي استهله أبوه خاصة وقد زحفت جيوش الصليبيين نحو مدينة عسقلان . وفي سنة ١١٥٤ م ، أسرعت مدينة دمشق بالدخول في طاعة نور الدين فقد كان القائد العام لجيوشها وهو نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين من رجال الأتابك زنكى ، ولأن قائد جيش نور الدين هو شيركوه أخو نجم الدين أيوب ، وبسبب هذا التحول العسكرى الكبير راودت كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس فكرة الاستيلاء على مصر . فقد رأى نور الدين أن معنى استيلاء الصليبيين على عسقلان هو أن يكون الطريق أمامهم لدخول مصر ، بينما تبين للصليبيين أن باستيلاء نور الدين على دمشق فإنه يكون قد طوق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وبذلك يتجه إلى مصر ويضمها إلى الجبهة الإسلامية آنئذ يكون قد ضرب الحصار على المملكة الصليبية من الجهة الجنوبية مما ساعد نور الدين على تحقيق أمله فى مصر بالاستيلاء عليها أن الشقاق قد دب فى الخلافة الفاطمية بها فقد طالب الوزير الفاطمى شاور من نور الدين أن يعينه على خصمه ضرغام الذى طلب المعونة من الصليبيين .

وكانت خاتمة ذلك الصراع الذى نشب بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس أن تمكن نور الدين من الاستيلاء على مصر ، ومن هنا صارت مصر هى القطب الذى دارت حوله المراحل المستقبلية من جهاد المسلمين ضد الصليبيين إذ إن الخلافة الفاطمية أصبحت فى ذمة التاريخ .

المسلمون جبهة واحدة أمام الصليبيين

١ - صلاح الدين الأيوبي :

بدأت الوحدة التى تمكن صلاح الدين من إقامتها بين الأمراء المسلمين من أن تشن حروبها المنظمة والمتوالية على الجيوش الصليبية بقصد اقتلاعها من أرض

الإسلام ، فلما مات نور الدين واستطاع صلاح الدين أن يضم لسلطانه مصر وسوريا سنة ١١٧٥ م ، وتمكن تجار جنوا والبندقية وبيزا من أن يثيروا الاضطراب فى الموانئ الشرقية بمنافساتهم الشديدة وأيضاً فى ذلك الوقت ثار النزاع فى أورشليم بين الفرسان من أجل الاستيلاء على العرش ، آنئذ تمكن جاي دى لوزينان من أن يحقق استيلاءه على العرش بالمكر والخديعة سنة ١١٨٦ م ، فغضب لهذا المسلك طبقة الأشراف حتى أن أخاه جودفرى قال : « إن يكن جاي هذا ملكاً فأنا خليق بأن أكون إلهاً » وفى نفس الوقت أقام ريجنلد أمير-شانتيون نفسه أمير مستقلاً فى قلعة الكرك خلف نهر الأردن على حدود بلاد العرب ، وطالما نقض هذا الأمير اتفاقات الهدنة التى كان يعقدها مع صلاح الدين . وفى تهور أحمق أعلن نيته على أنه سيغزو بلاد العرب وأنه سيقوم بهدم قبر النبى ﷺ فى المدينة كما سيقوم بهدم الكعبة المشرفة فلا يبقى حجراً منها قائماً . وتنفيذاً لهذه النية السوداء والحمقاء أبحرت مجموعة صغيرة من الفرسان فى البحر الأحمر قاصدة المدينة غير أن سرية مصرية فاجأتها وقتل معظمها وفر الباقون مع ريجنلد . ثم أخذ الأسرى إلى مكة حيث قتلوا . فى هذه الأثناء كان صلاح الدين قد اكتفى بشن غارات صغيرة على فلسطين . فلما علم بالفعلة الشنعاء فإنه شرع ينظم قواته التى فتح بها دمشق وواجه بها قوات المملكة اللاتينية فى معركة عند مرج ابن عامر ذى الشهرة التاريخية سنة ١١٨٣ م ، ثم هاجم ريجنلد عند الكرك بعد عدة شهور غير أنه لم يفلح فى دخول تلك القلعة الحصينة . وفى عام ١١٨٥ م ، عقد مع هذه المملكة الصليبية هدنة مؤقتة مدتها أربع سنوات . غير أن ريجنلد لم يصبر على هذه المدة الطويلة فخرق الهدنة. بأن وقف فى طريق قافلة للمسلمين وكانفى سنة ١١٥٦ م ، واستولى على الكثير مما تحمله ، كما أنه أسر عدداً كبيراً من أفرادها كان من بينهم أخت صلاح الدين ، وفى هذا الموقف قال ريجنلد فى وقاحة : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » وهنا ثارت ثائرة صلاح الدين ونادى بأن ينفر الجميع للجهاد ضد المسيحيين وأقسم أن ليقتلن ريجنلد بيده .



ولقد كانت المعركة الفاصلة في الحروب الصليبية كلها عند حطين وكانت قريبة من طبرية وذلك في اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١١٨٧ م ، وكان صلاح الدين على معرفة تامة بطبيعة أرض المعركة . ولذلك فإنه أقام جيوشه على المواقع القريبة من آبار الماء . أما الصليبيون فإنهم دخلوا ميدان المعركة وقد فعل بهم الظمأ فعله وقد اخترقوا السهول في حر الصيف الشديد . وما أن هبت الرياح نحو مواقع الصليبيين حتى أشعل المسلمون النار في الأعشاب البرية ، وحملت الرياح الدخان مما زاد من عنت الصليبيين .

في هذا الجو المختلط المحموم ابتعد مشاة الصليبيين عن فرسانهم فقتلوا بكاملهم ، أما الفرسان فإنهم وإن صمدوا لل سلاح والدخان ، إلا أنهم سقطوا من شدة الإعياء ، فقتل منهم كثيرون ، ووقع الباقون في الأسر ، ثم أمر صلاح الدين بأن يجيئوا بالملك جاي ، والدوق ريجلند . فعندما حضروا أمامه قدم إلى الملك شراباً طيباً في إشارة على أنه صفح عنه ، أما ريجلند فإنه وضعه أمام أمرين إما أن يقتل وإما أن يؤمن برسالة النبي ﷺ فلما امتنع عن الإيمان قتله .

ومن الغنائم التي سقطت في أيدي المسلمين في معركة حطين الصليب الذي كان علماً للصليبيين في المعركة وكان يحمله أحد القساوسة وقد بعث به صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد ، ولما انتهت المعركة ووجد صلاح الدين أن لم تعد للصليبيين قوة يعتد بها فإنه اتجه لتحرير عكا . وفيها أطلق سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين كما وهب جنده مغانم كثيرة مما سقطت في يده من هذا الميناء الكبير . وفي ذلك الوقت كانت فلسطين كلها تقريباً سقطت في يد صلاح الدين لعدة شهور .

وعندما اقترب صلاح الدين من بيت المقدس كان كبار رجالها خرجوا إليه يطلبون الصلح فقال لهم : « إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله وإنه لا يرضيني أن أحاصرها أو أهاجمها » ثم عرض على أهلها على أن لهم الحرية الكاملة في تحصينها وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها

بخمسة عشر ميلاً بغير أن يعترضهم أحد . وفضلاً عن هذا فإنه وعدهم أن يمدهم بكل ما هم بحاجة إلى المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة . فإذا جاء ذلك اليوم ووجدوا لأنفسهم أملاً في النجاة فإن لهم أن يحتفظوا بالمدينة ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة . أما إذا فقدوا الأمل في المعونة فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، ثم تعهد في هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وممتلكاتهم . غير أن المندوبين رفضوا هذا العرض وقالوا : إنهم لم يسلموا المدينة التي مات فيها المسيح منذ الخلق .

على أن حصار المدينة لم يمتد إلى أكثر من اثني عشر يوماً ثم استسلمت وباستسلامها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب عن كل رجل وخمس قطع عن كل امرأة وقطعة واحدة عن كل طفل . أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت التي بعث بها هنري الثاني ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ، ورضيت المدينة بهذه الشروط « شاكرة » كما قال أحد المؤرخين المسيحيين . ثم طلب العادل أخو صلاح الدين أن يُهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين لم يستطيعوا الفداء فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعاً . وفي نفس الوقت طلب بليان كبير المقاومين المسيحيين هدية مثلها فأجيب إلى طلبه وأعتق ألفاً آخرين وعلى هذا المثال سار المطران المسيحي ثم قال صلاح الدين : « إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه وإن المطران وبليان قد تصدقا عن نفسيهما وإنه يفعل فعلهما . فكان أن أعتق كل من لم يستطع تقديم الفدية . ثم أعتق كل من لم يستطع تقديم الفدية من كبار السن . ومن بين من افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا في معركة حطين ، وهنا أخذت الشفقة بقلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان في أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن ومن بينهم جاي » أما النساء والبنات اللاتي قتل أزواجهن وآبائهن فقد وزع عليهن من ماله الخاص ، ما أطلق ألسنتهن بحمد الله والثناء عليه على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة



نبيلة « وهذا ما قاله إرنول ، مولى إربان . وفور العفو وإطلاق السراح أقسم الملك والنبلاء أنهم لن يعودوا إلى حمل السلاح ضد صلاح الدين مرة أخرى . بيد أنه ما كانت أحوالهم تستقر في طرابلس وأنطاكية الصليبيين حتى أعفاهم رجال الدين من كل يمين أخذوه على أنفسهم مع صلاح الدين . ثم عكف الملك والنبلاء على وضع الخطط والانتقام من صلاح الدين . ولقد أذن السلطان لليهود بالرجوع لسكنى بيت المقدس كما منح المسيحيين حق دخولها شريطة ألا يكونوا مسلحين ، كما أنه ساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم .

ثم سار صلاح الدين يقود جيشه لحصار عكا ، ولما وجد نفسه غير قادر على اقتحامها فإنه فضل الانسحاب . ولقد كانت سيطرة الصليبيين على مدن سور أنطاكية وطرابلس باعثاً للأمل في نفوسهم في انتصارهم على المسلمين في هذا الوقت الذي كانت فيه الأساطيل الإيطالية لا تزال لها الكلمة العليا في البحر المتوسط على استعداد لنقل الجيوش الصليبية إذا دفعوا إليها الأجر المعلوم . ولما عاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوروبا صار يحكى في اجتماعاته التي عقدها في إيطاليا وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، فلما كان في ألمانيا تأثر بدعوته الإمبراطور فريدريك بربرسا حتى عجل بالزحف بجيشه سنة ١١٨٩ م ، فحياه العالم المسيحي وأطلق عليه لقب موسى الثانى الذى شق الطريق إلى الأرض الموعودة ، فلما عبر بجيشه مضيق الهلسنت عند غاليلوى فإنه توجه إلى فلسطين عن طريق جديد . ارتكبت فيه نفس الأخطاء التي وقعت في الحملة الصليبية الأولى بكل معانيها حتى إن بعض العصابات التركية اقتفت أثره وحرمته من المؤن فوق المئات من رجاله صرعى الجوع . ثم مات فردريك غريقاً في نهر سالف الصغير فى قليقية سنة ١١٩٠ م ، أما القليل الذى نجا من جيشه فإنه انضم إلى حصار عكا .

وكان ريتشارد الأول « الأنكتار » الذى أطلق عليه لقب « قلب الأسد » قد صمم على أن يجرب حظه مع المسلمين متوجساً فى نفس الوقت من أن يغير

الفرنسيون على الأملاك الإنجليزية في فرنسا ، فإنه أصر على أن يكون فليب أغسطس معه في حملته ، ولم يعترض الملك الفرنسي وتلقى الملك الصليب من وليم كبير أساقفة صور في احتفال له جلاله . وانطلق جيش ريتشارد الذي كان جنوده من النورمان من مرسيليا ، أما جيش فليب فإنه أبحر من جنوا وكان التقاء الجيشين في صقلية سنة ١١٩٠ م ، فلما التقيا استسلما للخلافات والعبث الذي استمر نصف عام ، وكان تانكرد ملك صقلية قد أثار حفيظة ريتشارد إلى أن استولى منه على مسينا ، ثم أرجعها إليه بعد أن دفع له تعويضاً مقداره أربعون ألف أوقية من الذهب ، فلما أن توفر له المال اللازم أبحر بجيشه إلى فلسطين ، وحدث أن تحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص وألقى حاكمها اليوناني القبض على بحارة السفن ألقى بهم في السجن ، فلم يكن من ريتشارد إلا أن فتح الجزيرة وأعطها إلى جاي ده لوزينان ملك بيت المقدس الطريد . ثم أبحر ريتشارد إلى عكا فوصلها في يونيو سنة ١١٩١ م ، فحاصرها ومعه الصليبيون ما يقرب من تسعة أشهر ثم استسلم المسلمون . وقد فرض المنتصرون شروطهم على المنهزمين منها دفع مائتي ألف قطعة من الذهب وأن يسلموا إليهم ٦٠ أسيراً من كبار رجال المدينة وأن يردوا إليهم الصليب الحق . وقبل المسلمون هذه الشروط وأيدها صلاح الدين ، في نفس الوقت فإنه أجاز للمسلمين من أهل عكا ما عدا دفع المبلغ الذي أشرنا إليه أن يتركوا المدينة محملين بالمؤن التي تلزمهم . ثم عاد فليب أغسطس إلى فرنسا لمرضه . وأصبح ريتشارد هو القائد الصليبي الوحيد في الشام .

غير أن ريتشارد كان على ثقة تامة بأن صلاح الدين لن يقبل الهزيمة فأعاد تنظيم قواته ، واعتزم السير نحو الجنوب محاذياً لساحل البحر ، ليرفع الحصار عن يافا التي كان يحاصرها المسلمون . وعصا الكثيرون من النبلاء أوامر ريتشارد وفضلوا البقاء في عكا حيث أغراهم الترف والمجون . ثم التقى جيش ريتشارد بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصاراً غير حاسم وكان ذلك في

سنة ١١٩١ م ، وطلب الاستمرار في القتال غير أن ريتشارد أخذ جنوده إلى داخل يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح . وبينما كانت المفاوضات قائمة بين القائدين عرض كتراد مركز على صلاح الدين أن يصبح حليفه وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين إذا وافق صلاح الدين على أن يمتلك هو صيدا وبيروت لكن صلاح الدين أشار لأخيه على أن يعقد مع ريتشارد صلحاً بمقتضاه يبقى للصليبيين جميع ما كان لديهم من المدن الساحلية ونصف بيت المقدس . وابتهج ريتشارد بهذه الشروط حتى إنه منح ابن السفير المسلم لقب « فارس » لكن ريتشارد سرعان ما تراجع عن الشروط عندما علم أن صلاح الدين يواجه بعض المشكلات في الشرق ، ثم حاصر ريتشارد داروم واستولى عليها بعدها تقدم في زحفه حتى أصبح على مسافة قليلة من بيت المقدس . فما كان من صلاح الدين إلا أن دعا جنوده إلى العودة إلى السلاح ، وكان قد تركهم ليأخذوا شيئاً من الراحة في فصل الشتاء . غير أن الشقاق في هذه الأثناء قد دب في معسكر الصليبيين ، كما بلغهم أن الآبار التي في الطريق إلى بيت المقدس قد سممت ، وعلى هذا فإن الجيش الزاحف نحوها لن يجد ماء صالحاً للشرب ، وبعد تدبر الأمر انتهى قادة الجيش الصليبي أنه من الأصوب أن يرجعوا عن بيت المقدس وأن يوجهوا زحفهم إلى القاهرة . غير أن ريتشارد سئم التردد حتى خيم اليأس على نفسه فرجع إلى عكا ، وهو يفكر في العودة إلى إنجلترا ، غير أنه عندما سمع أن صلاح الدين رجع فهاجم يافا وأنه احتلها بعد أيام قلائل فإنه رفض أن يتراجع وعادت إليه حمية القتال ، فأبحر إلى يافا يقود من استطاع أن يجمعه من جنود حيث تمكن بهم من دخول المدينة وطرد الجنود المسلمين ، وما إن علم صلاح الدين بما وقع ، فإنه قاد الجزء الرئيسي من جيشه لينقذ المدينة . وبسرعة تغير الموقف العسكري فقد وصلت الإمدادات إلى صلاح الدين فاستولى اليأس مرة ثانية على ريتشارد إذ إن فرسان عكا وصور أحجموا عن مساعدته فعاد يطلب الصلح من صلاح الدين ، وفي اليوم الثاني من سبتمبر ١١٩٢ م ، وقع القائدان شروط الصلح الذي جعلت مدته

ثلاث سنوات ، وقسمت فلسطين قسمين فاحتفظ ريتشارد بجميع ما فتحه من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا . وكان للمسلمين والصلبيين الحرية فى الانتقال بين القسمين ، وفى الشروط تعهد السلطان بحماية الحجاج الصليبيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدي المسلمين .

هكذا كان دور صلاح الدين فى الجهاد ضد الصليبيين .

٢ - الجهاد بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين وهو فى الخامسة والخمسين من عمره وكان ذلك فى سنة ١١٩٣ م ، بغير أن يكون قد أقر نظاماً معيناً لولاية العهد وكانت النتيجة أن دب الشقاق بين أولاده وأحفاده وإخوته وأقاربه . ثم تمكن العادل أخو صلاح الدين من أن يستحوذ على الجزء الأكبر من الدولة الأيوبية بفضل سياسته التى جعلت الجيش فى صفه ومؤيداً له . ومن ثم فقد أصبح فى سنة ١٢٠٠ م ، سلطاناً على مصر وبعض أجزاء الشام لا ينازعه منازع . وقد عمل العادل على أن يكون على علاقة طيبة بالصلبيين كما أنه عمل على إنعاش النشاط التجارى مع الإمارات الصليبية بالشام ، وكذلك المدن الإيطالية ذات الشهرة الواسعة فى التجارة مع الشرق مثل البندقية وجنوة وبيزا .

ولا شك فى أن اصطناع العادل هذا النهج فى السياسة مع الصليبيين يعتبر مناقضاً ، بل مناهضاً للسياسة الجهادية التى أرساها صلاح الدين ضد الصليبيين إذ إن ذلك معناه مسالمة الصليبيين على حساب القضية الجهادية الكبرى ، فقد ظن السلطان العادل ومن عاونوه أن مثل هذه السياسة قد تؤدى إلى أن يخفف الصليبيون من هجماتهم المدبرة ذات الهدف الأشمل على العالم الإسلامى إلا أن الصليبيين وعوا الدرس جيداً من حربهم مع صلاح الدين . فقد استبان لهم أن الانتصارات التى حققها صلاح الدين ترجع إلى أن العماد الرئيسى للجيش الأيوبية ترجع فى إمدادها بالسلاح والمال ، كان مصر ، إذن فلماذا لا تكون مصر



هى الهدف الذى يجب عليهم أن يستولوا عليه ، لأن من يستولى على مصر يكون من السهل أن ييسط سلطانه على المسلمين فى كل مكان .

بدأ الهجوم الصليبي على مصر :

احتلال دمياط :

كانت المدن البحرية الإيطالية على وفاق تام مع ما ذهبت إليه السياسة الصليبية بل إنها شجعته ونفخت فيها وخيلت لها أطماعها التجارية أن احتلال مصر سيشيح للسفن الإيطالية أن تصل إلى البحر الأحمر ، حيث يمكنها التعامل مباشرة مع المراكز التجارية الشرقية .

وقد اتفق هذا الانقلاب فى خطط الصليبيين مع ما دعا إليه البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م ، بضرورة القيام بإعداد حملة صليبية جديدة هى التى عرفت بالخامسة حسب التقليد الصليبي المعهود .

وبدأ الغزو الصليبي لمصر بأن دخلت الجيوش الصليبية فرع النيل الشرقى ، وضرب الحصار على دمياط سنة ١٢١٨ م . وبسرعة خف السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لطرده هذه الحملة الصليبية المباغته ، غير أنه توفى فى الطريق بالقرب من دمشق . وبعد وفاته دب الشقاق من جديد فى الدولة الأيوبية فتولى حكم مصر ابنه الملقب بالكامل ، وبذلك أصبح مسؤولاً عن الدفاع عن مصر وأن يقوم فى نفس الوقت بالسير على سياسة والده العادل فى التعامل مع الصليبيين ، وعندما دخل الصليبيون مصر استطاعوا الاستيلاء على دمياط ، ورغم ذلك فإن الملك الكامل سار على أسلوب المسالمة الذى انتهجه أبوه ذلك بأنه اقترح على الصليبيين أن يسلمهم بيت المقدس وأن يسلمهم المملكة الصليبية إلى ما كانت عليه فى أغلب مساحتها الأولى قبل أن يقوم صلاح الدين بفتوحه باستثناء بضع بلاد صغيرة وذلك كثمن للجلاء عن دمياط والابتعاد عن الشواطئ المصرية ، لكن الصليبيين انتهزوا فرصة ضعف الملك الكامل فرفضوا هذا العرض ظانين أن

بإمكانهم الاستيلاء على مصر بسهولة . ثم شرع الصليبيون بالزحف داخل الدلتا في الوقت الذي كان فيه الفيضان قد بلغ ذروته غير مقدرين أن السير في الأراضي المصرية إبان الفيضان أمر شديد الصعوبة وذلك بجهلهم بأحوال النيل وكثرة الترع . هذا فضلاً عن أن المسلمين قد أسرعوا بفتح الجسور والسدود مما أغرق الأراضي . ووقتها وجد الصليبيون أنفسهم وقد أحاطت بهم مياه الفيضان مما أبعدهم كثيراً عن قاعدتهم الحربية الرئيسية في دمياط فعجزوا تماماً عن التراجع ، فكان أن لحقت بهم هزيمة شديدة على يد المسلمين . وهنا رضخ الصليبيون للتسليم ووافقوا عن الجلاء عن الأراضي المصرية سنة ١٢٢١ م بلا قيد ولا شرط .

ما بعد هزيمة الصليبيين في دمياط :

لم يواجه الصليبيون بعد هزيمتهم في دمياط سوى السخرية من ملوك أوروبا جميعاً لأنهم فضلوا مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس . وقد جاء اللوم اللاذع من فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا . فمن وجهة نظر هذا الإمبراطور أن من الأفضل تنفيذ الفكرة التي عرضها ريتشارد ملك إنجلترا على صلاح الدين من قبل ، وهي أن تقوم ثمة تسوية سلمية بين الصليبيين والمسلمين . فكان أن جاء الإمبراطور إلى الشام في حملة قليلة العدد والعدة سنة ١٢٢٩ م ، فأجرى مفاوضات مع نواب السلطان انتهت بمعاهدة غريبة غاية الغرابة . فقد نصت شروطها على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للإمبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرية ، وطريق الحج من بيت المقدس إلى يافا وعكا ، على أن يبقى للمسلمين منطقة المسجد الأقصى فضلاً عن بعض المدن . وفي نفس الوقت أخذ الإمبراطور على نفسه عهداً أن يكون نصيراً للسلطان على كل أعدائه وأن يحول بين الإمارات اللاتينية وبين قيامها بإمداد الصليبيين بما يلزمهم ، وعليه في نفس الوقت أن يخبر السلطان الكامل بأي تحركات صليبية أوربية ضد المسلمين .

غير أن هذه المعاهدة لم تنل رضاء أي من الطرفين المسلم والصليبي فقد



وصفها المسلمون بأنها تعبر عن ذل المسلمين وهوان شأنهم ، وقال عنها الصليبيون: إن الإمبراطور فردريك أهان نفسه وأهان أوروبا معه بتنازله بالتفاوض مع المسلمين بدل أن يشن عليهم الغارات تخليصاً للأراضي المقدسة من أيديهم .
ملك فرنسا يجرب حظه مع مصر :

عندما أصبح الصالح أيوب ابن الملك الكامل سلطاناً على مصر قامت جماعة من الخوارزمية المسلمين فانتزعت بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ م ، فكان ذلك خرقاً للشرط الأول من شروط المعاهدة التي قامت بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك فأصاب الفزع كل أنحاء أوروبا ، وثار أشهر ملوكها لويس التاسع ملك فرنسا والذي عرف في التاريخ باسم « القديس لويس » ثورة عاتية ودفع بها جموح الغضب إلى أن أعد حملة صليبية كان أغلب جنودها من الفرنسيين ، ثم أبحر سنة ١٢٤٨ م متوجهاً إلى قبرص لقضاء فصل الشتاء . ثم خرجت الحملة من قبرص متوجهة إلى مصر بما يدل دلالة قاطعة على أن العقيدة الصليبية كانت راسخة عند الأوربيين في القرن الثالث عشر الميلادي أنه من الضروري لمصلحة أوروبا والصليبيين الاستيلاء على مصر لأنها أصبحت تجسد المقاومة الرئيسية للعالم الإسلامي ضد المخططات الصليبية .

أما عن حملة لويس التاسع على مصر فإنها نزلت قريباً من دمياط واحتلتها بدون أدنى مقاومة وذلك في يوليو ١٢٤٩ م . ولم يكد الخبر يصل إلى السلطان الصالح أيوب وكان وقتها في دمشق حتى نهض من فوره إلى مصر غير أنه توفي من قبل أن يقوم بأي عمل دفاعي ضد الصليبيين . وبسبب الوفاة المفاجئة للسلطان واحتلال الصليبيين لدمياط فإن شجرة الدر أخفت وفاة زوجها السلطان الصالح أيوب إلى أن يحضر الوارث الشرعي للبلاد وهو توران شاه .

وجاءت هزيمة الصليبيين على يد هذا السلطان الجديد ذلك لأن القديس لويس ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه الحملة الصليبية السابقة على دمياط ، ذلك لأنها

صارت تؤجل الزحف حتى حلت أشهر الفيضان وأصبحت الترع والقنوات تطفح بمياه النيل حتى تعسرت جيوش الحملة ، وعجزت عن الزحف حتى تجمع الجيش الأيوبي ، وكان أغلبه من المماليك البحرية عند موقع المنصورة الحالية حيث أنزل الهزيمة النكراء بالصلبيين . ثم كر الجيش الأيوبي على الصليبيين فأنزل بهم هزيمة أخرى عند فارسكور ، وذلك أثناء محاولتهم التقهقر إلى قاعدتهم الرئيسية في دمياط .

وكانت النتيجة الكبيرة أن دُحر الصليبيون كما وقع القديس لويس أسيراً في أيدي القوات الإسلامية ولم يفرج عنه إلا سنة ١٢٥٠ م ، بعد أن دفع فداءً كبيراً تولت زوجته أمره فجمعت نصفه وتعهد الملك بتأدية النصف الثاني بعد مدة من إطلاق سراحه .

الدور النهائي من الجهاد ضد الصليبيين

تمهيد :

يعود الفضل في انتصار المسلمين وجلاء الصليبيين عن دمياط إلى الشجاعة القتالية الفائقة التي ظهر بها جنود المماليك في قتالهم ، وبعد هذا القتال الذي توج بنصرهم كانوا قد ذاقوا طعم السلطان وحلاوة الحكم فلعب الطموح بنفوسهم ، وهنا أدرك السلطان الجديد توران شاه أن أولئك المماليك وقد تزعمتهم شجرة الدر زوجته وهي التي أشرفت على شؤون الدولة سوف يأترونها به ويقصونه عن الحكم والسلطان نهائياً . فما كان منه إلا أن قابل التآمر فناهضه غير أن شجرة الدر تغلبت عليه فأغرت أمراء المماليك بالتخلص منه بقتله وتم لها الأمر في سنة ١٢٥٠ م ، وهنا أفل نجم الحكم الأيوبي تماماً ، وانتقل الحكم إلى المماليك فانتقلت إليهم فريضة جهاد الصليبيين . . فمن قاد ذلك الدور النهائي . . . نذكر :

أ- الظاهر بيبرس :

في تصورنا وتقديرنا أن الظاهر بيبرس يمثل ذورة الجهاد الإسلامي ضد



الصلبيين من حيث الشمول والتنوع وتعدد الجبهات ووحدة الخطة العامة التي حكمت المسيرة الجهادية للظاهر بيبرس ، فمع هذه العبقرية العسكرية نسير لتتعرف على أبعادها وطبيعة دورها وضرورته . .

لقد كان الظاهر بيبرس على درجة عظيمة من بعد النظر السياسي وهو يعالج حروبه مع الصليبيين . فقد كان يهيئ لحروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات ليحصن جبهته هو من ناحية ، وفي نفس الوقت يحقق فوزه بالأعوان والحلفاء ليكونوا عوناً له على أعدائه والمناوئين له ، ومن الأمثلة على ذلك أنه عمل على محالفة بيزنطة وكانت على عدااء متصل بالصلبيين بالشام خاصة ، وأن بيبرس وهو ينوي الاستيلاء على أنطاكية كان يعلم جيداً مدى تطلع البيزنطيين إلى تلك المدينة كما كان يدرك في نفس الوقت أبعاد النزاع بين أباطرة البيزنطيين وأمراء أنطاكية . . وليس هذا فحسب بل إن السلطان بيبرس عمل على أن تكون السياسة بين حكام مصر وبين حكام جزيرة قبرص قائمة على المودة والتضامن .

هذا عن جانب العلاقات السياسية بين بيبرس وبين من حوله . . أما عن السياسة الجهادية فقد كان على يقين من أنه يواجه تحالفاً قوياً بين ألد عدوين له وهما الصليبيون ومغول فارس ، ولئن تعارضت الأهداف بين هذين الخصمين إلا أن غايتهم كانت واحدة وإنها لتدمير العالم العربي والإسلامي .

ولنبداً أولاً بالعدو التقليدي للإسلام وهم الصليبيون . . فحيث إن الصليبيين كانوا أقرب إلى يد بيبرس من المغول ، يضاف إلى هذا أن مدنهاهم وقلاعهم كانت جزراً متفرقة في محيط عربي كبير سيطر الظاهر بيبرس على أغلبه . يضاف إلى هذا أن بيبرس قد عرك الأساليب الحربية للصلبيين عندما حاربهم عند المنصورة فعرف خصائصها من حيث القدرة والدراية الميدانية ، لهذا كله فإن بيبرس جعل الصليبيين الهدف الذي أولاه غاية جهاده ، واستهل تصادمه بهم بأن قام بعض أمراءه بالإغارة على بعض جهات إمارة أنطاكية سنة ١٢٦٠م . فخشى الصليبيون مغبة هذا الحادث ، فأسرعوا يطلبون الصلح والغفران من السلطان ، غير أن

بيبرس لم يُخدع بقولهم ، فقام بعدة هجمات محلية على الصليبيين كانت غايتها منها كشف مواطن القوة والضعف في مواقعهم ، ثم غادر منطقة الطور إلى عكا نفسها ليتعرف على تحصيناتها بنفسه غير أنه لم يتلبث طويلا أمامها ، فطفق يتنقل بين تحصينات الصليبيين في فلسطين « وكشفها مكانا مكانا » ، وبعد جولته هذه عاد إلى مصر في أغسطس سنة ١٢٦٣ م .

وفجأة وردت إليه الأخبار بأن المغول أغاروا على البيرة فعاد إلى القاهرة مرسلا الأمير عز الدين إيغان بفرقة قوامها أربعة آلاف فارس ، ولحقه الأمير جمال الدين المحمودى ، بفرقة قوامها أربعة آلاف أخرى ، وفي ٢١ يناير ١٢٦٥ م ، خرج الظاهر بنفسه إلى الشام ، وسرعان ما وردت إليه الأنباء بتراجع المغول عن البيرة ، فقرر في الحال أن يهاجم الصليبيين وبدأ هجومه على قيسارية فنصب حولها المجانيق التي قامت بضربها ثم اقتحمها ، ففر أهلها وسلمت في مارس ١٢٦٥ م . . وحرص بيبرس على هدم قيسارية لأن موقعها كان يهدد مواصلات المسلمين بين مصر والشام فضلا عن أنها تشل تحركاتهم الحربية في فلسطين ، وبينما كان المسلمون يحاصرون قلعة قيسارية أرسل السلطان بيبرس فرقة من جنوده بقيادة الأمير شهاب الدين القميرى إلى بيسان كما سير جماعة من العربان والتركمان إلى عكا فأسروا بعض الصليبيين ، ثم إنه أرسل جزءا من جيشه إلى حيفا فهرب الصليبيون من المدينة وقلعتها واحتموا بسفنهم ، آتئذ ضرب المسلمون حيفا وقلعتها ورجعوا بالأسرى والغنائم . وأثناء ذلك قصد بيبرس إلى عثليث فخربها وقطع ما حولها من أشجار وكرَّ راجعا إلى قيسارية .

ثم جاء دور أرسوف وهى قلعة حصينة تقع إلى الجنوب من قيسارية ولها خطرهما الكبير على تحركات بيبرس الميدانية . . وقد اعتمد فى مهاجمتها على عنصر المفاجئة فسار إليها من غير أن يعرف أحد قصده ، وضرب حولها المجانيق وقد كانت حماسة المسلمين كبيرة فى حصار أرسوف حتى إن النساء شاركن فى الجهاد وأكثر من هذا ، فإنهم شاركن فى جر المجانيق . ثم أطلقت المجانيق على

أرسوف وتسلق المسلمون أسوارها ورفعوا أعلامهم عليها وأسروا الكثيرين من جند الصليبيين ، ومما يذكر أن بيبرس أرغم أسرى الصليبيين في أرسوف على هدم مدينتهم وتخريب حصونهم بأيديهم .

ولم يكذب بيبرس يعود إلى القاهرة من الشام في ٢٩ مايو سنة ١٢٦٥ ، حتى غادرها في ١٢ مايو سنة ١٢٦٦ ، متجها إلى الخليل ، ثم غادرها واتجه إلى عين جالوت ، حيث شن أمراؤه عدة غارات استكشافية على مجموعة من الإمارات الصليبية منها صور وصيدا ، وكان بيبرس قد علم أن بوهيموند السادس أمير أنطاكية شن غارة على مدينة حمص فتصدى له بجيش يقوده الأميران جمال الدين أيدغدي ، وسيف الدين قلاوون الألفي في حين أن بيبرس زحف إلى عكا ثم قصد إلى صفد حيث تجمعت جيوشه ببلاد الشام . وفي الحال استقدم المجانيق من دمشق إلى صفد ونصبها حولها . ثم اندلع القتال واشتد ، وقد قاتل المسلمون الصليبيين في شجاعة وبأس في الوقت الذي أظهر فيه الداوية - أصحاب صفد - قوة في الدفاع عن قلعتهم . ومما ينبغى الإشارة إليه ، أن بيبرس أقام مستشفى ميدانيا مهمته إسعاف الجرحى من جنود المسلمين وعلاجهم ، وكان المستشفى عبارة عن خيمة كبيرة ضمت الكثيرين من الأطباء والجراحين والأدوية ، ثم خارت قوى الصليبيين فسلموا في ٢٣ يونيو سنة ١٢٦٦ ، طالبين الأمان فأمنهم شريطة ألا يخرجوا بمال أو سلاح وألا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة ، وبتفتيشهم عند خروجهم وجدوهم قد خالفوا الشروط ، بأن حملوا معهم بعض السلاح والمال والأسرى . فما كان من بيبرس إلا أن قتل رجال الداوية جميعا - ماعدا اثنين - على تل قريب من صفد ، وبعد تخريب القلعة فإنه عاد إليها في العام التالي فجدد بناءها وتحصيناتها لتكون قاعدة للهجوم على الصليبيين في المستقبل . ثم زحف بيبرس إلى هونين وتبنين والرملة فاستولى عليها جميعا ، ثم رجع إلى القاهرة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٢٦٦ ، وبعد وقت قصير غادرها في ٢٥ مارس سنة ١٢٦٧ م ، متجها إلى غزة ، وفزع الصليبيون عندما جاءهم ذلك النبا فأرسلوا إلى

بيبرس بهداياهم وعدد من الأسرى المسلمين ، ثم فضل بيبرس في هذه المرة الهجوم على عكا ، وهنا لجأ لخدعة حربية ليحقق بها عنصر المفاجأة فجعل بعض جنوده يرتدون ملابس فرسان الداوية والبعض الآخر ملابس الإستتارية ، ونجحت الخطة ففوجئ الصليبيون بالمسلمين وهم على أبواب عكا فأعمل المسلمون السيف فيهم : « وصارت الرءوس تحمل إليه من كل جهة » ، وأصاب الهلع القوى الصليبية فأسرع معظمها بإرسال الرسل طلبا للصلح وكان بيبرس داهية في الاستجابة إلى هذا الطلب إذ إنه فضل أن يعقد صلحا مع بعضها دون البعض ، ليتاح له القضاء عليها واحدة بعد الأخرى ، فقد عقد صلحا مع أمير بيروت وصاحب صور وكذلك مع فرسان الأكراد ، وفي المراقب وكانت مدة الهدنة مع الجميع عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، ولم يكذب بيبرس يعود إلى القاهرة حتى ورد إليه الخبر بأن التتار بدؤوا يتحركون نحو حلب فغادر القاهرة إلى الشام . غير أنه فضل أن يبدأ بالصليبيين فبدأ بيافا فحاصرها ثم استولى عليها ثم أخذ قلعتها وقوضها ، ثم انتقل تجاه الشقيف أرنون ، وهو أحد حصون الداوية الحصنية ، وضرب عليها الحصار ، ومما يدل على ثراء الحيل بيبرس أنه أثناء حصاره للشقيف وقعت في يده رسالة من الصليبيين إلى إخوانهم بالشقيف ، ينفخون في عزائمهم على ضرورة الصمود في القتال حتى لا ينجح المسلمون في الاستيلاء على الحصن ، وعلى الفور أخذ بيبرس الرسالة وجاء بمن يكتب بالفرنجية ، وأمره أن يكتب رسالة إلى أهل الشقيف حذر فيها أهالي عكا مقدم الشقيف من بعض رجاله ، وفي نفس الوقت أرسل بيبرس رسالة أخرى على نفس المنوال إلى أولئك الرجال يحذرهم من مقدم الشقيف ، وبهذه الحيلة اندلع الشقاق بين الصليبيين داخل الشقيف وتحزبوا ، هذا بينما المسلمون يشددون حصارهم عليهم ؛ ولم يجد الصليبيون مفرًا من التسليم فتسلم بيبرس الحصن في ١٥ إبريل سنة ١٢٦٨م ؛ وما إن استولى بيبرس على حصن الشقيف أرنون حتى أخذ سبيله إلى الشمال متجها إلى طرابلس فأغار عليها وما حولها وغنم الكثير منها ، آتئذ استبد الهلع بأمراء الصليبيين والحصون والقلاع القريبة . فبادرت



صافيتا وأنطرسوس بتقديم الولاء كل الولاء للسلطان ، ثم استأنف سيره فمر بحمصر وحماء دون أن يعرف أحد حقيقة مقصده إلى أن وصل بجيوشه إلى أنطاكية ف ضرب عليها الحصار من كل جانب ، وهنا ظهرت حقيقة تحرك السلطان وإنه للاستلاء على أنطاكية ، وقبل أن تبدأ المعركة فضل بيبرس أن يفاوض الصليبيين ولما لم يستجيبوا للتسليم فإنه شن على المدينة هجوما عاما فتمكن رجاله من اقتحامها ففرت حاميتها - و كانت تبلغ ثمانية آلاف - إلى القلعة ثم طلبوا الأمان من بيبرس فأمنهم . وبذلك تم استيلاؤه على أنطاكية في أواخر مايو سنة ١٢٦٨م . . ويذكر المؤرخون : « أن استيلاء بيبرس على أنطاكية كان أعظم فتح حققه المسلمون على حساب الصليبيين في بلاد الشام منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧م » . . وبهذه المناسبة أقيمت الأفراح في جميع الأقطار الشامية والمصرية . . أما بالنسبة للصليبيين فكانت كارثة كبرى إذ إن أنطاكية فضلا عن كونها من أولى الإمارات الصليبية (١٠٩٨م) فإنها كانت تمثل القلعة الكبرى للصليبيين بالشام ، فكان سقوطها علامة واضحة على أن الحركة الصليبية قد آذنت بالزوال ، وأمام هذه الكارثة لم تملك القوة الصليبية القريبة من أنطاكية إلا أن تستسلم وتفر بحياتها ، أما أمير عكا فإنه اتقى الحرب مع بيبرس فطلب الصلح الذي تم على أن تكون أعمال عكا منا صفة بينه وبين بيبرس على أن تبقى حيفا للصليبيين ، ويستولى السلطان على المرتفعات المحيطة بصيدا ، بعدها شن بيبرس غارة على صور في يوليو سنة ١٢٦٨م وهو في طريقه إلى القاهرة عن طريق دمشق وفاز المسلمين بمغانم كثيرة ، بعدها قام بيبرس بجولة تفتيشية شملت الشام ومصر ، وبعد زيارته للإسكندرية رجع إلى الشام في ١٨ نوفمبر سنة ١٢٦٩م ، وبعد أن بلغته الأنباء بقيام التتار بغارة على الساجور قرب حلب ، ووقتها علم بيبرس بقيام تحالف بين الصليبيين والمغول ضد المسلمين وسلطة المماليك ، ولم يجد بيبرس مناصا من توجيه ضربة للصليبيين في شمال الشام ، هنا وجد أن الحذر يفرض عليه أن يهادن الإسماعيلية الذين تحالفوا مع الصليبيين ، فأقام معهم صلحا لكي يؤمن جبهته من ناحية هذه الفرقة الدينية



المضلة وحتى يوحد جهده تجاه الصليبيين والمغول ، وبينما كان بيبرس يجرى استعداداته بدمشق فى ربيع سنة ١٢٧٠م ، وصله نبأ بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد قاد حملة من بلاده إلى جهة غير معلومة ، فخشى بيبرس أن يكون لويس يريد أن يكرر تجربته السابقة فى غزو مصر فأخذ أهبطه لمواجهة ، غير أنه علم بعد ذلك أن لويس توجه إلى تونس فنهض بيبرس بواجبه الإسلامى فساعد تونس بكل ما يستطيع لدفع الخطر عنها غير أن لويس قتل فى الطريق وتشتت حملته ، وهكذا تخلص بيبرس من الخطر الفرنسى .

بعدها اتجه إلى عسقلان فى ٢٥ سبتمبر ليكمل هدم حصونها خشية أن يستغلها الصليبيون فى معاودة تهديد فلسطين ومصر ، ثم رجع إلى القاهرة ليغادرها مرة أخرى إلى الشام فى ٢٤ يناير سنة ١٢٧١م ، فاتجه إلى دمشق ثم تحول إلى طرابلس حيث بوهموند السادس أمير طرابلس ، وكان من أقوى الصليبيين فى الشرق ، وإذا كان بيبرس قد انتزع منه أنطاكية فإنه أراد أن يقضى على قوته كلها باستيلائه على طرابلس . ولما كان بيبرس يعلم جيدا أن طرابلس محصنة جيدا وأنها تمثل القاعدة الرئيسية لبوهموند فإنه أراد أن يقضى عليه فيها ، فكان أن قضى أولا على ما حوله من حصون ومعامل ليتمكن بعد ذلك من إحكام الحصار عليها ، وفى فبراير سنة ١٢٧١م ، بدأ بيبرس بمهاجمة حصن الأكراد وكان من أقوى الحصون بالشام ، وكان تابعا لفرسان الإيبترية ثم تمكن من الاستيلاء على ذلك الحصن باصطناع الحيلة ، فقد زيف على حامية الحصن رسالة من مقدم فرسان الإيبترية إلى رجال الحامية يأمرهم فيها بالتسليم للسلطان بيبرس ، وبهذه الخدعة استولى السلطان على حصن الأكراد ، وكان من أثر ذلك أن مقدم فرسان الداوية فى أنطرسوس طلب الصلح من السلطان ، وذلك ما حدث أيضا من فرسان الإيبترية فى حصن المرقب فصالحهم أيضا على أن تكون الهدنة بينه وبينهم لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، وعلى هذه الشاكلة صار الحصار يحكم شيئا فشيئا على طرابلس ، وكان أن زحف بيبرس

إلى حصن عكا شمال طرابلس وهاجمه بعنف حتى اضطر الحصن إلى التسليم في أواخر إبريل سنة ١٢٧١م ، ثم بقيت المرحلة الأخيرة وهي الانقضاء على طرابلس نفسها فما كان من بيبرس إلا أن أرسل إلى بوهيموند السادس رسالة كلها تأنيب وتهديد. ثم شرع في الاستعداد للهجوم على طرابلس وهنا نعى إليه أن الأمير إدوارد الإنجليزي وصل إلى عكا يقود مجموعة من الفرسان قاصدا الحج إلى بيت المقدس ، عندئذ ثارت مخاوف بيبرس من أن يكون مجي الأمير الإنجليزي مقدمة لحملة صليبية جديدة ، آتئذ أدرك بيبرس أن من الحكمة الموافقة على عقد صلح مع بوهيموند السادس صاحب طرابلس ، وجاءت الاتفاقية وكأنها الفصل النهائي في حركة الجهاد الإسلامي التي قادها بيبرس ضد الصليبيين ، وما كاد بيبرس ينتهي من طرابلس حتى قام بعمليتين عسكريتين لهما أهميتهما .

الأولى : ضد الباطنية (الإسماعيلية) وهي فرقة دينية إسلامية انتسابا فاسدة العقيدة أرادت أن تشيع فسادها في الشام ومصر فكان لهم بأس شديد . وكان أمراً بدهياً أن يتقربوا من الصليبيين وأن يتحالفوا معهم ، ومع ذلك تمكن بيبرس من أن يقضى على وجود الباطنية في الشام بعد أن استولى على حصونهم واحداً بعد الآخر (١٢٧٠ - ١٢٧٣م) ، حتى قضى عليها جميعا ، أما الباطنية أو الإسماعيلية أنفسهم فإن بيبرس تخلص منهم بأن أسكنهم بعض الجهات في مصر ، أما العملية العسكرية الثانية فهي غزو جزيرة قبرص ، وكانت هذه الجزيرة على رأس القوة الصليبية في عدواتها للمسلمين ، ولقد حاول بيبرس أن يشن حملة على الجزيرة غير أن حملته فشلت .

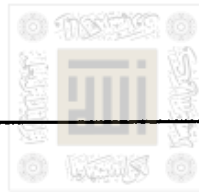
حرب بيبرس مع المغول :

نتقل بعد هذا إلى جهاد بيبرس ضد المغول في آسيا الصغرى ، فمن الثابت تاريخيا أن الظاهر بيبرس مزج بين حروبه للمغول وحروبه للصليبيين ، فكثيرا ما كان يحارب الجانبين في آن واحد ، وربما خرج ليحارب أحدهما فإذا به يحارب

الآخر حسب المواقف وتطور التحركات الميدانية . .

لقد قام الظاهر بيبرس بدور له وزنه فى صد المغول وجاهد جهاداً كبيراً فى محاربتهم عند غزاة ثم عند عين جالوت . فخلصت له من التجارب القتالية معرفة عميقة بالاتصالات التى نشأت بين مغول فارس من جانب والبابوية ولويس التاسع وملوك أرمانيا الصغرى من جانب آخر . وكانت الغاية من هذه الاتصالات القضاء على البلدان العربية ، وإذا كان مغول فارس بزعامة هولاكو ، ومن جاؤوا بعده وجهوا ضربات قاصمة إلى البلاد الإسلامية فى الشرق العربى فأغاروا على العراق وهدموا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم وتوغلوا داخل الشام حتى بلغوا غزاة وعين جالوت فى فلسطين ، وكان إلى جانب هذا الصنف من المغول فرع آخرهم مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية حيث قطنوا المنطقة بين بحر قزوين ونهر الفولجا . وقد اصطنعوا لأنفسهم سياسة مختلفة تماما . فبركة - خان مغول القفجاق أعلن إسلامه ومن أجل إسلامه فإنه غضب لما أنزله هولاكو من خراب ودمار ببلاد المسلمين ولا سيما قتله الخليفة العباسى ، وبإسلام بركة انتشر الإسلام بدرجة كبيرة بين مغول القفجاق مما تسبب فى عداة شديد بينهم وبين مغول فارس ، وبعد فترة وجيزة أصبح مغول القفجاق قوة إسلامية كبرى يسرها ما يصيب المسلمين من خير ويؤلمهم ما ينزل بالمسلمين من ألم . وقد رأى بيبرس أن فى إسلام بركة وقومه دعماً له خطره للقوة الإسلامية الجديدة ، هذا فضلا عن التصدى لما يطمع فيه مغول فارس ، فكان من الطبيعى أن يقوم تحالف قوى بين بيبرس وبركة خان ضد العدو المشترك وهو مغول فارس ، ومن طريف ما يذكر عن العلاقة الطيبة بين القبيلة الذهبية وبيبرس أن بعض رجال القبيلة هاجر إلى مصر فاستقبلهم بيبرس بكل ترحاب وأقنعهم باعترافهم بالإسلام وفرحوا وسعدوا .

ولقد ظل مغول فارس بعد موقعة عين جالوت وهم فى طمع متصل إلى بلاد الشام بالاستيلاء عليها من جديد ، فكان أن شنوا عدة غارات عليها إلا أن بيبرس لم يكن بالرجل الذى يقبل العدوان عليه ، ولذلك فإنه لم يكذب سوى كل



مشكلاته الداخلية وينتهي منها حتى وصلته الأنباء بأن المغول أغاروا على البيرة (سنة ١٢٦٥م) ، والبيرة قلعة لها أهميتها وتقع على نهر الفرات وكان هدفهم أن يستولوا عليها ، فما كان من بيبرس إلا أن أرسل جيوشه إلى الشام على دفعات . أما هو فقد سار على رأس جيشه الأخير في نهاية يناير سنة ١٢٦٥م . ثم حاصر البيرة وأثناء الحصار مات هولاقو خان قائد مغول فارس سنة ١٢٦٥ ، ولكن ذلك الحادث لم يؤد إلى تهدئة الموقف ذلك ، لأن أبغا بن هولاقو وكان مسيحياً نسطوريا متزوجاً من ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، وقد عمل على أن تكون صلته قوية بالقوى الصليبية في الشرق والغرب طمعا في إنزال انتقامهم بالمسلمين في الشام ومصر ، وهكذا وجدت البابوية والقوى الصليبية في الشرق مثل أرمينيا - في المغول خير قوة يمكن الاستعانة بها في القضاء على الإسلام واستعادة ما كان للصليبيين في الشام من أراض ولا سيما بيت المقدس ، وقد وصلت تلك الأنباء إلى بيبرس ، ولكن المشكلات الداخلية والخارجية لمغول فارس شغلته كثيرا حتى أن أبغا فضل أن يطلب الصلح من بيبرس غير أن بيبرس أهمل تلك الدعوة ؛ لأنه كان لا يقبل أن يضع يده في يد أعداء الإسلام . ولما يأس أبغا من مصالحة بيبرس ، فإنه تحالف مع الصليبيين ، وواصل عدوانه على بلاد الشام . فما كان من بيبرس إلا أن يضرب في أطراف بلاد الشام ، ليكون على استعداد لدفع المغول ، وفي نفس الوقت خرج هو إلى الشام وما كاد يصل إلى دمشق حتى بلغت هزائم المغول وابتعادهم عن بلاد الشام ، غير أن أبغا لم ييأس من الفشل الذي منى به في هجماته فعاود الهجوم سنة ١٢٧١م ، على عدة مواقع فتلقى هو والصليبيون هزائم متتابعة ، وعندما خارت قوى الصليبيين في عكا فإنهم أسرعوا بطلب الصلح فعقدت هدنة بينهم وبين بيبرس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات ، أما أبغا فإنه أصر على عناده في محاربة بيبرس حتى إنه أغار على البيرة ونصب المجانيق لمحاربتها ، وما كان أسرع بيبرس في تعبئة جيوشه ثم خف لإنقاذ البيرة ، ثم عبر هو وجنوده الفرات ، وبمجرد وصوله

إلى البر الشرقى فإنه صلى ركعتين شكرا لله ، ثم شن هجومه الكاسح على المغول ، فأنزل بهم الهزيمة القاضية وقتل وأسر الكثيرين من جنود العدو .

بين بيبرس وسلاجقة الروم :

وأصبح المغول على يقين من أنهم لن يقدرُوا على الصمود أمام بيبرس ما لم يتحالفوا مع .مدو لبيبرس يكون قويا . فكان أن تحالفوا مع معين الدين البرواناه زعيم سلاجقة الروم ، وكانت بلاد سلاجقة الروم فى ذلك الوقت تحت الرعاية المغولية ، وذلك مما حدا ببيبرس بأن يشن حملة كبرى على بلاد السلاجقة فى آسيا الصغرى سنة ١٢٧٧م . فكان أن فتك تماما بالجيش المغولى عند أبلستين فى ١٨ إبريل ، وبذلك تمكن بيبرس من دخول قيصرية بآسيا الصغرى . ولم يجد معين الدين البرواناه بدأ من إعلان تسليمه الكامل للسلطان بيبرس ، ورغم ذلك فإن غزو بيبرس للأناضول تسبب فى دعم وتقوية التحالف بين المغول والصليبيين . وقد اعتبر أبغا الصليبيين حلفاءه الطبيعيين ، أما المسلمون فهم أعداؤه حتى يقال : إنه قتل من فقهاء المسلمين وقضاتهم ورعاياهم ببلاد الروم ما يزيد على مائتى ألف نسمة ، ولقد كان ليون الثالث ملك أرمانيا الصغرى أول من مديد العون من الصليبيين للمغول ، وقد تواطأ الاثنان على شن حملة كبرى على الشام لانتزاعها من أهلها ، وكذلك بيت المقدس ، وقد اتفقا على طلب المساعدة العاجلة من البابا وملوك أوروبا ، غير أن بيبرس أسرع باتخاذ إجراء صارماً ضد أرمينيا لا سيما وأن ملكها هيثوم الأول فرض حصارا اقتصاديا على مصر والشام وفى نفس الوقت منع تصدير الأخشاب والحديد إليهما من آسيا الصغرى . وكانت فرصة بيبرس عندما وجد أن أبغا خان مغول فارس قد اشتبك فى حرب مع مغول القفجاق فأرسل جيشاً سنة ١٢٦٦م ، يقوده الأمير قلاوون والملك المنصور صاحب حماة فهاجما أرمانيا الصغرى ، وتمكنا من إنزال أكبر هزيمة بالأرمن والصليبيين قرب دربساك فى أغسطس سنة ١٢٦٦م ، بعدها أغار الأمير قلاوون على كبرى المدن الأرمينية وهى المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس ، وكذلك ميناء إيأس ، أما الملك المنصور صاحب

حماة فإنه زحف إلى سبب عاصمة أرمينيا الصغرى ، واستولى عليها وقد دمرها تدميرا كاملا ، ثم عاد فرسان بيبس إلى الشام ومعهم أربعون ألف أسير ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصى ، وأخيرا شغل أبغا وليون الثالث بمشاكلهما الداخلية ، فأثرا تأجيل مشروعهما بالهجوم على الشام .

فتوح بيبس فى النوبة :

لم يشأ السلطان بيبس أن يكون هو البادئ بالعدوان على النوبة ؛ لأنه كان مشغولا أنثد بتثبيت دولة المماليك وإحياء الخلافة العباسية ، وكذلك انشغاله بمحاربة المغول والصليبيين ، كل ذلك جعل منه ملوك النوبة فرصتهم للعدوان على مصر ، وهذا ما فعله داود ملك النوبة إذا أنه اعتدى على مصر سنة ١٢٧٢م ، فهاجم أسوان وأسر كثيرا من المسلمين . ثم أغار على مدينة عيذاب ونكل بأهلها تنكيلا شديدا بما يدل على تأصل الروح الصليبية فى نفوس ملوك النوبة وأهلها . . وعندما علم بيبس بذلك العدوان وأدرك مدى خطورته لا على سلامة مصر فحسب بل على تجارة الدولة نفسها . . وفى يناير ١٢٧٦م ، تحركت حملة بيبس نحو النوبة يصحبه شكندة ملك النوبة المخلوع ، وقد صادفت هذه الحملة نجاحا كبيرا وحققت كل أغراضها فأصبح شكندة هو ملك النوبة بدلا من داود ، وقد اعترف كثير من المؤرخين بأن حملة بيبس على النوبة حققت ما لم تحققه حملة أخرى منذ أيام الفتح العربى لمصر فيذكر مفضل بن أبى الفضائل أن ما قام به بيبس من فتوحات فى بلاد النوبة بعد : « مما يفوق به على كل ملك تقدمه » . . هذا بينما يقارن ابن الفرات بين الغزوات التى قام بها حكام مصر فى بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبس فيقول : « كل هذه غزوات وإنما الفتح الذى وقع فى يد الملك الظاهر » .

وهنا نجد من الضرورى أن نذكر أنه عندما فتح المسلمون مصر سنة ٦٤٠م ، فكّر عمرو بن العاص فى فتح النوبة ، فأرسل عقبة بن نافع الفهري لفتحها وكان ذلك فى سنة ٦٤٢م ، غير أنه لم يوفق فى تحقيق الهدف ، ثم تجددت المحاولات

على يد والى مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وقد نجح فى التوغل فى النوبة جنوبا حتى دخل دنقلة عاصمة النوبة فحاصرها حتى أرغم ملكها على طلب الصلح فتم الصلح بين الطرفين فى اتفاقية سُميت اتفاقية: « البَقَط » . . وكانت فى حقيقتها اتفاقية اقتصادية .

ب- السلطان قلاوون :

واستمر الجهاد الإسلامى وتواصل ضد الصليبيين فى عهد السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، الذى آلت إليه فريضة الجهاد بعد السلطان بيبرس ، فانتهج ما قام به من عقد المحالفات مع بعض الدول الأوروبية ، لإحداث الشقاق بين الصليبيين الذى يؤلب بعضهم على بعض .

ولقد أظهر قلاوون فى جميع معاركه التى خاضها ضد الصليبيين أنه حقا «السلطان المنصور» . فقد بسط هيمنته على حصن المرقب الذى كان تحت سيطرته الإستراتيجية سنة ١٢٨٥م ، وبعدها قصد إلى مدينة طرابلس ودمرها تماما سنة ١٢٨٩م ، ومما يذكر أن المؤرخ أبو الفداء حضر هذه المعركة وكتب مشاهداته عنها فقال فى كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » ، ثم تساقطت المدن الصليبية واحدة بعد الأخرى فى عمليات متصلة نهضت بها الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان قلاوون إلى أن مات ، ونهض بعده بالتبعية ابنه السلطان خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣) الذى قام من فوره بفرص الحصار على عكا ، ونصب حولها المجانيق ، ثم أصلاها ضربا لمدة زادت على شهر حتى هدم جميع معقلها ثم سقطت فى يده سنة ١٢٩١م ، وقد سدَّت المنافذ فى أوجه الصليبيين فلم يجدوا مفرًا من الهروب إلى جزيرة قبرص التى صارت بعد ذلك الملجأ الذى تلوذ به البقايا الصليبية فى الشرق ، ويسقوط عكا لم تجد المدن الصليبية التى لا زالت بالشام بدأً من التسليم ومن هذه المدن صور وبيروت .

وعلى هذا النحو جاءت خاتمة الصراع بين المسلمين والصليبيين فى الشرق ، ولم يبق للصليبيين سوى جزيرة قبرص التى صارت مقرا لملوكها من أسرة

لوزجان، وجزيرة رودس التي تُحط بها بقية الفرسان الإسطبارية ، ومملكة أرمينيا الصغرى في قليقيا بأقصى الشرق من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي.

الحرب ضد المغول

أما عن المحيط الأصلي للمغول ، فلقد عاشوا في الهضبة الآسيوية الواسعة الانتشار فهي تمتد من حدود الصين إلى أواسط آسيا ، ومن جغرافيتها أنها تضم عدداً من خطوط الطول والعرض . وكان ذلك سبباً في أن تنوعت فيها البيئة كما تنوعت في مناخها وتضاريسها ، إلا أن الصفة الغالبة عليها هي الصفة السهبوية حيث المراعى المتنوعة ، ولهذه الأسباب فقد عمل المغول بالرعى والانتقال في سرعة هائلة على ظهور الخيل حتى وكأنهم وهم في انطلاقهم في زحف قتالي سريع ، ومن هنا لم ترض قبائل المغول أن تعيش حياة مستقرة فتبنى المدن الكبيرة وتأتى بالأعمال الحضارية التي تفرض الاستقرار ، ولكنها انطلقت تضرب في الأرض من حدود الصين ومنشوريا إلى بحيرة بايكل القريبة من تركستان الإسلامية، وبعد أطوار من الحياة الاجتماعية تمكن أحد زعماء المغول المسمى جنكيز خان ، أى حاكم الحكام أن يؤلف بين الجماعات المغولية وقبائلها في دولة مغولية ذات قوة وبأس شديدين اتخذت لها عاصمة في مدينة قرة قورم . . . ولإقامة هذه الدولة ، فإن جنكيز خان أعد لها دستوراً خاصاً اسمه « اليساق » . . . وحدث في الاجتماع المغولي العام ، وكان يعرف في اللغة المغولية بلفظ : «قوريتلاي» أن أعلن جنكيز خان دستوره ، وقد اتصف هذا الدستور بالاستبداد الدكتاتوري الصارم . فالخضوع تام لإرادة الزعيم وهو هنا جنكيز خان ، وكذلك الالتفاف برايته وتحت رايته ، وحيثما انطلق فليطلق معه كل فرد في أى حرب يخوضها بغير أن يتردد أو يستفسر ، والويل كل الويل لمن يخالفه سواء كان فرداً أو قبيلة . وبهذا الدستور أعد جنكيز خان قواته وجيوشه وشعارها شيئاً واحداً : الطاعة العمياء . . . الطاعة العمياء . . . الطاعة العمياء مع الاحترام الكامل لما يتخذه الخان الأعظم من قرارات بهذه القوات المغولية وهى في كثافتها الرهيبة الرعبية ، وبعد أن توج جنكيز خان إمبراطوراً للمغول في سنة ١٢٠٦م ، أخذ أهبته لفتح الأقاليم المجاورة له من إمبراطورية الصين . وكان يحكم الصين آنئذ ملوك أسرة

«كين» وعاصمتها مدينة « بكين » ، وبدأ جنكيز خان حروبه فى سنة ١٢١١م ، وتمكن من بسط سلطانه على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الصينية المتهاككة سنة ١٢١٥م ، ثم واصل حروبه المدمرة حتى وصلت جيوشه نهر هوانجھو . ثم قنع جنكيز خان بما استولى عليه من أراضى الصين ، وعاد إلى عاصمته قره قورم بعد أن أناب عنه أحد رجاله . وترك جنكيز خان الجبهة الصينية ، وتوجه إلى الجبهة الإسلامية مستهلاً حروبه بأن أخضع القبائل المغولية التى هربت من وجهه أثناء عملياته التى قصد بها أن يجعل من المغول دولة واحدة ، وصار يقتفى هذه القبائل أثناء فرارها من وجهه حتى وصل إلى بلاد الدولة الخوارزمية فى تركستان وإلى الحدود الشرقية من إيران ، وفى هذا الوقت كان يحكم الدولة الخوارزمية علاء الدين محمد خوارزم شاه . . ولقد كان جنكيز خان دمويًا رهيبًا حين انقض على بلاد الدولة الخوارزمية فى إقليم ما وراء النهر ، وتعرضت بخارى وغيرها من المراكز الإسلامية إلى أبشع صنوف التدمير وسفك الدماء ، فقد حول المغول المساجد إلى إصطبلات لخيولهم ، وبسرعة البرق فر علاء الدين خوارزم شاه إلى جزيرة فى بحر قزوين ، وقد توفى سنة ١٢٢٠م ، حزنًا على ما أصاب بلاد الإسلام من فوادم مدمرات ، ولقد أورد المؤرخ ابن الأثير صورة تدل على بشاعة ما أصاب الناس من رعب وانهايار أمام الجيوش المغولية ، وقد فقدوا إرادتهم تمامًا ، فكان المغولى يدخل قرية من القرى وقد تجمع أهلها فى مكان من شدة الفزع ، ثم يأخذ التترى فى قتلهم واحدًا بعد الآخر حتى يقضى عليهم جميعًا بغير أن يجرؤ أحد منهم أن يدفع التترى بيده أو حتى ينظر فى وجهه . «وأن إنسانًا منهم أخذ رجلاً ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التترى ، فأحضر سيفًا ، وقتله به » ثم مات جنكيز خان سنة ١٢٢٧م ، وقد بلغ الرابعة والستين .

ثم انطلق المغول فى زحفهم متجهين نحو إيران ، فصادفهم قلاع طائفة الإسماعيلية فدمروها وكذلك مدنهم مثل قلعة الموت ، ولم يصادف المغول فى إيران سوى مقاومة يسيرة من أولئك الإسماعيلية . ثم جهز هولاءكو نفسه - وقد

صار زعيم المغول - للزحف على بغداد ، وقد بدأ عمله بأن أرسل إلى المعتصم الخليفة العباسي يدعو إلى التسليم وفي نفس الوقت أرسل إلى وزيره ابن العلقمي يهدده ويمينه فحرضه على الخيانة ، وبعد التهديد حاصر هولاءكو بغداد معتمداً على ما كلف به ابن العلقمي من حيث التهاون في القيام بالتحصينات اللازمة والعمل في نشر الوقت على نشر الذعر والخوف بين الناس ، بحجة أن المغول قوم لا يقهرون ولا تصيبهم الهزيمة أبداً ، وإنه من الحكمة والعقل أن يخضع لهم الجميع ، وخلال ذلك انطلق مجانيق المغول تضرب بغداد في حصونها وقلاعها مدة أربعين يوماً حتى تسببت في إحداث فجوة كبيرة في أسوارها . وهنا لم يجد الخليفة مفرّاً من التسليم وخرج ومعه أهله ورجاله وقابل هولاءكو وسلم مدينة بغداد .

وكانت نفسية هولاءكو تنطوي على غدر أسود بالنسبة للخليفة والمدينة ، ومن ثم فإنه أمر بأن يخرج جنود الخليفة إلى خارج بغداد تحت ذريعة إحصائهم . ولم يكادوا يتجمعون خارج المدينة حتى قتلوا عن آخرهم . وفي صباح اليوم التالي جعل هولاءكو بغداد مستباحة لجنوده يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون . فانتشروا في أنحاءها يقتلون الرجال ويأسرون الأطفال ويستحيون النساء ، واستمرت هذه المذبحة قائمة مستمرة لمدة أربعة أيام بلياليها حتى غُصت خيول المغول بالغنائم والأسلاب من ذهب وفضة ونساء فضلاً عن رؤوس القتلى التي جعل منها المغول كرات يتلهون ويعبثون بها على شواطئ دجلة .

وأخيراً جاءت لحظة الخليفة المستعصم الذي كان هولاءكو قد حبسه وأهله في قفص من حديد ، فجيء به فقتل ومن بعده أهله ورجاله .

وهكذا زالت الخلافة العباسية ولكن إلى الأوان المقدور الذي تحقق بالجهاد ضد المغول والصليبيين . آنئذ ، وإلى أن أذن المؤذن بأن حي على الجهاد صار العراق الإسلامي تابعاً للمغول سنة ٦٥٦ هـ ، ١٢٥٨ م .

ولقد أصاب العالم الإسلامي كله الحزن الشديد لما أصاب بغداد وعم الأسي كل المدن والأقاليم ، ونحن نورد صورة من ذلك الأسي مجسدة في قصيدة

للساعر شمس الدين محمود الكوفي قالها في رثاء بغداد . لقد قال :
 إن كم تقرّح أدمعى أجفاني من بعد بعدكم فما أجفاني
 إنسان عيني من تناءت داركم ما راقه نظر إلى إنسان
 يا ليتني قد مت قبل فراقكم ولساعة التوديع لا أحياني
 وإلى وللأيام شتت خطبها شملى ؟ وخالني بلا خالني
 ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى
 وحياتكم ما حلها من بعدكم غير البلى والهدم والنيران
 ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ووقفت فيها وقفة الحيران
 وسألتها لكن بغير تكلم فتكلمت لكن بغير لسان
 ناديتها يا دار ما صنع الألى كانوا هم الأوطار فى الأوطان ؟
 أين الذين عهدتهم ولعزهم ذلا تخر معاهد التيجان ؟
 كانوا نجوم من افتدى فعليهم^١ يبكى الهدى وشعائر الإيمان
 قالت : غدونا لما تبدد شملهم وتبدلوا من عزهم بهوان
 كدم الفِصاد يراق أرذل موضع أبداً ويخرج من أعز مكان
 أفنتهم غير الحوادث مثلما أفنت قديماً صاحب الإيوان
 لما رأيت الدار بعد فراقهم أضحت معطلة من السكان
 ما زلت أبكيهم وأنتم وحشةً لجمالهم متهدم من الأركان
 حتى رثى لى كل من ما وجده وجدى ولا أشجانه أشجاني
 أترى تعود تجمعنا كما كنا بكل مسرة وتهانى ؟
 أن نحن نغتم الزمان ونجتى بيد الأمان قطوف كل أمان

وحان وقت الجهاد فى صد المغول :

بعد سقوط بغداد ونهايتها الأليمة الشيعة تابع هولاءكو سيره نحو الشام ، وما كاد يصل إلى مدن الموصل وحران والرها حتى أنزل بهم الضرب بسيوفه وفر الجميع أمام التتر ، وكان السيوف فى رقابهم ، ثم بعث هولاءكو برسله إلى ملوك الأيوبيين بالشام يندرهم ويوعدهم بالقضاء التام عليهم إذا لم يمهّدوا بأنفسهم الطريق لزحفه إليهم ، وذلك بالتسليم والإعلان العام عن طاعته ، ولا ريب فى أن يصيب الوجل والخوف بلاد الشام ومصر ، وفى تقدم هولاءكو مهدداً ومتوعداً استولى على حلب ثم دمشق وسائر البلاد الشامية الواقعة بينهما . وفى نفس الوقت أرسل إلى السلطان قطز ، سلطان مصر ، ببعض رجاله يهدده ويتوعده ما لم يعلن الطاعة التامة له . فما كان من قطز الخوارزمى الأصل إلا أن قتل كل من أولئك الرجال المغول انتقاماً لما أجرم به جنكيز خان فى حق الدولة الخوارزمية . ثم وقع لهولاءكو ما جعله لا يصبر على البقاء لإنجاز ما كان ينتويه إذ إن أخاه الخاقان مانجو خان قد مات فكان لزاماً عليه أن يغادر الشام لتنصيب الخاقان الجديد، وقام أبغا مكانه فى قيادة الجيوش المغولية التى كانت تحتل بلاد الشام .

أما فى مصر كان السلطان قطز قد أسرع باتخاذ كل الاستعدادات القتالية اللازمة ثم استهل جهاده بأن أرسل مجموعة من طلائع جيشه من القاهرة يقودها الأمير بيبرس البندقدارى على أن يتولى هو قيادة الجيش الرئيسى ، وتمكن بيبرس من أن يرغم الطلائع المغولية على التراجع وكان ذلك قرب غزة . وهذا يشير إلى أن الخطر المغولى قد اقترب جداً من مصر ، ثم وصل قطز إلى طلائع بيبرس . ثم قام بحركة تفاوض مع الصليبيين ليأذنوا له أن يخترق أراضيهم الساحلية حتى يكون فى مقدوره من أن يفاجئ المغول من حيث لا يتوقعون ، وكللت المفاوضات بالنجاح ، وإن كان بعض الصليبيين فضل التحالف مع المغول على التحالف مع المسلمين .

وبسرعة خاطفة وصل قطز إلى مدينة بيسان وفاجأ المغول عند عين جالوت

سنة ١٢٦٠ م .

وهكذا كانت انتصار قطز عند عين جالوت كبيراً وعظيماً بعد أن كادت الكثرة المغولية ترجح حيلة المسلمين ، وصار المغول يتقهقرون في اختلاط واضطراب إلى دمشق وحلب فلاحقتهم الفرق المسلمة حتى طردتهم من الأراضي الشامية تماماً .

ألا إن انتصار المسلمين على المغول في عين جالوت هو من الوقائع التاريخية الفاصلة سواء نظرنا إليه من ناحية مصر في العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، ذلك لأن هذا الانتصار تحقق بعد أن فشلت كل من الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن الوقوف في وجه المغول والتصدي لهم ، وعلى الجانب الآخر فقد عجزت القوة المسيحية في أن تقف أمام الزحف المغولي وهو يبسط سطوته على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية . هذا فضلاً عن معركة عين جالوت تعد الصدمة الأولى لجيوش المغول وخاناتهم الذين خافهم الناس فظنوا أنهم قوم لا يقهرون . فكانت هزيمتهم القاصمة دلالة على أنه بالإمكان إنزال الهزيمة بالباغي مهما طال الزمن .

ومما له دلالاته التاريخية أن موقعة عين جالوت كانت ذات أثر حاسم في التاريخ الأوربي نفسه ، فقد هدد المغول أوروبا بأسرها ، ولو أنهم نجحوا في زحفهم الانطلاقي لكان فيه القضاء على أوروبا ولما وجدت حضارتها التاريخ .

ماذا نقول ؟

بهذا النصر الكبير والعظيم أصبح لمصر زعامتها المرموقة في العالم الإسلامي .
وبعد :

هكذا جاءت العسكرية الإسلامية منذ فجر الإسلام :

فتحت فتوحها بالحق من أجل الحق .

ودافعت عن وجودها بالحق من أجل الحق .

وصدق الحق سبحانه حيث قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

المراجع

- ١ - جامع البيان لابن جرير الطبري .
- ٢ - مفاتيح الغيب للفخر الرازي .
- ٣ - الكشاف للزمخشري .
- ٤ - تفسير القرآن العظيم ابن كثير .
- ٥ - تفسير البيضاوي .
- ٦ - تفسير الألوسي .
- ٧ - تفسير المنار لرشيد رضا .
- ٨ - في ظلال القرآن لسيد قطب .
- ٩ - تفسير القرآن الكريم .. للشيخ محمود شلتوت .
- ١٠ - كتب الصحاح الستة .
- ١١ - المسند للإمام أحمد .
- ١٢ - رياض الصالحين للنووي .
- ١٣ - سبل السلام للصنعاني .
- ١٤ - نيل الأوطار للشوكاني .
- ١٥ - التاج الجامع للأصول .
- ١٦ - النهاية لابن الأثير .
- ١٧ - الفائق للزمخشري .
- ١٨ - سيرة ابن هشام .
- ١٩ - أسد الغابة .
- ٢٠ - الإصابة لابن سعد .
- ٢١ - حياة محمد . للدكتور محمد حسين هيكل .
- ٢٢ - المغنى لابن قدامة .
- ٢٣ - فتح القدير للشوكاني .
- ٢٤ - حاشية ابن عابدين .
- ٢٥ - إعلام الموقعين لابن القيم .
- ٢٦ - الأحكام السلطانية للماوردي .
- ٢٧ - رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .
- ٢٨ - السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف .
- ٢٩ - لسان العرب : ابن منظور .

- ٣٠ - الكامل في التاريخ ابن الأثير .
- ٣١ - بدائع الزهور في وقائع الدهور ابن إياس .
- ٣٢ - فتوح البلدان البلاذري .
- ٣٣ - المسالك والممالك - ابن خردادبة .
- ٣٤ - المقدمة ، ابن خلدون .
- ٣٥ - جامع التاريخ - رشيد الدين الهمذاني .
- ٣٦ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - السيوطي .
- ٣٧ - المختصر في أخبار البشر - أبو الفداء .
- ٣٨ - تاريخ الدول والملوك - ابن الفرات .
- ٣٩ - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس - القيرواني .
- ٤٠ - السلوك لمعرفة دول الملوك المقرئزي .
- ٤١ - الوليد بن عبد الملك د . سيدة إسماعيل الكاشف .
- ٤٢ - الوليد بن عبد الملك د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
- ٤٣ - تاريخ العالم الرسلامى (ج ١ ، ٢) د . إبراهيم أحمد العدوى .
- ٤٤ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ابن شداد .
- ٤٥ - دولة الأندلس ، ملوك الطوائف (ج ٣) محمد عبد الله عنان .
- ٤٦ - تاريخ الطبرى (ج ٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .
- ٤٧ - الهند وجيرانها ول ديورنت - ترجمة د . زكى نجيب محمود .
- ٤٨ - عصر الإيمان ، الحوب الصليبية ول ديورنت - ترجمة محمد أمين .
- ٤٩ - تاريخ الخلفاء الراشدين د . محمد محمد زيتون ، د . محمد جبر أبو سعدة .
- ٥٠ - قادة فتح السند وأفغانستان - اللواء الركن محمود شيت خطاب .
- ٥١ - قادة فتح السند وأفغانستان - اللواء الركن محمود شيت خطاب .
- ٥٢ - قادة فتح بلاد الروم - اللواء الركن محمود شيت خطاب .
- ٥٣ - تاريخ بغداد الخطيب البغدادي .
- ٥٤ - الأم « الإمام الشافعى » .
- ٥٥ - أفغانستان ، باكستان - محمود شاکر .
- ٥٦ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب المراكشى .
- ٥٧ - مروج الذهب ومعادن الجوهر - المسعودى .
- ٥٨ - المسلمون في الهند - الندوى .
- ٥٩ - لحدود الإسلامية البيزنطية د . فتحى عثمان .
- ٦٠ - المنتخب في أدب العرب (ج ٢ ، ٣) .

الفهرس

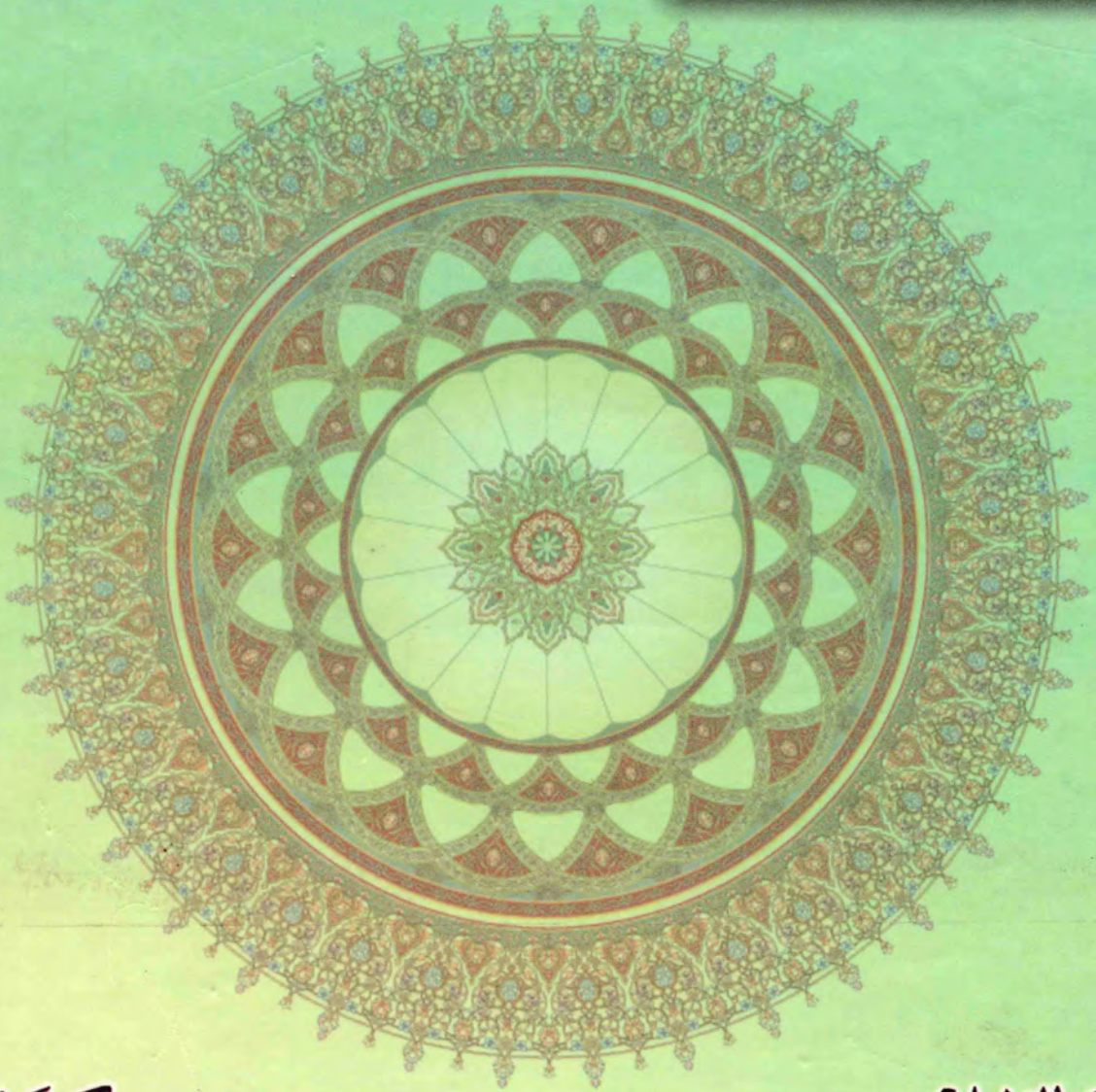
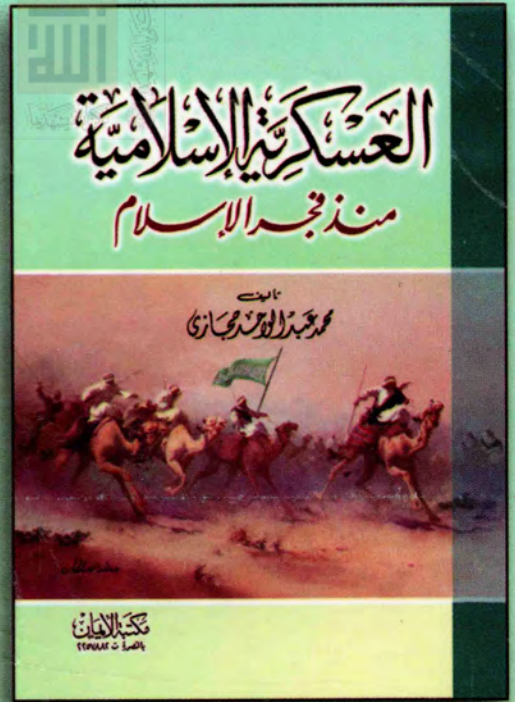
الصفحة	الموضوع
٥	الفصل الأول : الإسلام عقيدة الحياة
٣١	الجهاد في الإسلام عقيدة وشريعة
٣٣	
٣٥	على هامش العلاقة بين اللغة والمجاز
٣٧	(أ) الجهاد النفسي
٣٧	مقومات الجهاد النفسي
٤١	(ب) جهاد الحرب والقتال
٤١	١ - لا عدوان ولا إكراه
٤٤	٢ - فريضة الجهاد .. أسبابها ومقوماتها
٥٠	٣ - الجهاد بالمال والنفس
٥٧	٤ - ما يجب أن يكون عليه المجاهد
٥٨	(أ) الإيمان
٦٧	(ب) الصبر
٧٢	(ج) الإخلاص
٧٤	(د) الحب
٧٨	(هـ) الطاعة
٨٢	٥ - النصر أو الشهادة
٨٤	الشهداء أحياء عند ربهم
٨٨	الاستشهاد وتكفير الذنوب
٨٩	جهاد النساء
٩٥	الفصل الثالث : سياسة الجهاد
٩٧	(أ) العبقورية العسكرية للجهاد الإسلامي
٩٧	العسكرية فطرة عربية
١٠٣	من القيادات العليا للعسكرية الإسلامية
١١٠	التحركات الميدانية
١١٨	من مقومات سياسة الجهاد
١١٨	(أ) المشاورة
١٢١	(ب) الأسرار العسكرية
١٢٤	(ج) الاستعانة بغير المسلمين
١٢٧	(د) الخيلاء في الحرب
١٢٨	من آداب الجهاد
١٣٢	الوفاء بالعهود والمواثيق
١٣٧	الفصل الرابع : غزوات الرسول ﷺ
١٣٩	تمهيد
١٤٤	الغزوات

١٤٦	غزوة بدر
١٦١	مرحلة ما بين بدر وأحد
١٦٨	غزوة أحد
١٨٨	غزوة الخندق
١٩٨	غزوتنا بنى لحيان وذى قرد
١٩٩	غزوة بنى المصطلق
٢٠٠	النهاية الأخيرة لليهود (فتح خيبر)
٢٠٤	غزوة مؤتة
٢٠٧	فتح مكة
٢٠٧	فتح هوازن (٨ هـ)
٢١٠	حصار الطائف
٢١١	غزوة تبوك
٢١٥	الفصل الخامس : حروب الردة
٢١٧	أسباب حروب الردة
٢٢٠	التهيؤ لحروب الردة
٢٢٢	القوات تتحرك لقتال المرتدين
٢٢٧	الفصل السادس : الفتوحات الإسلامية
٢٢٩	١ - الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين وأمراء المؤمنين
٢٢٩	فتح العراق وفارس والشام
٢٣٦	عودة إلى العراق وفارس
٢٣٧	معركة الجسر
٢٣٨	معركة البويب
٢٤٠	معركة القادسية
٢٤٣	فتح المدائن
٢٤٥	فتح نهلوند أو فتح الفتوح
٢٤٧	فتح الشام
٢٥١	فتح مصر
٢٥٤	الفتوح الإسلامية في عهد عثمان بن عفان
٢٥٦	أول الفتوحات البحرية
٢٥٩	بداية الغزو
٢٦٦	الحمالات البحرية على القسطنطينية
٢٦٨	حرب السنوات السبع
٢٧٠	الحصار الثالث
٢٧٧	فتوحات ما وراء النهر « التركستان »
٢٨٧	٢ - فتوحات الميدان الشرقي
٢٧٨	فتح الهند
٢٩٩	فتح أفغانستان

الصفحة	الموضوع
٣٠٧	٣ - فتح بلاد المغرب
٣١٥	طبيعة الأرض وتأسيس القيروان
٣١٨	نحو قيادة جديدة وفتوح جديدة
٣٢١	الفتح الإسلامي في شرق بلاد المغرب
٣٢٥	الفتح ينشط بتأمين الثغور البحرية
٣٢٨	تحرير إقليم الزاب
٣٣٤	امتداد الفتح إلى المغرب الأقصى
٣٣٩	فتح الأندلس
٣٤٥	فتوحات وسط أوروبا
٣٤٧	الفتوح العثمانية في آسيا الصغرى وأوروبا
٣٥٠	نكبة الدولة العثمانية
٣٥١	فتح القسطنطينية
٣٥٤	هيبة الإسلام وحماية الدولة
٣٦١	الفصل السابع محنة الحضارة الإسلامية : بين الصليبية والمغولية
٣٦٣	(أ) الحروب الصليبية
٣٦٩	مراحل الحروب الصليبية
٣٦٩	النداء الصليبي للحرب
٣٧٠	الإعداد الصليبي للحرب الصليبية
٣٧٤	وقامت إمارات لاتينية في أرض الإسلام
٣٧٦	الاستيلاء على بيت المقدس والإمارات الصليبية
٣٧٨	العلاقة بين بيت المقدس والإمارات الصليبية
٣٧٩	(ب) جهاد المسلمين ضد الصليبيين
٣٧٩	اليقظة الإسلامية
٣٨١	المسلمون جهة واحدة أمام الصليبية
٣٨١	١ - صلاح الدين الأيوبي
٣٨٨	٢ - الجهاد بعد صلاح الدين الأيوبي
٣٩٠	ما بعد هزيمة الصليبيين في دمياط
٣٩١	ملك فرنسا يجرب حظه في مصر
٣٩٢	٣ - الدور النهائي من الجهاد ضد الصليبيين
٣٩٢	(أ) الظاهر بيبرس
٣٩٩	حروب بيبرس مع المغول
٤٠٢	بين بيبرس وسلاجقة الروم
٤٠٣	فتوح بيبرس في النوبة
٤٠٤	السلطان قلاوون ونهاية الحروب الصليبية
٤٠٦	٤ - الحرب ضد المغول
٤١٠	وكان وقت الجهاد في صد المغول
٤١٢	المراجع

وقف الأمير غازي للفكر القرآني

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT



مكتبة حمزة الوائلي
باصرة ت ٢٥١١٤٣٧

مكتبة الأيمان
باصرة ت ٢٢٥٧٨٨٢